جوزيف أندروس



المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومي للترجمة

1041

تأليف: هنرى فيلدنج

ترجمة: إيناس إبراهيم مروان

مراجعة وتقديم: سلوى حامد مبروك

جوزيف أندروس
(رواية)

المشروع القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: ١٠٤١
- جوزيف أندروس
- هنرى فيلدنج
- إيناس إبراهيم مروان
- سلوى حامد مبروك
- الطبعة الأولى ٢٠٠٨

هذه ترجمة رواية:
The History of Adventures
Of Joseph Andrews
and His Friend Mr. Abraham Adams
by: Henry Fielding

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. , Opera House, El Gezira, Cairo
Tel.: 273545424 – 27354526 **Fax**: 27354554

المشروع القومى للترجمة

جوزيف أندروس

(رواية)

تأليف : هنرى فيلدنج

ترجمة : إيناس إبراهيم مروان

مراجعة وتقديم : سلوى حامد مبروك

المجلس الأعلى للثقافة

٢٠٠٨

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

فيلدنج ، هنرى

جوزيف أندروس (رواية)/ تأليف: هنرى فيلدنج، ترجمة: إيناس إبراهيم مروان؛ مراجعة وتقديم: سلوى حامد مبروك ،

ط ١ – القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٧

٤٦٨ ص ، ٢٤ سم المشروع القومى للترجمة

١ – القصص الإنجليزية

أ - مروان ، إيناس إبراهيم (مترجمة)

ب - مبروك ، سلوى حامد (مراجعة ومقدمة)

جـ - العنوان ٨٢٣

رقم الإيداع ٤٢٦١ / ٢٠٠٨

الترقيم الدولى : I.S.B.N - 977- 437 - 639 - 0

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

تقديم المراجعة
[دراسة تحليلية]

نوعية الرواية وفكرتها الأساسية:

وصف فيلدنج الرواية بأنها "رواية رومانسية كوميدية" في شكل قصيدة ملحمية نثرية كوميدية، ذلك لأن غرض فيلدنج الرئيسي هو كتابة رواية مختلفة ومغايرة لكل الروايات الرومانسية التي كانت سائدة في ذلك العصر؛ فقد كان يرى أن نوعية الروايات الرومانسية المنتشرة في ذلك العصر زائفة، ولا تنطوي على أية واقعية. لذلك تبنى فيلدنج شكلاً جديدًا من أشكال الرواية، وهو ما يسمى Picaresque الذي ابتدعه سيرفانتس Cervantes الروائي الإسباني المعروف في القرن السابع عشر. يتميز هذا النوع من الروايات بأنه لا يُلزم المؤلف حبكةً فيها تسلسل منتظم، لكنه شكل روائي يروي قصة رحلة أو مغامرة يقوم بها البطل، يمر من خلالها بمغامرات متعددة، ويقابل نوعيات مختلفة وأنماطًا متعددة من الشخصيات والسلوك ، لكن مهارة فيلدنج تكمن في أنه لم يقلد هذا الشكل الروائي تقليدا مباشرا، إذ تبنى المميزات التي تتناسب مع نوعية الرواية التي أراد تقديمها. وظهرت أيضا مهارة فيلدنج في رسمه لشخصية القس أدمس؛ فلم يظهر كنسخة من شخصية دون كيشوت[1] لكنه نجح في رسم شخصية إنجليزية صرف، تتمتع بروح دون كيشوت النبيلة. كما يذكر الناقد روبرت دادن في كتابه هنري فيلدنج حياته وأعماله وزمنه (١٩٣٤)[2] "إن التشابه بين كيشوت وأدمس لا نستطيع إلا أن نلاحظه، فكلاهما سيد مسيحي متشدد متمسك بالشرف والمثل التي لا يمكن للعامة

---

(١) رواية سير فانتس "دون كيشوت".

(٢) Robert Dudden, Henry Feilding: His life, works and Age. (1934)

من شعوبهم التمسك بها بسهولة، ليس هذا فقط بل سنلاحظ أيضا أن أدمس يعيش فى عالم الفلاسفة والشعراء القدماء؛ مما يجعلهم موضع سخرية الآخرين ، كما أن ذلك يضعف من مقدرتهم على التعامل مع الشخصيات المعاصرة فى مجتمعه مما يعرضهم لمواقف محرجة لا حصر لها". تتميز كلتا الشخصيتين بحبهما للخير ومساعدتها للفقراء والمحتاجين، وكلتاهما على استعداد لخوض المعارك لمناصرة الحق وأصحابه، على الرغم من المواقف المحرجة التى يتعرضان لها والأذى الذى يلحق بهما بسبب هذه المعارك، فإنهما لا يتأثران بذلك ويحتفظان بكرامتهما، كما أن احترامنا لهما وتعاطفنا معهما يزداد. أما إذا نظرنا إلى التفاصيل الدقيقة فسنجد أن كلا منهما يبلغ من العمر حوالى خمسين عاما، وأن مظهرهما الخارجى فيه بعض التشابه. أهم من ذلك نظرة كل منهما المتشابهة للحياة: دون كيشوت ينظر للحياة وللعالم من حوله نظرة رومانسية وخيالية، تتسم بالنبل والشهامة. أما القس أدمس فيقيم الحياة من خلال تعليمه وثقافته الكلاسيكية؛ فقد تأثر تأثرًا شديدًا بالشعراء والفلاسفة الإغريق. دون كيشوت يبدو مجنونا فى بعض الأحيان، والقس أدمس شارد الذهن ضعيف الذاكرة، ويتميز ببعض العادات الغريبة، مما يجعل كلا منهما موضع سخرية الآخرين. دون كيشوت دائم التفاخر بقدرته على أنه فارس مغوار، والقس أدمس دائم التفاخر بعلمه ومعرفته، كما أنه يهوى إلقاء المواعظ الدينية فى جميع المواقف.

هكذا نجد أن الصفات الأساسية فى كلتا الشخصيتين متشابهة، خاصة مثالية كل منهما وحرصه على الحفاظ على المبادئ والمثل. وذلك لا يمنع وجود عدد من الاختلافات بين الشخصيتين، وأهم اختلاف – وهو اختلاف أساسى – بين الشخصيتين والروايتين، هو أن دون كيشوت يعيش فى عالم خيالى يفصله عن الواقعية تمامًا، بينما نجد أن القس أدمس – على الرغم من مثاليته – يعيش فى عالم معاصر وواقعى، فقد استخدمه فيلدنج وسيلة لنقد عيوب مجتمعه، وذلك من خلال الأسلوب الذى يتعامل به المجتمع، مما يظهر التباين بين مبادئ القس أدمس ومثاليته والتكبر والنفاق اللذين يتميز بهما المجتمع، وذلك فى إطار كوميدى لطيف.

بالإضافة إلى تأثر فيلدنج بسيرفانتس فى الفكرة العامة للبطل، يظهر أيضا تأثره بالبناء العام للرواية. فقد قسم فيلدنج – كما فعل فانتس – روايته إلى أبواب وفصول، واختار لكل فصل عنوانًا مناسبًا. كما أن الفكرة الأساسية للملحمة التى تقع معظم أحداثها على الطريق خلال رحلة ما موجودة فى رواية جوزيف أندروس، حيث إن معظم الأحداث تقع خلال رحلة القس أدمس وجوزيف حينما كانا عائدين من المدينة إلى الريف، حيث يمران بمغامرات غريبة كثيرة.

هكذا نجد أن العديد من المشاهد الكوميدية الهزلية تشبه مغامرات دون كيشوت، كما يقول دادن فى كتابه:" بالفعل لا يوجد شيء أوضح من فيلدنج أثناء كتابته لرواية جوزيف أندروس بأسلوب المؤلف الإسبانى العظيم، لذا فإن اختيار الكتاب المعاصرين له كسير فانتس الإنجليزى له أسباب واضحة."

رغم تأثر فيلدنج الواضح برواية سيرفانتس "دون كيشوت" فإنه قد تأثر أيضا بعدد من كتاب الواقعية الفرنسية فى ذلك العصر، مثل سكرون Scaron، ولوساج Le Sage وماريفيو Marivaux. أولا: تأثر فيلدنج بأسلوب سكرون Scaron الواقعى والدقيق فى وصف المواقف المختلفة، كما أنه تأثر بإجادته للأسلوب الملحمى الهزلى الذى أضيف إلى الكوميديا فى المعارك على الأمور التافهة التى تم سردها بأسلوب ولغة أشبه بأسلوب الملاحم القديمة، كما تأثر بأسلوب لوساج Le Sage الواقعى فى رسم الشخصيات المختلفة، وروح وروع الدعابة التى تخلف السخرية التى يستفيد منها لوساج فى التعليق على السلوك الأنانى، والحماقات التى يرتكبها الناس فى حياتهم اليومية. هناك تأثر آخر لا يمكن تجاهله؛ ألا وهو تأثير الكاتب المسرحى العظيم موليير Moliere.

فقد ذكر فيلدنج فى أكثر من مناسبة أنه معجب بهذا الكاتب، خاصة أسلوبه فى النقد اللاذع كحب التظاهر، وقد ظهر ذلك بوضوح فى روايات فيلدنج، خاصة هذه الرواية، فقد كان فيلدنج على قناعة تامة بأن استخدام السخرية وسيلة للنقد أفضل عند نقد السلوكيات، كما كان يرى أن نقد سلوكيات عامة أفضل من انتقاد أشخاص محددين، بحيث يصبح النقد مرآة للسلوك العام للمجتمع، فيستطيع أى

شخص أن يرى من خلاله عيوب سلوكه، دون أن يكون هناك هجوم على أشخاص بأعينهم. كما استخدم فيلدنج أحد الأساليب التى ابتدعها موليير؛ حيث كان يفاجئ ويضحك القارئ من خلال إظهار التناقض الواضح بين السلوك الفطرى والسلوك الفعلى للشخصية. على سبيل المثال جعل موليير - فى أحد أعماله - أحد أساتذة الفلسفة ينتقد التسرعَ فى إصدار الأحكام على الشخصيات والغضبَ، وفى اللحظة التالية نجده يثور ثورة عارمة بنعت أحد الشخصيات بأسوأ الصفات.

استخدم فيلدنج الأسلوب نفسه لإثارة الضحك والسخرية، حيث جعل القس أدمس يلقى شبه محاضرة عن أهمية النقاش المتحضر، الذى لا يتطور إلى الغضب أو العراك، ثم نجده فى اللحظة التالية يغضب غضبًا شديدًا أثناء جدال عنيف بينه وبين إحدى الشخصيات فى الرواية (الباب الثالث - الفصل الثانى). أيضا فى الفصل الثامن من الباب الثالث تحدث أدمس عن المال بمنتهى الاحتقار واللامبالاة، ثم نجده فى المشهد التالى يقع فى مأزق محرج عندما يكتشف أنه مفلس ولا يستطيع دفع أجرة النُزل الذى كان يقيم به.

الشخصيات الرئيسية فى الرواية

القس أدمس:

هو محور الاهتمام فى الرواية، على الرغم من أن الرواية سُمِّيت جوزيف أندروس فإن الاهتمام الرئيسى ينصب على شخصية القس أدمس. وإذا كانت شخصية جوزيف هى الرابط بين الأحداث فإن شخصية القس أدمس تجذب اهتمامنا بعفويته وشرود ذهنه. وصف الكاتب أرثر ل.كوك Arthur L.Cooke شخصية أدمس قائلاً: "إننا يمكن أن نسميه بطل الكوميديا فى الرواية، بل فى معظم الأحيان هو البطل المطلق للرواية".(٣)

---

(٣) Arthur L.cooke,"Henry Felding and the writers of Heroic Romance LXII.1947. 984-994

علق فيلدنج على شخصية أدمس قائلا إنه "لا يمكن إيجاد مثيل لـه فـى أى كتاب آخر". بالفعل يعتبر القس أدمس شخصية مبتكرة لم نقرأ عن مثلهـا قبـل أن يصورها فيلدنج. وكما ذكرنا من قبل فقد اتخذ فيلدنج من شخـصية دون كيـشوت مثلاً يحتذى به، لكن فى الوقت نفسه كان يفكر فى أحد أصدقائه المقـربين، وكـان يعمل قسًّا فى إحدى الأبرشيات فى المنطقة التى كان فيلدنج يعيش فيها. لكـن فـى الواقع لم يقلد فيلدنج أيًّا من هاتين الشخصيتين، لكنه أكمل خيالـه علـى كلتيهمـا؛ ليخرج بشخصية جديدة فيها صفات الدارس الذى يميل إلى الشرود وعدم التركيـز وفى الوقت نفسه يتميز بالبساطة والطيبة. لذلك جذبت شخـصية أدمـس القـارئ وأصبحت محور الرواية.

وصف فيلدنج مظهر أدمس الخارجى بأسلوب مثير للاهتمام والضحك فـى آن، فوجهه كوميدى، وله ذقن ووجنتان مليئتان بالتجاعيد، ويداه قويتان، ورجـلاه طويلتان لدرجة أنهما تكادان تلمسان الأرض وهو يمتطى حصانه.

يرتدى غِفَارَةً[٤] ممزقة فوقها معطف قصير وممزق، وعلى رأسـه يـضع باروكة صغيرة يربطها بمنديل أحمر أثناء نومه، ويرتدى عند خروجه قبعة قديمـة مهلهلة، ويمسك فى يده عصا غليظة. هكذا نجد أن مظهره ينم عن فقر لا يتناسـب مع وضعه بوصفه قس أبرشية. لذا لا يمكن أن نلوم القس تروليبر، لأنه اعتقـد أن أدمس بائع خنازير. يتميز أدمس أيضا ببعض العادات الوفية؛ فعنـدما يحـزن أو يتضايق يصدر أصواتًا غريبة ومزعجة، أو يطرق أصابعه عندما ينفعـل. وعلـى الرغم من أن أدمس يبلغ من العمر خمسين عامًا فإنه يتمتع بـصحة وقـوة بدنيـة تناسب شابًّا، وشهيته لا حد لها. وتظهر قوته فى قدرتـه علـى المـشى الـسريع لمسافات طويلة، كما أنه يعرف كيف يستخدم قبضتيه القويتين للدفاع عـن نفـسه وعن أصدقائه.

---

(٤) رداء رجل الدين العادى.

الرواية مليئة بالمشاهد التي تظهر فيها قوته البدنية وقدرته على مواجهة مهاجميه وصد هجومهم.

أما عن عمله رجل دين، فهو مجرد راعى الأبرشية، يعيش فى أبرشية السير توماس بوبى لكنه مسئول عن ثلاث كنائس صغيرة أخرى، ويعظ فى الكنائس الأربع كل يوم أحد، وهو قس ضميره حى يعتبر أبناء الأبرشية كأبنائه؛ يحبهم، ويعتز بهم، لكنه يصر على أن يشاوروه فى كل الأمور المهمة التى تخصهم وأن يلتزموا بنصائحه.

أدمس قس غير متشدد، ولكنه يقيم قداسًا فى كل مناسبة دينية مهمة وغير مهمة، ويعتبر عمله أمرًا مقدسًا، ويتشدد فى الالتزام بالطقوس الكنائسية، ويبلغ أجر أدمس ثلاثة وعشرين جنيهًا سنويا، وهو دخل لا يكفيه، لأنه متزوج وعنده ستة أطفال؛ لذا فهو يعانى من ضائقة مالية لا تنتهى.

يتمتع أدمس بعلم ومعرفة واسعين، مع أن مظهره لا ينم عن ذلك؛ فقد تلقى تعليمه فى جامعة كامبرج، ويجيد عددًا من اللغات خاصة اللغة اليونانية واللاتينية. يستطيع أن يلقى محاضرات عن هومر باقتدار كأى أستاذ جامعى، كما أنه يقتبس من أشعار فيرجيل Vergil وهوراس Horce ليعبر عن مشاعره فى المواقف المختلفة. أما كاتبه المفضل فهو أخيلس Aeschylus، لذا فقد كتب بخط يده جميع مسرحياته، وظل يحملها معه لمدة ثلاثين عاما. هذا العلم الغزير يجعل أدمس ينفصل عن الواقع المحيط، مما يذكرنا فى بعض الأحيان بدون كيشوت الذى يعيش فى عصر فروسية وهمية. نجد أدمس يتميز ببراءة تمنعه من فهم الأساليب الملتوية التى يتخذها العالم من حوله، كما أنه حسن النية يقع ضحية الأشخاص الذين يستغلون سذاجته وبراءته. لذا فإن رحلته من وإلى المدينة جعلته يرى أشياء لم يرها من قبل؛ فنراه مصدومًا لما رآه من قوة ونفاق وخداع وكراهية. لذا نجده يقول فى الباب الرابع " إن ما أراه يناسب الملحدين ".

يتميز أدمس أيضا بشرود الذهن، وعدم القدرة على التركيز؛ ويرجع ذلك إلى اهتمامه الشديد بالقراءة، والتدبر فى كل ما كتبه الإغريق القدماء؛ مما جعله ينفصل عن كل الحقائق المتصلة بالواقع من حوله. أما شرود ذهنه فيبدو جليًّا منذ بداية الرواية؛ حيث إنه قرر الرحيل إلى لندن ليبيع خطب الوعظ التى كتبها، لكنه يكتشف فى منتصف الطريق أنه نسى أن يحضرها معه، بالإضافة إلى أن قدرته على أن يضل طريقه وينسى إلى أين كان يتجه فى الأصل فلا حدَّ لها. على الرغم من ذلك كله فإن القس أدمس يتّسم ببعض الغرور لعدة أسباب:

أولها: أنه يعتقد أن فهمه للنفس البشرية والحياة الإنسانية عامة يفوق فهم أى شخص آخر، حتى لو كانت خبرته فى الحياة أعمق من خبرة أدمس. كما أنه يصر على أن معرفة الناس تتأثر من خلال الكتب خاصة كتابات أفلاطون Plato وسينكا Seneca.

ثانيها: يبالغ أدمس فى افتخاره بخطب الوعظ التى يكتبها ويلقيها، كما أنه يطمع فى أن يبيعها مقابل مبلغ كبير من المال، ومما يثير السخرية أن إحدى تلك الخطب التى يفتخر بها تتناول الفخر والغرور باعتبارهما من العيوب الإنسانية. يتميز أدمس أيضا بغروره المبالغ فيه ونعته معلمًا فقد ذكر فى سياق الرواية أنه يعتقد أن وظيفة المعلم من أعظم الوظائف، وأنه شخصيا أحد أعظم المعلمين على وجه الأرض.

على الرغم من نقاط ضعف القس أدمس، فإنه يتميز بشخصية نبيلة. فى الواقع يمكن وصف شخصيته بأنها تتسم بنبل وشهامة انقرضت منذ زمن بعيد. لا يتردد أدمس فى مساعدة أى شخص فى مأزق، ولا يكترث بما يمكن أن يحدث له، كما أنه يسعد لسعادة الآخرين ويحزن لحزنهم؛ فعلى سبيل المثال فى الفصل الثامن من الباب الثالث نراه مستعدا لإعطاء شخص غريب آخر قرش يملكه، ويشعر بإحباط حقيقى عندما يكتشف أنه مفلس؛ فنجده يقول لهذا الشخص: "سيدى لو كنت أملك أكبر مبلغ من المال فى هذا العالم، حقا لو كان معى عشرة جنيهات لكنت أعطيتها لك فأنت أخ مسيحى فى ورطة " هنا لا نملك إلا أن نؤمن بصدقه ونبله.

بالإضافة إلى نبله وكرمه جد أن أدمس شخصية غير قابلة للإفساد؛ فهو يؤكد مرارًا وتكرارًا أنه على الرغم من فقره فهو شريف، ويصلح لأن يتولى أعلى المناصب الكنسية. كما أنه على استعداد للقيام بأى شىء من أجل الخير، على سبيل المثال في الباب الرابع أمرته الليدى بوبى بأن يعلن موافقة الأبرشية على زواج جوزيف وفانى، وهددته بأنها ستطرده من الأبرشية إذا عصى أوامرها، فكان رده أوضح دليل على حرصه على الحق والفضيلة؛ فقد رد قائلاً:" سيدتى أنا لا أفهم ما تعنين بالسيدة والخادم فأنا أخدم الرب الذى لن يطردنى أبدًا لأنى أؤدى عملى وأنا واثق أن وليى سيرزقنى إذا احتجت".

أهم من ذلك كله أدمس لا يتغير؛ فهو يظل محتفظًا بطبيعته وبراءته وحبه للخير؛ فلا يتأثر بكل ما يراه من أشياء. قد نضحك بسبب مظهره وبعض سلوكياته الغريبة، إلا أنه لا يفقد احترامنا أبدًا، حتى فى أكثر المواقف حرجًا. كما يقول دادن Duddeen: "يخرج أدمس من مغامراته الصعبة وتجاربه القاسية محتفظا بطبيعته وأمانته وكرامته".

شخصية جوزيف أندروس:

تحتل شخصية جوزيف عنوان الرواية، وتعتبر شخصيته الرابط الذى يوحد الحبكة الدرامية. فى بداية الرواية نتعرف على جوزيف على أنه ابن جاما وحامى أندروس وأخو شخصية باميلا Pamiela فى رواية ريتشارد سون Richardson التى تحمل الاسم نفسه، ولكن مع نهاية الرواية نكتشف أنه فى الحقيقة ابن السيد ويلسون، وكان الغجر قد خطفوه عندما كان عمره عشر سنوات. عندما بلغ السابعة عشرة صار شابًا وسيمًا قويًا جذابًا؛ لدرجة أن الليدى بوبى انجذبت إليه ورغبت فيه؛ فجعلته خادمها الخاص. يتصف جوزيف – مثل أدمس – بالنبل والفضيلة والشجاعة والتقوى. اهتم به القس أدمس بسبب صوته الجميل الذى يظهر عندما يغنى الترانيم الدينية فى الكنيسة. تتغير حياة جوزيف تمامًا عندما يذهب إلى لندن

مع الليدى بوبى، حيث يصفف شعره ويرتدى ملابس وفقًا لأحدث الأذواق. ينغمس جوزيف فى حياة اللهو والمتعة، إلا أن أخلاقياته الأساسية لا تتغير. فلا يوجد شيء يغريه على أن يغامر بشرب الخمر أو أن يرتكب أيًا من الرذائل التى تزخر الحياة فى لندن بها، وبالتالى تفشل كل إغراءات وتهديدات الليدى بوبى فى أن تجعله يستسلم لرغباتها.

يظل جوزيف الشخصية الرئيسية فى الرواية حتى نهاية الباب الأول. ومع الباب الثانى وظهور شخصية القس أدمس، يصبح هو محور اهتمامنا، خاصة أن اهتمام فيلدنج اتجه إلى نقد العيوب الإنسانية وإظهار حقيقة المجتمع من خلال رحلة القس أدمس ومغامراته، ليصبح جوزيف الشخصية الثانية فى الرواية، لكننا نشعر بوجوده من خلال مغامراته مع القس أدمس؛ حيث يتعلم الكثير عن الطبيعة الإنسانية، بحيث يصبح شخصا آخر عندما يصل إلى مقر الليدى بوبى فى الريف، فهو يتطور مع تطور أحداث الرواية؛ مثلا فى الفصل الخامس من الباب الثالث يعبر عن آرائه الشخصية بقوة فى المناقشة التى دارت بينه وبين أدمس حول مزايا التعليم الخاص والعام، ويظهر من حديثه أنه مثقف وعلى وعى بما يجرى من حوله. أيضا بعد اختطاف حبيبته فانى يرفض الاستماع إلى فلسفة أدمس، ويعبر عن رأيه الخاص مستعينا ببعض العبارات من مسرحية ماكبث Macbeth.

فى الباب الأخير يظهر نضجه وقوة شخصيته فى قدرته على أن يقاوم ضغوط باميلا أخته وزوجها، كما أنه يتحدى الليدى بوبى مرة أخرى، ويكلم السيد ديدابر عندما يحاول ملاطفة فانى. بالإضافة إلى ذلك يُظهر حديثُه فى نهاية الرواية نضجَه وتطور شخصيته وتقييمه الصحيح للأمور. على الرغم من ذلك فإن المساحة التى يأخذها جوزيف من أحداث الرواية لا تتناسب مع أهميته باعتباره رابطا للحبكة الدرامية للرواية.هناك عدد من الشخصيات التى قدمها فيلدنج أمثلة على النفاق والكذب والأنانية والخداع التى تظهر فى المجتمع مثل شخصية الليدى بوبى والسيدة سيلبسلوب والسيد دابدابر وآخرين سيتم الإشارة إليهم فى هذا التحليل.

رواية جوزيف أندروس ملحمة هزلية نثرية:

أراد فيلدنج أن يصنف روايته على أنها ملحمة هزلية نثرية؛ فقد كان يرى أنها تعتبر نوعًا جديدًا من أنواع الأدب الروائى، لذا فقد كان مهتمًا باستكشاف إمكانياته. فى مقدمة الرواية حاول فيلدنج تحديد الفارق بين الرواية الرومانسية الجادة والرواية الرومانسية الكوميدية والملحمة الهزلية النثرية(٥)، فقد قال:

"الرواية الرومانسية الكوميدية مثل القصيدة الملحمية الكوميدية لكنها نثرية، وتختلف الكوميديا عنها مثل اختلاف الملحمة الجادة التراجيديا، فأحداثها أطول وأشمل، وتتضمن دائرة واسعة من الأحداث، وتقدم أنماطًا متعددة من الشخصيات، كما تختلف عن الروايات الرومانسية الجادة فى قصتها وأحداثها. ففى الأولى تكون جادة ورزينة، أما فى الثانية فهى خفيفة ومضحكة، وتختلف فى شخصياتها من خلال تقديم شخصيات ذوات منزلة اجتماعية متدنية؛ وبالتالى يكون سلوكها منحطًا، بينما تقدم الروايات الرومانسية الجادة شخصيات ذوات منزلة اجتماعية عالية يتميز سلوكها بالسمو والجدية. أخيرًا تقدم الملحمة الهزلية النثرية لغة وأحاسيس مضحكة، أما الأخرى فتسمو بالمشاعر واللغة.

هكذا يمكننا تحديد خصائص الملحمة الهزلية النثرية، فهى فى الأساس تقدم شخصيات متعددة ترتبط من خلال أحداث متشابكة ومترابطة. الروح العامة للملحمة الهزلية النثرية يجب أن تكون خفيفة وكوميدية وساخرة تتراوح فى حدتها تبعا للمواقف المختلفة فى الرواية.

تقع أحداث الرواية فى أماكن متفرقة؛ حيث إنها ملحمة، فمعظم أحداث الرواية تقع على طريق سفر، وهى هزلية، لأنها واقعية. على الرغم من أن الروح العامة للرواية خفيفة وكوميدية فإنها تتسم بجدية أخلاقية عالية، تشبه الجدية فى الملاحم الجادة. هكذا تراءى لفيلدنج أن يوجد شكلاً جديدًا من أشكال الأدب الروائى.

---

(٥) جوزيف أندروس، ٩٨.

إذا ما تناولنا الرواية، سنجد أن كل ما ذكره فيلدنج فـــى تعريفــه للملحمـــة الهزلية النثرية ينطبق على رواية جوزيف أندروس؛ فهى تقدم عـــددًا كبيـــرًا مـــن الشخصيات التى نتعرف عليها من خلال أحداث متداخلة ومتـــشابكة علـــى نطـــاق ملحمى (أوسع من نطاق الرواية المعتادة)؛ لذا فإن أحداث الرواية تنتقل من الريف إلى المدينة لتعود مرة ثانية إلى الريف، وذلك من خـــلال سلـــسلة مـــن الأحـــداث المتشابكة والمختلفة فى آنٍ. ومع ذلك لا يقدم فيلدنج صورة عامة للحياة سواء فـــى المدينة أو فى الريف، لكن تنحصر الأحداث فى مغامرات مجموعة من الأشخاص سواء فى المدينة أو فى الريف من خلالهم نتعرف على أخلاقيات الأشـــخاص فـــى تلك الأماكن.

فى كتابه **نظرية هنرى فيلدنج عن الملحمـــة الهزليـــة النثريـــة**(٦) قـــارن ى.م.ثورنبى Thornby بين حبكة الإليـــاذة والأوديـــسة The Iliad and Odessey وحبكة جوزيف أندروس، فقال: إن حبكة الأوديسة بكل بساطة تروى قصة رجـــل أغضب الإلهة Poseidon فواجه صعابًا جمة حتى تمكن من العودة إلى وطنه.

نجد أن الرواية متشابهة معها إلى حد كبير؛ حيث إنها تروى قـــصة رجـــل أغضب السيدة الأرستقراطية التى يعمل لديها؛ فواجه مشاكل عديدة جعلته يحـــاول العودة إلى قريته، لكنه يلقى مصاعب كثيرة فى طريقه، وعندما يصل أخيرًا إلـــى قريته يجد السيدة نفسها تستغل نفوذها ضده.

حاول فيلدنج من خلال عدة أساليب أن يتبع فى روايته أسس بناء الملحمـــة. مثال ذلك: معركة القس أدمس مع كلاب الصيد، فقـــد كـــان إطارهـــا الخـــارجى وأسلوب الوصف فيها أسلوبا ملحميًّا عظيمًا وجادًّا فى نفـــس الوقـــت أثـــار ذلـــك الضحك، لأن الموضوع نفسه هزلى، كما أن محاولة القس أدمس الهـــروب أثنـــاء الصراع يضعها فيلدنج على أنها دليل على شجاعته وإقدامه.

---

(٦) E.M Thurnbury , Henry Fielding's theory of Comic Prose Epic (1932)

هكذا استخدم فيلدنج أسلوب هومر Homer وفيرجيل Vergil ووصف المعادلة التي مر بها خلال رحلته. وقد نجح في استخدام البناء الملحمي بأسلوب رائع يخدم أهدافه في إيجاد الشكل الجديد الذي أطلق عليه اسم الملحمة الهزلية الكوميدية.

أخيرًا استخدم فيلدنج فكرة كشف الحقيقة في نهاية الرواية، وهي فكرة شرحها أرسطو Aristotle، واهتم بها أثناء وصفه لأسس كتابة الملحمة في المشهد الذي ينكشف فيه اللغز المرتبط بحقيقة والدي جوزيف وفاني. استخدم فيلدنج فكرة الاكتشاف التي تغير مجرى الأحداث والتي استعارها من أسلوب الملحمة، كما أن الطريقة التي تم من خلالها كشف حقيقة نسب جوزيف ليتم التأكد من أنه ابن السيد ويلسون (اكتشاف علامة الفراولة على صدره) ترجع إلى أصول إغريقية. ويرجع نجاح فيلدنج إلى أنه استطاع الاستفادة من خصائص الملحمة؛ بحيث إنها أصبحت الأسلوب الذي ابتدعه ليقدم شكلاً جديدًا ومنفردًا من أشكال الرواية يقدم لأول مرة في ذلك العصر.

السخرية في الملحمة الكوميدية النثرية:

اهتم فيلدنج في هذا العمل بالجانب الساخر والمضحك في آن العصر. فقد ذكر في مقدمة الرواية أن المصدر الوحيد للسخرية والفكاهة هو إظهار التكلف والتظاهر، ويرجع هذا التكلف إلى سببين هما الغرور والنفاق. الأول: يجعل الشخصية الزائفة في محاولات مستمرة لجذب الانتباه والإعجاب. والثاني: يحاول إخفاء عيوبه من خلال التظاهر بالعكس. كما ذكر فيلدنج أيضا أن إظهار تلك الرذائل يدهش القارئ ويسعده في الوقت نفسه؛ مما يثير السخرية والضحك، ويحقق غرض فيلدنج في نقد المجتمع بأسلوب غير مباشر. ينتهي فيلدنج أيضا إلى هذه الفكرة قائلاً: إن سوء الحظ والإعاقة ليسا من المصادر المناسبة للسخرية، أو لإثارة الضحك، فلا يمكن أن يثير متسول مشلول ضحكنا وسخريتنا، لكن لو رأيناه يترجل من عربة فاخرة؛ فقد يثير هذا ضحكنا (٧).

---

(٧) المقدمة، ٧٣.

تُظهر الرواية الغرور والتفاخر اللذين كان المجتمع يتصف بهما في ذلك الوقت. حتى أدمس نفسه كما ذكر من قبل كان يتسم ببعض الغرور. هذا الغرور يرتبط أساسا بخطب الوعظ التى كتبها ويرى أنها لا تقدر بمال، وقد استخدم فيلدنج هذا الغرور فى مواقف عديدة من الرواية للسخرية من سلوك عدد من الشخصيات التى قابلها أدمس فى رحلته؛ وفى الوقت نفسه لإثارة الضحك من هذه الشخصيات: باميلا والقس بارنباس والقس تروليير وبيتر بارنس والليدى بوبى والسيدة سيلبسلوب وآخرين.

جدية فيلدنج فى تقديم شكل مبتكر وهادف للرواية:

أطلق فيلدنج اسم الملحمة على روايته، لأنه أراد تقديم أفكار جادة وسامية من خلال روايته. فقد كان مؤمناً بأن الرواية ليست مجرد وسيلة للتسلية، بل هى أحد أنواع الأدب الجاد الذى يمكن استخدامه للتأثير على الفكر والسلوك الإنسانى. لذلك استخدم فيلدنج روايته ليهاجم النفاق والغرور، وهما صفتان - كما يرى فيلدنج - من أعم وأخطر العيوب الإنسانية.

استخدم فيلدنج كلمة نثرية لأنه فى ذلك الوقت كان معروفًا أن الشعر هو الأسلوب الأكثر ملاءمة للتعبير عن الموضوعات الجادة والأفكار السامية، لذا فإن استخدام كلمة نثرية يعتبر حجر أساس وضع حتى يقتنع الجمهور العادى أن النثر هو وسيلة تعبير تتساوى فى جديتها مع الشعر، بصرف النظر عن الكوميديا الموجودة فى الرواية.

هكذا طبق فيلدنج فى هذه الرواية كل عناصر الملحمة مع إضافة عنصر الكوميديا الهادفة وغير المباشرة.

الواقعية فى جوزيف أندروس:

يعتبر الأدب أيًّا كان نوعه واقعيًّا إذا كان مرآة للحياة، والهدف منه إعطاء انطباع صادق عن الأشخاص والأفكار كما هى بالفعل فى الوعي الإنسانى الطبيعى.

يحاول الكاتب الواقعى أن يكتب من خلال ملاحظاته الفعلية وتجاربه العملية، مما يجعل كتاباته تتميز برؤيا محايدة بعيدة عن العواطف والأهواء، وكقاعدة عامة يتجنب الكاتب الواقعى إصدار أحكام شخصية، أو فرض قناعاته الخاصة حتى لا يؤثر ذلك على تقديمه الواقعى والمحايد للرواية.

يعتبر فيلدنج رائدًا من رواد الرواية الواقعية فى إنجلترا؛ فقد كان مجرِّبًا ومتمرسًا فى الحياة، وقد اتخذ من تجربته الشخصية أساسًا لمؤلفاته.

فى مقدمة الرواية قال: "أعتقد أننى أستطيع أن أعترف بأنى كتبت أقل بكثير مما رأيت فى هذا العالم"؛ لذا فمن البديهى أن يقدم فيلدنج صورة واقعية وعملية للمجتمع الذى عاش فيه. أشاد الناقد الشهير ويليام هازلت William Hazlitt بواقعية فيلدنج قائلا: "لا أستطيع أن أجد تسجيلاً مبتكرًا ومرضيًا لهذه الفترة من الزمن عن حالة المجتمع العامة والوضع الأخلاقى والسياسى والدينى لفترة حكم الملك جورج الثانى، كما وجدنا فى رواية مغامرات جوزيف أندروس وصديقه السيد إبراهام أدمس"(٨).

أما الناقد دادن Dudden فيرى أن هذا التعليق فيه تعميم وتنقصه الدقة، ويرى أن فيلدنج لم يصف حالة المجتمع بصفة عامة، ولكنه تناول الحياة المرفهة للطبقة العليا فى لندن بالإضافة إلى وصف دقيق لاهتمامات وسلوكيات الناس فى

(٨) E.M.Baken,The History of English Novel ١٩٣٤ ,١٧٢

غرب إنجلترا؛ فقد كان على دراية كاملة بحياة الناس فى هذا الجزء من إنجلتـرا، ويضيف دادن Dudden قائلا: "أعطى فيلدنج صورة حقيقية للناس: صفاتهم العقلية والأخلاقية وأسلوبهم فى الحياة وعاداتهم بأسلوب واقعى لم يسبق له مثيل".

الواقعية فى رسم الشخصيات:

إن خبرة فيلدنج بالحياة والناس واسعة جدا مثل دانيل ديفو Daniel Defoe، ولكن نظرته كانت أعمق وأكثر حدة؛ فقد كان على صلة وثيقة بالطبقة العليـا فـى بداية حياته، كما أنه درس الطبقات الأقل فيما بعد.

أعطاه وضعه قاضيًا الفرصة ليتعرف على العقلية الإجرامية؛ لكل ما سـبق نجح فيلدنج فى أن يعطى صورة واقعية عن الحياة فى ذلك الوقـت؛ فلـم يحـاول فيلدنج أن يجمل الواقع أو أن يخفى الأمور القبيحة المتغيرة فى المجتمع كما فعـل غيره من الروائيين فى ذلك العـصر، أمثـال: سـموليت Smolette أو شـاكرى Thachery الذى استبعد فى كتاباته كل ما هو قبيح، وصور كل ما يبعث على السعادة والرضا. لقد رسم فيلدنج شخصياته بمنتهى الأمانة والموضوعية؛ فمعظم الشخـصيات يبدو فيها جانب الخير والشر بحيث تبدو مقنعة وواقعية. لا يكتفـى فيلـدنج بوصـف المظهر الخارجى للشخصيات، لكنه يصف أيضا أفكارهم ورغباتهم، إلى درجـة أنــه فى بعض الأحيان يتعمق فى صراعاتهم الداخلية؛ لذا نجد أورلين دايجيـون Aurlein Digeon فى كتابه الواقعية النفسية Psychological Realism (1959) يصف واقعيـة فيلدنج قائلا: "إنه ينزع الأقنعة التى تظهر الواقع السطحى ليبين الواقعية الأساسية فـى معظم الشخصيات مثل بارنابس ، وتروليبر ، والليدى بـوبى ، والـسيدة سيلبـسلوب؛ فيفضح غرورهم وتكلفهم ونفاقهم، حتى القس أدمس نفسه يبين فيلدنج حبـه للتفـاخر. ويضفى ذلك على الشخصيات واقعية تعطيها حياة وتقربها من القارئ"(٩).

---

(٩) Aurlein Digeon, Psychological Realism (1320)

نجح فيلدنج فى وصف المجتمع وصفًا دقيقًا خلال تلك الفتـرة، واضـح أنَّ الناس فى ذلك الوقت لم يأخذوا أعمالهم بجدية. على سبيل المثال نجد بارنابس يهتم بشرب الخمر أكثر من اهتمامه بعمله، والطبيب يدعى أنه يحمل كتب أبـو قـراط وجالين Galen، لكننا نكتشف أن معلوماته عن الطب محـدودة جـدا. وترولبيـر نصاب أكثر من كونه قسيسًا. أما القاضى الريفى الذى يهوى صيد الثعالـب فنجـد فيلدنج يسخر من إهماله لعمله بأسلوب كوميدى فى المشهد الذى أحضر فيه أدمـس أمام القاضى، والذى لم يهتم بإجراء محاكمة؛ لكنه أخذ يتسلى بصحته دون أن يقرأ أوراق اتهامه، أو يستجوب الشهود، أو حتى الاستماع إلى الدفاع، وفى النهاية قرر الزج به فى السجن. أما المحامى سكاوت فيهتم بعرقلة القانون أكثر مـن اهتمامـه بأحكام القانون. أما السياسة فهى تتسم بالنفاق والتفاخر أيضا. فى الفصل الثالث من الباب الثانى يقدم فيلدنج مجموعة من السياسيين: الكولونيل كورنلى والأسقف ميكال والسير أوليفر هارنى والسير توماس بوبى، وينحصر اهتمامهم جميعًا فى التبـاهى بأنفسهم والتعالى بعضهم على بعض.

هكذا يبين فيلدنج كم الفساد فى المجتمع ويستخدم فضيلة أدمـس وصـلاحه ليظهر الفارق بينه وبين الآخرين.

تناول فيلدنج أيضا قسوة المجتمع وغلظة قلبه؛ فقد أظهر أنانية الناس وغلظة مشاعرهم. على سبيل المثال أظهر ذلك عندما رفض ركاب العربة المؤجرة – فى البداية – أن يسمحوا لجوزيف بالركوب معهم، رغم أنه كان مصابًا إصابات بالغة وقد سرقت ملابسه؛ فقد كان عاريا ولا يوجد شيء يستره. كما رفض الطبيـب أن يصحو من نومه ليعالج جوزيف، لأنه لا يستطيع أن يدفع أتعابه. رفـضت الـسيدة تروس أن يعيره زوجُها قميصًا يستر نفسه به، وعنَّف صاحب النُزل زوجته لأنهـا حاولت أن تعالج ساق جوزيف، لأنه لم يكن مقتنعا أن حالة سـاقه بالـسوء الـذى يدعيه، وقال إنه إذا وجد طبيبًا على مسافة بعيدة فسيطلب منه أن يبترها.

أما بيتر باونس فيرى أن معظم معاناة الفقراء خيالية، وأن مساعدتهم أو محاولة التخفيف عنهم عمل غير واقعى، والمحامى سكاوت يرى أن عدد الفقراء كبير جدا؛ لذا يجب إصدار قانون ينص على شنقهم، أو نفى نصفهم على الأقل. يعلق داون على ذلك قائلاً: إن المجتمع يتميز بقسوة بالغة، وباستثناء أدمس والزوجين ويلسون وجوزيف لا يرى أية شفقة أو رحمة إلا من الشخصيات التى تنتمى إلى الطبقات الفقيرة في المجتمع مثل الخادمة بتى Betty التى ترعى جوزيف فى مرضه، والبائع المتجول الفقير الذى يعطى أدمس كل ما يملك؛ ليساعده على مواصلة رحلته.

اهتم فيلدنج أيضا بإظهار الهوة الساحقة بين الطبقة العليا والطبقة الدنيا. وأوضح فيلدنج ذلك الفارق وبيَّن الانعزال بين طبقات المجتمع. فأعضاء الطبقة العليا يعتبرون أنفسهم أفضل من الآخرين، بل إنهم يطلقون عليهم أسماء مشينة مثل "الكائنات"، أو "التعساء" أو "المتوحشين"، على سبيل المثال رفضت الليدى بوبى أن يشاركهم القس أدمس فى تناول العشاء، لأن مظهره رث وفقير، وعندما رفض الانصياع لأوامرها أهانته إهانة شديدة. فى مناسبة أخرى عندما قامت الليدى بوبى بزيارة الأبرشية، لم تتنازل للرد على تحيات القس أدمس وزوجته. يبدى فيلدنج رأيه فى سلوك تلك الطبقة ويبين غرورها وتكبرها فى إطار ساخر ومضحك.

تناول فيلدنج بالنقد أيضا الجوانب العملية لسلوك الطبقة العليا المشين؛ فهم يتجاهلون حقوق الفقراء، ويسيئون معاملتهم، بل ويطغون عليهم. فأظهر عدم اهتمام الليدى بوبى بالخدم؛ فهى لا تبالى إذا أخذوا أجورهم فى موعدها أو لا، كما أنها لا تعطيهم أجورًا منصفة، كما أنها لا تجد أى حرج فى طردهم فى أى وقت ولأسباب واهية. هناك أيضا السيد الذى يهوى الصيد، ويصادر كل الأسلحة فى المنطقة، وعندما يذهب لممارسة هوايته يحطم أسوار أرض المزارعين البسطاء، ويمشى فى مزارعهم فيفسد محاصيلهم.

هناك سيد آخر يأمر رجاله بخطف فانى من النزل، لأنه أعجب بهــا، ولأنهــا فقيرة يستطيع أن يفعل بها ما يشاء. هكذا يبين فيلدنج أن أعــضاء الطبقــة الــدنيا لا يجدون من يحميهم، والمحامون الفاسدون على استعداد دائم لخدمة الأغنياء كمــا قــال المحامى سكاوت لليدى بوبى:" إن قوانين هذه الأرض ليــست وقحــة بحيــث تــسمح لشخص من أصل دنيء أن يجرؤ على المطالبة بحقه من سيدة من الطبقة العليا مثلك".

أما غرض فيلدنج من هذا التناول الواقعى، فهو النقد غير المباشر للمجتمع. لذلك لم يهتم بتقديم الجانب المثالى من حياة شخصياته؛ بل أراد رسم صورة واقعية للمجتمع، وذلك لا يعنى أنه لا يهتم بالمُثل أو لا يؤمن بها، لكن تقديم صورة للنزل – مثلاً– يبين سوء الإدارة وإظهار أشخاص غير ملتزمين بالنظام؛ يعتبر دعوة إلى خدمة أفضل وظروف معيشية مناسبة، كما أنه يدعو للحفاظ على القــيم ونــشرها، وتصحيح مفهوم الحياة فى المجتمع، وقدم ذلك من خلال الأسلوب الــساخر. لقــد حاول فيلدنج أن يدعو أبناء وطنه إلى تغيير سلوكهم؛ بحثًا عن المبادئ والمثل، كما أعطى مثلا على ذلك وهو بعض الشخصيات التى تتصف بالطيبة ونبل الأخــلاق كمثل يمكن للمجتمع أن يحتذيه مثل أدمس ، والسيد ويلسون ، والبائع المتجــول ، وجوزيف. وفى مواضع أخرى من الرواية أظهر فيلدنج الشر وقبحه ودعــا إلــى الحرص على تجنبه. إن واقعية فيلدنج لم يكن دافعها الكراهية، ولم تكن تهدف إلى التركيز على سلبيات المجتمع؛ لكنه قدم صورة واقعية للمجتمع.

روح الفكاهة فى جوزيف أندروس:

فى مقدمة الرواية ذكر فيلدنج أن " الملحمة الهزلية النثرية " توظف المواقف والأحداث التى تتميز بالسخرية؛ لتضيف عنصر الفكاهة الذى يجذب القــارئ. لــذا فإن الفكاهة تلعب دورا مهما فى الرواية؛ فهى تنبع من السخرية من التكلف والنفاق اللذين يرجعان فى الأصل إلى الغرور والرذيلة، كما يقول فيلدنج فى المقدمة:" نحن نتصنع الغرور والتكبر؛ لإثارة الإعجاب أما النفاق فهو وسيلة لتجنب النقد".

هكذا سخر فيلدنج من تلك الصفات المنتشرة فى المجتمع كوسيلة لإصلاح الحماقات الإنسانية، فكانت الروح الفكاهية وسيلة لتحقيق غرض جاد؛ لذلك انصبت علي الصفات التى أراد فيلدنج إبرازها ونقدها؛ وبذلك استطاع أن يجعل الرواية مسلية ومثيرة للاهتمام، دون أن تكون خطبة وعظ.

استخدم فيلدنج شخصية القس أدمس مصدرًا أساسيًّا للفكاهة، وفى بعض المواقف تكاد تصل إلى مستوى كوميديا " الفارس " Farce. فمثلا نجد أن شرود ذهن القس أدمس يثير الضحك فى مواقف متعددة – كما ذكر من قبل – فقد سافر إلى لندن ليبيع المواعظ التى كتبها، ولكنه نسى أن يأخذها معه.

وفى أحد النزل التى أقام بها نسى أن يدفع أجرة الاعتناء بحصانه، وفى نزل آخر نسى أن يأخذ حصانه عندما غادر المكان، بل إنه لم يستطع التعرف على حصانه عندما عاد لاستعادته.

وفى أثناء رحلته كان يمشى فى طريق أغرقته الأمطار، وواصل المشى حتى وصلت المياه إلى وسطه، حينئذ اكتشف أن هناك طريقًا جانبيًّا جافًا؛ كان يمكن أن يتخذه، لكنه لم يلاحظه من البداية.

بالإضافة إلى شرود ذهنه، يتميز أدمس ببعض السلوكيات الغريبة والمثيرة للضحك. مثلا: أثناء استماعه لقصة ليونورا Leonora كانت ردود أفعاله وتعليقاته تثير ضحك الجميع؛ فكان يقاطع السيدة التى تروى القصة؛ ليسألها عن ملابس الرجل فى القصة أو ما معنى كلمة الشرق Levant أو معنى كلمة فتاة لعوب Coquette.

استخدم فيلدنج كوميديا الفارس، وأضاف إليها لمسة جادة فى وصف المواقف المحرجة التى تعرض لها أدمس، وهذا النوع من الكوميديا يتناسب مع أغراض فيلدنج الهادفة والجادة. فعلى سبيل المثال ينجح أدمس فى انقاذ فانى، لكنهم يتهمونهم بالسرقة، وتتم محاكمتهم أمام أحد القضاة بالريف، حيث يتم حبسهم فى أحد الإسطبلات، ويأتى الجيران لمشاهدتهم، ثم يطلب القاضى إحضارهم أثناء تناوله العشاء مع ضيوفه ليسخروا منهم.

أما المحاكمة التى تحدث بعد ذلك، فهى مثيرة للضحك، لكننا ندرك أن غرض فيلدنج من تلك المشاهد الكوميدية هو إظهار الجهل واللامبالاة التى يتصف بها مثل هؤلاء القضاة؛ مما يحث القارئ على التفكير فى تلك الأوضاع. استخدم فيلدنج الأسلوب نفسه فى المشهد الذى يحاول فيه أدمس الإمساك بخنزير، فيركله ويقع فى الطين، وعلى الرغم من كوميديا الفارس فى هذا المشهد، فإن سخرية فيلدنج من الوضع لظروف رجال الكنيسة تؤثر على القارئ تأثيرًا قويًّا.

أخيرًا رسم فيلدنج عددًا من الشخصيات؛ بحيث تكون مصدرًا مهما للكوميديا. مثلاً السيدة سيليسلوب فقد وصفها بأسلوب كوميدى؛ فهى قصيرة القامة بدينة وبشرتها شديدة الاحمرار، وأنفها طويل وعيناها ضيقتان. بالإضافة إلى ذلك فهى شخصية متكلفة، تتحدث بأسلوب مضحك، لأنها تستخدم كلمات صعبة تفشل فى نطقها نطقا صحيحا. القس تروليبر أيضا وصف بأسلوب مشابه؛ فهو سمين وقصير القامة؛ لدرجة أن ظله لا يتغير سواء كان واقفا أو جالسا، وصوته أجش ومزعج، كما أنه يمشى مثل الأوزة.

هكذا يتبين أن الأسلوب الفكاهى الذى استخدمه فيلدنج، يعتبر أسلوبًا مبتكرًا ومميزًا؛ من حيث إثارته للضحك، من خلال مواقف جادة وواقعية، بالإضافة إلى عفوية فيلدنج التى تجعل الكوميديا تؤثر بشكل طبيعى ليس فيه تكلف. كما أنه أسلوب يتسم بالتسامح؛ فهو لا يتغاضى عن عيوب المجتمع وشخصياته، لكنه يقدمها بشكل موضوعى ليس فيه كراهية أو مبالغة؛ وذلك لالتزامه بتقديم صورة واقعية للمجتمع فى عصره، وهو أسلوب مبتكر تفوق به فيلدنج على معظم كتاب عصره.

سلوى مبروك

تقديم المترجمة

قصة جوزيف أندروس الرواية الأولى لهنرى فيلدنج، وتُعد من أشهر مؤلفاته، وتعتبر أثرًا أدبيا يتميز بالنزعة الهزلية والخروج عن المألوف من حيث البنية والأسلوب.

قصة جوزيف أندروس عبارة عن حبكة روائية متعددة الجوانب؛ فهى **قصة فلسفية** بدأها هنرى فيلدنج بالحديث عن شكل الرواية، وعن كتّاب الرواية فى القرن الثامن عشر، فتحدث عن السالفين فى كتابة الرواية، وعن كتاباتهم العتيقة، وعن الطريقة التى يفكرون بها، وعن اللغة التى يستخدمونها فى كتابة الرواية، وتحدث أيضا عن تاريخ الشخصيات البارزة، وعن مؤرخى القصة فى القرن الثامن عشر.

وقد بدأ الباب الثانى بالحديث عن المؤلفين، وعن انقسامات المؤلفين وعن طريقتهم وأسلوبهم فى التأليف، وأشار فى ذلك إلى فيرجيل Vergil وهومر Homer وطريقة كل منهما فى التأليف.

أما الباب الثالث فقد بدأه بالسيرة الذاتية للكُتّاب العظماء، وطريقة كل واحد منهم ورواية الحقائق، واستند فى ذلك إلى ذكر بعض الروايات وبعض أسماء الفلاسفة والكُتّاب.

الإطار العام لقصة جوزيف أندروس إطار رومانسى؛ حيث تأخذ القصة الطابع الرومانسى؛ وبذلك تعتبر **قصة رومانسية** ويتضح ذلك من خلال قصة فانى وجوزيف بطلى القصة، حيث وصفت القصة مشاعر كل منهما تجاه الآخر من خلال المواقف والصعوبات التى واجهها كل منهما، فيظهر من خلالها مدى حب كل منهما للآخر، ومدى تضحية كل منهما من أجل إسعاد الآخر.

تعتبر قصة لينورا التعيسة (الباب الثانى – الفصل الرابع) قصة رومانسية متداخلة بالقصة؛ حيث تلقى الضوء على المشاعر الرومانسية، لكن كانت نهايتها نهاية تعيسة.

وأيضا من خلال القصة نرى قصة باميلا والسير بوبى، حيث يتفانى السير بوبى فى دفاعه عن باميلا ويبدى حبًا جمًا لها.

أيضا يظهر الجانب الرومانسى فى قصة الليدى بوبى مع جوزيف وتظهر روح الرومانسية فى مناجاة الليدى بوبى لنفسها، حيث أرادت أرملة البارون أن تؤمن بأنها أعلى شأنًا من العواطف البذيئة، وأن رغباتها محترمة وعقلانية.

قصة جوزيف أندروس:

قصة ساخرة بها روح الفكاهة، يظهر ذلك فى عدة مواقف، منها طريقة الحديث الذى دار بين جوزيف والليدى بوبى فى الباب الأول، حينما رفعت الكُلفة بينها وبين جوزيف. وتظهر الفكاهة أيضا فى الحوار الذى داربين السيدة بوبى وخادمتها سيلبسلوب (الباب الأول – الفصل السابع).

وتظهر روح الفكاهة أيضا فى المغامرة التى قام بها جوزيف أندروس (الباب الأول – الفصل الثانى عشر)، حينما سلبه اللصوص ملابسه.

تظهر سخرية فيلدنج فى طريقة مخاطبة الليدى بوبى لمحاميها سكوت؛ حينما تقول: "إننى لا أفهم كلامك " وتحط من شأنه بتكرار الضمير " إنك وقح وتحمّل نفسك الكثير... عليك التعلم أفضل من ذلك، أؤكد لك". ويتعجب هو من وصفها لفانى بأنها جميلة حيث قال: "جميلات حقا!!، إننى سعيد لمرح سيادتك" تظهر روح الفكاهة فى القصص المتداخلة مثل قصة لينورا (الباب الثانى – الفصل الرابع والسادس) وذلك فى حديث هورتيو مع بيلارمين.

روح الفكاهة واضحة للغاية فى مقابلة القس أدمس مع القس ترولبيير (الباب الثانى – الفصل الرابع عشر).

تظهر الفكاهة فى (الباب الرابع – الفصل الرابع عشر) حينما يذهب ديدابر خطأً إلى حجرة سيلبسلوب بدلاً من حجرة فانى، وأيضا فى مغامرة أدمس الذى يذهب إلى حجرة فانى بدلاً من حجرته.

أيضا يعتبر أسلوب السيد جامر أندروس وطريقة حواره نوعًا من الفكاهة، وكل القصص المتداخلة تعتبر عبق الفكاهة للقصة.

قصة جوزيف أندروس **قصة روحانية دينية** وجسّد ذلك القسُّ أدمس؛ حيث ظهرت نزعاته الدينية فى الحوارات التى كانت مليئة بالجمل اللاتينية، وظهرت فى حديثه عن المواعظ والكتب الدينية.

ظهرت أيضا النزعة الدينية فى الباب الأول، حينما أُصيب جوزيف بحمى وبدأ يستغفر ربه؛ إذ قال له القس: إن هذه هى أيامه الأخيرة وعليه أن يختمها بالاستغفار.

وفى النهاية قصة جوزيف أندروس قصة تعكس ملامح القرن الثامن عشر؛ حيث تظهر من خلال شخصيات القصة الأفكارُ التى كانت موجودة فى هذا القرن، كما أنها تعكس شكل إنجلترا فى هذا الوقت، حيث كان الناس يستخدمون فى ذلك الوقت المركبة للتنقل من مكان لآخر، ومن خلال قراءة القصة تعطينا شخصياتها فكرة عن الملابس التى كان يرتديها الناس فى هذا القرن فى إنجلترا، كما أنها تعكس كل أفكار هذا القرن الفلسفية والأدبية والدينية.

إيناس إبراهيم مروان

المقدمة

من الممكن أن تكون فكرة القارئ الإنجليزى العادى عن الرومانسية مختلفة عن مؤلف تلك المجلدات الصغيرة؛ وبناءً على ذلك يمكن أن نتوقع أن نوعًا ما من التسلية غير موجود ولا حتى مقصود فى الصفحات التالية. إنه ليس بذيئًا السماح بصدور كلمات قليلة متعلقة بهذا النوع من التأليف، فأنا لا أتذكر أننى قد رأيت حتى الآن هذا النوع فى لغتنا.

تنقسم الملحمة والمسرحية إلى تراجيديا وكوميديا. وقد قدم لنا هومر Homer أبو الشعر نموذجًا عن كل منهما على الرغم من أن النوع الأخير اندثر كليا، والذى قال لنا عنه أرسطو Aristotle: إنه حمل لنا العلاقة نفسها للكوميديا التى تحملها الإلياذة للتراجيديا. وربما لم يكن لدينا الكثير من الأمثلة وسط كُتاب العصور القديمة؛ وهذا بسبب فقدان هذا النوع العظيم، والذى لو ظل حيا لوجد مقلدون لهذا الإبداع العظيم ولجعلوه مساويًا للقصائد الأخرى.

بالإضافة إلى ذلك، مثلما يمكن أن يكون هذا الشعر تراجيديًا أو كوميديًا، فلن أتردد فى القول بأنه ممكن أيضا فى النثر أو الشعر، على الرغم من أنه يحتاج إلى شيء خاص يعده الناقد فى الأجزاء الأساسية للملحمة، أى عندما يحتوى أى نوع من الكتابة على كل أجزائه الأخرى مثل القصة الخرافية، والحركة، والشخصيات، والمشاعر، والأسلوب، لكنه ينقصه فى الوزن فقط، فمن المعقول أن نطلق عليه ملحمة. على الأقل لم يفكر أى ناقد أن يضعه تحت أى عنوان آخر أو يحدد له اسمًا خاصًا.

هكذا تبدو تليماك Telemachus التى كتبها رئيس الأساقفة كامبرى Cambray نوعًا من أنواع الملحمة، وأيضا الأوديسة Odyssey التى ألفها هومر Homer، لذلك من الإنصاف ومن المنطقى أن نعطيه اسمًا شائعًا من هذه الأنواع

والذى يختلف فقط فى مثالٍ واحدٍ بدلاً من مزجه بتلك الأشياء التى تشبهُهُ. وتلك أعمالٌ كثيرةٌ ومتعددة، ويطلق عليها رومانسية مثل كليليا Clelia، وكليوباترا Cleopatra ، وأستراايا Astraea ، وكاساندرا Cassandra ، وسايس الأعظم The Grand Cyus ، وأنواع أخرى لا حصر لها، وقد أدركت أنها تحتوى على قليل من التسلية، وقليل من التعاليم.

إذًا، الرومانسية الكوميدية قصيدة ملحمية كوميدية نثرية، وهى تختلف عن الكوميديا مثل اختلاف الملحمة عن التراجيديا؛ فأسلوبها أوسع وأشمل وتتضمن دائرة كبيرة جدا من الأحداث وتقدم شخصيات متنوعة، وتختلف عن الرومانسية الجادة فى قصتها الخرافية والأداء فيها؛ فإحداهما جادة ومأساوية، والأخرى مبهجة وساخرة، وتختلف فى شخصياتها؛ فهى تقدم أشخاصًا أقل شأنًا؛ وبالتالى أخلاقهم وضيعة، بينما الرومانسية الجادة تضع أمامنا الأشخاص الأعلى منزلة. فهى تحتفظ فى أحاسيسها وأسلوبها بالسخرية بدلاً من المنزلة الرفيعة. أما الأداء فأعتقد أن السخرية نفسها يمكن أن يُعترف بها أحيانًا، حيث يظهر كثيرٌ من الأمثلة فى هذا العمل، مثل وصف المعارك وبعض الأماكن الأخرى، ليس من الضرورى توضيحها للقارئ الكلاسيكى حيث تكون تسليته الأساسية مجموعة فى السخرية أو المحاكاة.

لكن على الرغم من أننا نعترف بذلك أحيانًا فى أدائنا، فقد استبعدناه بحرص من مشاعرنا وشخصياتنا، وذلك لأنه لا يُقدم بطريقة لائقة، إلا فى الكتابات الساخرة وذلك ليس مقصودًا. فى الحقيقة، لا يمكن أن يكون هناك نوعان من الكتابة مختلفين اختلافًا شديدًا مثل كتابة الكوميديا والكتابة الساخرة؛ وذلك لأن النوع الأخير عرض لما هو شديد البشاعة، وغير سوى، ولو فحصناه فسنجد أن بهجتنا تنشأ من المفاجأة المضحكة مثل إعطاء الأخلاق الرفيعة للأشخاص الذين ينتمون إلى الطبقات السفلى والعكس؛ لذلك يمكن فى الطريقة السابقة أن نقصر أنفسنا بشكل تام على الطبيعة بدلاً من مجرد تقليد ما يُنشئ البهجة، ونستطيع بهذه الطريقة نقله للقارئ المدرك.

وربما يكون هناك سبب واحد يجعل كاتب الهزلية – خِلافًا عن باقي الكُتاب – له العذر الذى يجعله يخرج عن الطبيعة، لأنه لم يكن من السهل على الشاعر الجاد أن يفى بما هو عظيم وجديرٌ بالإعجاب، لكن الحياة تمدُّ المشاهد الدقيق بما هو ساخرٌ ومضحك.

لقد أشرت إلى ما يتعلق بالسخرية، لأننى سمعت هذا الاسم يُطلق على المسرحيات التى هى حقا من النوع الكوميدى، وهى لكاتب يسمح به أحيانًا فى أسلوبه فقط. وبما أنه ثوب الشعر؛ فهو مثل ثوب الرجال يُرسخ الشخصيات برأى دارج على الرغم من مكانتها العظيمة، لكن الأسلوب به شيء من المزاح، حيث تكون الشخصيات والأحاسيس طبيعية للغاية، ولا يوجد ما يُشكل السخرية، وبدلاً منها الغطرسة الجوفاء والكلمات الرفيعة حيث يكون كل شيء آخر دنيئًا، ويمكن أن نُطلق على أى أداء لقب السمو الحقيقى.

ولقد أدركت رأى لورد شافتبير Shaftesbur عن السخرية، والذى يتفق معى عندما أكد أن هذا الشيء غير موجود فى مؤلفات السالفين. لكن ربما أُبدى قليلاً من الاشمئزاز أقل مما يُبديه؛ وهذا ليس لأننى لم أحقق نجاحًا على خشبة المسرح، لكن لأنه يُساهم إلى حدٍّ ما فى إتقان المرح والضحك أكثر من أى شيء آخر، ومن المحتمل أن تكون تلك الأشياء صعبة للعقل، وتساعد بطريقةٍ جيدة على التخلص من الغضب والكآبة والمشاعر السيئة أكثر مما يمكن تخيله. لكن سوف ألجأ إلى الملاحظة الشائعة عندما لا أجد نفس المجموعات مليئة بالمرح والنزعة إلى عمل الخير، بعد أن تسلوا ساعتين أو ثلاثًا بمثل هذا النوع من التسلية، بدلاً من إغضابهم بمحاضرة تراجيدية أو مأساوية.

لكن يمكن أن نوضح كل هذا من خلال علم آخر؛ حيث يمكن أن نرى من خلاله الفرق أكثر وضوحًا. دعونا نفحص القصة الهزلية مرسومة، وهى ما يسميها الإيطاليون الكاريكاتير، حيث نجد الميزة الحقيقية لهذا النوع السابق أنها عبارة عن نسخة دقيقة من الطبيعة.

حتى العين المتسمة بقوة التمييز ترفض دائمًا أى شيء شاذ، وأية حرية أخذها الرسام فى رسم ملامح الأصل، بينما نعطى لرسام الكاريكاتير الحرية التامة، فالهدف من هذا الكاريكاتير عرض الوحوش وليس الإنسان وكل التحريفات والمبالغات أيًا كانت موجودة فى مكانها الملائم.

وهكذا فإن مكانة الكاريكاتير من الرسم هى نفس مكانة الكتابة الساخرة من التأليف بتواصل كل من الكاتب الهزلى ورسام الكاريكاتير. فكما أن الرسام له أفضلية لا حصر لها؛ فرسم الوحوش أسهل بكثير من وصفها، ووصف الأشياء المضحكة أسهل من رسمها.

وربما تكون تلك الأنواع لا تؤثر بقوة ولا تُهيج العضلات مثل الأنواع الأخرى؛ لذلك سنقتنصها، وأعتقد أن البهجة العقلانية تنشأ إلينا منها. وهذا الذى يجب أن نطلق عليه اسم المبدع الرسام الساخر هوجارث Hogarth ، له فى رأيى قليل من الشرف لمقدرته على رسم رجل بأنف أو أية ملامح أخرى بأحجام منافية للعقل، أو عرضه بطريقةٍ سخيفة أو شديدة البشاعة بدلاً من التعبير عن أحاسيس البشر فى لوحة زيتية.

وهذا يُعتبر إبداعًا هائلاً من رسام تبدو رسوماته كما لو كانت حية. ومن المؤكد أنه إطراء أكثر نبالة وأهميته أكثر مما يعتقدون.

لكن نرجع لموضوعنا، فالأعمال المضحكة وحدها – كما قلت آنفًا – هى ضمن أعمالى الحالية. ولن يكون شرح هذه الكلمات خارجًا عن الموضوع الذى يقرؤه القارئ، ولو فكر كيف مارسه المؤلفون بالخطأ، لكن يمكن أن ننسب هذا الخطأ للمحاولات العديدة للسخرية من أسوأ الأشرار، إذن ما الذى يكون أسوأ من الكوارث المخيفة؟ وما الذى يمكن أن يفوق سخافة الكاتب الذى يكتب كوميديا عن نيرو Nero والحدث المبهج لاكتماله فى بطن أمه؟ أو ما الذى يضع البشرية فى صدمة أبشع من محاولة عرض بؤس الفقر والكرب فى نوع من السخرية؟ ولا يحتاج القارئ إلى الكثير من التعليم ليقترح مثل هذه الأمثلة لنفسه.

علاوةً على ذلك، من الملاحظ أن أرسطو Aristotle المغرم بالتعريفات لم يفكر بطريقة ملائمة فى تعريف الأعمال الساخرة؛ حيث يخبرنا بأنه يمكن أن نطلق عليها كوميديا، والجريمة ليست هدفها، ولكنه على ما أتذكر لم يؤكد إيجابيا ماذا تكون.

كما أن أبّيه بلجارد Abbe Bellegarde الذى كتب رسالة عن هذا الموضوع، وعلى الرغم من أنه يعرض العديد من أنواعها فإنه لم يحاول تتبعها إلى المنبع.

والمصدر الوحيد للأعمال الساخرة (كما يبدو لى) هو التصنع. لكن على الرغم من أنها تنشأ من منبع واحد فقط عندما نفكر فى أن التدفقات التى لا حصر لها والتى يتفرع منها هذا النوع، يجب أن نتوقف لكى نتأمل هذا المجال الواسع الذى نقدمه للمشاهد.

وينشأ التصنع من أحد هذين السببين: الغرور أو النفاق، وكما يضعنا الغرور تحت تأثير شخصيات مزيفة من أجل شراء التصفيق، يضعنا النفاق فى محاولة لتجنب الاستهجان؛ بإخفاء عيوبنا وإظهار ما يقابلها من فضائل. وعلى الرغم من أن هناك اختلاطًا بين هذين السببين (حيث توجد بعض الصعوبة فى التمييز بين كل منهما) فإن كلاً منهما ينشأ من دوافع مختلفة، لذلك يمكن التمييز بينها بوضوح أثناء القيام بها. وذلك لأن التصنع الذى ينشأ من التفاهة هو أقرب للحقيقة، أكثر من النفاق، لأنه ليس به المقت الشديد للطبيعة الموجودة فى صفة النفاق. ومن الملاحظ أيضا أن التصنع ليس به أى شيء مناقض لتلك الصفات المصطنعة، ومع ذلك عندما تنشأ من النفاق تكون قريبة جدا من الغش والخداع. أما إذا نشأت من الغرور فقط فإنها تأخذ صفات التفاخر والتباهي. على سبيل المثال الرجل المختال الذى يتظاهر بالسخاء يختلف بوضوح عن الرجل البخيل الذى يتظاهر بنفس الشيء. وذلك لأن الرجل المختال يُظهر خلاف ما يبطن، وليس لديه الصفة التى يتظاهر بها، ويوهم نفسه أن لديه هذه الصفة لذلك تكون غير ملائمة له، بخلاف الرجل البخيل المناقض تمامًا لما يجب أن يظهر به.

ومن هذا التصنع تنشأ الأعمال الساخرة التى تؤثر فى القارئ وتجعله مسرورًا، وذلك بدرجة أعلى وأقوى من التصنع الذى ينشأ من النفاق، بخلاف التصنع الذى يظهر من الغرور، عندما تكتشف أن أى شخص مناقض تمامًا لما ينطق به سيكون ذلك أكثر مفاجأة. وبالتالى سيكون مضحكًا أكثر من أن تجد الصفة التى يرغب فى التحلى بها ليست موجودة عنده. ولقد لاحظت أن بن جونسون Ben Jonson قد أحسن فهم الأعمال الساخرة أكثر من غيره من الأدباء، وكان هذا التصنع الكاذب أساسيًا فى كتاباته.

ومن خلال التصنع فقط يمكن أن تكون المحن وكوارث الحياة أو عيوب الطبيعة مواضع السخرية. وبالتأكيد ليس له عقل فطن من يرى أن القبح أو العجز أو الفقر شيء يمكن السخرية منه بذاته.

ولا أعتقد أن رجلاً ما يقابل شخصًا يتسم بالقذارة يتجول فى الشوارع راكبًا عربة يجرها حصان، وتواتيه فكرة عن عمل أدبى يسخر منه، ولكن لو رأى الشخص نفسه نازلاً من عربة فارهة بحصان، واندفع من كرسيه واضعًا قبعته تحت ذراعه؛ سوف يبدأ فى الضحك ويكون له الحق فى ذلك، وبنفس الأسلوب لو دخلنا منزلاً فقيرًا وشاهدنا عائلة تعيسة ترتجف من البرد وتتفطر جوعًا، فلن يستميلنا هذا للضحك (إلا إذا كنا نتصف بطبيعة شيطانية)، ولكن لو وجدنا مدفأة بدلاً من الفحم مزينة بالورود وأطباقًا فارغة، وأطباقًا صينية موضوعة على مائدة، أو مظاهر أخرى للغنى والبهرجة سواء على الأشخاص أو على الأثاث فيجب فى هذه الحالة أن نتغاضى عن السخرية من هذا المظهر الخيالى للغاية.

كما أن العيوب الطبيعية لا تعتبر موضعًا مناسبًا للسخرية، ولكن عندما تكون أهداف القباحة هى مدح الجمال أو محاولات الرثاء لإظهار الذكاء؛ فحينئذ تكون الظروف السيئة هى التى حركت فى بادئ الأمر عطفنا، وهدفها هو إثارة بهجتنا.

وإلى حدٍّ بعيد نقل الشاعر لنا هذا قائلاً:

لا يوجد فى الوقت الحاضر ما يجعلهم مذنبين

ولكى لا يكونوا كذلك، ففى أى شىء يفكرون

لو ما أخلت كلمة سخرية بوزن البيت لكانت كلمة يفكرون أكثر كلمة ملائمة.العيوب الكبيرة هى البواعث المناسبة لبُغضنا، والعيوب الصغيرة هى البواعث المناسبة لشفقتنا، لكن التصنع يبدو لى أنه المصدر الوحيد الحقيقى للأعمال الساخرة.

من الممكن أن يثار اعتراض ضدى لأننى – عكس ما حددته من شروط لنفسى– فقد قدمت عيوبًا فى هذا العمل من نوع سوداوى، وسوف أجيب عن هذا قائلاً: أولاً: إنه لمن الصعب تتبع سلسلة من حركات السلوك الإنسانى وتجنب مثل هذه العيوب. ثانيًا: العيوب الموجودة هنا هى النتائج غير المقصودة لبعض نقاط الضعف الإنسانية أكثر منها الأسباب الموجودة للعقل. ثالثًا: إنها ليست مقدمة لتكون بواعث السخرية لكن الواضح منها الكراهية. رابعًا: إنها ليست الأمر الأساسى فى هذا الوقت للمشهد. وأخيرًا: إنها لا تُبرز الشر المقصود.

بذلك فقد ميزت قصة جوزيف أندروس عن الأعمال التى أكتبها؛ بأنها أثر أدبى لمؤلفى الرومانسية من ناحية ومؤلفى السخرية من ناحية أخرى، أعطيت بعض التلميحات القصيرة جدا والقليلة لتلك المؤلفات التى قد تأكدت أنها ليست موجودة إلى الآن فى لغتنا. وسوف أترك القارئ الحسن الخُلُق يطبق ملاحظاتى على قصتى هذه، ولن أقيده أكثر من ذلك إلا بكلمة تخص الشخصيات فى هذا العمل.

وهنا لى احتجاج بأننى ليس لدى أية نوايا لذم أو تشويه سمعة أى أحد، وعلى الرغم من أن كل شىء منسوخ من الطبيعة ونادرًا ما يكون هناك أداء أو شخصية ليست نابعة من خبراتى ومشاهداتى الخاصة، فإننى أبديت أقصى اهتمام

لحجب الأشخاص بتلك الظروف، والألوان، والدرجات المختلفة، حيث سيكون من المستحيل معرفة شخصياتهم بأية درجة من اليقين. ولن يحدث ذلك إلا إذا كان قصور الوصف دقيقًا جدا، وهو نقطة الضعف الوحيدة التى يمكن أن يضحك عليها المشارك أو أى فرد آخر.

أما بالنسبة لشخصية أدمس فبما أنها أكثر شخصية لافتة فى العمل، فأنا مقتنع أنها ليست موجودة فى أى كتاب الآن. فهى شخصية بسيطة للغاية، وطيبة قلبه تجعله طليق المحيا، لذلك أتمنى أن يغفر لى رجال الدين، وهم من يستحقون مكانتهم الدينية، وليس هناك من يستحق احترامًا أكثر منهم. وأن يغفروا لى المغامرات الدنيئة التى تورط فيها، وقد جعلته رجل دين حيث لم يكن هناك منصب آخر أعطاه العديد من الفرص لعرض نزعاته الفاضلة.

البـاب الأول

الفصل الأول

الحياة عمومًا،

وخاصة عن باميلا،

ثم كلمة فرعية عن كولى سيّبر وآخرين.

إنه لشيء مبتذل ولكنها مشاهدة حقيقية أن يكون للعبر والأمثلة تأثيرٌ فعالٌ على العقل أحسن من تأثير التعاليم الأخلاقية، ولو كان ذلك فيما هو بغيض وجدير باللوم، فهو أكثر قوةً فيما هو لطيفٌ ويستحق المدح. نرى هنا محاكاةً تتحكم فينا بفاعلية تامة، وتلهم تقليدنا بطريقة لا تقاوم. لذلك فإنّ الشخص البارع يعتبر درسًا قائمًا لكل من يريد التعرف على شخصيته، ويمكن أن تكون له فى هذه الدائرة الضيقة فائدةٌ أعظم من فائدة الكتاب المقدس.

لكن كما يحدث غالبًا الرّجال العظماء قِلّة، ونتيجة لذلك لا نستطيع التوسع فى الاستفادة من أمثلتهم توسعًا كبيرًا. ويمكن أنْ نستعين بالكاتب فى سرد تاريخهم، وعرض الصور اللطيفة لهؤلاء الذين لا يسعدهم الحظ فى معرفة الأشخاص المبدعين الأصليين.

لذلك فإنه بربط مثل هذه الأنماط القيمة بالعالم قد يؤدى الكاتب خدمة كبيرة للبشرية، ويكون دوره أحسن من الشّخص الذى كانت حياته أصلاً نموذجًا لهذا النمط.

فى ضوء ذلك كنت مهتمًا دائمًا بهؤلاء الذين يقومون بكتابة السِّير الذاتية، والذين يسجلون سلوك الأشخاص العظماء من كلا الجنسين. ولا نريد أنْ نذكر الكُتَّاب السالفين؛ حيث يقرأ لهم فى هذه الآونة الأخيرة قِلةٌ، وذلك لأن كتابتهم عتيقةٌ، ولأنهم يفكرون على وجه التعميم، ولغاتهم غير مفهومة، وهؤلاء هم بلوتارك Plutarch، و نيبوس Nepos، وآخرون من الذين سمعتُ عنهم فى شبابى.

إنّ لغتنا مزودةٌ بتركيبٍ واستخدامٍ ممتازٍ، ومعدةٌ بطريقة جميلة لغرس بذور الفضيلة فى الشباب، ومن السهل جدا أن يفهمها الأشخاص العاديون.

على سبيل المثال تاريخ جون الأكبر الذى حصل بشجاعته وأعماله البطولية، ضد أصحاب الأجسام القوية والعملاقة، على اللقب العظيم "قاتل العمالقة" بالإضافة إلى وارل واركويك Warwick Warl الذى كان اسمه الأول جاى Guy، وحياة أرجالوس Argalus و بارثينيا Parthenia.

وفضلاً عن كل ذلك، تاريخ سبعة من هذه الشخصيات البارزة وهم أبطال المسيحية. فى كل هذا نجد أن البهجة ممتزجة بدروس مفيدة وأن الكاتب تقريبًا تسلى بقدر استفادته.

لكننى أمر على هؤلاء والعديد من الآخرين؛ لأذكر كتابين نُشرا فى الآونة الأخيرة، يعطيان مثالاً رائعًا لكل من الجنسين، وأولهما يتحدث عن عفة الرجل التى كتبها هذا الشخص العظيم بنفسه وسجل حياته التى عاشها، يُعتقد أنه عاش هذه الحياة فقط من أجل الكتابة عنها. والآخر نقل لنا حياة الآخرين، وهو مؤرخ اقترض محتوياته بأسلوب شائع وذلك من سجلات وأوراق موثوق بها.

أعتقد أن الكاتب قد استحضر بالفعل حياة السيد كولى سيبر، والسيدة باميلا أندروس. كم كان هذا الشخص المذكور سابقًا بارعًا فى إثارة الشك، حيث هرب للارتقاء لأعلى المراتب فى الكنيسة، وهذا يعلمنا احتقار عظمة الحياة الدنيوية. وكيف غرس فى أذهاننا بقوة الخضوع المطلق لرؤسائنا. وأخيرًا، كيف سلحنا ضد كل ما هو صعب، وكل ما هو رهيب، وضد عاطفة الخوف من العار، وكيف عرض لنا بوضوح فراغ الشهرة وتفاهتها وهمها.

ونجد أن ما تعلمته النساء من مذكرات السيدة أندروس موجود فى خطابات ومقالات ممتازة فى بداية الطبعات الثانية والتالية لهذا العمل، لذلك فلن نحتاج إلى التكرار.

التاريخ الحقيقى الذى أقدمه الآن للعامة، هو مثال للفائدة التى ستعود من تقديم هذا الكتاب؛ حيث سيظهر لنا أنه من خلال الاقتداء بوجود عفة أخته أمام عينيه؛ أصبح قادرًا على الاحتفاظ بعفته وسط هذه الإغراءات العظيمة.

وليس لدىَّ سوى إضافة القول بأن هذه الشخصية، وهى شخصية الرجل العفيف، على الرغم من أنه بلا شك شخص مرغوب فيه، وهو أحد أجزاء الجنس البشرى مثل الآخرين، فإن العفة تقريبًا الفضيلة الوحيدة التى لم يعطها المدافع عن القضية لنفسه من أجل إعطاء قرائه مثالاً يحتذيه.

الفصل الثانى

السيد جوزيف أندروس،
مولده،
وتعليمه،
ومواهبه العظيمة،
وبعض الملاحظات عن أجداده.

السيد جوزيف أندروس هو بطل تاريخنا الناشئ، وجدير بالذكر أنه الابن الوحيد لجافر وجامر أندروس، وأخ للمعروفة باسم باميلا حيث عُرفت بعفتها في هذا الوقت.

أما أجداده فقد بحثنا باجتهادٍ كبير ولكن دون جدوى، فلم نكن قادرين على تتبع خطاهم، فلم نصل إلا إلى جدهم الأكبر، وبما أنه كان أكبر شخص في الأبرشية فقد تذكر أنه سمع والده يقول: إنه مبارز نبابيت بارع. أما عن وجود أى أجداد آخرين له فنترك ذلك لرأى قارئنا المحب للاطلاع، لكنه لن يجد تأكيدًا كافيًا يمكن الاعتماد عليه.

إننا لا نستطيع حذف النقوش المكتوبة على الضريح، لأنها صديق حاذق لنا والتى نقلها لنا صديق يدعى الذكاء وقد نقلت كما يلى:

امكث أيها المسافر تحت هذا المقعد الخشبى
ارقد ونم نومًا عميقًا أيها الرجل المرح أندرو
عندما تعطى شمس اليوم الأخير لونًا ذهبيًا للسماء

سيـــقـــوم ويـــنهـــــض من قــــبـــره
كن مرحًا وإن كنت لا تستطيع فمن المؤكد أنك
قريبًا ستكون حزينًا مثلما هو الآن حزينٌ.

هذه الكلمات كانت تقريبًا قديمة قدم أحجار الضريح، ولا حاجة لنا لملاحظة الطريقة التى كُتبت بها كلمة أندرو؛ فهى مكتوبة بدون "س" علاوةً على ذلك، فهـو اسم مسيحى.

فضلاً عن ذلك، يُخمن صديقى أن يكون هذا هو مؤســس فرقــة الفلاســفة الضاحكين التى أُطلق عليها أندروس المرح.

لذلك نتخلى عن التفاصيل على الرغم من تطابقها مع القواعــد الــصحيحة للسيرة الذاتية؛ فهى ليست أداة مهمة، لأننى أقدم أشياء أكثر أهمية منها.

فى الحقيقة، إنه تأكيد كافٍ أنه مثل أحسن رجل على قيد الحياة، لديه عديــد من الأجداد، وربما إذا نظرنا إلى خمسة أو ستة عقود ماضية، فنجد أنه يمكــن أن تكون هناك شخصية مهمة جدا فى الوقت الحاضر مرتبطة ببعض الأشخاص دفــن أجدادهم فى منتصف القرن الماضى فى ظلمة تامة.

لكن ولنفترض جدلاً أننا يجب أن نعترف بعدم وجود أجداد سالفين له، وأنــه نشأ كما يقال فى الأسلوب الحديث من كومة روث، كما تظاهر الاثنان أنهما خرجا من الأرض، أليست "autokopros" التى تعنى "كومة روث" لقب المدح الناشئ من فضائله الخاصة؟

أليس من الصعب على الرجل الذى ليس لديه أجداد أن يستسلم لعدم قدرتــه على اكتساب الشرف، بينما نرى العديد من هؤلاء الــذين ليــست لــديهم فــضائل متمتعين بشرف أجدادهم؟

عندما كان صبيًّا فى سن اشرة (فى هذا الوقت تقدم فى التعليم حيث بدأ القراءة والكتابة) كان طبقًا للقانون تحت وصاية توماس بوبى عم السيد بوبى.

يمتلك السيد توماس ضيعة، اشتغل فيها أندروس فى بادئ الأمر ما يسمى بخيال مآتة. كانت وظيفته هى تأدية جزء تنازل عنه السالفون للإله باربيس الذى تطلق عليه الألوهية الحديثة اسم جاك أولنيت.

كان صوت أندروس موسيقيًّا للغاية؛ لدرجة أنه كان يفتن الطيور بدلاً من إخافتها. لذلك سريعًا ما نقل من الحقول إلى أماكن تربية الكلاب، حيث كان مكانه مع الصَّيادين، وكان يفعل ما يطلق عليه بالمصطلح الرِّياضى الضرَّب بالسوَّط. وفى هذا المكان أيضا أدت حلاوة صوته إلى عدم تأهيله للوظيفة، لأن الكلاب كان يعجبها طريقته فى التوبيخ الملحن أكثر من أصوات الصيادين، لدرجة أنهم غضبوا من وجوده وطلبوا من سير توماس نقله من هذا المكان وحملوه مسئولية أخطاء الكلاب.

وحينئذ ظهرت دلائل قوته وذكائه رغم صغر سنه؛ فعندما ركب أحد الخيول وهو أكثرها وحشية وجرأة، سار به إلى الماء بشجاعة أدهشت الجميع. وحينما كان فى هذا المكان شارك فى العديد من السباقات التابعة للسير توماس بنجاح وخبرة، لدرجة أن بعض السادة من جيرانه طلبوا منه أن يسمح للصغير جوى (كما أطلق عليه) أن يدخل مسابقاتهم ويمتطى فرسهم.

كان أفضل المقامرين يستفسرون دائمًا قبل تقديم أية نقود عن الحصان الذى سيركبه جوى، ويحدد الرهان بناءً على راكب الخيل، وليس على الخيل نفسه، خاصة بعد أن رفض رشوة كبيرة حتى يتلاعب فى نتيجة السباق. ورفع ذلك من شأنه مما أسعد الليدى بوبى التى رغبت فى أن تجعله خادمها الخاص (وقد أصبح الآن فى السابعة عشرة من عمره). وأصبحت وظيفة جوى الآن داخل الإصطبل، ومساعدة السيدة بوبى بدلاً من العمل فى الإصطبل وذلك بالذهاب لأداء المهام،

والجلوس خلف مقعدها، وتلبية أى طلب أثناء تقديم الشاى، وكــان يحمــل كتــاب الأدعية لها أثناء ذهابها إلى الكنيسة، وداخل الكنيسة أعطاه صوته الفرصة فــى أن يكون مميزًا فى تلاوة الترانيم المقدسة، وكان يتصرف بطريقــة محترمــة أثنــاء المراسم الدينية؛ مما لفت انتباه السيد إبراهام أدمس راعى الأبرشية، والذى سنحت له الفرصة يومًا ما حينما كان يتناول كوبًا من شراب البيرة فــى مطــبخ الــسير توماس أنْ يسأل الصبى عدة أسئلة فى الدين، وكانت إجاباته رائعة؛ مما أسعد السيد إبراهام وجعله موضع اهتمامه.

الفصل الثالث

السيد إبراهام أدمس راعى الأبرشية،
والسيدة سيلبسلوب الوصيفة المسئولة
عن غرف النوم، وآخرون.

كان إبراهام أدمس دارسًا ممتازًا، وكان ماهرًا فى تدريس اللغة اليونانية واللاتينية، وأضاف إليهما نصيبًا وافرًا من المعلومات عن اللغات الشرقية، واستطاع قراءة وترجمة الفرنسية والإيطالية والإسبانية. وخصص عدة سنوات للدراسة الشاقة، وادخر جزءًا من المال للتعلم ببراعة نادرًا ما يمكن وجودها فى الجامعة.

وعلاوة على ذلك، فقد كان رجلاً لديه حس جيد، ورحابة صدر، وسجية طيبة. ولكنه كان فى نفس الوقت جاهلاً تمامًا بأساليب هذا العالم؛ كما لو أنه كان طفلاً خرج إلى العالم توًا. ولأنه لا يحمل أية نية للخداع، فهو أيضا ليست لديه نية للشك فى الآخرين.وكان كريمًا، وودودًا، وشجاعًا بدرجة فائقة، ولكن كانت البساطة من سماته.وهو لا يفعل أكثر مما يفعله السيد كولى سيير من إدراك أية مشاعر كالمكر والحقد الموجود داخل البشر. وهو أقل وضوحًا حقا فى الشخص الريفى عما نلاحظه فى شخص من طبقة اجتماعية، أمضى حياته خلف المشاهد الطبيعية فى مكان قلما يعتبر مدرسة من البراءة، حيث يمكن لبعض الملاحظة أن تقنع المدافع عن القضية أن تلك المشاعر لها وجود حقيقى داخل العقل البشرى.

ولأن عفته ومؤهلاته الأخرى جعلته كفؤاً لمنصبه، فقد جعلته رفيقًا وموضع تقدير واحترام، وقد جعلته مقربًا من رجل دين مهم، حتى إنه عندما بلغ الخمسين كان يملك دخلاً ملائمًا يبلغ ثلاثة وعشرين جنيها سنويا، ومع ذلك لم يكن بإمكانه صنع الكثير به، لأنه عاش فى بلدة مكلفة المعيشة، وتحمّل أعباء زوجة وستة أطفال. لقد كان هذا الرجل - كما قلت آنفًا - شاهدًا على إخلاص الصغير أندروس، ووجد وسيلة لسؤاله عن عدة بنود منها:

كم عدد الكتب الموجودة فى العهد الجديد؟ وما هى؟

وكم عدد الفصول التى تحتوى عليها؟ وما إلى ذلك.

وعلى كل هذا قال السيد أدمس سرًّا: إن أندروس أجاب بطريقة أفضل من السير توماس وأحسن مما يفعله اثنان آخران من القضاة.

وكان السيد أدمس متشوقًا لمعرفة فى أى وقت وبأى فرصة اطلع هذا الشاب على هذه المعلومات. وأجابه جوى أن والده علمه القراءة والكتابة مبكرًا، وعلى الرغم من ذلك لم يهتم إلى حد ما بإدخاله مدرسة مجانية؛ وذلك لأن ابن عم والده صاحب الأملاك لم يُنتخب وكيل كنيسة فى مدينة إنجليزية، لذلك وجد نفسه مسئولاً عن نفقة تقدر بستة بنسات أسبوعيا على تعليمه. وقال له أيضا بما أنه فى عائلة السير توماس فإنه يكرس كل أوقات فراغه فى قراءة الكتب المقدسة، فقد قرأ **الإنجيل** وقرأ **واجب الإنسان** وقرأ **توماس فى كيمبس**. واستطاع دون أن يلاحظ أحد أن يقرأ كتابًا عظيمًا وجده مفتوحًا فى بهو المنزل، حيث قرأ فيه "كيف يختفى الشيطان من الكنيسة فى وقت إلقاء الخطبة دون أن يضر أحدًا من رعايا الكنيسة، مثلما يفر الحريق من حقل الذرة بكل أشجاره، وينشب فى أرض خضراء ملك لآخر".

وأكد هذا للسيد أدمس أن ما يعنيه بهذا الكتاب العظيم وكتاب **يوميات ساكير** واندهش راعى الأبرشية عندما وجد مثل هذه الأمثلة من الكد والعمل فى شاب لم يشجع بأقل تشجيع. وقد سأله إن كان قد ندم على تلقيه التعليم الحر، وأنه نشأ بين أبوين لم يشبعا رغبته بالمعرفة؟ وأجابه بأنه كان يتمنى ذلك. وقد استفاد جيدًا من الكتب، وقرأ بدلاً من أن يرثى حالته فى الدنيا.

ومن جانبه فقد كان راضيًا تمامًا بحالته التى كان يتحدث عنها، قائلاً بأنه يسعى لتحسين مواهبه التى اكتسبها، ولكنه لم يشكُ من قسمته، ولم يحقد على من هم أحسن منه.

أجاب راعى الأبرشية قائلاً:

"خيرٌ ما قلت يا غلام، وأنا أتمنى أن بعض من قرأ العديد من الكتب المقدسة، بل بعض من كتبوها أن يستفيدوا منها نفس هذه الاستفادة العظيمة".

ولم يجد أدمس أية وسيلة للاقتراب من السيد توماس أو سيدتى إلا عن طريق خادمة السيد توماس؛ حيث كانت شديدة الذكاء، فلم تكن تُقيّمُ الرجالَ من ملابسهم أو ثروتهم فحسب. وكانت سيدتى امرأة مرحة أنعم الله عليها بالتعليم الجيد، ولم تكن تذكر أيًا من جيرانها إلا بوصفهم "همجيين".

وكل منهما اعتبر أن راعى الأبرشية ما هو إلا رجل ريفى، ينتسب إلى قس من أبناء الأبرشية، والذى كان فى هذا الوقت على خلاف مع الفارس، لأن القس عاش عدة سنوات على خلاف مع السيد توماس، ومستأجرو مزرعته فى حالة حرب أهلية مستمرة بسبب سوء القانون المدنى.

وكان أساس هذا الخلاف الطريقة التى تُتبع فى جباية المال؛ حيث كان يجمع جزءًا من المال سنويا ويعطيه لرئيسه، ولكنه لم يكن قادرًا على تحقيق غرضه، لأنه على الرغم من أنه أساء إلى كثير من المؤجرين الفقراء، فإنه شخصيا عانى من الفقر الشديد.

كانت السيدة سيلبسلوب الخادمة وهى ابنة راعى الأبرشية، تحمل نوعًا من الاحترام لأدمس، وقد أظهرت احترامها الكبير لتعليمه، وكانت كثيرًا ما تتجادل معه فى نقاط من نظرية اللاهوت، وبما أنها كانت تذهب دائمًا إلى لندن؛ فقد عرفت الكثير عن العالم أحسن مما يتظاهر به القس الريفى. وكانت فى هذه الخلافات لها ميزة خاصة تميزها عن أدمس؛ فقد كانت متأثرة جدا بالكلمات الصعبة التى كانت تستخدمها بطريقة القس نفسها، والذى داوم على عدم مضايقتها؛ وذلك بعدم التساؤل عن معنى كلماتها المبهمة، وكان معناها دائمًا يحيره، وهى ليست أقل غموضًا من المخطوط العربى.

لذلك كانت لأدمس الفرصة يومًا ما بعد نقاش طويل معها فى الموضوع نفسه (أو كما تحب هى أن تسميه عَبَق الموضوع) أن يذكر لها حالة الصغير أندروس، متمنيًا أن تتوسط له عند سيدتها، وبما أنه شاب سريع التأثر بالتعليم؛ فسوف يتعهد بكل الطرق أنه سوف يؤهل نفسه لمنزلة أعلى من أن يكون خادمًا، وأضاف قائلاً إنها تعرف أنه فى مقدرة سيده أن يعوله بطريقةٍ أفضل، ويتمنى أن يترك الصبى تحت رعايته.

قالت السيدة سيلبسلوب: "لا يا سيد أدمس، هل تعتقد أن سيدتى سوف تتحمل أية مقدمات عن مثل هذا الموضوع؟ إنها ستذهب قريبًا إلى لندن، وأنا واثقة من أنها لن تترك جوى مهما كان السبب، لأنه واحد من أظرف وأرق الرفقاء الذين يمكن أن نقابلهم فى أى يوم، وأنا واثقة من أنها يمكن أن تفكر فى التخلى عن زوجين من الخيول الرمادية التى تقدرها جدا، لكن لن تتخلى عن جوى" ويحاول أدمس مقاطعتها، ولكنها تواصل قائلة " لماذا نعتبر اللغة اللاتينية أهم لخادم من أن يصبح سيدًا؟ إنها مناسبة لكى تتعلموها أنتم يا رجال الدين، لأنكم لن تستطيعوا الوعظ بدونها، لكننى سمعت سيدًا فى لندن يقول إنه لا يلائم أى شخص آخر. إننى واثقة أن سيدتى ستغضب منى إذا ذكرت لها ذلك، وسوف أضع نفسى فى مأزق".

حينئذ رن جرس سيدتها واضطر السيد أدمس أن يذهب، وقد رأى أنه ليست هناك فرصةٌ ثانية له معها قبل رحلتهم إلى لندن التى ستكون بعد أيام قليلة.

ومع ذلك، شكره أندروس على نواياه الطيبة، وقال له إنه لن ينسى له هــذا المعروف، وفي الوقت نفسه نصحه هذا الرجل الطيب بتنظيم مــستقبله والمثــابرة على الكد والمحافظة على نقائه.

الفصل الرابع

ما الذى حدث بعد رحلتهم إلى لندن.

بعد أن وصل الصغير أندروس لندن، بدأ يجتهد فى التعرف على أشخاص مختلفى الهوية، جعلوه يكره ما مضى من حياته، فقام بقص شعره على أحدث موضة، وأصبح شعره هو شغله الشاغل، فكان يخرج به صباحًا مزينًا ويمشطه ظهرًا، ومع ذلك فإنهم لم يستطيعوا أن يعلموه المقامرة، أو الشرب، أو السب، أو أية رذيلة أخرى سائدة فى المدينة.

وكان يقضى معظم أوقات فراغه فى الاستماع إلى الموسيقى، التى درب نفسه عليها؛ حتى أصبح خبيرًا وذواقةً، وقاد رأى كل الخدم الآخرين فى الأوبرا الذين لم يبرزوا رأيهم فى أية أغنية إلا وفقًا لرأيه. وأخذته نزعة الشغب فى المسارح والاجتماعات، وعندما كان يحضر مع سيدته فى الكنيسة (وكان ذلك نادرًا) كان يتصرف بورع أقل مما كان عليه سابقًا.

ومع ذلك فكان يبدو أنه رفيق لطيف، وأخلاقه لا تزال - إجمالاً - غير منحرفة، لكنه فى نفس الوقت أصبح أذكى وألطف وأحسن من أى شخص فى المدينة سواء داخل أو خارج زى الخدم.

وكانت سيدته كثيرًا ما تقول عنه: إن جوى هو ألطف خادم فى المملكة، ولكن للأسف يحتاج إلى بعض الحيوية. وقد بدأت الآن تجد أن هذا العيب لم يعد موجودًا، بل على العكس بدأت تشكو دائمًا قائلة: "نعم بداخل هذا الرفيق نوع من الحيوية".

ورأت بوضوح تأثير جو المدينة على هذه البنية الوقورة. وهى الآن يمكن أن تتنزه معه فى حديقة هايد بارك فى الصباح، وعندما تشعر بالتعب، وهو تقريبًا ما يحدث كل دقيقة؛ تميل على ذراعه وتتحدث معه بألفة شديدة. وعندما تخرج من مركبتها تمسك يده، وأحيانًا تخاف من التعثر فتضغط عليها بشدة. وقد سمحت له أن يجلب إليها الرسائل وهى فى فراشها فى الصباح، وأعطته كل هذه الحريات الطاهرة دون أدنى إساءة أو خَدْش لسمعتها.

لكن على الرغم من الحفاظ على عفتها، فإنه بدأت تظهر بعد ذلك ومضات صغيرة، ففى صباح يوم تصادف أن السيدة بوبى كانت مع جوى وكلاهما يمسك يد الآخر فى هايد بارك، فمرت بهما السيدة تيتل والسيدة تاتل بمركبتهما:

قالت السيدة تيتل: " يا إلهى ، أحقًّا ما أرى ، هل هذه هى السيدة بوبى؟"

قالت السيدة تاتل: " مؤكد ، لكن ما الذى يدهشك؟ "

فأجابت تيتل " أليس هذا خادمها؟ "

فضحكت تاتل وصرخت قائلة " أؤكد لك أنها مسألة قديمة معقولة، لم تسمعى عنها من قبل "

وبعد هذا الحديث بدأت السيدتان فى إشاعة هذا الخبر؛ مما كان له أثر سيئ. وفى اليوم التالى بدأت المدينة بأكملها التحدث عن هذا الخبر.

لكن مهما كان الرأى أو الشك فى رغبة تشويه السمعة، فهذا يمكن أن يكون تعديًا على حريات السيدة بوبى الطاهرة.

من المؤكد أنهم لم يعطوا أى انطباع عن أندروس الذى لم يتجاوز حدود الحرية التى سمحت بها سيدته، وكان يحمل لها احترامًا شديدًا، وهو الذى أبرز شيئًا بدأت تدركه، وهو ما سوف يظهر فى الفصل التالى.

الفصل الخامس

وفاة السيد توماس بوبى، وحزن
وتأثر زوجته التى أصبحت أرملة،
والإخلاص العظيم الذى أبرزه جوزيف
أندروس.

فى ذلك الوقت حدثت واقعة وضعت حدًّا لهذه الخطوات المتناغمة، والتى من المحتمل أن تكون أوضحت جوانب سمعتها، وجعلتها تطلق صرخاتها المدوية فى المدينة. وهذه الواقعة ما هى إلا رحيل السيد توماس بوبى، الذى ترك زوجته دون مواساة مقيدة فى منزلها، كما لو أنها هُوجمت بمرض عنيف.

وخلال الأيام الستة الأولى لم تقابل السيدة المسكينة أحدًا، سوى السيدة سيلبسلوب وثلاثًا من صديقاتها، واللاتى قمن بلعب الكوتشينة، وفى اليوم السابع طلبت من جوى – الذى سنطلق عليه من الآن فصاعدًا اسم جوزيف – أنْ يحضر لها إبريق الشاى. وطلبت السيدة وهى فى فراشها من جوزيف أنْ يجلس، وبدون قصد وضعت يدها على يده، وسألته إن كان قد سبقت له تجربة حب. وأجاب جوزيف بشىء من الارتباك إنه صغيرٌ جدا على التفكير فى مثل هذه الأشياء.

قالت السيدة: "على الرغم من صغر سنك، فإننى مقتنعةٌ أنّ هذه العاطفة ليست غريبةً عليك، تعال يا جوى. أخبرنى بالحقيقة من تكون هذه الفتاة السعيدة التى نالت إعجابك؟"

أجاب جوزيف قائلاً إن كل من قابلهم من النساء لم يؤثروا على مشاعره بأى شكل.

قالت السيدة: " آه، إنك حبيب رفيع المنزلة. فى الحقيقة إن الرجال الذين يتسمون بالوسامة مثل النساء الجميلات، يأخذون وقتًا متأخرًا فى إيجاد من يناسبهم. ولكننى لم أقتنع بعدُ أن قلبك لم يتأثر بالحب. ويمكن أن يكون ما تقوله يرجع إلى أنك كتوم، وهى صفة جديرة بالثناء، ولن تجعلنى غاضبةً منك. لا يوجد شىء حقير فى شاب سوى خيانة علاقاته الجنسية مع سيدات."

قال جوزيف "سيدات، أنا متأكد يا سيدتى أنى لا أملك الجراءة على التفكير فيمن تستحق هذه الصفة ".

قالت " لا تتظاهر بكل هذا التواضع، لأن ذلك قد يكون أحيانًا وقاحة، لكن أرجوك أن تجيبنى على هذا السؤال. افترض أن سيدةً ما تحبك وافترض أنها فضلتك على باقى جنسك، وسمحت لك برفع الكلفة وبالألفة التى تتمناها لو كنت على نفس مستواها الاجتماعى، فهل أنت متأكد من أن غرورك لن يدفعك إلى كشف هويتها؟ أجبنى بأمانة ياجوزيف، هل لديك حسٌ عالٍ، هل لديك عفةٌ عالية أكثر من التى توجد عند أى شاب وسيم لا يملك الضمير الذى يمنعه من التضحية بسمعتنا العزيزة بثقة ودون التفكير فى أى التزام؟ هل يمكن أن يكون هذا سرًّا يا جوى؟"

قال جوزيف " سيدتى، أتمنى أن لا تتقلينى أبدًا بخيانة أسرار العائلة، وأتمنى أن لا يكون فى نيتك طردى، فأنا لا أجد فيك هذه الصفة."

قالت: "ليس بنيتى طردك". وتنهدت قائلةً: " ذلك ليس فى سلطتى". وبعد ذلك رفعت نفسها قليلاً فى فراشها؛ فكشفت ما لا يمكن أن يُرى وحينئذٍ احمر وجه أندروس خجلاً.

فقالت وهى تتصنع المفاجأة: " لا، ما هذا الذى أفعله؟، لقد وثقت من نفسى مع رجل بمفرده، وأنا هكذا فى فراشى، ولو افترضت أن لديك أية نوايا سيئة فكيف سأدافع عن نفسى؟ "

قال جوزيف محتجًا إنه ليست لديه أية نوايا سيئة تجاهها.

قالت: "لا، ربما لا تكون لديك أية نوايا سيئة، وربما تكون هذه النوايا موجودة".

فأقسم لها أنه ليس هناك شيء فى نفسه.

قالت: " لقد أسأت فهمى، أنا أعنى لو أنها ضد شرفى فقد لا تكون سيئة، ولكن العالم يطلق عليها ذلك، لكن العالم لن يعرف شيئًا عن ذلك لأننى واثقة أنك سوف تصون هذا السر. أليست سمعتى فى حوزتك؟ وأنت الآن سيدى؟ "

وتوسل إليها جوزيف أن تطمئن، لأنه حتى لن يتخيل أقل مكروهٍ ضدها وأن تجعله موضع ثقتها؛ فهو يفضل الموت على أن يعطيها أى سبب يجعلها تشك فيه.

قالت: "نعم، إن لدى سببًا للشك فيك، ألست رجلاً؟ وبدون غرور فأنا أتمتع ببعض الفتنة. لكن ربما تكون خائفًا أن أحاكمك، فى الحقيقة أتمنى أن تفعل، والسماء تعرف أننى لا يمكن أن أظهر أمام محكمة العدل، وأنت تعرف يا جوى أننى متسامحة. أخبرنى يا جوى ألم تفكر أننى سأغفر لك؟"

قال جوزيف: "فى الحقيقة إننى لن أفعل أى شيء ضد رغباتك".

قالت: " إنك لا تفهمنى، إذن فإنك أحمق أو تتظاهر بذلك. أشعر أننى خُدعت فيك. لذلك ارحل ولا تدعنى أرى وجهك ثانيةً، إنك تتظاهر بالبراءة وهذا شىء لا يخدعنى".

قال جوزيف: "سيدتى، إننى لا أريد سيادتكِ أن تظنى بى أى سوء. إننى دائمًا أحاول أن أكون خادمًا مطيعًا لكِ ولسيدى".

أجابت السيدة: "آه، يا لك من وغد. لماذا تذكر اسم هذا الرجل العزيز، هـل لتعذبنى، تريد أن تجعلنى أتذكر ذكراه الغالية؟" (ثم انفجرت فى البكاء).

"لا أريد أن أراك أمامى. فأنا لا أستطيع أن أحتملك أكثر من هذا".

وعندئذ أعطته ظهرها وخرج جوزيف من الحجرة فى حالة حـزن شـديد، وكتب هذا الخطاب الذى سيقرؤه القارئ فى الفصل التالى.

الفصل السادس

كيف كتب جوزيف أندروس خطابًا لأخته باميلا.؟!!

"إلى السيدة باميلا التى تعيش مع سكوير بوبى.

أختى العزيزة، منذ أن تسلمت خطابك الذى أبلغتنى فيه بموت سيدتك الطيبة وقعنا فى محنة من نفس النوع فى عائلتنا.

توفى سيدى الفاضل سير توماس بوبى منذ أربعة أيام، وما هو أسوأ من ذلك هو أن سيدتى المسكينة فى حالة ارتباك، ولم يتوقع أحد من الخادمين أن يؤثر موته فيها، لأنهم كانوا تقريبًا كل يوم فى شجار، لكن لن أحكى المزيد، لأننى كما تعرفين يا باميلا إننى لا أحب أن أحكى أسرار عائلة سيدى، لكن ليكن فى معلومك أن كلا منهما لم يكن يحب الآخر، ولقد سمعت سيدتى تتمنى لسيدى الموت أكثر من ألف مرة، لكن لا أحد يشعر بقيمة صديقه إلا بعد أن يفقده بالفعل.

لا تخبرى أحدًا بما أكتبه لكى لا تنتشر أسرار العائلة بين الناس، ولولا أنها سيدة عظيمة لاعتقدت أنها تميل إلىّ.

عزيزتى باميلا، لا تخبرى أحدًا بما سأقوله لك، فإن سيدتى طلبت منى الجلوس بجانبها، وهى على فراشها وكانت مجردة من ملابسها وأمسكت يدى، وتحدثت إلىّ كأنها تتحدث إلى محبوبها على خشبة المسرح، وقد رأيت ذلك فى مسرحية كوفيت جاردن، حينما أرادت البطلة محبوبها رغمًا عن أنفه.

وإذا جنت السيدة فلن أستطيع أن أمكث مع هذه العائلة، لذلك فأنا أطلب بشدة أن تجدى لى مكانًا سواء عند عائلة سكوير أو أىٍّ من جيـــرانهم الأفاضـــل، إلا إذا كان ما يقوله الناس صحيحًا، وهو أنك سوف تتزوجين من بارسون ويليمز، ففـــى هذه الحالة سأكون مستعدا أن أصبح موظفًا عنده، لأننى كما تعرفين مؤهل لـــذلك، لأننى أستطيع القراءة وتلاوة الترانيم.

أعتقد أننى سوف أجبر قريبًا على ترك وظيفتى السابقة، على الأقـــل حتـــى أستطيع أن أرى بارسون أدمس وهو أفضل رجل فى العالم.

إن لندن مكانٌ سيئ، ومن النادر أن أجد فيها رفيقًـــا فاضـــلاً؛ فـــالجيران لا يعرف كل منهم الآخر. أرجوك أرسلى سلامى لكل من يسأل عنى من أصدقائى".

أخوك المحب

جوزيف أندروس

وبمجرد أن أنهى جوزيف خطابه وخرج، قابل السيدة سيلبـــسلوب، والتـــى ستكون للقارئ فرصة للتعرف على شخصيتها.

إنها شخصية فاضلة تعمل خادمة، عمرها حوالى خمسة وأربعـــين عامًـــا، أخطأت خطأ صغيرًا فى صباها؛ فظلت خادمة منذ ذلك الوقت. ولم تكن فى ذلـــك الوقت جميلة بدرجة ملحوظة؛ فهى قصيرة جدا وإلى حد ما بدينة جدا، بالإضـــافة إلى وجود بثور فى وجهها، كما أن أنفها وعينيها كبيرة جدا، وهى تشبه البقرة فـــى أنفاسها، كما لو كانت تحمل أمامها كرتين. إحدى قدميها أقصر من الأخرى فجعلها ذلك تعرج كلما مشيت.

هذه المخلوقة الجميلة تكنُّ لجوزيف بعض المشاعر التى لم تقابل بنجاح تام، حيث رغبت بكل هذا الإغراء الخلاب، أن يتناول معها الشاى والحلـــوى والخمـــر وأشياء أخرى شهية لديها السيطرة المطلقة عليها. ومع ذلك لم يعطها جوزيف أدنى

اهتمام أو يبدِ أى امتنان لتلك الأفضال حتى ولو بقبلة، وذلك لا يعنى أنه من السهل إرضاؤها. فى الواقع لقد وصلت إلى سن يجعلها تعتقد أنها يمكن أن تلهو مع رجل بحرية تامة دون الخوف من تدخل شخص ثالث لخيانتهما.

وقد تخيلت أنه بإنكارها لذاتها؛ فهى لم تُكفر فقط عن الخطأ الذى ارتكبته فى شبابها – الذى تم التلميح إليه آنفًا – ولكنها أيضا ادخرت للمستقبل عدة مزايا تبرر بها أى ضعف مستقبلى.

باختصار، إنها قد عزمت على أن تعطى لنزعاتها العاطفية متسعًا من الوقت، وأن تدفع دين السعادة التى تشعر أنها تدينه لنفسها وذلك بأسرع ما يمكن.

وبكل هذه الفتن التى تميز شخصيتها وهى فى هذه الحالة النفسية، صادفت جوزيف المسكين فى قاع السلم، وسألته إن كان يحب أن يشرب شيئًا ما فى هذا الصباح. فقبل جوزيف العرض بكل سرور وحيوية. فذهبا معًا للخلوة حيث قدمت له كوبًا مليئًا بشراب الراتيفيا وطلبت منه الجلوس، ثم بدأت السيدة سيلبسلوب حديثها قائلةً "مؤكد أنه لا يوجد شىء يجن امرأة أكثر من وضع كل اهتمامها بصبى. لو أننى قد فكرت فى أن ذلك سيكون قدرى؛ لتمنيت الموت ألف مرة بدلاً من العيش لرؤيته فى هذا اليوم. حينما يتقدم الصبى للزواج يخترق كل قواعد التحشم قبل توجيه أى لوم إليه".

أجاب جوزيف الذى لم يفهم كلمة مما تقوله "أجل سيدتى".

أجابت السيدة سيلبسلوب ببعض من الدفء " هل تنوى إثارة انفعالى، أليس بغيضًا بدرجة كافية ما فعلته من عدم العرفان بالجميل والشكرِ على ما قدمته لك من خدمات، وأن تعاملنى بسخرية وتجاهل؟ يا لك من وحش غير متمدن!! هل تستحق عواطفى هذا التجاهل وهذه السخرية؟"

أجاب جوزيف: "سيدتى، أنا لا أفهم كلماتك القاسية، وأنا فعلاً لا أعرف سببًا يجعلك تصفيننى بأننى ناكر للجميل، ولم يكن فى نيتى الإساءة إليك، وإننى أحبك تمامًا كما لو كنت أمى".

قالت السيدة سيلبسلوب ثائرة: "أمك، هل قررت أننى عجوز لدرجة أن أكون أمك؟ إننى لا أعرف الطريقة التى يفكر بها الغلام المراهق، ولكنى أعتقد أن الرجل يمكن أن يصفنى بأننى مراهقة حمقاء مصابة بفقر دم أو ما إلى ذلك. لكن يجب أن أحتقرك بدلاً من أن اغضب منك، لأنـك تفـضل الحـديث عـن الـسيدات ذوات الإحساس المرهف".

قال جوزيف: " سيدتى، أنا متأكد أننى دائمًا أقدر تكرمك بالحـديث معـى؛ وذلك لأنك امرأة تعرفين أصول الذوق".

قالت بعد أن هدأت قليلاً بهذه المجاملة " نعم، لكن يا جوزيف لو كنت حقـا تقدرنى لبحثت عن طريقة لإظهار هذا التقدير لى، لأنى أعرف أنك تـشعر بمـدى التقدير الذى أكنه لك. إن عينى لا تستطيع أن تخفى ما أكنـه وأحملـه لـك مـن مشاعر.. آه ياجوزيف!!"

ومثل أنثى النمر الجائعة التى طالت تبحث فى الغابات غير المثمرة ثم ترى تحت مخالبها حَمَلاً وديعًا فتبدأ تجهز نفسها لتنقض عليه. أو مثل قمة الشره التـى تملأ الأسماك النهرية أو أسماك الشبوطيات التى لا تستطيع أن تقاوم فكيها فتفتحهما لابتلاع الأسماك الصغيرة.

هكذا فعلت السيدة سيلبسلوب حينما جهزت نفـسها لكـى تجعـل جوزيـف المسكين يقع فى شباكها. لكن لحسن الحظ سمعت رنين سيدتها، فتركـت الـشهيد المنتظر وحررته من شباكها. وكانت مجبرة أن تتركه فورًا وأن تؤجل تنفيـذ مـا تريد أن تفعله لوقت لاحق.

لذلك علينا أن نرجع إلى السيدة بوبى لنحدث القارئ عن سـلوكها بعـد أن تركت جوزيف فى حدة وانفعال، لا يختلف تمامًا عن مشاعر سيلبسلوب المتأججة.

الفصل السابع

أقوال الحكماء،
وحوار بين السيدة وخادمتها،
وإطراء أو إلى حد ما سخرية حول عاطفة الحب.
وذلك بأسلوب رفيع.

لاحظ أحد الحكماء السالفين وقد نسيت اسمه، أن العواطف تتحكم بشكل متفاوت في العقل البشرى، وهى كالمرض الجسمانى، على مقدار القوة والضعف، والصحة والفساد لأحدهما وللآخر. لذلك فإننا نأمل أن القارئ الحكيم سيتألم عند ملاحظة ما حاولنا جاهدين وصفه من العمليات المتفاوتة لعاطفة الحب فى عقلية السيدة بوبى اللطيفة والمهذبة، والتى تختلف عن عقلية السيدة سيلبسلوب الأقل كياسة والأكثر خشونة.

وقال فيلسوف آخر – وقد هرب اسمه أيضا من ذاكرتى–: إن القرارات التى تُتخذ أثناء غياب المحبوب المستهدف؛ هى عرضة جدا للزوال أثناء حضور هذا المحبوب، وسيكون هذا الفصل بمثابة تعليق على تلك الأقاويل الحكيمة.

بمجرد أن ترك جوزيف الحجرة بالطريقة التى رويت من قبل، وهى مرتبطة بخروج السيدة سيلبسلوب، فقد أثار ذلك خيبة أملها، وبدأ ينعكس بقسوة على سلوكها. فقد تحول حبها إلى ازدراء، وساعد الكبر فى تعذيبها. واحتقرت نفسها بسبب دناءة عاطفتها، واحتقرت جوزيف لعدم نجاحها معه، على الرغم من أنه فى رأيها أنها استطاعت التغلب عليه، وقررت التخلى عن هذا الموضوع كله.

بعد التقلب الكثير فى فراشها، ومناجاة نفسها، والتى لا نستطيع نقلها لكاتبنا. وفى النهاية قامت برن الجرس – كما سبق ذكره آنفًا – حينما حضرت إليها السي: سيلبسلوب التى كانت غاضبة من جوزيف أكثر من سيدتها.

قالت السيدة بوبى "سيلبسلوب، متى رأيت جوزيف؟ "

اندهشت المرأة العليلة عندما سمعت اسمه بصوتٍ غير متوقع وفـــى وقـ... حرج واستطاعت بأقصى صعوبة إخفاء ارتباكها أمام سيدتها، وأجابت بثقة لا ... بها على الرغم من أنها لم تخل تمامًا من الخوف المليء بالشك "إنها لم تــره ... الصباح".

قالت السيدة بوبى "إنها خائفة، لأنه شابٌ متوحش".

قالت السيدة سيلبسلوب " أهو كذلك؟ ".

قالت السيدة بوبى "وشرير أيضا، وعلى حد ... انه يقامر، ويــشرب، ويسب، ويتشاجر بصفة مستمرة. وعلاوة على ذلك فهو له علاقات نسائية لا حصر لها".

قالت السيدة: " آه، أنا لم أسمع ذلك عنه. "

أجابت الأخرى " إنه وغدٌ خليع، وإذا سمحت له بالاستمرار أكثر من ذلـــك؛ فلن تجدى أية عذراء فى بيتك إلا أنا. ومع ذلك فأنا لا أستطيع أن أفهم ما يجـــذب النساء إليه فأنا أراه قبيحًا قبح خيال المآتة".

" لا " قالت السيدة: " الفتى مظهره جيد "

صرخت سيلبسلوب قائلة " لا سيدتى، أعتقد أنه أسوأ شخصية فى العائلة "

قالت: " هل أنت متأكدة، يبدو أنك مخطئة، أية امرأة تشكين فيها "

قالت سيلبسلوب: " آه!! إذن أرجوك أعطِها أجرها فورًا. فلن أسمح بوجـــود أية فتاة منحلة فى عائلتى، وبالنسبة لجوزيف فيمكن أن تطرديه أيضا."

قالت سيلبسلوب: " هل سيادتك ستعطيه أجره وتجعليه يذهب فورًا."

ثم أضافت بانفعال: " ربما إذا رحل من بيتى سيصلح من نفسه، فهو حقا خادم بارع، وهو ولدٌ منمق وصحته قوية بدرجة كافية."

ردت السيدة بحدة " هذا الصباح أتمنى يا سيدتى أن تكونى متسامحة بدرجة تجعلك تعطيه فرصة أخرى."

قالت السيدة: "لن تكون أوامرى موضع نقاش."هل أنت متأكدة أنك لست مولعة به"

قالت سيلبسلوب: " أنا! "، واحمرت خجلاً " إننى حزينة بسبب تفكير سيادتك فى أية أسباب تجعلنى مولعة بهذا الشاب، وإن كان هذا يسعدك فسوف أُنفذه إن لم تكونى معارضة."

قالت السيدة: "سأحاول تصور ما تقولينه " ولذلك نفذى ما قلته حالاً "

وبعد أن خرجت السيدة سيلبسلوب رنت السيدة بوبى الجرس بعنف شديد.

عادت السيدة سيلبسلوب التى لم تدخل بسرعة، وطلبت السيدة منها إلغاء موضوع جوزيف وفصل بيتى دون تأجيل.

ثم خرجت ثانية بنشاط مبتهج أكثر من المرة السابقة، عندما بدأت السيدة تتهم نفسها بضعف الإرادة، وأن تدرك عودة عاطفتها وعواقبها المهلكة.

لذلك فقد راجعت نفسها مرة ثانية، واستدعت السيدة سيلبسلوب التى رجعت مرة ثانية، وقالت لها سيدتها إنها فكرت جيدًا فى المسألة، وقررت قرارًا مطلقًا أنها سوف تطرد جوزيف وطلبت منها تنفيذ ذلك فورًا.

لم تغادر سيلبسلوب مكانها؛ حينما رأت أن سيدتها فى حالة غضب شديد، قررت أنها لن تغامر بوظيفتها من أجل أى شخص، حتى لو كان أدونيس أو هرقل، وتركتها مرة ثالثة.

وبمجرد خروجها ألقى الإله كيوبيد سهامه فى قلب سيدتها، وبلغة أخرى مبسطة تغلبت عاطفتها على عقلها. فنادت سيلبسلوب مرة أخرى وأخبرتها أنها تريد رؤية الولد لكى تستجوبه بنفسها، لذلك أمرتها بإرساله إليها.

هذا التردد الموجود فى مزاج سيدتها، من المحتمل أن يضع أفكارًا فى رأس الخادمة، وليس من الضرورى ذكرها للقارئ الحصيف.

كانت السيدة بوبى ستناديها ثانية لكنها لم تستطع التغلب على نفسها. ثم كان التفكير التالى وهو كيف ستتصرف مع جوزيف عندما سيأتى. وقررت أن تحتفظ بكرامة السيدة ذات المنزلة أمام خادمتها (وقررت بكل تأكيد أن ذلك ما سيحدث) وأن تمتع نفسها فى هذه المرة الأخيرة التى سترى فيها جوزيف بأن تعطيه حسابه وتعاقبه أولاً ثم تطرده.

آه!! الحب يا لها من خدعٍ وحشية يلعبها مع أبرياء من الجنسين، كيف تخدعهم وتجعلهم يخدعون أنفسهم!! حماقاتهم هى بهجتك!! وتنهداتهم تجعلك تضحك! وآلامهم متعتك.

ليس ريتشارد العظيم الذى يحول الرجال إلى قردة، وعربات يد، أو حتى أى شيء يداعب خياله، قد مسخ الشكل البشرى. ولا سيير العظيم الذى يحول الأعداد وكل جنس ويكسر كل قاعدة نحوية بإرادته، قد شوه اللغة الإنجليزية وشوه المشاعر الإنسانية.

فإنك أغلقت عيوننا، وأوقفت أسماعنا، وأفقدتنا حاسة الشم؛ لذلك فنحن لا نستطيع رؤية أكبر الأشياء، أو نسمع أعلى ضوضاء، أو نشم أشد رائحة.
مرة ثانية، عندما تكون مسرورًا فلن تستطيع أن تجعل رُكامًا من التراب يبدو كالجبل، وقيثارة اليهودى كالبوق، والوردة الصغيرة كوردة جميلة الرائحة. فتستطيع تحويل الجبن إلى شجاعة، والبخل إلى كرم، والكبر إلى تواضع، والقسوة إلى قلبٍ حنون. وباختصار، إنك تستطيع أن تتلاعب بقلب رجل كالشخص المشعوذ المرتدى ثوبًا نسائيا، وأن تخرج كل ما به من سرورٍ وفرح.
وإن كان هناك أحد يشك فى هذا كله فليقرأ الفصل التالى.

الفصل الثامن

كيف يسير التاريخ بعد هذه الرسالة المرهفة
ويروى ما جرى بين السيدة بوبى وجوزيف،
حيث وضع جوزيف مثالاً من الصعب
إيجاده فى رجال من جنسه فى هذا العصر الأثيم.

بعد أن شمَّر هسبيروس Hesperus (إله الإغواء) عن ساعديه، بدأ تهيئة نفسه لليل كله، وبالمثل احتذى به أخوه، وترك الاثنان فراشيهما هذا اليوم. بدأت الآن ربة المنزل الطيبة ثبتس تُعد الطعام من أجل فيبيوس الرجل الطيب بعد أن أنهى يومًا شاقًا من العمل. وفى المساء بدأ جوزيف يلبى أوامر سيدته بلهجة خشنة، لكن لأنه من المناسب لنا أن نحتفظ باحترام شخصية هذه المرأة، وهى بطلة قصتنا، فإننا بالفطرة نشعر بضعف رائع لهذا المثل الجميل من الأنواع البشرية، وهو ما يسمى بالجنس اللطيف، وقبل أن نكشف المزيد من ضعفها لقارئنا، فمن اللائق أن نعطيه فكرة واضحة عن الإغراء الضخم الذى قهر كل محاولات التحشم والاستقامة، ونأمل بتواضع أن يشفق على فطرته الطيبة بدلاً من اتهامه بنقص فى استقامته.

ونأمل أن تقتنع السيدات بالتفكير فى هذه الإغراءات العديدة غير العادية الموجودة فى هذا الشاب الصغير؛ لكبح انفعالاتهن الهائجة للاستقامة، وأن تكون على الأقل غير حادة وباردة مثل تحشمهن واستقامتهن الشديدة، وسوف تسمح لهن باستهجان سلوك المرأة التى كانت ربما تميل للعفة الموجودة فى هؤلاء العذارى وهن من قضين حياةً طاهرة فى مباهج المدينة، وبدأن فى سن الخمسين يذهبن إلى الكنائس وأماكن العبادة مرتين أسبوعيًا؛ لكى يشكرن الله على فضله أن جعلهن يصمدن أمام هذه الإغراءات، وربما تكون أقل قوة من التى هاجمت السيدة بوبى الآن.

يبلغ السيد جوزيف أندروس الآن الحادى والعشرين من عمره. وهو طويل القامة، وأطرافه متناسقة معًا فى أناقة عالية. وتبدو سيقانه فى أدق انسجام وتناسب. وكتفاه عريضتان ومفتولتا العضل، وذراعاه معلقتان بسهولة؛ فتظهر عليه كل أعراض القوة دون أدنى خلل فى تكوينه. ولون شعره بندقى، ويبدو مدللاً ومطلق العنان فى حلقات صغيرة مثل أنف الرومان. وأسنانه بيضاء، وحتى... شفتاه حمراوان ولينة. ولحيته هى الوحيدة الخشنة على ذقنه وشفته العليا، ولكن خديه متوردان. وملامحه رقيقة ممتزجة بحساسية لا يمكن وصفها. وبالإضافة إلى كل ذلك النظافة العالية فى ملابسه ومظهره الخارجى، التى لا نراها عند كثير من النبلاء، تُضفى عليه شيئًا من الفخامة.

إن هذا الشخص واقف الآن أمام السيدة التى أخذت فى تفحصه لبعض الوقت فى صمت مرتين أو ثلاثًا، وقبل أن تتحدث غيرت رأيها فى الطريقة التى كانت سوف تبدأ بها.

وأخيرًا قالت: "جوزيف إننى آسفة لسماع تلك الشكوى عنك. إنهم يقولون إنك تتصرف بوقاحة مع الوصيفات، وهن لا يستطعن العمل فى هدوء، أعنى اللاتى يتمتعن ببعض الأخلاق التى لا تتأثر بإغواءاتك. وربما البعض يصفونك بالوقاحة، لأن هناك نساءً فاسقاتٍ يفعلن ما يمكن أن يخجل منه جنسهن، وعلى استعداد للسماح بأى تقارب غير شريف، إنهن فى عائلتى هذه ولكنهن لن يمكثن بها، وهذه المرأة الوقحة التى لديها طفل منك سوف تُطرد".

وصُعق جوزيف المسكين، وبدا مندهشًا للغاية عندما تلقى هذا الاتهام الكاذب من سيدته، واحمر خجلاً، وبدا مرتبكًا، وقد أساءت سيدته فهم رد فعله على أنه شعور بالذنب، وهكذا استمرت سيدته قائلةً:

" تعال هنا يا جوزيف، أية سيدة أخرى كان يمكن أن تطردك بسبب هذه الإهانات، ولكننى سأكون رحيمة بشبابك، وإذا حددت كلامى فإنك لن تكون مذنبًا بعد الآن، يجب أن تفكر يا بنى. (وهى تضع يدها بإهمال على يده)، " إنك شابٌ وسيم ويجب أن تتصرف بأسلوب أفضل، حتى تستطيع أن تُحسن حالك".

قال جوزيف: "سيدتى، أؤكد لسيادتك أننى لا أعرف أى خادم فى المنزل سواء كان رجلاً أو امرأة".

أجابت السيدة: " آه، تبًا، لا ترتكب جريمة أخرى بإنكار الحقيقة، إننى سأغفر الأولى، ولكننى أكره الكذب".

صاح جوزيف قائلاً: " سيدتى، أتمنى من سيادتك أن لا تتهمينى بالذنب فى تأكيد براءتى، أقسم بكل ما هو مقدس، فأنا لم أعرض عليها أكثر من قُبلة".

قالت السيدة باضطراب كبير فى ملامحها وحُمرة فى وجهها، وغضبٍ فى عينيها: " قُبلة، أولا تسمى هذه جريمة؟ القُبلة هى كمقدمة المسرحية. أيمكن أن أصدق أن شابًا فى سنك وتركيبك سيكتفى بقُبلة؟ لا يا جوزيف ليس هناك امرأة تستحق هذا، ولكنها تستحق أكثر، ولقد خُدعت فيك تمامًا. ما الذى ستفعله يا جوزيف إن سمحت لك بتقبيلى؟ "

أجاب جوزيف: "إن الموت له أفضل من التفكير فى ذلك".

قالت: " إن السيدات سمحوا لخدامهن برفع الكلفة، وأعترف لك أن خدامهن لا يستحقون هذا، هناك رفقاء ليس لديهم نصف جمالك، ولكنهم يبررون الجريمة. لذلك أخبرنى يا جوزيف: لو سمحت لك بهذه الحرية ما الذى ستظنه بى؟ أخبرنى بصراحة".

قال جوزيف: "أعتقد أن سيادتك تتنازلين لمن هو أقل منك شأنًا".

قالت: "إن هذا الأمر لا يهمنى، لا يستطيع أحد أن يحاسبنى، لكن ألا تود الإصرار على المزيد؟ هل أنت راضٍ بالقبلة؟ هل ستتأجج عواطفك بعربون الحب هذا؟"

قال جوزيف: "لو كان كذلك أتمنى أن أستطيع التحكم فيها دون أن أضر بعفتى".

هل سمعت ما قاله الشعراء والقراء عن تأخير المفاجأة، وهل سمعت أيضا كيف جعلت المفاجأة أحد أبناء وسيس يتكلم على الرغم من أنه رمز للبكم.

هل رأيت الوجوه التى عُرضت فى صالة عرض الثمان عشرة بنسة، حينما خرج من الباب المسحور السيد بريد جواتر، والسيد وليم ميلز، وآخرون يشبهون الأشباح بوجوه شاحبة مرتدين جميعًا رداءً ملطخًا بالدم، لكن لا أحد من هؤلاء ولا فيدياس ولا براكسيتليس لو عادوا إلى الحياة، وليس بقلم صديقى هوجارث الذى لا يُضاهى، هل تستطيعين تحمل مثل هذه المفاجأة، وبمجرد ظهورها فى عينيك وشاهدوا السيدة بوبى عندما صدرت تلك الكلمات من شفا جوزيف... "عفتك!! ".

قالت السيدة (بعد صمت طال دقيقتين): " أستطيع الاستمرار فى الحياة مع عفتك! يالها من شجاعة مفرطة!! هل لديك الثقة للتظاهر بأنه عندما تسمح السيدة لنفسها بطرح قواعد اللياقة جانبًا؛ من أجل إعطائك أعلى رعاية بحوذتها، أن تتظاهر بأن عفتك تقاوم هواها؟ ولو أنها تغلبت على فضيلتها هل ستجد عندك عائقًا؟"

قال جوزيف: "سيدتى، أنا لا أفهم لماذا يكون افتقادها لعفتها سببًا فى أن أتخلى عن عفتى، لماذا؟ هل لأننى رجل؟ أو لأننى فقير؛ فيجب أن تكون عفتى فى خدمتها لإسعادها؟"

صاحت السيدة:" لقد نفد صبرى، هل سمع أى مخلوق بشرى عن عفة الرجل!! وهل تظاهر أعظم الرجال وأكثرهم جدية بهذه العفة!! وهل القضاة الذين يعاقبون الفاسقات، أو الكهنة الذين يعظون بعدم ارتكاب الفسق يظهرون أى تردد فى ارتكاب هذا الفسق؟ وهل الصبى المراهق لديه الشجاعة للتحدث عن عفته؟"

قال جوزيف: " سيدتى، هذا الصبى هو أخٌ لباميلا، وسيكون عارًا عليه أن يلطخ طهارة عائلته التى قد حافظت عليها أخته. لو أن هناك رجالاً مثل الذين قد ذكرتِهم، سأكون آسفًا لذلك، وأتمنى أن تتيح لهم الفرصة قراءة تلك الخطابات التى قد أرسلها لى والدى عن أختى باميلا، وسيكون هذا مثالاً يحتذون به لإصلاح أنفسهم".

صاحت السيدة ثائرة " يا لك من وغد أحمق!! هل تهيننى بحماقات الرجل الذى يمت لى بصلة قرابة، والذى قد عرض نفسه لسخرية المدينة بأكملها بسبب أختك الماكرة الصغيرة التى قد تَعجبت من أن السيدة بوبى السابقة احتفظت بها فى منزلها؟ اغرب عن وجهى، واستعد للرحيل هذه الليلة، لأننى سوف أدفع لك أجرك فورًا لأنك سوف تضرب بالسوط وترحل بعيدًا".

قال جوزيف: "سيدتى، أنا آسف على إهانتك ولكننى لم أقصد ذلك".

صاحت قائلة: " لقد أسأت فهم حريتى الطاهرة التى قد أعطيتها لك لكى أعرف إن كان ما قد سمعته حقا، إنه ضميرى. هل كانت عندك الشجاعة أن تتخيل أنى مغرمة بك؟"

أجاب جوزيف، وقد تحدث عن ضعف استقامته، وتلك الكلمات قد هربت وسط الانفعال العنيف، وقد رفضت الاستماع إلى المزيد، وطلبت منه أن يترك الحجرة فى الحال.

وبمجرد أن خرج انفجرت فى هذا التعليق التالى:

" إلى أين تأخذنا هذه العاطفة العنيفة؟ يا لها من دناءة نخضع لها بنزواتها. يمكننا بحكمة مقاومة بداياتها ونهايتها؛ وبهذا نضمن لأنفسنا النصر. لا توجد امرأة لديها شجاعة القول: أيمكننى الذهاب. ألم أُعرِّض نفسى لرفض خادمى؟ لا أستطيع تحمل هذا التفكير الطويل". ثم انكبت على الجرس ورنت بعنف زائد لا حاجة له، فجاءت المخلصة سيلبسلوب التى كانت من البداية قريبة منها، وفى الحقيقة فقد

أثارت الشكوك فى المحادثة الأخيرة بينها وبين سيدتها، ومنذ تلك اللحظة انتظـرت فى حجرة الانتظار القريبة، و تنصّتَتْ بعناية من خلال ثقب الباب إلى كل ما حدث بينها وبين جوزيف.

الفصل التاسع

ما حدث بين السيدة بوبى والسيدة سيلبسلوب،
حيث نتنبأ من خلاله بأعمالٍ فذةٍ لن يدركها أحد
حقيقة من القراءة الأولى.

قالت السيدة لسيلبسلوب: "لقد وجدت أكثر من سبب لأصدق كل ما قلتِه عن هذا الوغد جوزيف. لقد قررت التخلى عنه فورًا، لذلك اذهبى إلى المشرف على الخدم واطلبى منه أن يدفع له أجره".

السيدة سيلبسلوب التى احتفظت حتى الآن ببرودٍ مع سيدتها، اعتقدت أنها لو علمت هذا السر فسوف تتخلى عن كل الامتيازات التى بينهما، وأجابت سيدتها بوقاحة: "أتمنى أن تكونى واثقة من قراراتك". وكانت متأكدة أنها ستناديها ثانيةً قبل أن تنزل نصف الدرجات ذاهبة إلى الطابق السفلى.

أجابت السيدة إنها اتخذت قرارًا وعزمت على عدم الرجوع فيه.

صاحت سيلبسلوب: " أنا آسفة لاتخاذ هذا القرار، ولو كنت أعلم أنك ستعاقبين هذا الصبى المسكين بهذه القسوة ما كنت أخبرتك بحرف عن الموضوع. فى الحقيقة إنه موضوع لا يساوى شيئًا".

أجابت السيدة: "لا شيء، هل تعتقدين أننى سأسمح بوجود فسق فى منزلى؟"

قالت سيلبسلوب: " هل ستطردين كل الخدم الرجال، الذين يحبون الفتيات؟ ستضطرين قريبًا إلى فتح الباب، أو تحصلين على مجموعة من أشباه الرجال لخدمتك، وأنا متأكدة أننى أكره رؤيتهم حتى وهم يغنون فى الأوبرا ".

قالت السيدة: "افعلى ما أمرتك به، ولا تجعلى آذانى تُصدم بلهجتك البهيمية".

صاحت السيدة سيلبسلوب: "يا له من شيء مضحك، أحيانًا تكون آذان الناس أجمل جزء فيهم".

بدأت السيدة تتعجب من أسلوب خادمتها الجديد، فى نهاية كلامها شكت فى الحقيقة؛ فنادتها ثانية ورغبت فى معرفة ما الذى تعنيه بالحرية الزائدة التى أطلقت بها لسانها.

قالت سيلبسلوب: "حرية!! أنا لا أعرف ما الذى تسميه حرية، إن الخدم لديهم ألسنة مثل أسيادهم".

أجابتِ السيدة: "وألسنة وقحة أيضا، لكن أؤكد لك أننى لا أتحمل مثل هذه الوقاحة".

قالت سيلبسلوب: "وقاحة؟ لا أعتقد أننى وقحة".

صاحت سيدتها: "فى الحقيقة، أنت كذلك، وإذا لم تصلحى أخلاقك فلن يكون لك مكان فى هذا المنزل".

صاحت سيلبسلوب: " أخلاق!! لم أفكر قط أننى فى حاجة إلى أخلاق، أو احتشام، أما عن الأماكن فيوجد أكثر من مكانٍ واحد وأنا أعرف ما أعرفه".

أجابتها سيدتها: "وما الذى تعرفينه أيتها السيدة؟ "

قالت سيلبسلوب: "أنا لست ملزمة بإخبار كل فرد، على أية حال أنا مُجبرة أن أحتفظ به سرًّا".

أجابت السيدة: "أرجو منكِ أن تجهزى نفسك".

أجابت الخادمة: "من كل قلبى ".

وبعد ذلك رحلت فى غضبٍ شديد وصفعت الباب خلفها.

أدركت السيدة بوضوح أن خادمتها عرفت أكثر مما يجب أن تعرفه، وكشف ما نسبته لجوزيف عن ما حدث فى مقابلتهما الأولى. لذلك أثار هذا غضبها تجاهه وأكدت لها أنها قررت الرحيل معه.

لكن طرد السيدة سيلبسلوب لم يكن شيئًا هينًا ليُنفذ؛ فقد حافظت على سمعتها بأقصى حذر، لأنها علمت أن هذا يترتب عليه الكثير من نعم الحياة المتاحة. منها: انحناءات الاحترام فى الأماكن العامة. وفضلاً عن ذلك، ما تجده من سعادة فى تدمير سمعة الآخرين، فكانت تجد بهجةً عالية فى هذه التسلية البريئة. لذلك فقد قررت الخضوع لأية إهانة من خادم بدلاً من المجازفة بفقد لقب يحمل الكثير من المزايا.

لذلك أرسلت للسيد بيتربونس المشرف على الخدم، وطلبت منه أن يدفع له أجره، ويجرده من زى الخدم، ويطرده من المنزل هذا المساء.

وبعد ذلك دعت سيلبسلوب، وبعد أن رفعت من روحها المعنوية؛ باحتساء بعض الخمر الذى تحتفظ به فى دولابها، بدأت حديثها مع خادمتها قائلة:

" لماذا يا سيلبسلوب، وأنت تعرفين أننى بطبعى سريعة الانفعال، تحاولين استفزازى بإجاباتك هذه؟ إننى مقتنعة أنك خادمة أمينة، وأنا غير مستعدة تمامًا للاستغناء عنك. وأعتقد أيضا أنك وجدت أننى سيدة متسامحة من خلال العديد من المواقف. فأنا لا يوجد لدى أى مبرر يجعلنى أرغب فى تغييرك. لذلك فقد اندهشت من أنك تصرفت بأسلوب يستفزنى؛ بمعنى أننى أكره تكرار كلماتى التى تعرفينها دائمًا".

وزنت الخادمة الحصيفة الموضوع على نحوٍ وافٍ، ووجدت بعد تفكير مدروس أن هذا المكان الذى تعرفه أحسن مما لا تعرفه. وبما أنها وجدت سيدتها قد رقّت؛ فكرت هى أيضا فى تقديم بعض التنازلات التى قبلتها سيدتها، وتم إصلاح الموضوع، وغفرت سيدتها كل الإهانات، وبعد أن قدمت لها سيدتها ثوبًا هدية، كان ذلك شيئًا يجعلها تحظو باهتمام سيدتها مستقبلاً.

وحاولت مرة ومرتين الحديث لصالح جوزيف، لكنها وجدت قلب سيدتها قاسيًا جدا تجاهه، وأسقطت كل هذه المحاولات بحذر. ورأت أن هناك الكثير من الخدم الرجال فى المنزل، وبعض منهم أقوياء ولكنهم ليسوا بدرجة وسامة جوزيف.

فضلاً عن ذلك، يلاحظ القارئ أن ملاطفاتها لجوزيف لم تُقابل بالتشجيع الذى كانت تتوقعه. فقد اعتقدت أنها ضيعت فرصة كبيرة لطرد هذا الوغد الناكر للجميل ومالت إلى الرأى الذى تقوله طائفة النساء، وهو أن من له رفيق شهوانى يجب أن يكون قريبًا جدا من صديقه الشهوانى الآخر. فصرفت النظر عن جوزيف وقضيته، وبانتصارها الجدير بالثناء على عواطفها المتأججة؛ تركت غرفة سيدتها حاملة هديتها، ولجأت إلى شرب الخمر لتهدئة نفسها.

لكنها لم تترك سيدتها فى راحة تامة، فلم تستطع السيدة المسكينة أن تفكر مليًّا دون ألم فى أن سمعتها العزيزة يتحكم فيها خدمها، وراحتها بالنسبة لجوزيف أنها تمنت أن لا يفهم ما تقصد، وعلى الأقل قالت لنفسها إنها لم تعبر له عن أى شيء بوضوح، وبالنسبة للسيدة سيلبسلوب فقد رأت أنه يمكن إعطاؤها رشوة لكى تحافظ على أسرارها.

لكن أكثر ما كان يؤلمها هو أنها فى الحقيقة لم تستطع التغلب على عاطفتها كليةً، فقد ظلت هذه المشاعر فى قلبها، على الرغم من أن الغضب والازدراء جعلها تعتقد أنها ترغب فى رؤيته. وحاولت أكثر من مرة أن تتراجع عن الجملة التى قالتها ضد الشاب المسكين. وأصبح الحب حليفه، وهمس بأشياء عديدة لصالحه. وحاول الشرف أيضا أن يدافع عن جريمته، وخففت الشفقة من عقوبته.

وعلى جانب آخر تحدث الكبر والانتقام بصوتٍ عالٍ ضده، ولذلك كانت السيدة فى حيرةٍ تعذبها مقابل عاطفة تربك وتمزق عقلها بطرق مختلفة.

وهكذا كما رأيت فى قاعة ويست مينستر الرقيب برامبل محتجزًا على الجانب الأيمن، والرقيب بازل (رقيب الحيرة) على الجانب الأيسر، وميزان الآراء يميل بالتناوب إلى كل كفة. ينضم الآن برامبل للنقاش وكفة بازل (الحيرة) تُسقط عاتق الميزان، ويساهم برامبل ثانيةً بما هو ملائم للقدر، ولكنه انهزم بكفة (الحيرة). ثم تناوب الاثنان الكفة الراجحة ثم الكفة الخاسرة، حتى أصبحا فى النهاية فى حالة اضطراب، وعقولهما مشوشة بما يقوله المستمعون من أن توازن المتراهنين أدى إلى النجاح. ولا يمكن تدخل القضاة أو المحلفين؛ فكل شىء يحيطه الشك والغموض، هذا ما يحدث عند تأنيب الضمير؛ حيث يسير الشرف والأمانة فى طريق واحد، والرشوة والحاجة فى طريق آخر.

ولو كان هناك مشابهة بما يحدث فى مشاكلنا الحالية سيكون هناك الكثير من أجل هذا الغرض، لكن المشابهة للحكماء.

فكل هذا ما نراه داخل بطلنا الذى - بدون شك - يتألم القارئ من أجله.

الفصل العاشر

جوزيف يكتب خطابًا آخر،
والإجراءات التى يقوم بها مع السيد بيتربونس،
والإجراءات التى يقوم بها لرحيله من منزل
السيدة بوبى.

جوزيف المتفطر القلب حزنًا، لم يكن لديه فهمٌ كافٍ للموضوع الأساسى الذى نتجت عنه تلك الاتهامات، وإذا طال عدم فهمه للموقف سيطول اندفاع سيدته عليه، وفى الحقيقة هو لم يدرك أى شىء بعد.

وما يُسعد القارئ هو عدم محاولة جوزيف اكتشاف أى خطأ يمكن أن يدين سيدته. ومع ذلك، فقد تركها واستقال بكرامته بدلاً من أن يُدخل نفسه فى كوارث لا حصر لها وأخذ يحادث نفسه عن المصائب التى تحل عليه بسبب جماله.

وبعد ذلك جلس جوزيف مخاطبًا نفسه أثناء كتابة خطاب لأخته وبه الكلمات التالية:

"أختى العزيزة ، باميلا:

أتمنى أن تكونى بصحة جيدة، إن لدى أخبارًا أريد إعلامك بها!! ويالها من أخبار!!

باميلا، إن سيدتى وقعت فى حبى، إنها تريد تدميرى، لكننى أتمنى أن أكون أكثر ثباتًا وأكثر كياسة؛ بأن لا أفرِّط فى شرفى لأية سيدة على وجه الأرض.

كان السيد أدمس يقول لي دائمًا إن الشرف فضيلة عظيمة في الرجل مثل المرأة. وقال: إنه لم يعرف امرأة قط سوى زوجته، وأنا أحاول أن أتخذه قدوة لي.

في الحقيقة، إن هذا كله يرجع لمواعظه ونصائحه العظيمة، بالإضافة إلى خطاباتك؛ فبها كنت قادرًا على مقاومة الإغراءات التي كما يقول لا يوجد رجل يذعن لها إلا أن يندم في هذا العالم أو يلعنه لأجلها. ولماذا أنتظر الندم على فراش الموت، وأنا معرّض للموت أثناء نومي؟ إن النصائح الجيدة والأمثلة الطيبة أشياء جميلة!! ولكنني مسرور، لأنها طردتني من حجرتها كما فعلت، لأنني نسيت تقريبًا في تلك اللحظة كل كلمة قالها لي أدمس من قبل.

أختي العزيزة، إنني لا أشك أن لديك الكياسة الكافية للمحافظة على عفتك ضد أية محاولات، وأرجو منك جديا أن تُصلي من أجلي، حتى أكون قادرًا على المحافظة على عفتي. لأنني حقا قد هوجمت بقسوة من أكثر من واحدة، لكنني آمل أن تكوني قدوةً لي، ولأجل ذلك سُميت جوزيف، وأن أحافظ على عفتي ضد أي إغراء".

وقبل أن ينهي جوزيف خطابه استدعاه السيد بيتربونس ليسلمه أجره. وقد كان أجره ثمانية جنيهات عن كل سنة، ينقص منها أربعة كان يرسلها لأبيه وأمه، وقد أُلزم بذلك من أجل تطبيق كرم السيد بيتر الذي اعتاد أن يقدم للخادمين أجورهم في أوقات الحاجة، وذلك ليس لأنهم يستحقونه ولكن لأنه واجب دفعه لهم، وكان يدفع أجورهم بعد موعدها بستة أشهر، وكان يستغلها في ذلك الوقت لإقراض الناس بفائدة حتى سيده وسيدته، وقد جمع الرجل الأمين من لا شيء مبلغًا صغيرًا يتكون من عشرين ألف جنيه أو ما يقرب من ذلك.

أخذ جوزيف المتبقي من أجره، وخلع زي الخدم، واضطر أن يقترض ثوبًا وبنطلونًا من أحد الخادمين (فقد كان محبوبًا جدا في عائلته فكانوا يقرضونه ما يريد) وبعد أن أخبره بيتر ألا يمكث في المنزل دقيقة واحدة، إلا من أجل جمع

ملابسه وقد فعل ذلك بسهولةٍ فى وقتٍ ضئيل جدا. وترك رفقاءه الخدم فى حالة من الحزن والكآبة، وكان خارج المنزل فى الساعة السابعة مساءً.

وبعد ذلك ترك المنزل ومشى شارعين أو ثلاثة، قبل أن يقرر مع نفســه إن كان سيترك المدينة هذه الليلة أم يدبر مأوى يبيت فيه حتى الصباح.

وفى النهاية، شجعه ضوء القمر أن يبدأ رحلته فى الحال، وقد دفعــه ذلــك أيضا إلى عدة أشياء، ولن يستطيع القارئ تخمينها بسهولة إلا بإعطائه هذه الأفكار التى من الملائم عرضها الآن.

الفصل الحادى عشر

أمور جديدة وعديدة لكنها غير متوقعة.

أحيانًا تكون هناك ملاحظة توضح فكرتنا عن الشخص البسيط، فنقول إنه من السهل أن يكون على مرأى من الناس. ولا أعتقد أنه ليس أكثر أهمية من الإشارة إلى هذا الكتاب البسيط. وبدلاً من تطبيق هذا على أى أداء خاص، فمن الأفضل أن نُعلق على التناقض الموجود فى هذا التاريخ، حيث يبدأ المشهد بدرجات صغيرة، والقارئ الحصيف هو الذى يستطيع أن يرى فصلين أمامه.

لهذا السبب لم نُلمح حتى الآنِ إلى موضوع يبدو من الضرورى شرحه الآن: أولاً: لأنه يمكن أن نتساءل عن السرعة التى ترك بها جوزيف المدينة، والتى عُرضت بالفعل. ثانيًا، والتى ستُعرض الآن: فبدلاً من الذهاب إلى مسكن والده ووالدته أو أخته الحبيبة باميلا، اختار أن يبدأ رحلته بسرعة تامة إلى المقر الريفى الذى تملكه السيدة بوبى، والذى تركه عندما ذهب إلى لندن.

ومن المعروف أنه فى نفس هذا المكان الريفى تعيش فتاة صغيرة وهى (على الرغم من أنه أحسن الأبناء والأخوات) قد نفد صبره لرؤيتها، وقد فضل رؤيتها على رؤية أبويه وأخته. وهى بنت فقيرة، وهى التى قد تربت آنفًا فى كنف عائلة اللورد جون؛ والذى من أجله ذهبت إلى لندن، وقد طردتها السيدة سيلبسلوب بسبب جمالها الفائق، وأنا لا أجد أن هناك سببًا آخر.

هذه المخلوقة الصغيرة (التى تعيش الآن مع مزارع فى الأبرشية) يُحبها جوزيف وهى تبادله حبه، وهى أصغر من بطلنا هذا بسنتين فقط. وقد تعارفا منذ الطفولة وأدركا أن حبهما يزداد، وقد زاد إلى تلك الدرجة من العطف والحنان، لدرجة أن السيد أدمس غضب ومنعها من الزواج، وأقنعها بالانتظار لبضعة أعوام قليلة حتى يدبرا أحوالهما ويحسنا معيشتهما، لكى يستطيعا العيش فى راحة.

واتبعا نصيحة هذا الرجل الطيب، وفى الحقيقة كانت كلمته لا تقل عن قانون الأبرشية، فقد أثبت لرعاياه على مدار خمس وثلاثين سنة أن هدفه هو صالحهم، فكانا يحبانه للغاية من قلبيهما، ويستشيرانه فى كل أمر، ونادرًا ما يناقضان رأيه أو يتصرفان خلاف رأيه.

ولا نتخيل أن هناك شيئًا أكثر ألمًا ورقة من انفصال هذين المحبين. انطلقت آلاف التنهدات من صدر جوزيف، وتساقطت آلاف الدموع من عينى محبوبته فانى (كان هذا اسمها). وعلى الرغم من تحشمها؛ سمحت بقبلاته المتلهفة وحبها الشديد جعلها متأثرة بعناقه، وهى أحيانًا تدفعه إلى صدرها بضغطة خفيفة والتى ربما لا تميت حشرة، وزاد هذا من العاطفة التى بقلب جوزيف أكثر مما يمكن أن تفعله معانقة شديدة.

ربما يتعجب القارئ أن هذين المحبين يغيب أحدهما عن الآخر اثنى عشر شهرًا دون أن يحدث أحدهما الآخر، فى الحقيقة هناك سبب يمنعهم، وهو أن فانى المسكينة لم تكن تعرف القراءة والكتابة ، ولا تستطيع أن تنقل أحاسيسها المرهفة وعاطفتها الطاهرة بأيدى كاتب.

وقد رضيا بالاستفسار الدائم عن صحة كل منهما، وتبادلا الثقة فى أمانة كل منهما والتنبؤ بالسعادة لمستقبلهما.

وبعد إيضاح كل هذه الأمور لقارئنا، وقد أرضى إلى حد ما كلَّ شكوكه، نرجع إلى المخلص جوزيف الذى تركناه أثناء سفره فى ضوء القمر.

هؤلاء الذين قرأوا أى شيء عن الرومانسية أو الشعر، قديمًا أو حديثًا، من المؤكد أنهم علموا أن الحب له أجنحة، والتى بها لا يفهمون مثلما فعلت بعض السيدات الصغيرات بالخطأ، أن الحبيب يمكن أن يطير، وقد قصد بهذه الاستعارة المبدعة أن يدخل فى ذهن القارئ أن المحبَّيْن لا يسيران مثل حراس الخيل.

بالاختصار، فهم يضعون أحسن ساق(*) فى المقام الأول، والتى تجعل الشاب الملىء بالحيوية يستطيع أن يمشى مع أى رجل أبرز إخلاصًا تامًا فى هذا الموقف؛ حيث يصل خلال أربع ساعات إلى منزل.مشهور بحسن الضيافة ومعروف جيدًا للمسافر الغربى. أول ما تقابله عند البوابة صورة أسد، والسيد الذى سُمى تيموثوس معروف باسم تيم. وقد اقتنع البعض بأنه اختار الأسد بالأخص ليكون علامة، لأن ملامحه تشبه كثيرًا هذا الحيوان الشهم، على الرغم من أن تصرفاته تعتبر أكثر رقة من الحمل. وهو شخص قادر على الاستقلال وسط كل أنواع الرجال، ومؤهل لجعل نفسه مقبولاً لأى منهم، وهو خبير جيد فى التاريخ والسياسة، ولديه معرفة سطحية فى القانون والعلوم الإلهية، ويطلق دعابة مرحة، ويعزف بالبوق الفرنسى بطريقة رائعة.

هبت عاصفة بَردٍ شديدة؛ أجبرت جوزيف أن يلجأ إلى هذا الفندق الصغير، حيث تذكر السيد توماس حينما تناول فيه غذاءه فى طريقه إلى المدينة. وبمجرد أن جلس جوزيف أمام مدفئة المطبخ، بدأ تيموثوس الذى لاحظ زى الخدم وبدأ ينعى سيده الراحل وأخبره أنه أعز معارفه. وأنهما شربا العديد من زجاجات الخمر، فقد كانا يحتسيان معًا عشرات الزجاجات فى المرة الواحدة. وعلق قائلاً: إن كل هذه الأشياء قد انتهت، وكأنه لم يكن، وأنهى بملاحظة ممتازة على يقين الموت الذى قالت عنه زوجته: إنه حقا شيءٌ حقيقى.

(*) يقصد صورة مجازية للرجل بساقه، بمعنى أنه أفضل رجل. (المترجمة)

وصل فى ذلك الوقت شخص إلى نفس الفندق الصغير، ومعه اثنان من الخيول، أحدهما كان يقوده، وقد عرفه على الفور فهو خادم جاره الذى اعتاد زيارته فى منزله.

واضطر هذا الشخص أيضا إلى أن يلجأ إلى الفندق بسبب العاصفة، حيث كانت لديه أوامر بالسفر عشرين ميلاً أكثر هذه الليلة، ولحسن الحظ كان فى نفس الطريق الذى ينوى جوزيف الذهاب إليه. ولذلك انتهز هذه الفرصة لتهنئة صديقه على خيل سيده (ومع ذلك فقد استقبله بتعبير يُظهر النقيض) وبعد أن انتهيا من شرابهما، وبعد أنْ انتهت العاصفة ذهبا معًا.

الفصل الثاني عشر

***العديد من المغامرات المفاجئة
التي مر بها جوزيف أندروس في طريقه،
والتي من الصعب أن يصدقها هؤلاء
الذين لم يسافروا في مركبة السفر.***

لم يحدث شيء لافتٌ على الطريق إلى أن وصلا الفندق الذي كان يجب أن يتركا الخيول عنده، وقد كانت الساعة الثانية صباحًا عندما وصلا، وكان ضوء القمر لامعًا، أهدى جوزيف لصديقه كأسًا من الخمر، وشكره على الخدمة التي قدمها له على الرغم من كل التوسلات لمواصلة رحلته سيرًا على الأقدام.

ولم يكن قد مشى أكثر من ميلين، يُمني نفسه برؤية محبوبته فاني التي كان مشتاقًا لرؤيتها، ذلك عندما أوقفه شخصان في زُقاق ضيق وطالباه بكل ما معه من نقود، وقد أعطاهما بالفعل كل ما معه من نقود، حيث كان معه ما يقل عن جنيهين، وقال لهما إنه سيكون كرمًا منهما إذا تركا له القليل من النقود؛ لكي يقدر أن يرجع إلى منزله.

أقسم له أحد اللصوص قائلاً: "نعم سنعطيك شيئًا، الآن ولكن اخلع ملابسك أولاً". صاح الآخر: "اخلع، وإلا سأُطيّر عنقك". تذكر جوزيف أنه قد اقترض رداءه وبنطلونه من صديق له، وسيكون شيئًا محرجًا له إذا لم يُرجِع له هذه الأشياء. فطلب منهما أن لا يُصرا على ملابسه التي لا تساوي الكثير وأن يراعيا برد الليل.

قال أحد اللصوص "هل تشعر بالبرد أيها الوغد، سأعطيك بعضًا من الدفء بالانتقام منك". وبمجرد أن صوب مسدسه ناحية رأسه أطاح بـه الآخـر أرضًـا بعصاه، وحيث كان لجوزيف تجربة فى مبارزة النبابيت؛ أطاح بخـصمه أرضًـا، وفى نفس اللحظة حاول اللص الآخر إطلاق الرصاص عليه، ولكن جوزيف أطاح به أرضًا وأفقده وعيه تمامًا. ثم نهض اللصان وانقضا علـى جوزيـف المـسكين بعصيانهما حتى تأكدا أنهما قضيا عليه تمامًا. ثم بعد ذلك جرداه من ملابسه، حتـى أصبح عاريًا تمامًا، وألقيا به فى بركة من الماء ثم رحلا ومعهما ما اغتنماه منه.

وبدأ هذا البائس المسكين – الذى ظل جالسًا دون حركة لفترة طويلـة – أن يشعر بالاطمئنان عندما شعر بوجود مركبة جياد آتية نحوه. أوقف حُـوذِيٌّ هـذه المركبة خيله عندما سمع صوت أنين رجل، فقال لسائق المركبة إنه متأكد أن هناك ميتًا ملقىً فى بركة من الماء حيث سَمِعه يتأوه. فقال سائق المركبة: "إننا متأخرون وليس لدينا وقت للاعتناء بالمرضى". قالت سيدة – سمعت ما قاله الحوذى وسمعت أيضا أنين الرجل – لسائق المركبة أن يتوقف ويرى ما يحدث. فأمر سائق المركبة الحوذى أن ينزل ويرى ما يحدث. فعل الحوذى ما أمر به، ثم رجـع قـائلاً: "إن هناك رجلاً يجلس عاريًا كما ولدته أمه". صاحت السيدة "يا إلهـى، رجـل عـارٍ، ارحل أيها السائق واتركه." ولكن الرجل خرج من المركبة وتوسل إليـه جوزيـف بأن يشفق عليه، لأنه قد سُرق وضُرب حتى الموت. صاح رجل عجوز "سُـرقت، دعونا نسرع بأكثر مما يمكن تخيله وإلا سنُسرق نحن أيضا."

أجاب شاب له خبرة بالقانون: إنه تمنى لو مروا به دون أن يلاحظوه، لأنـه إذا مات سيتهمون بقتله. ومع ذلك فكر الشاب أنه من الأفضل إنقـاذ حيـاة هـذا المخلوق المسكين، على الأقل لمنع توجيه أى اتهام لهم فى حالة موته. وكان رأيـه هو أن يحملوا هذا الرجل داخل المركبة إلى الفندق المجاور. أصرت الـسيدة أن لا يركب جوزيف، لأنه لو ركب ستنزل هى، لأنها تفضل أن تظل بهذا المكان بـاقى حياتها بدلاً من الركوب مع رجل عارٍ. واعترض سائق المركبة على ركوبه إلا إذا دفع له أحد ثمن الركوبة. ورفض رجلان من الركاب أن يفعلا ذلك.

لكن المحامى الذى كان خائفًا أن يلحق به أذى لو تُرك هذا البائس فى هذه الحالة قال: إن الإنسان يجب أن يكون شديد الحذر فى هذه الحالات، وقد تذكر قضايا استثنائية تُهدد سائق المركبة، وتجعله محفوفًا بالخطر، لأنه لو مات الفتى سوف يُتهم بقتله، ولو عاش واتخذ موقفًا ضده فهو مستعد أن يترافع عنه.

كانت هذه الكلمات لها تأثيرٌ مقنع على سائق المركبة الذى يعرف جيدًا الشخص الذى يحدثهم، والرجل العجوز المذكور آنفًا معتقد أن الفتى العارى سيعطيه فرصًا متكررة لإظهار ذكائه للسيدة، وعرض مشاركتهم بعد إعطائه كوبًا من البيرة أجرًا له، إلى أن تنبه بتهديد من أحد الركاب، ووعيدٍ من آخر، ثم بعد ذلك رأف بحالة هذا المخلوق المسكين الذى كان ينزف ويرتجف بردًا، فوافق أخيرًا وسمح لجوزيف بركوب المركبة، وعندما رأى السيدة تضع مروحتها أمام عينيها، رفض مطلقًا أن يدخل قبل أن يُجهز بملابس كافية لمنع توجيه أية إهانات له. فقد كان هذا الفتى شديد الاحتشام وسط هذه التأثيرات الجبارة، فقد كان يضع نصب عينيه دائمًا قدوةً طاهرة، وهى أخته المحبوبة باميلا، والمواعظ العظيمة للسيد أدمس التى كان لها تأثيرٌ عليه.

وعلى الرغم من أن المركبة كان بها العديد من المعاطف، فإنه ليس سهلاً التغلب على هذا الحرج الذى بدأه جوزيف. واشتكى رجلان من البرد وأنهما لا يستطيعان خلع ولو قطعة من ملابسهما، ورفض سائق المركبة الذى كان لديه معطفان إعطاء جوزيف أحدهما خشية أن يلطخهما بالدم، واعتذر خادم السيدة لنفس السبب، وقد وافقت السيدة نفسها على الرغم من اشمئزازها من الفتى العارى، ولكن جوزيف المسكين تمسك بحدة باحتشامه، إلى أن تطوع الحوذى بمعطفه، وهو رداؤه الوحيد، وأقسم أنه يمكن أن يعيش دون رداء طوال حياته بدلاً من أن يترك مثل هذا الرفيق فى هذه الحالة البائسة.

ارتدى جوزيف المعطف وصعد داخل المركبة التى واصلت الآن رحلتها، وأعلن أنه تقريبًا سيموت بردًا، وقد أعطى الرجل الفطن فرصة أن يطلب من السيدة أن تعطيه جرعة من الشراب. وأجابت باستياء وهى متعجبة من سؤاله هذا، ولكنها أكدت له أنها لم تتذوق هذا الشىء من قبل.

بينما كان المحامى يستفسر عن ظروف السرقة، توقفت المركبة وركب بها أحد اللصوص الذى طالب الركاب بنقودهم، فبدأ كل منهم يعطيه بالفعل ما معه، وأعطته السيدة فى خوف زجاجة فضية صغيرة تسع حوالى نصف وعاء، فأخذها اللص المتشرد وشرب ما بها، وقال: أن هذا أحسن أنواع الخمر الفرنسى التى لم يشرب مثلها قط، وأكدت السيدة أن هذا خطأ خادمتها، لأنها طلبت منها أن تملأ الزجاجة بشراب هنجرى. وبمجرد أن رحل الرفقاء، قال المحامى إن كان هذا السطو حدث نهارًا لقدم على مقاومة هذا اللص، وأوضح أيضا أنه غالبًا يقابل قطاع طرق أثناء سفره ولم يجرؤ أحد على سرقته، وأنهى كلامه قائلاً إنه لولا خوفه الشديد على السيدة ما فكر فى التفريط فى ماله بسهولة.

ولاحظ بالفطنة العامة أن الحب يسكن فى الجيوب الخاوية، لذلك فإن الرجل الذى لاحظنا براعته آنفًا، بعد أن تخلى عن نقوده، بدأ فى التحدث عن أشياء طريفة. فأشار عدة مرات إلى آدم وحواء ثم قال بعض الأشياء الجيدة عن التين وأوراق التين مما أهان جوزيف أكثر من أى فرد فى المجموعة.

أطلق المحامى العديد من الدعابات الجميلة جدا دون أن ينحرف عن مهنته وقال لو كان جوزيف والسيدة بمفردهما لكان قادرًا جدا على عمل نقل ملكية لها، لأن مهنته ليست مقيدة بأى عائق، وهو يضمن أنه قريبًا سيخضع لاسترداد وثيقة قيد، وهى الطريقة الملائمة لخلق ورثة، ومن جانبه سيتعهد بعمل بيان ثابت فى المركبة حتى لا يكون هناك خطر طرد، واستمر فى هذا الكلام غير المفهوم حتى وصلت المركبة لفندق، حيث كانت هناك خادمة واحدة فقط مستيقظة وعلى استعداد أن تُجهز لسائق المركبة لحمًا باردًا وشرابًا. ورغب جوزيف فى النزول، وأن يكون هناك فِراش مجهز له، حيث وعدته الخادمة بذلك بالفعل، ولأنها خادمة بشوشة؛ أشعلت نارًا للتدفئة وأعطت جوزيف معطفًا يخص أحد النزلاء بالفندق، وطلبت منه الجلوس لتدفئة نفسه إلى أن تنتهى من إعداد الفراش. وفى الوقت نفسه، انتهز سائق المركبة الفرصة لاستدعاء طبيب يسكن بالقرب من الفندق، بعد أن ذكر الركاب أنهم متأخرون. وبعد أن تركوا جوزيف وصلهم بسرعة بقدر ما استطاع.

وأعدت الخادمة فراشًا لجوزيف، ووعدته أنها ستحاول أن تقترض له قميصًا، لكنها لاحظت أنه ينزف نزفاً شديدًا؛ فذهبت بأقصى سرعة لاستعجال الطبيب الذى لم يرتد إلا نصف ثيابه معتقدًا أن المركبة قد انقلبت، أو أُصيب بعض السيدات أو الرجال. وبمجرد أن أعلمته الخادمة من نافذته أن خادمًا مسكينًا هو الذى جُرد من كل ما يمتلكه وهو شبه مقتول، وبخها، لأنها أزعجته فى مثل هذا الوقت المبكر، وخلع ملابسه ثانية وبكل هدوء رجع لفراشه.

بدأت الشمس تظهر من وراء التلال وعلى وجهها علامات الحزن، بينما تغرد ملايين الطيور فى مرح مكررة تغريدها آلاف المرات أحسن من شعرائنا، وأنشدت أغنية، وعندما استيقظ سيد الفندق السيد طاوس وعلم من خادمته قصة السطو، وموقف ضيفه العارى المسكين، هزّ رأسه قائلاً "ياله من يومٍ سيئ!!." وأمر خادمته أن تعطيه أحد قمصانه الخاصة.

استيقظت السيدة طاوس وتمطّت عبثًا لتضم زوجها الذى ترك الفراش عندما دخلت الخادمة الحجرة.

"من هناك؟، بيتى؟ "

"نعم سيدتى".

"أين سيدك؟"

" خارج المنزل، وأرسلنى لآخذ قميصًا وأعطيه للرجل المسكين العارى الذى سُرق وجُرح".

قالت السيدة طاوس: "المسى واحدًا، لو تجرئين، أيتها الفتاة الوقحة.إن سيدك نوع طيب من الرجال، لأنه يؤوى متشردين عُراة ويُلبسهم ملابسه الخاصة، أنا لن أسمح بهذا، ولو لمستِ أى شىء سألقى بمبولة حجرة النوم على رأسك. اذهبى وأرسلى لى سيدك".

" سمعًا وطاعة يا سيدتى".

وبمجرد أن أتى، قالت: "ماذا يعنى ما تفعله هذا يا سيد طاوس؟ هل أشترى قمصانًا لنقرضها للمتشردين؟ "

قال السيد طاوس: " عزيزتى، إنه بائسٌ مسكين".

قالت: "نعم، أعلم أنه بائسٌ مسكين، ولكن ماذا نفعل لهؤلاء المساكين؟، إن القانون يجعلنا بالفعل نُعيل العديد من المساكين. وسوف يكون لدينا قريبًا ثلاثون أو أربعون بائسًا فقيرًا مرتدين معاطف حمراء".

صاح السيد طاوس: " عزيزتى، إن هذا الرجل سُرق منه كل ما يملكه."

قالت: " حسنًا، ثم كيف سيدفع حسابه؟ ولماذا لا يذهب إلى حانة؟، أؤكد لك أننى سوف أطرده بمجرد أن أنهض من مكانى ".

قال: "عزيزتى، الصدقة العامة تمنعك من هذا الفعل".

قالت: " الصدقة العامة تُعلمنا أن نُعيل أنفسنا وعائلتنا، وأنا أؤكد لك أننى لا أريد أن أتأذى أنا وعائلتى بصدقتك هذه".

قال: "حسنًا، عزيزتى افعلى ما تُريدين، وعندما تنهضى ستعرفين أننى لن أُعارضك".

قالت: "لا، ولو عارضنى الشيطان، سأجعل البيت شديد الحرارة لدرجة أنه لن يستطيع البقاء فيه". واستغرقت هذه المحادثة حوالى نصف ساعة، بينما اقترضت بيتى قميصًا من أحد النزلاء وهو أحد محبيها، وألبسته جوزيف المسكين. وأخيرًا زاره الطبيب وطهر جروحه وضمدها، وهو الآن يتعرف على السيد طاوس، حيث كانت حياة ضيفه في خطر، ورأى أن الأمل فى شفائه ضعيف.

صاحت السيدة طاوس: "هذه المشكلة التى جلبتها لنا ميئوس منها، وسنجد أنفسنا مضطرين لدفع نفقات جنازته".

(السيد طاوس الذى يعطى صوته بحرية كما يفعل فى الانتخابات يــرى أن أى منزل آخر فى المملكة سيكون مسئولاً مسئولية كاملة عن ضيفه).

أجاب: " عزيزتى، لا لوم علىّ فقد أحضرته المركبة، ووضعته بيتـــى فـــى الفراش قبل أن أتحرك أنا".

قالت: " سأريها نتيجة عملها" وكانت مرتدية نصف ملابسها والنصف الآخر على ذراعها ذهبت للبحث عن بيتى سيئة الحظ. بينما ذهب السيد طاوس والطبيــب لزيارة جوزيف المسكين والاستفسار عن ظروف هذه المأساة.

الفصل الثالث عشر

ما الذى حدث لجوزيف أثناء مرضه
فى الفندق الصغير،
والمحادثة الغريبة بينه وبين السيد برنابس
قس الأبرشية.

وبمجرد أن حكى جوزيف قصة السطو عليه، والرحلة التى كان يقصدها، سأل الطبيب إن كان هناك خطر على حياته. وأجابه الطبيب بأمانة تامة إن حياته فى خطر، ونبضاته سريعة ومحمومة، ولو زادت الحمى أكثر من ذلك سيكون من المستحيل إنقاذه.

تنهد جوزيف بعمق وصاح قائلاً: " فانى المسكينة، أتمنى لو أعيش لرؤيتك، وسيساعدنى الله فى ذلك".

ونصحه الطبيب بإنهاء أية شئون دنيوية بأسرع ما يمكن، وهو يتمنى له الشفاء، ولكنه اضطر أن يصارحه بأنه فى خطرٍ كبير. ولو اشتدت الحمى فلن يقدر على تنفيذ رغبته.

أجاب جوزيف بأنه من المستحيل أن يكون هناك مخلوق على وجه الكون فى حالة أسوأ من حالته. ومنذ حادثة السطو لا يمكن أن يكون هناك شخص أفقر منه؛ فهو لا يملك أى شيء على الإطلاق.

قال: " أنا كنت أملك قطعة الذهب الصغيرة التى أخذوها. كانت ستحل كل أحزانى، ولكن أحتاج ما يذكرنى بكِ يا فانى، فإن خيالك فى قلبى ولا يستطيع أن يمزقه".

وطلب جوزيف قلمًا وورقة لكى يكتب خطابًا، ولكنهم رفضوا إعطاءه ذلك ونصحوه بأن يحاول إراحة نفسه. ثم تركوه جميعًا، وأرسل السيد طاوس للقس وطلب منه الحضور، وأن يصلى لتطهير روح جوزيف المسكين منذ أن يئس الطبيب من إيجاد أى علاج ناجح من أجله".

أتى السيد برنابس (كان هذا هو اسم القس) بمجرد استدعائه، وبعد أن شرب طبقًا من الشاى مع السيدة صاحبة الفندق، وبعد ذلك وعاء الفاكهة مع السيد صاحب الفندق، ذهب إلى الحجرة حيث كان جوزيف راقدًا، ولكنه وجده نائمًا، ثم رجع وأخذ الحذاء الآخر، ثم ذهب ثانيةً إلى الحجرة، وعندما فتحها سمع الرجل العليل يتحدث إلى نفسه بهذه الطريقة: "معبودتى باميلا، وأختى العفيفة التى جعلتنى مثاليتها أستطيع أن أصمد أمام أية إغراءات للمال والجمال، وأن أحتفظ بعفتى الطاهرة لعزيزتى فانى ولو أسعد السماء أن أكون معها. ما الذى سيعد له الغنى والسعادة والشرف إذا فقدت البراءة؟ هل هذا سيعطينا المزيد من الأسى أكثر من أى اقتناء دنيوى آخر؟ ماذا غير البراءة والعفة يمكن أن يعطينى أية راحة لمثل هذه التعاسة البائسة التى أنا فيها؟ ومع ذلك فإن كل هذا يجعلنى أفضّل المرض والألم على كل السعادة التى أجدها مع سيدتى، وهذا يجعلنى أواجه الموت دون خوف، وعلى الرغم من أننى أحب فانى أكثر من أى رجل أحب امرأة، فإن هذا يعلمنى أن أسلم نفسى للإله دون شكوى. يا لها من مخلوقة خلابة ومبتهجة لو جعلتها السماء تنغمر بين ذراعىّ، ستكون أفقر حالة هى الجنة، كنت سأعيش معها فى أقل كوخ، دون أن أحقد على من يعيشون فى القصور وسط الملذات. لكننى يجب أن أتركك، أتركك للأبد يا ملاكى العزيز. يجب أن أفكر فى عالم آخر وأدعو من قلبى أن تجدى راحةً فى ذلك".

اعتقد برنابس أنه استمع بما يكفى؛ لذلك ذهب للسيد طاوس وقال له إنه لا يستطيع أن يصنع لضيفه أية شعائر، لأنه مصاب بدوار ولم يتفوه إلا بقصيدة ملحمية طوال الوقت الذى أمضاه فى الحجرة.

رجع الطبيب بعد الظهر ووجد أن مريضه في حمى شديدة مثلما قال سابقًا، لكنه لم يكن في حالة من الهلوسة، على الرغم من أن رأى برنابس أنه فاقد حواسه منذ وصوله الفندق.

واستدعى برنابس ولكن بصعوبة، وبعد إلحاح شديد قام بزيارة ثانية، وبمجرد أن دخل الحجرة قال لجوزيف إنه جاء ليصلي به وليُجهزه لعالم آخر. وطلب منه أولاً أن يتوب من كل خطاياه، فأجابه جوزيف أنه تمنى لو كان له ولكن هناك شيء واحد يعرفه، هل يمكن أن يكون خطيئة؟ ولو كان كذلك فهو يخاف أن يموت وهو مرتكب هذا الذنب.

وهو الندم على فراق فتاة صغيرة أحبها من أوتار قلبه. وأكد له برنابس أن أي تذمر من إرادة الرب سيكون أكبر خطيئة يرتكبها، فيجب عليه أن ينسى كل الأحاسيس الشهوانية وأن يفكر في الأشياء الحسنة.

قال جوزيف: " ولا هذا العالم ولا العالم الآخر سيجعله ينسى فاني. وعلى الرغم من أنه سيكون شيئًا مؤلمًا أن يتركها للأبد، فإنه ليس نصف التعذيب الذى ستُعانيه هي عندما تعرف محنتهُ."

قال برنابس: " إن تلك المخاوف تنم عن عدم الثقة والكآبة، وهذا شيء إجرامي للغاية، لأنه يجب أن يجرد نفسه من كل من العواطف الإنسانية ويثبت قلبه عاليًا.

أجاب جوزيف. "هذا ما تمنى أن يفعله ويجب أن يلزم نفسه به إن لم يقدر على تحقيقه".

أجاب برنابس: " هذا ما يجب أن يكون بفضل الله".

توسل إليه جوزيف أن يكشف له كيف يمكن أن يحصل عليه.

أجاب برنابس: "بالدعاء والإيمان بالله." ثم سأله عن ما يتعلق بالصفح عن اللصوص.

أجاب جوزيف "إنه خائف، لأن هذا أكثر مما يستطيع أن يفعله حيث لن يكون هناك ما سيجعله سعيدًا أكثر من سماعه أنه تم القبض عليهم.

صاح برنابس: "هذا، من أجل العدالة".

قال جوزيف: "نعم، لكن إذا قابلتهم ثانيةً، سأهاجمهم وأقتلهم أيضا إن استطعت".

أجاب برنابس: " بلا شك، إنه قانونيٌ أن تقتل لصًا. لكن هل تستطيع أن تصفح عنهم كما اضطر أن يفعل المسيح؟"

ورغب جوزيف أن يعرف ما هو الصفح.

أجاب برنابس: " إنه أن تغفر لهم كما بالاختصار، أن تغفر لهم كالمسيح."

أجاب جوزيف إنه غفر لهم بقدر ما استطاع.

قال برنابس: " حسنًا، حسنًا، هذا فعلٌ حسن." ثم طلب منه أنه لو تذكر أية ذنوب أخرى لم يتب منها، فيجب أن يسرع بالتوبة بقدر ما يستطيع.

أجاب جوزيف إنه لا يستطيع أن يتذكر أية جرائم قد اقترفها، وهو بإخلاص يأسف على ما ارتكبه منها.

قال برنابس: " يكفى هذا ". ثم واصل الدعاء، وكان ينتظر بعض الناس فى قاعة الاستقبال حيث جهزوا عصير البنش، ولم يعصر أحد البرتقال حتى أتى.

واشتكى جوزيف قائلاً إنه ظامئ ويرغب فى القليل من الشاى. ونقل برنابس ذلك للسيدة طاوس، التى أجابت أنها شربته توًا، وهى لا تستطيع أن تقضى اليوم كله فى صب الشاى، وأمرت بيتى أن تعطيه بعض البيرة.

أطاعت بيتى سيدتها، ولكن بمجرد أن تذوقها جوزيف قال إنه خائف أن تُزيد من مرضِه، وهو متشوق جدا لشرب الشاى. وعلى ذلك قالت البشوشة بيتى: "يجب أن تحضرَ له شايًا من تحت الأرض".

وهكذا اشترت له بعضًا من الشاى وأحضرته له. وسوف نتركها مع جوزيف بعض الوقت لنُسلى القارئ بأمورٍ أخرى.

الفصل الرابع عشر

مليءٌ بالمغامرات التي تلت إحداها الأخرى
في الفندق الصغير.

هَلّ الآن غسق الليل، عندما دخل الفندق شخص رزين، وسلم فرسه لنزيل الفندق ثم ذهب مباشرة نحو المطبخ وطلب تبغًا لغليونه، ثم جلس بجوار المدفئة حيث كان يجتمع عدة أشخاص آخرون.

وكان الحديث عن حادثة السطو التي ارتكبت الليلة الماضية، والبائس المسكين الذي رأوه راقدًا أعلى في حالة مروعة. قالت السيدة طاوس إنها مندهشة، ما الذي قصده توم ويب ويل بإحضار هؤلاء الضيوف لمنزلها، على الرغم من وجود العديد من الحانات على الطريق وهي ملائمة لاستقبالهم؟ وأكدت له أنه لو مات يجب أن يتحمل القس نفقة الجنازة. وأضافت لا شيء سينفع هذا الرفيق إلا الشاي.

أجابت بيتي التي رجعت توًا من مهمتها التي تطوعت لها أنها اعتقدت أنه رجل ذو مكانة اجتماعية، لأنها لم تر بشرة أجمل من بشرته في حياتها.

أجابت السيدة طاوس: " تبًا لبشرته، لو افترضنا أننا نود أن يدفع كل هؤلاء الحساب. أتمنى ألا يزور أحد مثله الدارجون". (على ما يبدو أن دارجون هي رمز الفندق)

أظهر الرجل الذي وصل مؤخرًا عطفًا كبيرًا تجاه محنة هذا المخلوق المسكين الذي لاحظ أنه وقع في أيدٍ ليست رحيمة.

وإذا لم تُبد السيدة طاوس أى تعبير يوضح طيبة معـــشرها، فـــإن الطبيعـــة ستبرز تلك الآلام فى ملامحها، ولن يكون هناك تعبير واضح للصورة.

فهى قصيرة ونحيفة، وجبهتها بارزة فى الوسط؛ ومن ثم فهى منحدرة إلـــى قمة أنفها، وأنفها حادة وحمراء ومعلقة فوق شفتيها، ولم تبرز الطبيعـــة نهايتهـــا. وشفتاها عبارة عن جزئين من الجلد؛ فإذا تحدثت ارتسما معًا فى كيس نقود. وذقنها مدببة ونهاية الجزء الأعلى من هذه البشرة خداها وبهما عظمتان تخفيـــان تقريبّـــا عينيها الصغيرتين الحمراوين. بالإضافة إلى ذلك، صوت متناسق بطريقة رائعـــة مع الأحاسيس التى تنقلها، فهو عالٍ وأجش.

ليس من السهل القول إن كان الرجل حمل للسيدة صاحبة الفندق كرهًا أكثر أم شفقة لضيفها التعيس. وقد استفسر جديًّا من الطبيب الذى دخل الآن المطـــبخ إن كان لديه أى أمل فى شفائه؟ وتوسل إليه أن يستخدم كل الطرق الممكنـــة تجاهـــه، وأخبره أن هذا واجب رجال كل المهن، أن يُقدموا مهارتهم المجانية من أجل راحة الفقير والمحتاج.

أجاب الطبيب إنه سيعتنى به، ولكنه يتحدى كل أطباء لندن إن استطاعوا أن يفعلوا له أى شىء.

قال الرجل: "حاول، ياسيدى. ما هى إصابته؟"

قال الطبيب (وهو يطرف للسيدة طاوس): "هل تعرف أى شىء عن الجروح والإصابات؟"

أجاب الرجل: " إننى يا سيدى لدى معرفة سطحية بالجراحة".

قال الطبيب: " معرفة سطحية... أعتقد أنها فعلاً معرفة سطحية".

كانت الصحبة جميعها منتبهة متوقعه أن يسمع الطبيب الذى يطلقون عليـــه شخصًا عنيدًا ما يُظهر جهل هذا الرجل.

وبدأ جو من الانتصار: " افترض أنك سافرت ".

قال الرجل: " لم أسافر كثيرًا يا سيدى ".

- " إذن ربما تدربت فى المستشفيات".

قال الرجل " لا يا سيدى".

- " ولا حتى هذا".

- "إذن مِن أين حصلت على معلوماتك عن الجراحة؟"

قال الرجل: " لقد حصلت على القليل من المعلومات التى أعرفها من الكتب الطبية ".

صاح الطبيب: " كتب!! ماذا؟ أعتقد أنك... أنك قرأت جالينوس وأبقراط".

قال الرجل " لا يا سيدى ".

أجاب الطبيب: " إذن كيف تفهم الجراحة وأنت لم تقرأ جالينوس وأبقراط؟"

صاح الآخر: " أعتقد أن هناك العديد من الجراحين لم يقرأوا لهؤلاء المؤلفين".

قال الطبيب: "وأنا أعتقد ذلك أيضا. لعنة عليهم... ولكن أحمد الله على ما تعلمته فأنا أحفظهما عن ظهر قلب. ومن النادر أن أذهب إلى مكان إلا وهما فى جيبى."

قال الرجل: " إنها مجلدات كبيرة وجميلة يا سيدى".

قال الطبيب: " آه، أعتقد أننى أعلم كم هى كبيرة وهى أحسن منك".

ولمح فجأة الصحبة بأكملها قد انفجرت ضحكًا.

وتابع الطبيب انتصاره قائلا للرجل: "ألا تفهم الفيزياء مثل الطب؟"

قال الرجل: "أفهمها أحسن منك".

صاح الطبيب: " آه، هذا يكفى ". وعندما لمح السيدة طاوس قال: " لماذا؟ إننى أعرف القليل من الفيزياء أيضا."

قالت السيدة طاوس: " أتمنى لو عرفت نصف ما تعرفه، لن أرتدى مريلة المطبخ ثانية".

صاح الطبيب " هناك القليل من الرجال لا يستطيعون معالجة الحمى جيداً". ثم تحدث باللغة اللاتينية قائلاً: " Veniente accurritemorbo (عالج المرض حسب تطوره) وقال هذه هى طريقتى. أعتقد يا أخى أنك تفهم اللغة اللاتينية."

قال الرجل: "قليلاً، والآن باليونانية، سأثبت لك " وألقى بعض الكلمات اليونانية من شعر هومر Homer: " Ton dapomibomins poluflosboio thalasses "

"لكننى نسيت هذه الأشياء تقريبًا، فى الماضى كنت ألقى هومر Homer عن ظهر قلب". قالت السيدة طاوس وضحك الجميع على كلامها "اصطاد الرجل خائنًا".

ولم يكن لهذه الدعابة تأثير على الرجل، وبسعادة بالغة سمح للطبيب أن يستمتع بانتصاره الذى فعله دون أدنى رضا، وعبر عما بداخله قائلاً له إنه قد اقتنع تمامًا بتعليمه وقدراته البالغة. وسوف يلزمه أن يدعه يعرف رأيه فى حالة مريضه الراقد فى الطابق العلوى.

قال الطبيب: " سيدى، إن حالته، حالة رجل ميت. إن الكدمات التى فى رأسه قد ثقبت التيه الغشائى فى الأذن الوسطى، إلى جانب الحمى، وفى رأسه عدة بطحات كما يطلق عليها باللغة العامية".

وقد واصل كلامه بهذه الطريقة العلمية عندما قاطعته ضوضاء شديدة. فقد قبض بعض شباب الجيران على أحد اللصوص وأحضروه داخل الفندق. وجرت بيتى إلى جوزيف لتخبره بذلك، حيث توسل لهم أن يبحثوا عن قطعة صغيرة ومكسورة من الذهب، وهى مربوطة فى شريط، وهى التى يمكن أن يحلف بها وسط كل ذخائر الرجال الأغنياء فى الكون.

ومع ذلك أصر الرجل على براءته، وكان الناس مشغولين ليبحثوا عن قطعة الذهب. والآن وسط أشياء أخرى وجدوا قطعة الذهب التى ذكرها والتي لم ترها بيتى، فهى فقط وجدت أيادٍ عنيفة تعطيها لجوزيف الذى أخذها وهو فى قمة السعادة وضمها إلى صدره، وأعلن أنه يستطيع الآن الموت وهو راضٍ.

وبعد دقائق قليلة أتى أشخاص آخرون ومعهم صُرة وجدوها فى البركة، والتي كانت بها الملابس التى انتُزِعت من جوزيف والأشياء الأخرى التى أخذوها منه.

وما إن رأى الرجل الملابس إلا وأعلن أنه يعرف هذا الخادم، ويرغب فى رؤيتِه، لأنه على معرفة جيدة بالعائلة التى ينتسب إليها.

وهكذا أوصلته بيتى إلى الحجرة التى بها الخادم، ويا لها من مفاجأة للقارئ عندما اكتشف الرجل أن الشخص الراقد بالفراش هو جوزيف، واكتشف جوزيف أن الرجل هو أعز أصدقائه وهو السيد إبراهام أدمس.

سيكون شيئًا مملا لسرد محادثة يعرفها القارئ بالفعل جيدًا. وبمجرد أن طمأن راعى الأبرشية جوزيف على صحة فانى، كان متشوقًا للغاية لأن يعرف ما الذى أدى إلى تلك الحادثة الأليمة.

ولنرجع إلى المطبخ حيث احتشد الآن العديد من الناس الذين خرجوا جميعًا من حجراتهم، واحتشد معهم أيضا الجيران ليروا اللص. وبدأ السيد طاوس يُدلك يديه بسعادة عند رؤية هذا التجمع الهائل، ورغب هو أن ينقسم هذا التجمع إلى عدة وحدات من أجل الحديث عن السطو وإعطاء كل الرجال الأمناء نخبًا.

وبدأت السيدة طاوس ترى أنها فى محنة عندما رأت بعض المشاكسات التى حدثت فى هذا الاحتشاد قائلة لزوجها: " إنهم يزدادون، من الذى جعل البيت مكانًا لتسلية المتشردين واللصوص؟"

وأنهى الآن الناس بحثهم ولم يجدوا أى دليل ضد هذا الأسير إلا الملابس وقد رأوا أن هذا الدليل كافٍ. ولكن لاحظ الطبيب أنهم لا يستطيعون تجريمه، لأنها لم تكن بحوزته، ووافق برنابس على ذلك مضيفًا أن تلك الأشياء قُدمت صدقة، وهى خاصة بسيد المزرعة.

قال الطبيب: " كيف؟ هل تقول إن تلك الأشياء تخص سيد المزرعة؟ "

صاح برنابس: "نعم لقد قلت ذلك".

قال الطبيب: " أنا أنكر ذلك. ماذا سيفعل سيد المزرعة فى القضية؟ هل هناك من يتبعنى؟ كيف يأخذ الرجل ما يجده وهو ليس ملكه؟".

قال رجلٌ عجوز: " إن العدالة تقول إن كل رجل له الحق أن يأخذ ما وجده حتى لو كان يخص ملك لندن".

قال برنابس: "من الممكن أن يكون هذا صحيحًا؛ إن القانون يفرق بين ما هو مسروق وما عُثر عليه، لأن الشيء الذى سُرق لن يُعثر عليه، والشيء الذى عُثر عليه لم يُسرق. الآن الأشياء المسروقة وعُثر عليها تخص صاحب الضيعة".

قال الطبيب: " إذن صاحب الضيعة هو الذى يأخذ الأشياء المسروقة؟" وعلى ذلك ضحك الجميع، وكان هو أول من ضحك.

بينما كان السجين يُصر على براءته (حيث لا يوجد دليل ضده) وانجذب إلى جانبه برنابس والطبيب وطاوس وآخرون، أخبرتهم بيتى أنهم قد عثروا معه على قطعة الذهب التى أخذها الرجل الراقد بالفراش.

وفى الحال جعلهم هذا ينقلبون ضده، وأقر كل واحد الآن أنه مذنب، وعزموا أن يحتفظوا به هذه الليلة ويسلموه فى الصباح الباكر للعدالة.

الفصل الخامس عشر

كيف هدأت السيدة طاوس قليلاً، وكيف كان كل من السيد برنابس والجراح متحمسًا جدا لمحاكمة اللص، بالإضافة إلى رسالة توضح حماسهما وحماس أشخاص آخرين لم يرد ذكرهم في هذه القصة.

قالت بيتى لسيدتها إنها تعتقد أن الرجل الراقد فى الفراش ذو مكانة عالية أكثر مما يظنون، وإلى جانب بياض بشرته ونعومة يديه فقد لاحظت ألفة كبيرة جدا بينه وبين الرجل الذى لديه مكانة اجتماعية. وأضافت أنها متأكدة أنهما على معرفة شخصية وثيقة إن لم تكن قرابة.

وهدّأ هذا نوعًا ما القسوة التى تبدو على ملامح السيدة طاوس. وقالت إنها لا سمح الله لم تتقاعس عن أداء واجبها كمسيحية منذ أتى الرجل المسكين إلى منزلها. وهى بالفطرة تحمل كراهية للمتشردين، لكنها يمكن أن تشفق على مسيحى مثل أى شخص آخر.

قال طاوس: "لو أن المسافر رجل ذو مكانة اجتماعية، على الرغم من أنه لا يملك نقودًا الآن فسيدفع فيما بعد، فيمكنك أن تبدئى فى الحساب وقت ما تريدين."

أجابت السيدة طاوس " أمسكى لسانك الطليق هذا، ولا توجهينى إلى أعمالى؛ فإننى متأكدة أننى حزينة على محنة الرجل من كل قلبى، وأتمنى أن يُشنق النذل الذى هاجمه بطريقة وحشية. اذهبى يا بيتى ولبى ما يريد".

ذهب برنابس والطبيب إلى جوزيف ليرضيا فضولهما بما يخص قطعة الذهب. وعرضها لهما جوزيف بعد إلحاح شديد، وقال إنه لن يستطيع أن يفرط فيها لأى أحد منهما، وحلف أن هذا هو الشيء الذى أُخذ منه. وكانت بيتى مستعدة للحلف على وجودها مع اللص، والعقبة الوحيدة المتبقية هى كيف ستُقدم قطعة الذهب للعدالة، فمن المستحيل حمل جوزيف إلى هناك، وليس من المحتمل أخذها منه، حيث ربطها بذراعه وحلف أن لا شيء سيفصل بينهما إلا قوة لا تقاوم. وبهذا القرار أعلن السيد أدمس أنه سيسانده.

فى هذا الوقت نشب نزاع يخص حادثة ليس من الضرورى روايتها هنا. بعد ذلك ضَمَّد الطبيب رأس جوزيف، وظل مُصرًّا أن حالة مريضه فى خطر، ولكنَّ هناك بعضًا من الأمل، وسوف يعطيه جرعة من دواءٍ شاف وسيراه صباحًا. بعد ذلك رحل الطبيب وبرنابس وتركا السيد جوزيف والسيد أدمس معًا.

أخبر أدمس جوزيف عن سبب رحلته هذه؛ حيث كان ذاهبًا إلى لندن، وذلك لنشر ثلاثة مجلدات من المواعظ، وسوف تُروج عن طريق وكالة الإعلان وتنشرها جمعية بائعى الكتب، حيث عرضوا عليه شراء أية نسخة بثمن يسدده شخصان. وعلى الرغم من أنه كان يجب عليه أن يحصل على مبلغ كبير من المال فى هذا الوقت، حيث كانت أسرته فى أشد الحاجة إليه، قرر ألا يترك جوزيف فى هذه الحالة، وأخبره أن لديه تسعة شلنات، وثلاثة بنسات ونصف فى جيبه، وهو مسرور بذلك.

وطيبة القس أدمس هذه جعلت عينى جوزيف تدمعان، وقال إنه الآن لديه سبب آخر يرغبه فى العيش؛ ليرد الجميل لهذا الصديق، وطلب منه أدمس أن يبتهج، لأنه رأى أن الطبيب على الرغم من جهله فإنه يرغب فى أن يتلقى الثناء على علاجه، وعلى الرغم من أن الجروح التى برأسه خطيرة للغاية، فقد أقنعه أنه ليست هناك حمى، وقال إنه يستطيع السفر خلال يوم أو يومين.

ورفعت هذه الكلمات من روح جوزيف المعنوية، وقال إنه متألم للغاية من الكدمات، ولكن ليس هناك سبب للتفكير فى أية إصابات فى عظمه، أو الشعور بأى تلف داخله، إلا أنه شعر بشيء غريب جدا فى معدتِه، وذلك لأنه لم يأكل لقمة واحدة منذ أكثر من أربع وعشرين ساعة. وسأله أدمس إن كان لديه أى ميول للأكل فأجاب بالإيجاب، ثم سأله القس عن الطعام الذى يفضل تناوله إن كان بيضًا مسلوقًا، أو حساء دجاج، فأجاب إنه يريد تناول الاثنين، ولكنه يفضل قطعة من اللحم المسلوق والكرنب.

كان أدمس مسرورًا بذلك لأن ذلك يثبت أنه ليس محمومًا، لكنه نصحه بتناول غِذاء أخف هذه الليلة. لذلك أكل أرنبًا أو دجاجة، ونقلته السيدة طاوس إلى فراش أفضل وأعطته أحد قمصان زوجها.

فى الصباح الباكر، أتى برنابس والطبيب من أجل رؤية اللص وتقديمه للعدالة.

وقضيا الليل بأكمله يفكران فى الطرق التى يمكن عن طريقها أن يجعلا قطعة الذهب دليلاً ضده، وكانا متحمسين جدا لتلك القضية، على الرغم من أنه لم يهتم أحد منهما بإقامة الدعوى، ولم يتلق أحد منهما أية إصابات من الرجل، ولم يظن أحد أنهما يهتمان بالصالح العام لدرجة أنهما يتطوعان بالنصيحة أو المساعدة دون مقابل.

ولكى نساعد قارئنا بقدر ما يمكن فى رؤية هذا التحمس، يجب أن نخبره أن هذا الرجل – وهو من أبناء الأبرشية – سيئ الحظ للغاية لأنه ليس لديه محامٍ، هناك نزاع دائم بين طبيبين، أحدهما روحانى والآخر فيزيائى، فيما يخص قدراتهما العلمية التى لم يمارسها أحد منهما، ولديهما حجج متساوية لمناقشة آراء كليهما. وأسفرت تلك المناقشات عن احتقار شديد من جانب كليهما. وقد انقسموا تقريبًا إلى قسمين، فانحاز للطبيب السيد طاوس ونصف الجيران، والسيدة طاوس والنصف الآخر من الجيران انحازوا للقس. واستند الطبيب فى معلوماته إلى منابع لا تقدر بمال وهى **دليل المحامى للجيب وجداول يعقوب القانونية**، واستند برنابس إلى **قوانين وودس**.

وقد اختلف هذان الرجلان المتعلمان بشأن الدليل، فكان من رأى الطبيب أن يمين الخادمة يدين السجين بدون استخدام الذهب دليلاً، وعارضه القس واقترح عرض آراء كليهما أمام العدالة.

وكانت العدالة والأبرشية هما الدافع الوحيد الذى يمكن أن نكتشفه لهذا التحمس، حيث تظاهر كلاهما به لعدالة العامة.

يا للغرور!! كم إن قوتك لا يمكن إنكارها، أو إن قوتك قد ظهرت!! كم هو مبهج أن تخدع البشرية بأقنعة مختلفة!! أحيانًا ترتدى قناع الشفقة، وأحيانًا قناع الكرم.

ليس هذا فحسب، بل إنك تتمتع بالثقة لدرجة أنك تتحلى بمظاهر الفضيلة والبطولة.

أيها الوحش الكريه المشوه، احتقرك القساوسة والفلاسفة، وسخر منك الشعراء. هل يوجد من يعترف بك علانية، لكن هناك قلائل سيمنعون أنفسهم من الاستمتاع بك سرًّا؟ إن مبادئك هى مطاردة أغلب الرجال طوال حياتهم.

إن أبرع الأوغاد يُدربون يوميا لإسعادك، ويهتمون بك.

إن احتواءك هو الهدف الوحيد، والمكافأة الوحيدة للسطو السرى واغتنام المقاطعات. أيها الباغي قد حاولنا أخذك من الآخرين، وهو ما لا نريده أو نمنع أنفسنا منه، وهو ما يُريدونه.

كل عواطفنا هى عبيدك، الجشع نفسه ما هو إلا خادمك، وحتى الشهوة هى قوادك. إن حامى العاهرة مثل الجبان يطير أمامك، والمرح والحزن يُخبئان رأسيهما بحضورك.

أعرف أن داعك هو أنك تعتقد أننى بينما أسىء إليك، أتودد إليك، وأنّ حبك قد ألهمنى كتابة هذا المدح الساخر عنك، لكن مبادئك تخدعك، إننى لا أقيمك بأقل شيء، ولن يعطينى ذلك أى ألم إن أقنعت القارئ باستهجان هذا الاستطراد على أنه تفاهة رديئة جدا، من أجل المعرفة، باضطرابك، حيث إننى قد مهدتك ليس لغرض آخر سوى إطالة فصل قصير، ولذلك سأرجع لقصتى.

الفصل السادس عشر

هروب اللص،
وخيبة أمل السيد أدمس،
ووصول شخصين شديدى الغرابة،
وتقديم القس أدمس للقس برنابس.

كما قلنا رجع كل من الطبيب وبرنابس إلى الفندق من أجل تقديم اللص للمحاكمة، وظهر عليهما القلق بدرجة كبيرة عندما حدثت حادثةٌ صغيرة أحبطتهم، وهى هروب اللص، الذى هَرب ليلاً منهيًا كل التباهى، ولم يتنكر فى زى أحد الرجال العظماء حتى لا يشير عليه أحد.

عندما انسحب الرفقاء فى المساء السابق، حُجز اللص فى الحجرة حيث جلس لحراسته كل من الشرطى وأحد الشباب.

وفى أثناء مراقبته اشتكى السجين وسجانه من الظمأ؛ وعلى ذلك وافق الشرطى أن يظل فى تأدية واجبه ويذهب الشاب لاستدعاء الساقى، وبذلك الترتيب أدرك الأخير أنه لن يكون هناك أدنى خطورة؛ حيث كان الشرطى مسلحًا بدرجة كافية، ويمكنه بسهولة استدعاءه للمساعدة إن حاول السجين أن يحصل على حريته.

ولم يطل غياب الشاب عن الحجرة، عندما ظهرت فكرة على ذهن السجين، فقد قفز عليه فجأة ومنعه من استخدام أسلحته، خاصةً عصاه الطويلة التى يعتمد عليها، ويمكن أن تقلل نجاح المقاومة وتجعل العراك بينهما متكافئًا، وبحكمة خرج من الغرفة، وأغلق الباب منتظرًا وعصاه فى يده لمقاومة السجين التعيس إن كان حظه سيئًا وحاول الظهور.

لكن الحياة البشرية كما يعرف بعض العظماء (فأنا لن أنسب لنفسى مثل هذا الاكتشاف) تشبه لعبة الشطرنج، فكما فعل الأخير، بينما كان اللاعب متيقظًا لكى يؤمِّن نفسه تماما على جانب من الطاولة يمكن أن يتركه دون حراسة، وذلك لتركيزه الشديد، وهذا ما يحدث غالبًا في الحياة، وهذا ما حدث فى هذا الموقف، فبينما أمَّن الشرطى الحريص بحكمةٍ مدهشة نفسه بإغلاق الباب نسى لسوء الحظ النافذة.

واللص الذى يلعب على الجانب الآخر، بمجرد أن لاحظ النافذة المفتوحة بدأ يتحرك فى هذا الطريق، وعندما وجد أن المرور سهل أخذ معه قبعة الشاب ودون أن يلاحِظ أحد خرج إلى الشارع وسلك طريقه.

وعندما رجع الرفيق الشاب ومعه كوبان من البيرة اندهش عندما وجد الشرطى بالباب، لكن ما هو أكثر من ذلك عندما فتح الباب ورأى أن اللص قد هرب. فألقى بأكواب البيرة، ودون أن يقول شيئًا للشرطىٍّ إلا سُبة أو اثنتين من قلبِه، وبرشاقة قفز من خارج النافذة وذهب ثانيةً يطارد فريسته، ولم يكن مستعدًا أن يفقد المكافأة التى كان متأكدًا أنه سيتلقاها.

ولم يسلم الشرطى من الشك فيما حدث، وقيل إن له دورًا فى القبض على اللص، لذلك فلن يكون له نصيب فى اللص الذى كان معه عدة جنيهات فى جيبه، ومن غير المحتمل أنه سيكون مهتما بذلك الخطأ غير المقصود، فإن تظاهره بالخروج من الحجرة شيء مبهم، فمبدأه الأساسى هو أن الحكيم من لا يرفض المال فى أية حالة من الأحوال، فهو يبيع صوته فى كل انتخاب لكلا الطرفين.

لكن تلك الادعاءات أقنعتنى بدرجة كافية ببراءته، وأكدها هؤلاء الذين تلقوا معلوماتهم من فمه، وهو فى رأى بعض أشخاص العصر الحديث الدليل الوحيد الأصح والأحسن.

اجتمعت العائلة بأكملها، وأشخاص آخرون احتشدوا جميعًا في المطبخ، حيث كان السيد طاوس مضطربًا؛ عندما أعلن الطبيب أنه مسئول وفقًا للقانون عن هروب اللص، لأنه هرب من منزله، ولكنه هدأ قليلاً برأي السيد برنابس وهو أنه بما أن الهروب كان ليلاً فليس هناك اتهام.

ثم قالت السيدة طاوس تلك الكلمات: " مؤكد ليس هناك أحمق من زوجي، هل هناك أحد على وجه الأرض يترك رجلاً في السجن في حراسة رجل سكير مثل ذلك الأبله الناعس توم سكبريب (كان هذا اسم الشرطي)، وسأكون مسرورة إذا اتهم دون أي ضرر بزوجته وأولاده". بعد ذلك رن الجرس في حجرة جوزيف " أين بيتي، جون، والخادم؟ ألا تسمعون أم ليس لديكم يقين؟ ألا تسعفون أحدًا؟ "

لبوا ما يُريده الرجل. ولماذا لا تذهب بنفسك يا سيد طاوس؟ هل سيموت الناس من أجلك؟ إنك لست مهتما إلا بالصفقات. لو أقام أحد في منزلك أسبوعين دون أن يدفع بنيا لتركته وشأنه.

اسأله إن كان سيشرب شايًا أم قهوة في الإفطار. قال السيد طاوس: " نعم يا عزيزتي". ثم سألت الطبيب والسيد برنابس ما الذي اختاروه لشراب الصباح؟ وأجابوا أنهم شربوا وعاءً من عصير التفاح، وسنتركهم جالسين بجوار المدفأة في مرح ونرجع إلى جوزيف.

نهض جوزيف مبكرًا هذا الصباح وهو في حالة طيبة، لكن على الرغم من أن جروحه ليست خطيرة، كان هناك كدمات مؤلمة للغاية، فكان من المستحيل له أن يقوم برحلته الآن، السيد أدمس انخفض رأسماله بطريقة واضحة بعد مصاريف العشاء والإفطار؛ ولن يستطيع أن يفي بنفقات اليوم، وبدأ يفكر كيف يمكن أن يجد حلا لذلك أخيرًا، وقال إنه خطر بباله طريقة أكيدة، وعلى الرغم من أنها ستجبره على الرجوع إلى منزله هو وجوزيف فإنها لن تكلفه الكثير. ثم أرسل للسيد طاوس وأخذه في حجرة أخرى وأخبره أنه يريد أن يقترض ثلاثة جنيهات، وسوف يعطيه ضمانًا كافيًا عليها.

أجاب السيد طاوس الذي توقع أنه سيعطيه ساعة أو خاتمًا، أو شيئًا ذا قيمة مضاعفة، إنه اعتقد أنه يستطيع أن يلبى طلبه. وعلى ذلك أشار أدمس إلى حقيبة سرج حصانه، وقال له وصوته ووجهه مليئان بالوقار إن بداخل تلك الشنطة تسعة مجلدات من المواعظ، وهى تساوى مائة جنيه مثل الشلن الذى كان يساوى اثنى عشر بنسًا، وسيدفع على سبيل الضمان أحد المجلدات رهنًا، ويعده أنه سوف يُرجعه عند إرجاعه للنقود، وإلا سيخسر خسارةً كبيرة، لأن كل مجلد سيجلب له على الأقل عشرة جنيهات كما قال له أحد جيرانه من رجال الدين فى البلدة. قال: "إنه من جانبه لم يتعامل قط مع الطباعة، وأنا لا أتظاهر بالتحقق بالتجربة والاختبار للقيمة الدقيقة لتلك الأشياء".

قال السيد طاوس الذى اندهش قليلاً من الرهن إنه لا يستطيع أن يحكم على سعر تلك الأشياء، وأما عن النقود فهى حقا قليلة جدا.

أجاب أدمس إنه حقا لن يتردد فى إقراضه ثلاثة جنيهات مقابل ما لا يقل بلا شك عن عشرة جنيهات.

أجاب المالك إنه لا يعتقد أن لديه كثيرًا من المال فى المنزل، وعلاوةً على ذلك سيجمع جزءًا وإنه واثقٌ جدا أن تلك الكتب لها قيمة أعلى من ذلك، ويأسف بشدة أنها لم تُلائمه. ثم صاح قائلاً: " أنا آتى يا سيدى". على الرغم من أنه لم ينادِ أحدًا أو ينزل السلالم دون أن يأبه من كسر رقبته.

أصيب المسكين أدمس بالغم بسبب خيبة الأمل، ولم يعرف ما الوسيلة التى يمكنه تجربتها. وفى الحال استخدم الغليون الخاص به، صديقَهُ الدائم الذى يريحه فى أحزانه، ومال على قضبان النافذة وكرس نفسه لتسوية تلك المشكلة، وساعده على ذلك الدخان الذى كان يأتى من التبغ.

وضع على رأسه قلنسوة ولبس معطفًا غطى نصف رداء الكنيسة، وهذا اللبس أضاف شيئًا مضحكًا لملامحه، وألف شكلاً يمكن أن يجذب انتباه هؤلاء الذين لا يمكن جذب انتباههم.

بينما كان يدخن الغليون الخاص به فى جلستِه هذه، أتت مركبة يجرها ستة جياد محملة بالعديد من الناس إلى الفندق. ونزل من المركبة شاب واثنان من كلاب الصيد، ثم نزل شخص آخر وسلم على الأول بيده، وقادهما السيد طاوس هما وكلبهما إلى غرفة، بينما تسلى الاثنان أثناء ذهابهما بتلك المحادثة الظريفة، قال من المركبة: " إنك رفيق جميل أجمل من أن تكون سائق المركبة يا جاك!!، إنك قلبتنا تقريبًا الآن".

قال سائق المركبة: " مرض يأخذك، لو أمكننى كسر رقبتك لفعلتها لأوفر تعب شخص آخر يمكن أن يفعل ذلك، لكننى سأكون حزينًا على الكلاب". أجاب الآخر: " لو كان هناك شخص يمكنه التصويب أحسن منك، فلا فائدة لكلاب الصيد."

قال سائق المركبة: " سأراهنك على التصويب مقابل خمسة جنيهات ". قال الآخر: "ستُشنق".

قال سائق المركبة: "سوف ألاحقك بأسئلة أحسن من التى لاحقك بها جنى بونسر".

قال الآخر: "هاهو طاوس سوف يجعلك تصوب عليه شلِنًا".

صاح طاوس: " إننى أعرف كرمك جيدًا، إننى لم أرَ طلقة أصوب على طائر الحجل. كل رجل يفقد التصويب الآن وبعد ذلك، لكن لو أننى أستطيع أصوب بنصف طريقته، سأتمنى رزقًا أفضل مما أحصل عليه ببندقيتى".

قال سائق المركبة: "مرض يهل عليك(*)، إنك تُدمر لعبة الآن أكثر مما يستحقه عقلك. هناك كلبة". قال طاوس: " إنها لم تصطدْ طائرًا فى حياتها".

صاح الرجل الآخر: "إن لدى كلبًا لم يُكمل سنة سيصطاد معها مئات".

(*) السائق يسبه بهذه العبارة. (المترجمة)

قال سائق المركبة: "افعل ذلك، لكنك ستعرض قبل أن تصنع الرهان، إن كنت تستطيع أن تفكر فى الرهان، أنا سأزوج كلبى المنقط لكلبتك البيضاء مقابل مائة لعبة أو الدفع".

قال الآخر: "افعل، وأنا سوف أترك بالدفاس يسابق سلوش التى معك، وهذا رهان آخر".

قال الآخر وهو فى مقعد الحوذى: " لا، لكننى سأجعل جنى تنافس بالدفاس أو هانيبال لسلوتش مقابل ألف، لو تجرؤ، وأنا أقول افعل أولاً".

وقد وصلوا الآن، وسيكون القارئ سعيدًا جدا إذا تركهم وذهب إلى المطبخ، حيث كان يدخن كل من برنابس والطبيب ومحصل الضرائب، ويتناولون عصير التفاح. ووصل الآن الخدم الذين حضروا مع رجلين من النبلاء وهما اللذان رأيناهما ينزلان من المركبة.

صاح أحد الخدم: "توم، إن القس أدمس يدخن هناك فى الشرفة". قال توم: "نعم، لقد انتزعت قبعتى، وتحدث معى القس".

قال برنابس: " هل الرجل، رجل دين؟ " (حيث كان مرتديًا رداء كاهن عندما وصل فى البداية). أجاب الخادم: "نعم يا سيدى". قال برنابس: " لو كنت قابلته من قبل لتمنيت صحبته، فأنا دائمًا أبدى احترامًا لائقًا لمن يرتدى ثياب القس، لكن ما قولك أيها الطبيب أن نؤجل ذهابنا للحجرة وندعوه لشراب البنش؟"

وقد وافق على هذا الاقتراح ونفذه، وقَبِل القس أدمس الدعوة، ومر الحديث بكياسة بين الرجلين اللذين أبديا احترامهما الشديد للملابس. ولم يمضيا وقتًا طويلاً معًا قبل أن ينهمكا فى الحديث عن الضرائب الصغيرة التى تقدم للكنيسة، واستمر الحديث بينهما ساعةً كاملةً، دون أن ينال محصّل الضرائب أو الطبيب الفرصة للتحدث ولو بكلمة.

ثم اقترح بدء حديث عام، وتكلم محصّل الضرائب عن شئون خارجية، لكن لسوء الحظ أفلتت كلمة من أحدهم، وبدأ حديث الصعوبات التى عانى منهـا رجـل الدين الأقل شأنًا، وبعد حديث طويل، انتهى بإحضار المجلدات التسعة للمواعظ فى مجال الحديث.

ولم يشجع السيد برنابس أدمس المسكين، وقال إنه لا يوجد أحد يقرأ مواعظ فى ذلك العصر. قال: " هل تعتقد ذلك يا سيد أدمس؟ لقد عزمت مرة على طباعـة مجلد من المواعظ بنفسى، وصُدق عليها بثلاثة مطارنة أو اثنين، لكن تعتقـد كـم عرض على بائع الكتب؟"

صاح أدمس: " ربما اثنى عشر جنيها". أجاب برنابس: " أؤكد لك ولا حتـى اثنى عشر بنسًا، وحتى الكلب أبَى أن ينسجم مع تلـك المقايـضة. وفـى النهايـة عرضت عليه أن أعطيه الطباعة من أجل إهدائها للرجل الذى جاء توًّا بمركبته إلى الفندق، وأؤكد لك أنه رفض عرضى بوقاحة، وبذلك فقدت العيش الطيب، وبـذلك كانت المقايضة على كلب صيده للشخص الذى ... لن أقول شيئًا ضد رجل الـدين، لذلك عليك أن تُخمن يا سيد أدمس، ما الذى تتوقعه، لو لقيت المواعظ قبـولاً فلـن أكون مختالاً لكى أكون مختصرًا معك، قال ثلاثة مطارنة إنهـم الأفـضل حيثمـا كُتبوا، لكن هناك عددًا لا بأس به طُبع بالفعل، ولم تبع جميعًا بعد".

قال أدمس: "أرجوك يا سيدى، تعتقد كم يمكن أن تبلُغ تلك الأعداد؟"

أجاب أدمس: "خمسة آلاف، لماذا؟ ما الذى تتحدث عنه تلك الكتب؟ أتـذكر أننى عندما كنت صبيا اعتدت قراءة مواعظ تيلتسون، وأنا متأكد أنه لو كان هنـاك أحد لديه نصف خبرة واحدة من تلك المواعظ؛ فسيذهب للفردوس الأعلى".

صاح برنابس: " دكتور، إن طريقتك فى الحديث غير بارعة، وأنـا أؤنبـك على ذلك، إن الإنسان لا يستطيع أن يجعل واجبه يُغرس فى ذهنه بطريقة متكررة. وأؤكد لك أن تيلتسون كاتب بارع، وقال أشياء حسنة، لكن المقارنات قبيحة، فيمكن

لشخص آخر أن يكتب، مثلما هو ... أعتقد أن هناك بعضًا من مـــواعظى ..." ثــم أشعل الغليون بالشمعة. صاح أدمس: " وأعتقد أن بعضًا من مقــالتى التـــى يعتقــد المطران أنها لا تستحق الطباعة. وقال لى البعض أننى أستطيع الحصول على مبلغ كبير جدا عنها".

أجاب برنابس: " أشك فى ذلك، على الرغم من أنه يمكنك جمع بعض المال عنها، ربما يمكنك بيعها بإعلان مخطوط مواعظ رجل الدين الذى تُوفى مــؤخرًا، وجميعها تضمن النموذج الأصلى الذى لم تتم طباعتـــه. والآن أنـــا أفكـــر فيهـــا، وأتفضل عليك، إن كان من ضمنها عظة جنائزية، يمكنك أن تقرضها لى، لأننـــى أريد أن ألقى موعظة جنائزية اليوم، وأنا لم أؤلف شيئًا علـــى الـــرغم مـــن أننـــى سأضطر أن أضاعف الثمن".

أجاب أدمس أنه لديه واحدة فقط ويخاف ألا تؤدى غرضه، وهـــى خاصـــة بذكرى الحاكم الذى بذل جهده على نحوٍ فريد فى حفظ المبادئ الأخلاقية لجيرانـــه، حتى إنه لم يكن لديه حانة أو سيدة فاسقة فى الأبرشية التى عاش فيها.

أجاب برنابس: " لا، لن يكون هذا حسنًا، لأن المتوفى الذى لأجل فـــضائله سألقى خطبة كان يدمن سائلاً وحفظ جهارًا سيده. أعتقد أنه يجـــب علـــىَّ أن آخـــذ موعظة عامة، وأعتمد على ذاكرتى لتقديم شيء ما رائع عنه."

قال الطبيب: " إن ذاكرتك لن تكون أكثر ملاءمة لإثارتك، فليس هناك أحـــد يتذكر أى شيء حسن له".

وبذلك الحديث الروحى أفرغوا وعاء عـــصير البـــنش، ودفعـــوا حـــسابهم وافترقوا، ذهب أدمس والطبيب إلى جوزيف، ورحل القس برنـــابس ليقـــيم قـــداس متوفًى، ونزل محصّل الضرائب إلى المخزن ليعاير الأوعية.

وأصبح جوزيف الآن جاهزًا للجلوس إلى خاصرة الضبأن، وانتظـــر الـــسيد

أدمس عندما أتى هو والطبيب. وبعد أن فحص الطبيب نبضه وفحص جروحه أعلن أنه قد تحسن، ونسب ذلك التحسن إلى المخدر الشافى، وقال إن مزايا هذا الدواء أنه لا يؤخذ بإفراط. وما سيكون حقا عظيمًا لو تداين لهم جوزيف كما تخيل الطبيب، فلم يكن هناك أكثر من الرائحة الكريهة التى تأتى من خلال الفلين، والتى كانت عاملاً فى شفائه، فظل الدواء لا يلمس بجانب النافذة منذ وصوله.

قضى جوزيف هذا اليوم والأيام الثلاثة المتتالية مع صديقه أدمس، ولم يكن هناك شيء ملحوظ حدث سوى التقدم السريع فى شفائه. ولأن جسده ذو بنية ممتازة التئمت جروحه تقريبًا الآن، وكدماته جعلته غير مرتاح بعض الشيء، فضغط على السيد أدمس أن يدعه يرحل، قال له إنه لن يكون قادرًا على رد جمائله وشكره على كل خدماته، لكنه توسل له أن لا يؤجل رحلته إلى لندن.

على الرغم من جهالة أدمس، وهو ما تصوره السيد طاوس، وحسد السيد برنابس كان له توقعات عظيمة لمواعظه، لذلك عندما رأى أن جوزيف فى حالة طيبة قال له إنه موافق على بدء رحلته فى الصباح التالى بالمركبة، حيث إنه رأى أنه سيكون على ما يرام بعد دفع الحساب، ليدبر له وسيلة نقل ليوم واحد، وبعد ذلك سيكون قادرًا على إكمال المسيرة على قدمه، أو ربما يسمح له بعض الرفقاء بالركوب معهم، خاصة أنها كانت مناسبة فى المدينة، حيث إن المركبة ستنقله إلى ملاوذ كثيرة فى أبرشيته، ومن قبله وافق على مواصلة رحلته حتى المدينة.

وهما الآن يمشيان فى ساحة الفندق، حيث وصل شخص قصير أشقر بدين، نزل من على حصانه، وذهب مباشرة تجاه برنابس الذى كان يُدخن الغليون وهو جالس على مقعد. تصافح القس والغريب بشدة وذهبا معًا إلى حجرته.

هَلَّ الليل الآن، وأوى جوزيف إلى حجرته، وصاحبه أدمس وانتهز تلك الفرصة لكى يُسهب رحمة الله العظيمة عليه، حيث لم يكن مجرد عمق إحساس داخلى فقط، لكنه عبر أيضا عن شكره على تلك الرحمات ظاهريا. لذلك ركع كلاهما وقضيا وقتًا كبيرًا فى الدعاء وصلاة الشكر.

وبمجرد أن انتهيا أتت بيتى وقالت للسيد أدمس إن الـــسيد برنـــابس يريـــد التحدث معه عن بعض الأمور المهمة. ورغب جوزيـــف إن كـــان مـــن الممكـــن احتجازه وقتًا أطول وسوف يخبره بما يريد، لأنه يريد الذهاب إلى الفراش الذى قد وعد به أدمس، وعلى ذلك حيا كلاهما الآخر وتمنى كلاهما للآخر ليلةً سعيدة.

الفصل السابع عشر

محادثة لطيفة بين رجلي دين وبائع كتب، والتي توقفت بسبب حادثة مشئومة داخل الفندق، نتج عنها حوار بين السيدة طاوس وخادمتها تخلو من أية رقة أو ذوق.

وبمجرد أن دخل أدمس الحجرة، عَرَّفه السيد برنابس على شخص غريب، والذى قال له إنه بائع كتب، وهو يريد أن يتعاقد على مواعظه مثل أى شخص آخر. أدمس حيا الرجل ثم أجاب برنابس حيث كان ممتنا له جدا؛ فلم يكن هناك شيء مناسب له أكثر من ذلك، ولم يكن هناك ما يشغله إلا الرغبة بشدة فى الرجوع مع الفتى الذى قد تم شفاؤه من محنته. ثم طقطق أصابعه (كما اعتاد أن يفعل) فى لف الحجرة مرتين أو ثلاثًا فى حالة نشوة. ولكى يُغرى بائع الكتب حتى يكون سريعًا، عرض عليه سعرًا جيدًا للعمولة، وأكد له أنه محظوظ جدا لمقابلتهم وأنه فى أشد الحاجة للمال فى هذا الوقت لأنه صرف كل ما معه، وله صديق فى نفس الفندق قد شُفى توًا من بعض الجروح التى تسبب فيها اللصوص وهو فى حاجة للمال.

قال: " سيكون هذا ملائمًا لسد احتياجاتنا بعد هذه المقايضة التى أجريتها معك".

قال: " هذا لا شيء، إنه سيكون ملائمًا للغاية لسد احتياجاتنا، بما أننى أعقد مساومة معك".

وبمجرد أن جلس بدأ الرجل هذه الكلمات: " سيدى، أنا لا أهتم مطلقًا بإنكار ما يوصى به صديقى السيد برنابس، لكن المواعظ هى مجرد دواء. وستكون صفقة مربحة جدا، إلا إذا تحدثت عن وايت فيلد أو ويسلى أو رجال آخرين عظماء، فأنا لا أهتم بتناولهم فى المواعظ، إلا إذا كانت موعظة تُلقى فى الثلاثين من شهر يناير، أو يمكننا القول فى صفحة العنوان إنها نُشرت بناءً على طلب جماعة من المصلين، لكن إن كانت حقيقة قطعة مملة من المواعظ، سأعتذر عنها، خاصةً أن يدى مليئةٌ جدا الآن. وعلى الرغم – يا سيدى – من أن السيد برنابس ذكرها لى فإننى بعد إذنك سآخذ المخطوط معى وسأرسل لك رأيى فيه فى وقت قصير جدا".

قال أدمس: " لو أنت ترغبها، سأقرأ مقالتين أو ثلاثًا عينة". هذا هو برنابس الذى أحب المواعظ، فعارضه ونصح أدمس أن يعطى بائع الكتب مواعظه، قائلاً له إنه لو أعطاه توجيهًا سيكون بالتأكيد لديه إجابة سريعة، مضيفًا أنه ليس لديه أية شكوك فى ائتمانه على مقتنياته. قال بائع الكتب: "لا، فلو كانت مسرحية مُثلت عشرين ليلة معًا، أعتقد أن هذا سيكون آمَن".

ولم يستسغ أدمس التعبير الأخير وقال: "إنه آسف لما يسمعه من مقارنة مواعظه بالمسرحيات".

صاح بائع الكتب: " أنا لا أفعل ذلك، على الرغم من أننى لا أعرف إن كانت قوانين النشر لن تجعلها فى نفس المنزلة، ولكننى علمت مسبقًا أن المسرحية تُثمن بمائة جنيه".

صاح برنابس: " لعنة على هؤلاء الذين يدفعون فيها هذا".

قال بائع الكتب: " ولِمَ هذا؟؛ لأنهم يحصلون على المئات منها".

قال أدمس: " لكن أليس هناك فرق بين نقل معلومات جيدة أو رديئة للبشرية؟"

أجاب بائع الكتب: " لن يكون عقلاً سليمًا إذا فقد نقودًا في شيء بدلاً من أن يحصل عليها عن طريق شيء آخر، إذا استطعت أن تجد أيُّها فلن أكــون عائقًــا، لكننى أعتقد أن هؤلاء الأشخاص الذين يحصلون على النقود من إلقاء المواعظ هم أكثر الأشخاص الذين يفقدونها بعد طباعتها، من جانبى النسخة الأكثر مبيعًا ستكون دائمًا أحسن نسخة فى رأيى، فأنا لست عدوًّا للمواعظ، ولكن لأنها لا تُبــاع؛ فمــن الأفضل لى طباعة أحد مؤلفات وايت فيلد أو أية مسرحية هزلية".

قال برنابس: " من يطبع تلك الأعمال المتدنية يستحق الشنق".

قال وهو متوجه إلى أدمس: " سيدى إن كتابات هذا الشخص (وأنا لا أعرف إن كنت قد رأيتها) لها منزلة عند رجال الدين، وسوف ينقلنا إلى مثال من العصور البدائية، وحقا سيُدخل فى أذهان الناس أن رجل الدين يجب عليه دائمًــا أن يُــوعظ ويُصلى، ويتظاهر بفهم كل حرف فى الكتاب المقدس، ويجعل البشر يعتقــدون أن الفقر والطبقة السفلى، وهو ما قبلته الكنيسة فى مراحلها الأولــى، وهــى العقيــدة الوحيدة المعاصرة التى هُيئت لها تحت اضطهاد، قد احتفظت بها فى حالة راســخة ومزدهرة. سيدى، إن مبادئ تولاند، ووالستون، وكل المفكرين الأحرار لم تُجمــع لتؤدى نصف الأذى الذى مارسه هذا الرفيق وأتباعه".

أجاب أدمس: " سيدى، لو حمل السيد وايت فيلد عقيدته فلن يــذكرها أحــد غيرك ولقد بقيت متمنيًا له الخير، وأنا نفسى عدو كبير لرفاهية وأبهة الدين مثلــه. وأنا لست أكثر منه بالمنزلة المزدهرة للكنيسة، أفخم القصور، والحاشية، والأثاث، والملبس، وملذات الأغنياء، والثروات الهائلة لمفوضيها. ومؤكد أن تلك الأشياء لها نكهة قوية جدا لهذا العالم، ولن تصبح خادمته واحدةً ممن يمارس ملكيتــه، ولكنــه نادى بالتحمس لمساعدته وأسس العقيدة البغيضة للإيمان ضد الأعمال الطيبة، وأنــا لم أعد صديقه لأن تلك العقيدة تؤدى إلى الجحيم، ولن يكون هناك أحد لديــه الثقــة للوعظ بها إلا الشيطان نفسه. ولن يكون هناك شيء يحط من مقام الإله إلا رجــالاً يتخيلون أن كل الحكماء سيقولون فيما بعد للعفيفين إن طهارة حياتك لــن تــستمر

بقاعدة الفضيلة والطيبة التى عشت بها على الأرض، وأنت لا تزال لا تؤمن بكل شيء فى السلوك الأرثوذكسى الحقيقى، وما تريده من الإيمان سيُدينك، أو من ناحية أخرى هل أية عقيدة لها تأثير أكثر ضررًا على المجتمع مثل اتباع أدعياء للأشرار فى اليوم الآخر؟ إلهى إن كان هذا حقيقةً فلن أطيع أحد وصاياك، ولكنك لن تعاقبنى لأننى أؤمن بهم جميعًا".

قال بائع الكتب: " أعتقد يا سيدى أن مواعظك من نوعٍ مختلف".

قال أدمس: " أجل يا سيدى، النقيض، فأنا أشكر السماء التى غرست فى الأرض تقريبًا فى كل صفحة، أو أننى سأُناقض رأيى الخاص، وهو أن الهمجى الطيب الفاضل مقبول جدا دائمًا على مرأى من خالقه أكثر من المسيحى المؤذى والمخطئ، على الرغم من أن ديانته الأرثوذكسية كاملة تمامًا مثل بول نفسه".

قال بائع الكتب: " أتمنى لك النجاح".

" لكن أتوسل إليك أن تعذرنى لأننى مشغول جدا فى الوقت الحالى، وإننى حقا خائف أن تجد تأخرًا فى الصفقة، وتتورط فى كتاب من المؤكد أن الدين سيحط من قدره".

قال أدمس: " الله يحرم نشر أى كتاب يُنقص الدين من قدره، لكن إن كنت تعنى بالدين قِلة من الرجال المثيرين للشغب والمكائد، الذين يحفظونه فى قلوبهم ليؤسسوا بعض الخطط المنتقاة على حساب حرية البشرية وجوهر الدين , وليس من سلطة هؤلاء الأشخاص أن ينتقدوا أى كتاب يسرهم، ويشهدون أن الكتاب الممتاز هو رواية واضحة للطبيعة ونهاية القربان المقدس. كتاب مكتوب – لو يمكننى المغامرة فى التعبير – بقلم ملاك، وجُمع ليعيد حقيقة المسيحية والعُرف المقدس، وما يمكن توجيهه للأغراض الدينية البارزة بدلاً من الاجتماعات المبهجة المتكررة وسط أعضاء المجتمع؛ حيث يستطيعون من خلاله – وذلك بحضور عضو آخر وبمساعدة الرب – إعطاء وعود بأنهم سيكونون ودودين، وعلى ما

برام، وكل منهم سيكون خيرًا للآخر؟ الآن قد هاجمت هذا الكتاب الممتاز جماعة من الناس لكنه لم يكن هجومًا ناجحًا". وعند تلك الكلمات رن برنابس الجرس بكل العنف الذى يمكن تخيله، فأتى خادم فقال له "أحضر الفاتورة الآن، لأنه كان في صحبة تجعله يتوقع أنه إن مكث بضع دقائق أكثر من ذلك سيسمع تعليقا عن ألكوران أو ليفيثان أو ولستون".(*)

وتمنى أدمس بمجرد تحركه السريع فى الوقت الذى ذكر فيه الكتاب حيث فعل ذلك دون تعمد أية إهانة، أنه سيكون جيدًا جدا ليقدم أية معارضة على ما يحاول إجابته.

قال برنابس: " أنا أنوى المعارضة!! أنا لم أقرأ مقطعًا من ذلك الكتاب الممتاز، ولم أرَه فى حياتى، أؤكد لك ذلك ". كان أدمس على وشك الإجابة عندما سمع ضجيجًا بشعًا من الفندق، فكان صوت السيد طاوس والسيدة طاوس وبيتى يتصاعد معًا، ولكن كان صوت السيدة طاوس مثل صوت الكمان فى حفلة غنائية، وكان مميزًا بوضوح وسط الباقين، ونقلت بصوتها المميز ما يلى: " يا لك من نذل لعين!! هل هذا هو شكرك على اهتمامى بك؟ هل هذا جزاء فضيلتى؟ هل هذه هى الأخلاق التى ستتصرف بها مع من منحك ثروة، وفضلك على كثير من الأزواج جميعهم أحسن منك؟ أن تلوث فراشى، فراشى الخاص بى، مع خادمتى، لكننى سأربى هذه القذرة سوف أخرق عينيها، إنك كلب حقير، لأنك تعاشر تلك الدنيئة القذرة. لو كانت امرأة من طبقة اجتماعية مثلى لكان لك عذرك، لكنها خادمة حقيرة، ووقحة، وقذرة. اخرجى من بيتى أيتها الفاجرة". وأضافت إلى ذلك اسمًا آخر، ولا نُريد أن نُلطخ صفحاتنا به، إنها كلمة من مقطع واحد تبدأ بحرف "ب"... وهى حقا كما لو أنها نطقت "هى كلبة" وهو مصطلح لتجنب الإهانة سنستخدم فى تلك المناسبة ما نطقته السيدة والخادمة الحرف الذى ذكرناه آنفًا "ب"...، وهى كلمة كريهة للغاية للسيدات من الطبقة السفلى. وإلى الآن تحملت بيتى كل هذا، وكل ما

(*) ألكوران وليفيثان ولستون مجموعة من الخطب والمواعظ القديمة . (المترجمة)

نطقته هو رثاءٌ لحالتها، ولكن اللقب الأخير استفزها فقالت: " إننى امرأة مثلـك ". وقالت زائرة بصوتٍ عالٍ: "إنها ليست كلبة وإن كانت خبيثة قليلاً فهى ليست اللفظ الأول، وإن لم أكن أحسن مما أريد أن أكون ". صاحت وهى تبكى: " ليس هنـاك سبب يجعلك تنادينى بما ليس اسمى".

قالت السيدة طاوس: "اصمتى، هل بلغت بكِ الصفاقة أن تردى علـىّ؟ ألـم أوقفك عند حَدّك أيتها القذرة ؟" ثم كررت نفس الكلمة البشعة البغيـضة جـدا لأُذن السيدات.

أجابت بيتى: " أنا لا أستطيع تحمل ذلك الاسم، لو كنت أجرمت، لأجبت عن هذا ولكننى لم أفعل شيئًا، إن هذا فوق العادة. وسوف أخرج من منزلك الآن، فلـن أحتمل من أية سيدة فى إنجلترا أن تنادينى أننى كلبة". ثم سلحت الـسيدة طـاوس نفسها بالبصق، لكن منعها السيد أدمس الذى حاصر ذراعيها بقوة لم تُخجل هرقل. وانسحب السيد طاوس بحكمة بالغة، واضطرت بيتى أن تتحامى فـى نزيـل مـن نزلاء الفندق، وعلى الرغم من أنها لم تستطع أن تقنعه بما حدث، فقد أسـعده مـا حدث، وهو لم يكن فى نظرها إلا شخصًا أحقر من سيدها.

بدأت السيدة طاوس، بعد أن تدخل السيد أدمس واختفاء العدو، تهدئ نفسها، وأخيرًا هدأت وصفَى مزاجها، وسوف نتركها لكى نبين للقارئ الخطوات التى أدت إلى تلك الكارثة الوضيعة بدرجة كافية، والكوميدية بدرجة كافية أيضا، ربما تنتهى القصص الحديثة بهدوء وسعادة العـائلات، وموضـوع العديـد مـن القـصص التراجيدية، فى الحياة وعلى المسرح.

الفصل الثامن عشر

قصة خادمة غرف النوم بيتى،
والسبب الذى أدى إلى المشهد
العنيف فى الفصل السابق.

بيتى التى كانت سبب كل هذا الهرج لها بعض الصفات الحميدة، فهى بشوشة , وكريمة، وحنونة، لكن لسوء الحظ فإن تكوينها كان مكونًا من تلك الصفات الدافئة. فعلى الرغم من طهارة الملاطفات أو الملامسات البريئة التى يمكنها السيطرة عليها بسعادة، فهى قادرة بكل الطرق على تحمل المواقف التى يمكن أن تسبب قلقًا لأية وصيفة لغرف النوم فى فندق.

فهى معرضة لإغواءات المحبين من كل الأشكال، ومعرضة لحوارات خطيرة من رجال الجيش المدربين تدريبًا حسنًا، حيث كانوا يُجبرون أحيانًا على السكن معهم سنة بأكملها. فضلاً عن ذلك فهى معرضة لملاطفات الخدم، وسائقى المركبات، والأنذال، وكل منهم يستخدم المدفعية الكاملة للتقبيل، والتملق، والرشوة، وكل الأسلحة الأخرى التى يمكن أن نجدها فى الحب المسلح تمامًا ضدهم.

بيتى عمرها إحدى وعشرون سنة، وعاشت الآن ثلاثة أعوام فى هذا الوضع الخطير، وخلال هذه الفترة كانت تهرب بطريقة جيدة. وترك شخص بصمة كان لها أثر فى قلبها، وأثار شعورًا ملتهبًا بداخلها يتطلب عناية من طبيب لتبريده.

وبينما كانت تحترق لأجله، احترق لأجلها آخرون. ضباط جيش، وشباب مسافرون إلى الغرب، ومرافقون مسالمون، وبعض الشخصيات المهمة الذين اشتعلوا حبًّا بسحر جمالها.

أخيرًا بعد أن أفاقت من مؤثرات حبها الأول غير الموفق، أخذت على نفسها عهدًا أن تكون فى حالة عفاف دائم. وطال عدم إصغائها لمحبيها المعذبين حتى جاء يومًا إلى الفندق نزيل يُدعى جون مرتديًا قبعة من القش ومعه زجاجة خمر وغزا قلبها.

وهى مع ذلك لم تشعر بأية عواطف ملتهبة فى هذا الوقت؛ وكان ذلك نتيجة حبها الأول، وفى الحقيقة ولا تلك التأثيرات السيئة الأخرى التى أدركتها تلك الفتاة الحذرة من انغماسها المطلق فى حبها المتحمس. وربما يرجع ذلك إلى أنها لم تكن مخلصة كليةً لجون، فقد أتاحت الفرصة لتوم ويل سائق المركبة، وفى بعض الأحيان الأخرى بعض المسافرين الذين يتسمون بالوسامة للتقرب منها.

كان السيد طاوس أحيانًا يركز عينيه اللتين تتفتران حبًّا لهذه الفتاة الصغيرة، وانتهز كل فرصة لملاطفتها، والضغط على يديها وأحيانًا تقبيل شفتها، وكانت عاطفته الشديدة تهدأ بشكل ملحوظ أمام السيدة طاوس، مثل المياه التى توقفت عن مجراها المعتاد فى مكان واحد وبحثت عن مخرج فى مكانٍ آخر. وأدركت السيدة طاوس هذا، ومن المرجح أن هذا أضاف القليل إلى حلاوة مزاجها الطبيعية، وعلى الرغم من أن حقيقة إخلاصها لزوجها مثل حقيقة شروق الشمس، فقد كانت لديها رغبة أكثر أن تكون لامعة دائمًا لأنها قادرة على الشعور بدفئه.

ومنذ وصول جوزيف حملت بيتى له حبًّا فائقًا، واكتشفت أن حبها يزداد كلما تحسنت صحة جوزيف، حتى هذا المساء المحتوم عندما كانت تُدفئ فراشه ازدادت عاطفتها تجاهه إلى أعلى درجة؛ ولذلك سيطرت على حياتها وعقلها تمامًا، وبعد عدة إشارات غير مثمرة وغمزات مختلسة، أطاحت فى النهاية بمدفأة السرر وعانقته بتلهف شديد وأقسمت أنها لم تر قط مخلوقًا فى جماله.

انتقل جوزيف من جانبها، وهو فى اضطراب شديد، وقال لها إنه حزين لرؤية فتاة تتغاضى عن حيائها، لكنها تراجعت وأصبحت غير محتشمة للغاية وأجبرت جوزيف على أن يستخدم معها بعض الشدة، وهو ما يناقض أخلاقه، فقد أمسك بها وألقى بها خارج الحجرة ثم أغلق الباب.

كم كان رجلا واقعيًا ليفرح بأن عفته دائمًا فى حوزته، ولو كان لديه عقل قوى بدرجة كافية لكان جسده دائمًا قويًا بدرجة كافية للدفاع عن نفسه. ولن يكون مثل المرأة الهزيلة المسكينة يمكن اغتصابه دون إرادته.

كانت بيتى فى ألمٍ شديد بعد خيبة أملها، وسحبت شهوتها وهياج قلبها بحبلين فى طريقين مختلفين، فقد فكرت تارةً فى طعن جوزيف، وتارةً أخرى أن تأخذه بين ذراعيها وتفترسه بالقبلات، وكانت العاطفة الأخيرة إلى حد ما هى المسيطرة عليها.

وفكرت فى الانتقام من رفضه لها، وبينما امتلأ ذهنها بهذه الأفكار، حضر إلى ذهنها الموت بأشكال عديدة مثل إغراق نفسها، أو شنق نفسها، أو تناولها سمًّا، إلى آخره. ولم يعزم عقلها المتحير على أى شيء من هذا. ووسط كل هذا الاضطراب تذكرت أنها لم تهيئ فراش سيدها، لذلك ذهبت مباشرةً إلى حجرته حيث تصادف أنه فى هذا الوقت منشغل فى مكتبه. وبمجرد أن رأته حاولت الرجوع لكنه ناداها ثم أخذ يديها وبدأ ملاطفتها، وفى نفس الوقت بدأ يهمس فى أذنيها بكلماتٍ معسولة، ثم ضمها بقبلاته، وكانت عواطفه متهيجة بالفعل ولم تكن نزوات، وقد خضعت لإرادة سيدها الذى استطاع تحقيق سعادته، وذلك عندما دخلت السيدة طاوس الحجرة ولم يكن ذلك متوقعًا، وأحدثت كل الاضطراب الذى رأيناه من قبل، وليس من الضرورى الآن الحديث عنه. وبدون مساعدتنا بأى تلميح، فإن القارئ الذى لديه خبرة وإن كان غير متزوج سيخمن بسهولة أن هذا الموضوع سينتهى بطرد بيتى، وخضوع السيد طاوس، وبعض الأشياء التى سيقوم بها مثل غرفانه بطيبة زوجته حينما تصالحت معه بوعود قلبية عديدة، وأخيرًا فإن هدوءه ورضاه كان يذكره بخطيئته كنوع من الكفارة مرة أو مرتين يوميًا بقية حياته.

الباب الثانى

الفصل الأول

انقسامات المؤلفين.

هناك ألغاز وأسرار معينة فى كل المهن، من أعلى مهنة إلى أدنى مهنة، من رئاسة الوزراء حتى التأليف، والتى من النادر أن يكتشفها أحد إلا أعـضاء نفـس المهنة. من ضمن الأسرار التى نستخدمها نحن رجال المهنة سالفة الـذكر، وأنـا أقصد تقسيم أعمالنا إلى أبواب وفصول لتكون جديرة بالاعتبار.

إذا أردنا حقيقةً أن نتعرف على تلك الأسرار الآن نجد أن القُـراء العـاديين يتصورون أنه من خلال فن التقسيم؛ نعنى زيادة حجم أعمالنا أكثـر مـن حجمـه الحقيقى، وذلك نجده فى أماكن عديدة، فأوراقنا مليئة بالأبواب والفصول والتفاصيل الأخرى، مثل قماش تجليد الكتب، والدعامات، ومواصلة التسجيل. مثل التفاصـيل الموجودة فى فاتورة الخياط، فهذا يفيدنا فقط فى جمع المجموع الكلى الموجود عادةً فى نهاية صفحتنا الأولى، وفى نهاية فاتورة الخياط.

فى الحقيقة، إننا نناقش من خلال تلك القضية وأيضا الأمثلة الأخرى مصلحة القارئ وليست مصلحتنا الخاصة، والفوائد العديدة تظهر له مـن هـذا الأسـلوب. فأولاً: نُمعن النظر فى تلك الفراغات القليلة بين فصولنا، كأنها الفنـدق أو مكـان الاستراحة؛ حيث يتوقف ليتناول كأسًا، أو أية مشروبات أخرى منعـشة يمكـن أن تُسعده.

ليس هذا فحسب، فقراؤنا الأعزاء نادرًا ما يقدرون على السفر بعيدًا. فتلـك الصفحات الخاوية الموجودة بين أبوابنا؛ يمكن أن يعتبرها المسافر محطات يستريح فيها أثناء الرحلات الطويلة، ويفكر فيما رآه فى الأجزاء التى مر بها، تفكيرًا يُتـيح

لى الحرية فى إعطاء نصائح للقارئ، فعلى الرغم من سرعة قدراته فلا أنصحه بالسفر عبر تلك الصفحات بسرعة كبيرة، لأنه لو فعل ذلك فمن المحتمل ألا يرى بعض مناظر الطبيعة اللافتة التى سيُلاحظها القارئ الأبطأ والأكثر دقة. فالمجلد الخالى من أماكن الراحة يشبه بداية الغابات أو البحار التى تُجهد العين، وتُرهق الروح عند دخولها.

ثانيًا: المحتويات الموجودة فى بداية كل فصل ما هى إلا عديد من النقوش الموجودة على البوابات أو الفنادق، (لمواصلة نفس الاستعارة) تخبر القارئ بما سيتوقعه من التسلية، التى إذا لم يحببها يمكنه المُضى عبر التالية، ففى السيرة الذاتية لسنا مُلزمين بسلسلة دقيقة مساوية للمؤرخين الآخرين. لذلك فالفصل، أو الفصلان (على سبيل المثال ما أكتبه الآن)، يمكن أن يتصفحوه دون أن يفقدوا مغزى باقى الكتاب. وفى تلك الكتابة سأكون صادقًا بقدر الإمكان فى عدم تقليد مونتين Montaigne الشهير الذى يعدك بشىء ويُعطيك شيئًا آخر، ولا أيضا بعض المؤلفين الذين يتقنون كتابة الصفحة الأولى فيعدونك بالكثير، لكن فى النهاية لا تجد شيئًا على الإطلاق.

علاوةً على تلك الفوائد الواضحة، هناك العديد الذى يمكن أن يستمتع به قارئنا من خلال فن التقسيم، على الرغم من أنّ أغلبه غامض للغاية لهؤلاء الذين لم يتعلموا علم التأليف. لكن أحدها الأكثر وضوحًا يمنع تلف جمال الكتاب بطى أوراقه، الطريقة الضرورية لهؤلاء القُراء، على الرغم من أنهم يقرأون بتطور وتحسن أكبر فهى طريقة ملائمة، وعندما يرجعون لدراستهم بعد غياب نصف ساعة سينسون أين كانوا.

تلك التقسيمات لها قدسية القدم الشديد. ولم يُقسم هومر Homer أعماله فقط إلى أربعة وعشرين بابًا، لكن طبقًا لرأى بعض النُقاد الحصفاء قام بتصنيفها جميعًا بطريقة منفصلة، وسلم بابًا واحدًا فقط فى الوقت المحدد (من المحتمل أن يكون ذلك بالاكتتاب).

وهو أول مخترع لفن الأدب الذى قد نُشر فى صورة أعداد ووصل لدرجة الإتقان فيه، فحتى المعاجم مُقسمة وتُعرض تدريجيًا للعامة. ليس هذا فحسب (تشجيعًا للتعلم وتسهيلاً على العامة) ، فقد وجد بائع الكتب وسيلة لإعطائهم معجمًا بهذه الطريقة المُقسمة بخمسين شلنًا فقط.

ومَنحنا فيرجيل Vergil قصيدته مُقسمة إلى اثنى عشر بابًا، وبمناقشة تواضعه ألمح أنه لايدعى أكثر من نصف مهارة اليونانى. ولنفس السبب قسم ميلتون Milton قصيدته إلى ما لا يزيد عن عشرة، وبعد أن نال من أصدقائه إطراءً مفرطًا وضع نفسه فى نفس مسيرة الشاعر الرومانى.

ومع ذلك، لن أدخل فى تفاصيل هذا الأمر، كما فعل بعض النقاد الذين لديهم ثقافة عالية، واكتشفوا بجهدٍ لا نهاية له وحسن تمييز ما هى الكتب المناسبة للزخرفة، وما هى الكتب التى تحتاج إلى البساطة فى تقديمها، وخاصة ما يهتم بالتشبيهات، والتى أصبحت الآن أول الكتب، وسوف أنهى هذا الفصل بالملاحظات التالية، فقد يناسب المؤلف أن يقسم الكتاب مثل الجزار الذى يفصل اللحم، فتلك مساعدة كبيرة لكل من القارئ والنحّات.

الآن وبعد أن أشبعت رغباتى إلى حد ما، سأحاول أن أشبع فضول قارئى، الذى بلا شك قد نفد صبره، لكى يعرف ما الذى سيحدث فى الفصول التالية فى هذا الكتاب.

الفصل الثانى

مثال رائع لذاكرة السيد أدمس الضعيفة،
والعواقب المشئومة التى حدثت لجوزيف.

استعد الآن السيد أدمس وجوزيف للرحيل عندما حدثت حادثة جعلــت الأول وصديقه يعقدان العزم على العودة، ولم يقدر كل من طــاوس، وبرنــابس، وبــائع الكتب، على التصرف. وكانت الحادثة أن تلك المواعظ التى كان القس سيُسافر إلى لندن لنشرها، وهى بعنوان قارئى الطيب، لم تكن فى حقيبته ولم يكن بهــا ســوى ثلاثة قمصان وزوجين من الأحذية وبعض المتطلبات الأخــرى، حيــث اعتقــدت السيدة أدمس أن زوجها سيحتاج فى رحلاته إلى قمصان بدلاً من المــواعظ لــذلك جهزتها له بعناية.

ولحسن الحظ أنهم اكتشفوا هذا عندما كان جوزيــف حاضــرًا أثنــاء فــتح الحقيبة، لأنه قد سَمِع صديقه يقول إنه يحمل معه تسعة مجلدات من المواعظ، وهو ليس من نوع الفلاسفة الذين يُحولون كل قضية فى العالم إلى كلمات قليلة. وعندما رأى أنه ليس لها أثر فى حقيبته قال "باركنى الله يا سيدى أين مواعظك؟"

" هناك، إنها تحت قمصانى". وبعد أن رفع قميصه الأخير وأصبحت الحقيبة فارغة، قال جوزيف: " حقا يا سيدى، لا شيء فى الحقيبة". وعلــى ذلــك انتابــت أدمس الدهشة: "إنها ليست هنا، مؤكدٌ أننى تركتها فى البيت".

أصبح جوزيف قلقًا للغاية عندما رأى صديقه فى موقف صعب بسبب خيبــة أمله، وتوسل إليه أن يواصل رحلته، ووعده أنه سيرجع إليه ومعه الكتب بأقــصى سرعة.

أجاب أدمس: "لا، شكرًا يا بنى، لن يُجدى ذلك، فما فائدة بقائى فى المدينة لو لم تكن معى مقالاتى، وهذا هو السبب الوحيد لرحلتى؟ لا يا صغيرى فإن هذه الحادثة ستجعلنى أعزم على الرجوع إلى منطقة الأبرشية معك، وهذا ما تقودنى رغبتى إليه". أنهى كلامه ببيت من الشعر قاله ثيوقراط Theocritus، وهو ما يعنى أنها تُمطر أحيانًا وتشرق الشمس أحيانًا.

انحنى جوزيف احترامًا وشكرًا لما أظهره القس من الرغبة فى الرجوع معه، وعندما جاءت الفاتورة تنبه أدمس عندما فحص جيبه أن هناك شلنًا على المبلغ الموجود فى جيبه. ربما سيتعجب القارئ من قدرته على الاحتفاظ بهذا المبلغ الكافى لعدة أيام، وربما لن يندهش. ومع ذلك، فليس من الضرورى إعلامه أنه قد اقترض جنيهًا من خادم يعمل فى المركبة، وهو أحد أبناء أبرشيته وسيده هو صاحب المركبة، يقيم بعيدًا عنه بثلاثة أميال؛ وذلك لأنه يمكن تسليفه بأمان، حتى السيد بيتر مشرف الخدم الخاص بالسيدة بوبى كان مستعدًا لتسليفه جنيهًا بأمان تام.

دفع أدمس الفاتورة وجلس الاثنان خارجًا، واتفقا على الركوب والمشاركة، وهى وسيلة للسفر يستخدمها الأشخاص الذين لا يملكون إلا حصانًا واحدًا. وهكذا بدأ المسافران رحلتهما أحدهما على ظهر الحصان، والآخر على قدميه. ومن المعتاد أن الشخص الذى يركب الحصان يصل لمسافة متفق عليها؛ يترجل ويربط الفرس ببوابة أو شجرة أو عمود أو أى شىء آخر، ثم يواصل على قدميه؛ عندما يركب الآخر على ظهر الحصان بعد أن يحله ثم يمشى به، وعندما يمر برفيقه المسافر فهو أيضا سيصل إلى المكان الذى سيربط به وهذه هى وسيلة سفر يستخدمها أجدادنا الأذكياء، الذين يعرفون أن الخيول لها أفواه وسيقان، ولن تستطيع أن تستخدم سيقانها إذا كانت تُعانى من أفواهها. تلك هى الطريقة المستخدمة فى هذه الأيام بدلاً من المركبة التى تجرها ستة جياد، اعتادت عضوة فى برلمان أن تضع وسادة خلف زوجها عند ركوبها الفرس وتَعطف محامٍ من الطراز الأول أن يسير بتمهل إلى ويستمنستر West minister على وسادة خفيفة مع كاتبه وهو يرفس كعوبه من خلفه.

ذهب الآن أدمس بضع دقائق مصرا أن يبدأ جوزيف الرحلة علـــى ظهـــر الحصان، ووضع جوزيف قدَّمه على الرِّكاب عندما قدَّم له النزيل فاتورة حـــساب إقامته فى الفندق. قال جوزيف إن السيد أدمس قد دفع، وكان ذلك مثالاً قويًّا علـــى ضعف ذاكرته؛ وذلك بسبب الاستعجال المستمر الذى يتورط فيه القس أدمس دائمًا.

وأصبح جوزيف الآن فى مأزق حيره للغايـــة، فـــالمبلغ المطلـــوب لطعـــام الحصان هو اثنا عشر شلنا، أما أدمس فقد اقترض البهيمة من كاتبه الذى طلب منه أن يطعمها كما تُطعمه، وما معه فى جيبه ستة بنسات، أما أدمس فقد قسم آخر شلن معه. على الرغم من أن هناك بعض الأشخاص البارعين الذين خططوا لدفع اثنـــى عشر شلنًا مع ستة بنسات، لم يكن جوزيف واحدًا منهم. وهو لم يقع فى مثل هـــذا الدين طوال حياته، وبالتالى لم يكن جاهزًا ليخلص نفسه منه. وكان السيد طـــاوس مستعدًا أن يُسلفه، ووافقت السيدة طاوس على ذلك. ولم يُخف جوزيف قطعة الذهب الصغيرة التى ذكرناها آنفًا، عندما اكتشف أن جيوبه خالية تمامًا من النقود. وجعل ذلك عينى السيدة طاوس تدمع، وقالت له إنها لا تفهم كيف يريد مالاً بينما هو يقتنى قطعة ذهب فى جيبه، وأجاب جوزيف إن قطعة الذهب هذه لها قيمة كبيرة عنـــده؛ ولا يستطيع أن يُفرط فيها.

قالت السيدة طاوس: "إنها حقا طريقة جميلة، تُصبح مديونًا وترفض التفريط فى مالك لأن له قيمة عندك. فأنا لا أرى أية قيمة لقطعة ذهب إلا أنه فقـــط يمكـــن استبدالها ببعض الشلنات".

أجاب جوزيف: "إنها لن تُنقذ حياتى من الجوع ولن تعوضه عن ما ســـرق منه، فلماذا أفرط فيها؟"

قالت السيدة طاوس: "ماذا؟ أعتقد أن التى أعطتها لك امرأة وضـــيعة، فلـــو كانت الهدية من امرأة فاضلة فلن تحمل لها تلك القيمة. إن زوجى سيكون أحمق لو فرط فى خيله دون مقابل". صاح السيد طاوس: "لا، إننى لا أستطيع أن أفرط فـــى

الخيل إلا بعد أن أحصل على النقود". قرار أوصى به محاميًا، وهو الذى أعلن أن السيد طاوس يجب أن يبرأ من الاحتجاز. ولأننا لا نستطيع إخراج جوزيف من الفندق، سنتركه فيه، وننتقل بقارئنا لنتابع القس أدمس إذ كان ذهنه مسترخيًا تمامًا؛ إذ كان فى حالة تأمل لقضاء رحلته فى أخيلس Aeschylus حيث تسلى بها أثناء سيره ثلاثة أميال دون أن يفكر فى رفيقه للحظة.

أخيرًا، بعد أن انتهى من التأمل وأصبح الآن على قمة التل، رمى ببصره إلى الوراء متعجبًا أنه لا يستطيع رؤية أى أثر لجوزيف؛ فقد تركه مستعدًا لركوب الخيل، وهو لا يتخيلْ إن كان وقع به أذى، ولا يشك أنه فقد طريقه، فقد كان الطريق واضحًا، والسبب الوحيد الذى يطرح نفسه هو أن جوزيف قد تعرف على أحد اضطره أن يؤجل رحلته.

لذلك، عَزم على مواصلة طريقه ببطء متأكدًا أنه سيلحق به قريبًا، وعندما وصل إلى جزء من الطريق امتلأ بالمياه، رأى أنه ليس هناك طريقة لعبورها إلا بخوضها، وسار فيها وسريعًا ما وصل الناحية الأخرى عندما أدرك أنه لو كان فحص المكان؛ لوجد أن هناك ممرًا يمكنه من العبور دون بَلِّ حذائه.

واندهش من عدم وصول جوزيف، وأصبح ذلك الآن أمرًا مقلقًا، وبدأ يشعر بالخوف لأنه لا يعرف ما حدث، وقرر ألا يرحل بعيدًا أكثر من ذلك، وإذا لم يستطع الرجوع ليلحق به فإنه تمنى أن يجد منزلاً لترفيه العامة؛ حيث يستطيع أن يجفف ملابسه وينعش نفسه بشراب، لكنه لم ير أى شيء (وذلك لأنه لا يستطيع أن يرمى ببصره مائة ميل أمامه)، لذلك جلس على حجر وأخرج كتاب أخيلس Aeschylus ليقرأ فيه.

وفى ذلك الوقت مر به شخص طلب منه أن يدله على طريق حانة. وبعد أن تركه ورأى النزل وأومأ له اعتقد أنه يسخر منه. قال له أدمس إنه وقع، فأثار ذلك غضب الرجل، فرأى أدمس أنه من الأفضل أن يذهب دون إبداء أى تعليق. وبعد

ذلك تَبِعه فارس وسأله نفس السؤال، أجاب: " أيها الصديق، هناك نُزل على مقربة من هنا، وأعتقد أنك قد رأيته".

صاح أدمس رافعًا عينيه عاليًا: " أنا أحتج". وشــكى مخبــره واتجــه إليــه مباشرة.

الفصل الثالث

رأى اثنين من المحامين عن الرجل نفسه،
واستعلام السيد أدمس عن ديانة مُضيفِهِ.

وبمجرد أن دخل المنزل طلب شرابه بعد أن جلس، عندما أتى فارسان إلى الباب وثبتا حصانيهما بعد أن ترجلا من عليهما، وقالا إن السيول الغزيرة مستمرة، فذهبا إلى حجرةٍ صغيرة دون أن يحييا السيد أدمس.

وفى الحال، سأل أحدهما الآخر إن كان قد رأى مغامرة كوميدية مثل هذه. وعلى ذلك قال الآخر إنه يشك إذا ما كان من حق المالك قانونا منع الخيل من أكل التبن والذرة. وأجاب الأول " بلا شك إنه يستطيع؛ إنها قضية محكوم فيها، وأنا علمت أن هذه القضية قد نُظر فيها".

على الرغم من أن أدمس – كما أدرك القارئ- يميل إلى النسيان لم يحتج أكثر من إشارة لتذكيره بعد سماع محادثتهما، فقد أوحى إليه أن ذلك هو حصانه، وأنه نسي أن يدفع له، وبعد الاستغفار أكد له الرجلان الأمر، واللذان أضافا أن الحصان من المحتمل أن يُحرم من الطعام إذا لم يدفع له.

قرر المسكين أن يرجع إلى الفندق فى الحال، على الرغم من أنه لم يكن عنده فكرة – أكثر من جوزيف – عن كيفية تحرير حصانه، واضطر أن يمكث تحت حاجز بسبب السيول التى أصبحت الآن غزيرة فاضطر إلى أن ينتظر.

جلس المسافرون الثلاثة معًا لشُرب كوب من البيرة، فلما استفسر أدمس عن صاحب المنزل الذى قد شاهده على الطريق، وما إن ذكر له أحد الفرسان اسم صاحب المنزل حتى بدأ الآخر يذمه بألفاظ حقيرة.

لا توجد كلمة فى اللغة الإنجليزية تنطوى على اللوم والتأنيب لم ينطقها فى تلك المناسبة. اتهمه أيضا بعدة حقائق مهمة، قال إنه لم يحترم حقل قمح عندما كان يصطاد؛ فتعامل معه كأنه الطريق العام، وأصاب عدة فلاحين مساكين وسحق حصانه محصولَهم من الذرة، ولو ترجاه أحد منهم بأقصى تضرع أن يمسك، ضربه بسوطه، وكان يكرر الضرب. قال إنه أكبر طاغ مقارنة بجيرانه، ولم يدع فلاحًا يحتفظ ببندقية، على الرغم من أنه يمكن أن يثبت أهليته لها بالقانون، وهو قاس جدا وسط عائلته، ولم يحتفظ بخادم أكثر من اثنى عشر شهرًا. وبوصفه قاضيًا يعرف كيف يتصرف استمر قائلاً: " إنه يتصرف بتحيز، فهو يقترف ذنوبًا أو يُبلى بلاءً كما لو أنه فى حالة استمتاع دون أى اعتبار للحقيقة والبَيِّنَة، وأنا أفضل أن يُحاكمنى بعض القضاة بدلاً من أن أكون مدعيًا أمامه ، ولو أننى أملك عزبة بجواره فسأبيعها بنصف قيمتها بدلاً من السكن بالقرب منه".

هزّ أدمس رأسه، وقال إنه يأسف أن هؤلاء الرجال يستمرون فى الإفلات من العقوبة، وهؤلاء الأغنياء يضعون أى رجل فوق القانون. وبعد أن ذهب الشخص الشاتم بدأ الشخص الذى قد ذكر اسمه أولاً لأدمس يؤكد له أن رفيقه هذا شخص متحامل.

قال:"هذا حقيقى، ربما يتبع أحيانًا لعبته على حقل الذرة، لكنه دائمًا يجعل المشارك فى رضاءٍ تام". فهو بعيد تمامًا عن الطغيان أو أخذ بنادق جيرانه، وهو نفسه عَرف عدة فلاحين ليسوا مؤهلين، وهم لم يحتفظوا فقط بالبنادق ولكنهم يستخدمونها فى الصيد، وهو أحسن سيد لخادميه، والعديد منهم أمضى سنين فى خدمته، وهو أحسن منصف للسلام فى مملكته، ولمعرفته الأكيدة قرر نقاطًا عديدة صعبة أوضحت أنه أعظم منصف للعدالة، وأن لديه حكمة بالغة، وأعتقد حقا أن العديد من الأشخاص يريدون دفع الكثير من أجل شراء عزبة بالقرب منه بدلاً من أى شخص آخر. وبمجرد أن أنهى مدحه رجع رفيقه وأخبره أن العاصفة قد انتهت، وعلى ذلك ركبا فى الحال حصانيهما ورحلا.

أدمس الذى أصبح فى أقصى حالات القلق بعد أن سمع شخصيتين مختلفتين، سأل مضيفه إن كان يعرف الرجل لأنه بدأ يتخيل أنهم يتحدثون بالخطأ عن رجلين.

أجاب المُضيف: " لا، يا سيدى". (رفيق بارع للغاية) إننى أعرف الرجل الذى يتحدثان عنه جيدًا. أما عن أنه امتطى محصول الذرة الذى يملكه رجال آخرون، فعلى حد علمى أنه لم يركب على ظهر حصان منذ سنتين، ولم أسمع أنه تسبب فى أذى أى أحد. أما عن التعويض فهو ليس حرًّا فى مالِهِ، ولم أسمع من قبل أنه سلب بندقية أى رجل، فأنا أعرف العديد الذين يقتنون بنادقهم فى منازلهم، لكن عن قتل المصيد بها فلم يكن هناك من هو أكثر تزمتًا منه، وأعتقد أنه سيدمر أى شخص يفعل ذلك. إنك سمعت أحد الرجال يقول إنه أسوأ سيد فى العالم، والآخر قال إنه أحسن سيد فى العالم، لكن من ناحيتى فأنا أعرف كل خادميه، ولم أسمع أحدًا منهم يقول إنه هذا ولا ذاك.

قال أدمس: "وكيف يتصرف ليكون منصفًا؟"

قال المضيف: " فى الواقع، يا صديقى، أنا أتساءل إن كان يرتكب ذلك، السبب الوحيد الذى سمعته أنه كان واحدًا من هذين الشخصين اللذين خرجا توًّا من هذا المنزل، وأنا متأكد أنه قرر ذلك توًّا، حيث إننى سمعت الموضوع بأكمله".

قال أدمس: " وما قرره لصالح من؟ "

صاح المضيف: "أعتقد أننى لا أحتاج إجابة هذا السؤال، بعد ما سمعته عنه من هذين الشخصين المختلفين، فليس من حقى أن أعارض رجلين لهما مكانة اجتماعية، أثناء تناولهما الشراب فى منزلى، لكن ما عرفته أنهما لم ينطقا بشىء من الحقيقة".

قال أدمس: " إن الله يحرم ما وصل إليه الرجال من تلك الدرجة من الأذى، وهى أن يعطوا فكرة خاطئة عن جارهم بأن لديه نزوعًا خاصا، أو ما هو أسوأ بدرجة لا نهاية لها، أى له ضغينة خاصة. أعتقد أننا أسأنا فهمهما، وهما يقصدان شخصين آخرين؛ حيث يوجد العديد من المنازل على الطريق".

صاح المضيف: " لماذا يا صديقى؟ هل تتظاهر بأنك لم تقل كذبًا فى حياتك؟"

قال أدمس: " أنا متأكد أنى لم أنطق بكذبة تنطوى على حقد ولا إساءة لسمعة أى رجل".

أجاب المضيف: " حقود، لا، لا، ليس حقودًا بغرض شنق رجل أو إيقاعه فى مشكلة، لكن إنه من منطلق حب الإنسان لنفسه، يتحدث جيدًا عن صديق أكثر من عدو".

قال أدمس: " حبًّا لنفسك يجب أن تقيد نفسك للحقيقة، لأنك لو فعلت ذلك سوف تؤذى أنبل جزء فيك وهو روحك الخالدة، فلا أعتقد أن رجلاً يكون غبيًّا ويخاطر بفقدان ذلك بأى كسب تافه، وهو أعظم كسب فى هذا العالم، ولكنه قذر بمقارنته بما سيُكشف فيما بعد" (اليوم الآخر).

أخذ المضيف كأسًا وهو مبتسم، نشرب نخب اليوم الآخر، مضيفًا أن الحاضر أهم.

قال أدمس وهو شديد الأسى: " ألا تؤمن بعالم آخر؟" وأجاب المضيف على ذلك أنه ليس ملحدًا. صاح أدمس قائلاً: " وأنت تؤمن بأن لديك روحًا خالدة؟" أجاب إن الله يحرم عدم إيمانى بذلك. قال القس " والجنة والنار؟" وأمره المضيف ألا ينتهك حرمة المقدسات، لأن تلك الأشياء لا تُذكر ولا يُعتقد فيها إلا فى الكنيسة. سأله أدمس عن سبب ذهابه للكنيسة إن كان ما تعلمه هناك لم يؤثر على سلوكه فى الحياة. أجاب المضيف: " أنا أذهب إلى الكنيسة، للصلاة والدعاء والتُّقى".

صاح أدمس: " ولا تؤمن بما تسمعه فى الكنيسة؟ " أجاب المضيف: " أومن بمعظمه يا سيدى". صاح أدمس: "ولا تتأثر؟ " قال: " فى الاعتقاد بالعقاب الأبدى، أما بالنسبة لذلك يا سيدى، إننى لم أفكر قط فيه، لكن ما يشير إلى الحديث عن تلك الموضوعات البعيدة الأمد، فرغَ الكأس، هل لى أن أصب آخر؟ "

بينما كان سيؤدى ذلك الغرض وصلت مركبة إلى باب الحان. ودخل سائق المركبة الحان، وسألته السيدة من هم الركاب الذين داخل المركبة؟ قال: " مجموعة من المشاغبين السكارى". قالت: "إننى أرغب فى إنزالهم، ألا تريد إقناعهم بشرب أى شىء؟ أؤكد لك".

وسأله أدمس إن كان قد رأى شابًا راكبًا حصانًا فى الطريق (واصفًا جوزيف). قال سائق المركبة: " نعم، إن سيدةً فى مركبتى تعرفه حررته هو وحصانه ودفعت ما عليهما من مال، وقد كان من المفترض أنه قد وصل هنا منذ قليل، وربما اضطرته العاصفة إلى أن يلجأ إلى مكان ليحمى نفسه منها".

قال أدمس وهو مبتهج: " الله يبارك لها ". وهو لا يستطيع أن يؤجل خروجه ليعرف من تكون تلك المرأة الخيرة، ويا لها من مفاجأة عندما رأى أنها معرفة قديمة، مدام سيلبسلوب!!؟ وبالنسبة لها لم تكن مفاجأة، لأنها علمت من جوزيف أنه على الطريق. وحيا كلاهما الآخر بطريقة مهذبة جدا، ووبخت المضيفة لإنكارها وجود الرجل هنا عندما سألت عنه، وحقا لم تُخطئ السيدة المسكينة عن عمد، لأن السيدة سيلبسلوب سألت عنه، ولسوء الحظ أخطأت السيد أدمس بذكر شخص آخر مسافر.

ويركب الآن جوزيف على حصانه، وطلبت منه السيدة سيلبسلوب أن يُعطى حصانه للقس، ويأتى هو داخل المركبة، ولكنه رفض تمامًا قائلاً إنه يشكر السماء أنه عوفى وهو قادر على ركوب الخيل، وأضاف أنه تمنى لو علم واجبه أحسن من الركوب فى المركبة، بينما كان السيد أدمس راكبًا على ظهر الحصان.

وأصرت السيدة سيلبسلوب، ورفضت سيدة وضعت حدًا لهذا النزاع أن تدع خادمًا يركب فى نفس المركبة معها، وأخيرًا وافقت أن يركب أدمس فى المكان الفارغ فى المركبة، وسيواصل جوزيف راكبًا حصانًا.

ولم يمشوا كثيرًا إلا وبدأ السيدة سيلبسلوب تخاطب القس بما يلى: "هنـــاك تغيير غريب حدث فى عائلتنا، يا سيد أدمس منذ موت السيد توماس". قال أدمـــس: "تغيير غريب حقا!! ، لقد جمعت بعض الملاحظات التى صدرت من جوزيف".

قالت: " أنا لم أستطع تصديقها، لكن من عاش طويلاً سيرى كثيرًا، وأعطاك جوزيف بعض الملاحظات، لكن ما طبيعة ما سيظل دائمًا سرًّا لى".

صاح القس: " لقد أجبرنى أن أعده بالاحتفاظ بما قال سرًّا، وأنا حقـــا قلــق لرؤية السيدة تتصرف بطريقة غير لائقة. لقد كنت معتقدًا دائمًا أنها ســيدة ســوية، ولم أشك قط أنها ليست سوية، مع صبى صغير، وخادمها، تلك الأشياء ليست سرًّا علىَّ، أؤكد لك." صاحت السيدة سيلبسلوب: " وأعتقد أنهم سيكونون لا شىء قريبًا، فمنذ رحيل الولد تصرفت كالمرأة المجنونة".

قال أدمس: " حقا إننى قلق جدا، لأنها كانت مثالاً طيبًا. وحقا إننى تمنيت أن تحضر الطقوس الدينية، فقد قدمت تبرعات عظيمة للأبرشية".

قالت السيدة سيلبسلوب: " آه يا سيد أدمس، الناس الذين لا يـــرون شــيئًا لا يعرفون شيئًا، هناك العديد من الأشياء التى تبرعت بها عائلتنا، أؤكـــد لـــك، دون معرفتها. لقد سمعتك تقول وأنت على منبر الوعظ: يجب ألا نتفاخر. ولكن إننـــا لا نستطيع حقا أن نتجنب القول: لو كانت هى التى تحتفظ بالمفاتيح لحرم الفقراء مـــن الكثير من الأشياء التى أعطيتها لهم. إن سيدى الراحل الذى كان رجلاً فاضلاً طيلة حياته، وقد فعل العديد من الأشياء الطيبة، على الرغم من أنها سيطرت عليه، لكنه أحب الحياة الهادئة، أسكنه الله جناته! وأنا واثقة أنه هناك وينعم بحيـــاة هادئـــة لا يسمح له بها بعض الناس هنا".

أجاب: أدمس إنه لم يسمع ذلك من قبل، وأنه قد أخطأ إن لم تكن هـــى قـــد أخطأت (فقد تذكر أنها كانت فى الماضى تمدح سيدتها وتلوم سيدها)، فقد كان لهـــا رأى غير ذلك سابقًا.

أجابت: " أنا لا أعرف إلا ما فى مخيلتى، ولكننى واثقة أن الأمور الآن تسير كما أخبرك، العالم سيرى قريبًا من الذى خُدع، ومن ناحيتى فأنا لا أقول إلا ما يجب قوله، كيف يستطيع الناس أن يقوموا بكل الأشياء بوجهٍ وقور".

وهكذا ظلت هى والسيد أدمس يتحدثان إلى أن وصلا أمام منزل عظيم، وهو يبعد عن الطريق بمسافة، صاحت سيدة فى المركبة وقد لمحت المنزل: "تعيش لينورا سيئة الحظ هنا، وإن أطلق أحد عليها أنها تعيسة فهى فى نفس الوقت مذنبة".

وكان ذلك كافيًا جدا لإثارة فضول السيد أدمس، كما أثار فضول المجموعة بأكملها، وتوسلوا جميعًا للسيدة أن تحكى لهم قصة لينورا، منذ أن قالت ملحوظتها التى أثارت الفضول، ولم تحتج السيدة إلى العديد من التوسلات، وكل ما تمنته أن تُرضى المجموعة وتشبع تسليتهم، وبدأت تحكى القصة كما يلى.

الفصل الرابع

قصة لينورا أو التعيسة الناقضة لعهدها.

لينورا ابنة رجل له ثروة، وهى طويلة وحسنة المظهر، وملامحها مُفعمة بالحيوية، وغالبا ما تكون هذه الملامح الأكثر ألفة ممتزجة بمظهر جاف، وليس هذا النوع من الجمال خادعًا، ولكنه أكثر إغراء. والبهجة التى تُبرزها، أحيانًا يُخطأ فهمها بأنها طلاقة المحيا، والحيوية بأنها حقيقية.

لينورا التى تبلغ من العمر فى ذلك الوقت ثمانية عشر عاما، تعيش مع عمة لها فى مدينة فى شمال إنجلترا، وهى تحب المرح بدرجةٍ كبيرة، ونادرًا ما تفوتها حفلة راقصة أو أى تجمع آخر عام، حيث يكون لها فرص متكررة لإرضاء شهيتها الشَّرِهة للغرور؛ بالأفضلية التى يمنحها لها الرجال عندما يفضلونها تقريبًا على كل امرأة أخرى حاضرة.

وسط كل الرفقاء الشباب الذين اهتموا بالتودد لها، كان هوراتيو الذى فضلته على كل منافسيه، ورقصت معه فى سعادة ومرح فوق العادى، ولم يُطِل جمال الليل ولا صوت العندليب مشيها مثل صحبته. ولم تعد متأثرة بفهم ملاطفة الآخرين لها، بينما كانت متيقظة جدا لكل مجاملة يبرزها هوراتيو، وكانت مبتسمة حتى عندما تكون غير مفهومة.

قال أدمس: " أرجوك يا مدام، من هو هوراتيو؟"

قالت السيدة: " هوراتيو شاب ذو مكانة اجتماعية من عائلة طيبة، تعلم القانون وأصبح منذ بضعة أعوام محاميًا. ويبدو وجهه وشخصه وسيمًا، وفى

مظهره الخارجي نوع من السمو الذى من النادر رؤيته، وطبيعة مزاجــه ســاخرة دون أقل وصمة للكآبة. وهو ذكي ومرح، وله نزعة للهجاء قد يتغمس فيها إلى حد كبير، هذا الرجل كان يكنُّ مشاعر قوية للينورا، ولم يدرك إن كان هناك احتمــال لنجاح مشاعره. وتوقعت المدينة بأكملها أن يكون الزواج لصالحه قبل أن تتصرف هى تصرفات كافية لأن تعطيه الثقة كى يعبر لها عن عواطفه، فكــان مــن رأيــه (وربما كان على حق) أنها حماقةٌ بالغة إذا حدث امرأة جديًا عن الحب قبل اتخــاذ خطوة تجاه أحاسيسها التى تتوقعها هى وتتمنى سماعها منه".

" لكن مهما يَخلق قلق المحب لتعظيم كل حب يظهره المنــافس، وأن يــرى التقدم تجاههم من خلال نهايةٍ أخرى لوجهة النظر، فمن المستحيل أن تكون عاطفة هوراتيو تعمى بصيرته، وتمنع تصور آماله من تصرف لينورا، حيث أصبح حبها الآن مرئيًا لشخص غير مبالٍ فى صحبتهم".

قالت السيدة التى رفضت دخول جوزيف المركبة: " أنا لم أعرف أن أيًا من الصغيرات القذرات يُحولن إلى صالحات، ولن أتعجب من أى شيء ســتفعله فــى نهاية القصة".

واصلت السيدة قصتها بما يلى: إنه أثناء محادثة مرِحة بينهما ليلةً ما حينمــا همس هوراتيو إلى لينورا أنه يرغب فى أن يتمشى معها مرة أو مرتين بمفردهما، لأن لديه شيئًا يريد أن يقوله لها وسيكون له عاقبة هائلة. قالت وهى مبتسمة : "هل أنت متأكد من العاقبة؟"

أجاب: " أتمنى ذلك، وأنتِ ستعتقدين ذلك أيضا، لأن سعادة مستقبل حيــاتى كله يتوقف على ذلك الحدث".

كانت لينورا شبه متأكدة من محتوى الحديث القادم، لذلك طلبت تأجيله لوقت آخر، لكن هوراتيو كان ملحًا جدا؛ مما جعلها تستسلم فى النهايــة، وتركــا بــاقى الصحبة ومشيا على انفراد إلى ممر غير مطروق.

وذهبا بعيدًا عن مرأى الصحبة، وكلاهما فى صمتٍ تــام. وأخيــرًا توقــف هوراتيو وأمسك يدى لينورا برفق حيث كانت شاحبة وترتجف، ثم أخذ نفسًا عميقًا، وهو ينظر إلى عينيها بكل الحنان الممكن تخيله، وصاح فى لهجــةٍ متملقــة: " آه لينورا! إنه ضرورى لى أن أبوح لك، كيف ستكون حياتى مليئة بمــستقبل ســعيد! أيجب أن أقول إن هناك شيئًا ما يخصك هو أساس لسعادتى، وإذا لم تتخلى عن هذا الشىء سوف أكون تعيسًا! " أجابت لينورا: " وما هذا الشىء؟"

قال: " لا تتعجبى، هل اندهشتِ لأننى أعارض أى شىء بكِ، وأكيد تخمنــين ما هو منذ أن كان هذا هو الشىء الذى يمكن أن يشتريه أغنياء العالم منى لو كــان ملكى. إنه شىء يمكن أن تمنحيه للجميع!! أتستطيعين يا لينورا، أم أنك إلى حد مــا ستشكين فى ذلك؟ دعينى أهمس به فى أذنيك ، إنه اسمك يا سيدتى. إذا تخليتِ عنه بأن أعطيتِهِ لى للأبد، ستنتشليننى من التعاسة، وتجعليننى أسعد إنسان فى البشرية".

احمرت لينورا خجلاً، تصنعت علامات الغضب، وقالت له إنها تظن أن ذلك هو الشىء الذى يريد أن يُبيح به، ولم تتوقع أنــه يريــد اصــطيادها مــن وســط أصحابها. فاندهش للغاية وشعر بالخوف، فتوسلت إليه أن يُرجعها بأسرع ما يمكن؛ فارتجف وارتجفت هى أكثر منه.

صاحت سيلبسلوب: " يا له من أحمق".

قال أدمس: " حقا يا مدام، أعتقد أنك على حق. لو كنت مكانــه لأصــررت على معرفة ما بعقلها، بما أنى وصلت بالأمور إلى هذا المدى".

لكن رغبت السيدة جرافيارس أن تحذف السيدة كل هــذه الأشــياء المثيــرة للاشمئزاز فى قصتها، لأن تلك الأشياء جعلتها تشعر بالاشمئزاز.

قالت السيدة: " حسنا سيدتى سأكون مختصرة بقدر ما يمكن، مــرت عــدة أسابيع بعد تلك المقابلة قبل أن يعود كل من هوراتيو ولينورا لسابق عهــدهما مــن الود. وانتهت كل مراسم الاحتفال الآن ما عدا الأخيرة، انتهت كل الكتابــات الآن،

وكان كل شيء على أقصى درجات الاستعداد، مما جعل هوراتيو ينال كل ما يتمناه، وأنا بعد إذنكم سوف أقرأ عليكم خطابًا من كل منهما، أحفظه عن ظهر قلب، وسوف يعطيكم هذا الخطاب فكرة غير قليلة عن مشاعر كل منهما.

واعترضت السيدة جرافيارس على سماع تلك الخطابات، ولكن كان الجميع في المركبة ضدها حيث يريدون سماعها، وكان السيد أدمس متحمسًا لسماعها بدرجة كبيرة.

من هوراتيو إلى لينورا

"كم هو تافه، أيتها المخلوقة الفاتنة، البحث عن السعادة فى غياب الدافع الذى لأجله يكرس العقل كليةً، إذا لم تكن هناك علاقة بذلك الدافع!!. وقد حكم علىَّ الليلة الماضية بمصاحبة مجموعة من الرجال الأذكياء والمتعلمين، الذين كانوا من قبل مسليين بالنسبة لى، ولكن الآن أثاروا الشك حولى، ونسبوا غيابى فى المحادثة إلى سبب حقيقى. لأى سبب يمنعنى انشغالك عن نشوة السعادة فى رؤياكِ، أتمنى دائمًا أن أكون وحدى، منذ أن كانت أحاسيسى تجاه لينورا مرهفة للغاية، فإننى لا أستطيع تحمل تدخل أحد فى تلك الأحاسيس المبهجة التى تغمره أحيانًا بالتخيل الدافئ لمحبوبته، والتى تظهرها عيناه دون إرادته، والخوف أن اكتشاف أفكارنا ربما يكون شيئًا ساخرًا جدا للعقول غير المتأثرة برقة تلك العاطفة المرهفة. وبالتأكيد سنشك أن هناك القليل، عندما نفكر أنها تتطلب من كل إنسان لديه فضيلة أن يبذل ما فى وسعه لتفهمها، منذ أن كانت المحبوبة تعطينا فرصًا خلابة لكى ننال الشجاعة للدفاع عنها، والكرم لتلبية احتياجاتها، والرحمة لأحزانها، والشكر على عطفها، وبنفس الأسلوب ممارسة كل فضيلة أخرى، والتى لا يؤديها بأى درجة وبأقصى نشوة لا يمكن أن يستحق لقب محب. لذلك، بنظرة إلى تفكيرك المرهف المحتشم الذى أغرسه بعفة فى تفكيرى، وهذا ما سيوحى لكِ إلى حد ما بالقلق الذى أشعر به تجاه حريات الرجال؛ حيث منحهم العالم الكياسة التى يمنحونها أحيانًا لأنفسهم فى تلك المناسبات.

أيمكنني إخبارك بمدى الشوق الذى أنتظر به حلول هذا اليوم المقدس، عندما أجرب أكذوبة الإصرار الشائع أن أعظم سعادة بشرية تكمن فى الأمل؟ العقيدة التى لا يملك أى شخص أقوى أسباب للإيمان بها أكثر منى فى الوقت الحالى، حيث لـم يتذوق أحد تلك النعمة التى تشعل قلبى بهواجس قضاء أيامى القادمـة مـع تلـك الصحبة، وكل حركة فى حياتى سيكون بها إرضاءٌ بهىٌّ لإسعادك.

من لينورا إلى هوراتيو

"إن صفاء فكرك قد نُقل بوضوح من خلال كل كلمة وكل حركـة منـذ أن حظيت بالسعادة بمعرفتك لأول مرة، فقد اعتقدت أنه من المـستحيل أن انطبـاعى الجيد عن هوراتيو يمكن أن يتضاعف لأى إثباتٍ إضافى لجدارته، وذلك الاعتقـاد كان تسليتى عندما تسلمت خطابك الأخير، حيث إننى أعترف أننى دُهشت عنـدما فتحت خطابك، ووجدت أحاسيسك المرهفة التى عبَّرت عنها بطريقةٍ فائقـة (علـى الرغم من أننى أعرف كل المبادئ الكريمة التى تنطوى عليها الطبيعة البشرية كلها متمركزة فى صدرك) والكلمات لا يمكن أن ترسم ما أشعر به عند التفكيـر، فـإن سعادتى ستكون نهايةً مطلقة لكل تصرفاتك. آه، هوراتيو!! يا لها من حيـاة مليئـة بأحقر الهموم المنزلية، والذى حوّلها التفكيرُ السارُّ بأن الإنسان الكائن على الأرض يستحق أن تعطيه أحاسيسك لكى تحصد السرور أو النفع لكل ما تفعله!! فـى هـذه الحالة سيتحول الكدح إلى تسلية، ولن يكون هناك شىء سوى حياةٍ ملائمة ولا مفر منها وستجعلنا نتذكر أننا بشر.

لو غيرت الوحدة أفكارك، والرغبة فى الاحتفاظ بها غير معلنة، وسـتجعل حتى محادثة الرجال الأذكياء والمتعلمين مملة لك، يا لها من ساعاتٍ مقلقة يجـب على قضاؤها، فقد اتُهمت كالعادة بمحادثة النساء، حيث يؤدى فضولهن إلى التدخل فى كل أفكارى، وغيرتهن لن تدع أحدًا آخر يحوز قلب هوراتيـو دون إجبـارهن بمكايد حاقدة ضد الشخص الذى سيسعد باستحواذه؟ لكن إن كان حقا لكل حاقد عذر

أو حتى تخفيف؛ ففى هذه الحالة ستكون الفائدة عظيمة، وبالمثل سيكون طبيعيًا لكل من يتمنينه لأنفسهن، ولن أخجل لامتلاكه، ولصالحك يا هوراتيو أنا مجبرة؛ وذلك لصعوبة كل المواقف التى أستطيع أن أصورها فى خيالى، وهو أن أميل إلى حب الشخص الذى تُجبرنى حكمتى على إدانته".

الأمور كانت فى تقدم هائل بين الزوجين المغرمين، وتحدد يوم زواجهم خلال أسبوعين من الآن، تصادف أن تعقد تلك الجلسات فى هذه المقاطعة من مدينة تبعد بحوالى عشرين ميلاً من تلك التى تدور فيها أحداث قصتنا. وعلى ما يبدو فإنه شيء عادى للشباب حضور تلك الجلسات، ليس فقط من أجل النفع، وإنما لغرض مشاركتهم وتعلم قانون عدالة السلام، ولأى غرض واحد من أحكم وأهم أنواع العدالة فهو متحدث محدد أو رئيسى كما يطلقون عليه تواضعًا، وهو يقربهم ويُعلمهم فى معرفة حقيقية للقانون.

قال أدمس: "إنك هنا متهمة بخطأ صغير، والذى بعد إذنك سأُصلحه، لقد حضرت أحد تلك المجالس الفصلية، حيث لاحظت المعلم يُعلم القوانين بدلاً من تعلم أى شيء منهم".

قالت السيدة: " إن هذا ليس مهمًا، وإلى هنا أصلحت هوراتيو الذى تمنى أن يستطيع من خلال مهنته زيادة ثروته التى لم تكن كبيرة فى هذا الوقت؛ من أجل محبوبته لينورا، وقرر أن لا يتجشم آلامًا بهذا وأن لا يضيع أية فرصة لتحسين نفسه فيها.

وفى نفس اليوم بعد الظهر ترك المدينة، ووقفت لينورا بجوار النافذة، حينما أتت مركبة، وأظهرت أنها ألطف وأرق وأجمل عربة رأتها، مضيفة تلك الكلمات الرائعة: "آه إننى أحب تلك العربة " على الرغم من أن صديقتها فلوريلا لم تُجلها فى ذلك الوقت. وفى المساء احتشد الجميع وشرفتهم بصحبتها، لكنها عزمت على أن تكون مجاملتها لهوراتيو أن ترفض الرقص فى غيابه. آه، لماذا لا تقدر النساء عندما تتخذ قرارًا حسنًا أن يحافظن على عهودهن بنفس الحماسة فى اتخاذهن لهذا القرار!!

انضم صاحب المركبة التى تجرها ستة جياد إلى الحشد. وكانـــت ملابـــسه جميلة بطريقة ملحوظة تمامًا مثل عربته. وسريعًا ما لفت انتباه الصحبة، كل هؤلاء الذين بَدوا فى أناقة، وكل الصُدر الحريرية بالهُدْب والذهب والفضة فقدت بريقهـــا فى لحظة.

قال أدمس: " سيدتى، إن لم يكن ذلك خارج الموضوع ســـأكون ســـعيدًا إذا علمت ماذا كان يرتدى هذا الرجل".

أجابت السيدة " سيدى، لقد قيل لى إنه يرتدى معطفًا لونه مثل القرفة مبطنًـــا بالستان القرمزى مطرزًا بالذهب، وصِدارًا لونه فضى ومزين أيضا بالـــذهب. ولا أستطيع أن أكون دقيقة فى وصف باقى ملابسه، ولكن كانت جميعًا على الموضـــة الفرنسية؛ حيث إن بيلارمين (كان هذا اسمه) قد وصل توًا من باريس.

هذا المظهر الجميل لم يشغل كليةً أعين كل سيدة فى الحشد أكثر من لينـــورا التى انشغلت بمظهره. وكان نادرًا ما يلاحظها، وظل ســـاكنًا لا يتحـــرك ووقـــف كالتمثال أو على الأقل كان سيفعل ذلك لو سمحت له تربيته العالية. ومع ذلك فقـــد حمل ذلك إلى حد بعيد قبل أن تكون له السلطة لتصحيح نفسه، لاحظ كل شـــخص فى الحجرة بسهولة أين رسخ إعجابه، بدأت السيدات الأخريات ينفردن برفقـــائهن السابقين، وكل منهم مدرك من التى سيختارها بيلارمين، على الـــرغم مـــن أنهـــن حاولن بكل الطرق الممكنة منع العديد منهن أن يقلن للينورا: " آه يا سيدتى أعتقـــد أننا لم نسعد برؤيتك ترقصين الليلة ". ثم قالوا لبيلارمين: " إن لينورا لن تـــرقص، أؤكد لك أن رفيقها ليس هنا ". وحاول أحد الحاقدين أن يمنعها من إرســـال رفيـــق سيئ الطبع ليسألها إن كانت ستُجبر على الرقص معه أم أنها ستجلس، لكن أحبطت تلك الخطة.

رأت لينورا نفسها مَثار إعجاب هذا الغريب الوسيم، وحسدتها كـــل امـــرأة حاضرة. وبدأ قلبها الصغير يرفرف، وتهيجت رأسها بحركةٍ متشنجة، وبدت كمـــا

لو أنها تتحدث إلى العديد من معارفها، لكن لم يكن لديها شيء تقوله، فلم تـذكر انتصارها الحالى ولم تستطع أن تحرر أفكارها لحظةً واحدة من التأمل فيه، وهـى لم تتذوق مثل هذه السعادة. وقد علمت من قبل ما الذى يعذب المرأة الوحيدة، لكـن عندما لعنها وكرهها الحشد بأكمله سرًّا، كانت متعة خاصة بهذه اللحظة المباركـة، وتلك النشوة العزيزة قد أربكت فهمها، فلم يكن هناك شيء أكثر حماقة من سلوكها، فقامت بآلاف الخدع الطفولية التى حرفت شخصيتها إلى عـدة أشـكال، ووجهها لضحكات عديدة دون أى سبب.

بالاختصار كان سلوكها مثارًا للسخرية مثل رغباتها التى أثرت على إعجاب هذا الغريب الخالى من المشاعر، وفى نفس الوقت انتصارًا من ذلك الإعجاب على كل امرأة فى الحجرة.

وفى تلك الحالة المزاجية استفسر بيلارمين عنها، ومن تكون، وتقـدم إليهـا وبانحناءة طلب منها أن ينال شرف الرقص معها، وقد وافقت بانحنـاءة احتـرام. ورقصت معه طوال الليل، واستمتعت بأقصى درجات السعادة التى يمكن أن تشعر بها.

وعند تلك الكلمات صدر من أدمس تأوه عميق؛ أخاف السيدات اللاتى تمنين ألا يكون مريضًا. وأجاب أنه تأوه فقط بسبب حماقة لينورا.

أكملت السيدة قائلةً: " انسحبت لينورا، فى حوالى السادسة صباحًا، تقلبت فى فراشها لفترات قصيرة جدا من النوم، والتى ملئت تمامًـا بـأحلام عـن العربـة والملابس الجميلة التى رأتها، والحفلات الراقصة والأوبرا والمهرجانات التنكريـة الراقصة التى كانت موضوع محادثتهما.

فى فترة بعد الظهر، كان بيلارمين فى مركبته التى تجرها ستة جياد، فـى انتظارها. وحقا قد فتن بشخصيتها، وقد استفسر عن ظروف والدها (فهو نفسه على الرغم من كل الحلى المبهرجة لم يكن غنيًّا تمامًا مثل كروزوس أو أطالينوس).

قال أدمس: " أطالينوس. لكن بالله عليك كيف عرفت تلك الأسماء؟"

ابتسمت السيدة لهذا السؤال، وواصلت قائلةً : إنه كان سعيدًا للغاية، لأنه قرر أن يخاطبها مباشرةً. وقد فعل، وبحماسة ونشاط ودفء حير مشاعرها الضعيفة وأجبر السيدة أن تطلب منه التحدث لوالدها؛ حيث إنها كانت تعلم أنه سيفضل العربة الفاخرة.

هكذا، ما حصل عليه هوراتيو بالتنهدات والدموع، والحب والحنان ملكه بيلارمين الإنجليزى الفرنسى بالمرح والتودد فى لحظة. وبمعنى آخر، ما فعله التحشم فى سنةٍ كاملة، دمرته الجراءة فى أربعٍ وعشرين ساعة.

هنا تأوه أدمس مرة ثانية، لكن السيدات لم يلاحظن ذلك. منذ بداية التجمع حتى نهاية زيارة هوراتيو لم تفكر لينورا لحظة واحدة فى هوراتيو، لكنه بدأ الآن يدخل فكرها على الرغم من أنه ضيف غير مرحب به. وتمنت لو كانت رأت بيلارمين الخلاب والعربة الفاخرة قبل أن تصل الأمور إلى هذا الحد. قالت: "لماذا؟ أيجب أن أتمنى رؤيته من قبل؟ أم ما يهم هو أننى رأيته الآن؟ أليس هوراتيو حبيبى وتقريبًا زوجى؟ أليس جميلاً بل أجمل من بيلارمين؟ آه، لكن بيلارمين هو ألطف وأجمل رجل، يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار، نعم، نعم، إنه كذلك بالتأكيد. لكن ألم أكن فى البداية أحب هوراتيو أكثر من كل العالم؟ آه لكننى لم أر بيلارمين أمس. لكن ألم يكن هوراتيو شغوفًا بى، ويمكن أن يَقهر اليأس قلبه إن هجرته؟ حسنًا أليس بيلارمين له قلب يُقهر أيضا؟ بلى، لكننى وعدت هوراتيو أولاً، لكن بيلارمين المسكين السيئ الحظ، لو كنت رأيته أولاً، لكنت بالتأكيد أعطيته الأفضلية. ألم يُفضلنى هذا المخلوق العزيز على كل النساء الموجودات فى الحشد عندما كانت كل واحدة تُعرض له؟ متى كانت فى مقدرة هوراتيو أن يُعطينى مثل هذه المشاعر؟ أيستطيع أن يُعطينى عربة أو أيًا من تلك الأشياء التى سيجعلنى بها بيلارمين سيدة؟ يا له من فارق شاسع بين أن أكون زوجة المحامى الفقير، أو أن أكون زوجة بيلارمين صاحب الثروة وسعيد الحظ!! لو تزوجت هوراتيو لن

أنتصر إلا على منافس واحد على الأكثر، لكن زواجي من بيلارمين سيجعلني مصدر حسد كل معارفي، يا لها من سعادة!! لكن هل سأترك هوراتيو يموت؟ لأنه أقسم أنه لا يستطيع العيش دوني. لكن ربما لن يموت، وإذا فعل، هل سيمكنني منعه؟ هل يجب عليَّ أن أُضحي من أجله؟ لكن سيحزن بيلارمين أيضا من أجلي.

هكذا كانت تُناشد نفسها عندما طلبت منها بعض الفتيات الخروج للتمشية، وخفف ذلك قلقها قليلاً على ما يحدث.

في الصباح التالي تناول بيلارمين الإفطار معها في وجود عمتها، التي عبر لها عن مشاعره تجاه لينورا. وبمجرد أن رحل، بدأت السيدة العجوز تنصح ابنة أخيها فيما يخص تلك المناسبة. قالت: "اسمعي يا صغيرتي يا لها من ثروة أُلقيت في طريقك، وأتمنى ألا تصري على وضعك". تنهدت لينورا وتوسلت لها ألا تذكر تلك الأشياء، لأنها تعلم ارتباطاتها بهوراتيو.

صاحت عمتها: " ارتباطات بشيء لا قيمة له، عليك أن تشكري السماء في صلاتك، على أن في سلطتك فك تلك الارتباطات. هل ستتردد أية امرأة لحظة إن كانت ستركب عربة أم ستمشي على قدميها طوال حياتها؟ لكن بيلارمين لديه ستة جياد أما هوراتيو فليس لديه ولو اثنان من الجياد".

أجابت لينورا: " نعم لكن ماذا سيقول الناس عني؟"

صاحت العمة: " هل سوف يعتبرونك مذنبة؟ إن الناس دائمًا يكونون مع الحكمة، وسوف يعتبرونك مذنبة حقا لو ضحيت بمصلحتك من أجل أي شيء آخر، آه، إنني أعرف الدنيا أما أنت ياعزيزتي تُبدين جهلك باعتراضك هذا. آه، يا ضميري إن الدنيا أكثر حكمة، وقد عشت فيها أكثر منك، وأؤكد لك ليس هناك ما يستحق أن يحوز اهتمامك سوى النقود، إنني لا أعرف شخصًا قد تزوج لاعتبارات أخرى ولم يندم من قلبه بعد ذلك. علاوةً على ذلك، لو أمعنا النظر في الرجلين، هل تفضلين شخصًا لئيمًا تربى في الجامعة على رجلٍ جميل قد أتى من رحلاته؟

فعلى العالم أجمع أن يدع بيلارمين ليكون رجلاً جميلاً. وإيجابيا أن يكون رجلاً جميلاً ووسيمًا".

"ربما يا سيدتى لن يكون لدىَّ شك إذا علمت كيف أبتعد عن الآخر بطريقة مناسبة".

قالت العمة: " آه، اتركى ذلك لى، أنت تعلمين أن والدك لا يعلم شيئًا عن تلك العلاقة حقا مِن جانبى أعتقد أنها ستكون مناسبة وكافية ولم أحلم بمثل هذا العرض. دعينى أعطِ هذا الشخص ردًّا، وأضمن لكِ أنك لن تقعى فى أية مشاكل".

وأخيرًا وافقت لينورا على مبررات عمتها، وفى المساء سيتناول بيلارمين معها طعام العشاء، واتفقوا على أنه سوف يذهب إلى أبيها فى الصباح التالى، ويعرض الزواج الذى قد وافقت عليه، والذى سيتم عند عودته.

وبعد العشاء مباشرة ذهبت العمة إلى فراشها، وتركت الحبيبين معًا، وبدأ بيلارمين الحديث التالى: " نعم، سيدتى أؤكد لكِ أن هذا المعطف مصنوع فى باريس، وأنا أتحدى أحسن خياط إنجليزى إن استطاع تقليده، ولن يستطيع أحد تفصيله، إنهم لن يستطيعوا تفصيله. لو لاحظت كيف صنع ذلك الثوب وتلك الأكمام فلن يستطيع أى وغد إنجليزى أن يصنع مثلها. قولى لى كيف ترين ردائى؟ أجابت لينورا إنه جميل جدا.

قال: " أؤكد لكِ، إن كل ذلك صناعة فرنسية ما عدا المعطف فأنا لا أثق فى أية صناعة إنجليزية إلا المعطف. أتعرفين يجب علينا تشجيع شعبنا على ما يصنعونه، خاصةً أننى فى مكانة تفيد مِصلحة الدولة، وأنا أُفضل الذهاب إلى جزيرة قذرة فى قاع البحر بدلاً من ارتداء سترة صناعتها إنجليزية. وأنا متأكد أنكِ لو ذهبت لجولة واحدة لباريس سيكون لكِ نفس الرأى مع احترامى لملابسك. ولن تتخيلى ما سيُضفيه الرداء الفرنسى الصناعة إلى جمالك. وأؤكد لكِ أننى عندما ذهبت إلى الأوبرا للمرة الأولى، اعتقدت أن السيدات الإنجليزيات وصيفات".

وبتلك المحادثة الطريفة التى استطاع بيلارمين أن يُسلى بها محبوبته لينورا، فُتح الباب فجأة ودخل هوراتيو الحجرة. وهنا من المستحيل التعبير عن مفاجأة لينورا.

قالت سيلبسلوب: " سيدة مسكينة، يا لها من ورطةٍ بشعة وقعت بها!!"

قال جرافيرس: " على الإطلاق، إن تلك الفتيات القذرات لا يمكن أن يُفاجأن".

قال أدمس: "يجب أن تثق بنفسها أكثر من كورينثيان، أو أكثر من لايس نفسها".

استمرت السيدة: صمت طويل غَلب عليهم جميعًا. لو أن دخول هوراتيو المألوف قد أدهش بيلارمين، فإن وجود بيلارمين غير المتوقع لم يُدهش هوراتيو.

أخيرًا، جمعت لينورا كل الأعصاب والقدرة التى كانت تتحكم فيها، وتخاطبت مع الأخير، وتظاهرت بالاندهاش من تلك الزيارة المتأخرة.

أجاب: " حقا إننى أُقدم اعتذارى على إزعاجك فى تلك الساعة، وإذا لم أجدك فى صحبة، ما كنت قطعت عليك راحتك".

نهض بيلارمين من مقعده، وغادر الحجرة فى دقيقة، وهو يُهمهم بنغمة الأوبرا، بينما تقدم هوراتيو نحو لينورا وسألها بهمس إن كان هذا الرجل يمُت لها بصلة القرابة، وأجابت على ذلك وهى مبتسمة أو إلى حد ما ساخرة: "لا إنه ليس قريبًا لى حتى الآن"، مضيفة أنها لا تستطيع تخمين معنى هذا السؤال. قال لها هوراتيو برفق إن هذا السؤال لم ينبع من أية غيرة. "غيرة!! أؤكد لك إنه سيكون غريبًا جدا فى العرف العادى أن تعطيه أى شيء من تلك المظاهر".

أدهشت تلك الكلمات هوراتيو، وقبل أن يجد الفرصة للإجابة وثب بيلارمين إلى السيدة، وقال لها إنه خائف إن كان قد قطع عليهما أمرًا ما بينهما.

قالت: "ليس هناك أمور، سواء مع هذا الرجل أو مع أحد آخر يمكن أن تكون سرًّا عليك".

قال هوراتيو: " إنى أستميحك عذرًا، إننى أريد أن أعرف من يكون هذا الرجل الذى تستأمنينه على كل أسرارنا".

صاحت لينورا: " إنك ستعرف قريبا، لكن إننى لا أستطيع تخمين تلك الأسرار التى بيننا بهذه الأهمية الكبيرة".

صاح هوراتيو: " لا يا سيدتى، إنكِ لن تدعينى أفهمك جديًّا".

قالت: " إنه لن يقدم أو يؤخر بالنسبة لى الطريقة التى ستفهمنى بها، لكن أعتقد أنه من الصعب تمامًا فهم تلك الزيارة غير المألوفة، على الأقل، عندما يرى الناس أن هناك أحَدًا منشغلاً، فالخدم لا يمكن أن يفعلوا ذلك، فكيف تتوقع أن شخصًا على درجة عالية من تربية يُلفت نظره إلى ذلك؟"

قال هوراتيو: " سيدتى، أنا لم أتخيل أنكِ منشغلة مع غريب، فعلى ما يبدو أن هذا الرجل جعل زيارتى وقحة، أو أن الرسميات مطلوبة من شخصين فى موقفنا".

قالت: " مؤكد أنك تَحلُم". قال: "إننى أحلُم لأنه من المستحيل أن لينورا تُقيِّمنى بمعرفة وضيعة بعد كل ما حدث بيننا!! "

" حدث بيننا هل تنوى إهانتى أمام هذا الرجل؟"

قال بيلارمين: " هـ.. هل ستُهين السيدة "، أمسك قبعته بغرور ومشى بتباهٍ نحو هوراتيو: " هل يتجرأ أى رجل أن يُهين تلك السيدة أمامى..؟ "

قال هوراتيو: " اسمع يا سيدى، أنصحك أن تقف جانبًا لأننى فى حالة محمومة، لأننى خُدعت إلى حد بعيد لو أن تلك السيدة لديها رغبة شديدة أن تُودى بسيادتك هزيمة لا بأس بها".

قال بيلارمين " سيدى أنا لدىَّ الشرف أن أكون حاميها. وأنـــا لا أفهـــم مــــا تعنيه".

قال هوراتيو: " سيدى، إنها هى التى تحميك، لكن لا تغتر بنفسك، فأنا جاهزٌ لك". (هز سوطته تجاهه) قال بيلارمين باللغة الفرنسيية:

" oh, serviteur très humble , je vous entends parfaitment bien

بمعنى: " إننى أصغى لك تمامًا، أيها الخادم الوضيع ".

فى ذلك الوقت دخلت العمة التى عَلِمت بزيـــارة هوراتيـــو وأرضـــت كـــل شكوكه، وأقنعته أنه لم يكن واعيًا لما يحدث، ولم يكن هناك شيء فوق العادة حدث فى الأيام الثلاثة التى تغيب فيها سوى بعض التغير البسيط فى مشاعر لينورا، التى انفجرت فى البكاء متعجبة من سبب معاملته لها بتلك الطريقة الهمجيـــة. وطلـــب هوراتيو من بيلارمين أن يرحل معه، لكنْ السيدتان منعتاه أو أمـــسكتا بـــشدة يـــد الأخير، وعلى ذلك تركهم الأول دون أى تعليق، ورحل تاركًا السيدة مع خـــصمه ليتشاورا بشأن حمايته، حيث خافت لينورا أن حماقتها تعرضه للخطر، لكن أراحتها العمة، وأكدت لها أن هوراتيو لن يتجرأ على أن يتعرض لها مادام معها رفيقٌ شهم مثل بيلارمين، ولأنه محامٍ فيمكنه البحث عن طريقـــة للانتقـــام وذلـــك بطريقتـــه الخاصة، والشيء الذى أدركوه منه هو الدعوى القضائية.

وأخيرًا، سمحوا لبيلارمين أن يأوى إلى منزله، بعد أن حَسم كـــل الأمـــور المتعلقة بالرحلة التى سيقوم بها فى الصباح، واستعدادهم للزواج بعد عودته".

لكن واحسرتاه!! كما لاحظ الحكماء كرسى الشجاعة ليست له ملامح هادئة، فعندما يثور الرجل الواضح والبسيط، يلجأ إلى معدنٍ مؤذٍ أو حديـــد بـــارد، بينمـــا يفصح عن ذلك بتعقل أكثر الرجال الذين لهم ملامح الشجاعة، وأحيانًـــا يكونـــون شعارًا ورمزًا للشجاعة.

في الصباح استيقظت لينورا من حُلم المركبة ذات الستة جياد، بوصف محزن لحالة بيلارمين الذى طعنه هوراتيو، وهو يرقد فى الفندق فى حالة سيئة، وقال الجراحون: إن حالته خطيرة.

وفى الحال قفزت من فراشها ولفت فى الحجرة بطريقة شديدة الهياج، تُمزق شعرها، وتضرب صدرها بكل آلام اليأس، وعندما نهضت عمتها أيضا على تلك الأخبار، وجدتها فى تلك الحالة المؤسفة. وهدَّأت السيدة العجوز الطيبة ابنة أخيها بأقصى مهارة وقالت لها مادامت هناك حياة فهناك أمل، لكن إن مات فإن حزنها لن ينفع بيلارمين بشىء، وسوف تُعرض نفسها للضياع، وبعد ما حدث، فإن أنسب طريقة هى عدم التفكير فى بيلارمين وأن تحاول أن تستعيد حب هوراتيو.

صاحت لينورا المتفطرة القلب: " لا تتحدثى معى، أليس بسببى فقد بيلارمين المسكين حياته؟ أليست هذه الهيئة الجذابة (وعند تلك الكلمات نظرت بثبات فى المرآة) هى السبب فى تدمير هذا الرجل الوسيم فى ذلك العمر؟ هل سأتحمل تأمل وجهى ثانية؟ (لا زالت عيناها مثبتة فى المرآة) ألست قاتلة أجمل رجل؟ ليس هناك امرأة أخرى فى المدينة كان لها انطباع عليه".

صاحت العمة: " لا تفكرى فى الماضى، فكرى فى استعادة حب هوراتيو".

قالت ابنة أخيها: " ما السبب؟ هل عندى أمل أنه سيغفر لى؟ لا إننى فقدته مثل الآخر، وإنها كانت نصيحتك المؤذية التى كانت سبب كل هذا، لقد فتنتِنى بما هو عكس ميولى أن أهجر هوراتيو المسكين". وعند تلك الكلمات انفجرت فى البكاء: " لقد سيطرت علىَّ لأقلع عن حبى له، إنكِ أنت التى أدخلت بيلارمين فى ذهنى بمعتقداتك وكلامك عنه وعن ملابسه التى لم يكن لها أى تأثير علىَّ. كان يجب علىَّ أن أتحدى كل ثروات وملذات الدنيا، لكن أنت السبب، لأنك انتهزت صغر سنى وسذاجتى، وأجبرتنى أن أفقد حبيبى هوراتيو للأبد".

تحملت العمة تلك الكلمات التى انهالت عليها كالمطر، وجمعت كل القوة وأغلقت فمها كما لو كانت وضعته فى كيس دراهم، ثم قالت: " أنا لست مندهشة يا ابنة أخى من هذا الجحود، فإن هؤلاء الذين ينصحون الصغيرات دائمًا يتوقعون هذا الرد. لقد اقتنعت أن أخى سيشكرنى على إيقاف زواجك من هوراتيو بأية وشاية". أجابت لينورا: " إن هذا فى سلطتك، على الرغم من أنه شيء بغيض فيكِ أن تتمنيه أو تحاوليه بعد الهدايا التى تلقيتها منه، (فقد أعطاها هوراتيو العديد من الهدايا القيمة والجميلة، لكن عندما تناول معها بيلارمين الإفطار هى وابنة أخيها حيَّاها بخاتم ذى قيمة أكثر من كل ما منحها الآخر) .

وظهرت على العمة علامات الغضب، وعندما كانت على وشك الإجابة، أحضر خادم خطابًا، والذى علِمت لينورا أنه من بيلارمين ففتحته بشوقٍ كبير وبدأت قراءته كما يلى:

"أيتها المخلوقة الرائعة ، إن الجروح التى تسبب فيها خصمى ليست خطيرة، تلك الطلقات التى أُطلقت من عينيك داخل قلبى متألقة للغاية tout brilliant. وأعطانى الأطباء آمالاً فى أننى سأكون قادرًا على الحضور إليكِ، فإن غيابكِ عنى ألمٌ كبير أشعر به.

سيدتى مع كل الاحترام

"Avec tout le respecte"

المخلص، المطيع: بيلارمين"

وبمجرد أن أدركت لينورا تلك الآمال فى شفاء بيلارمين، فطبقًا للعادة ضخمت الإشاعات حالته، وفى الحال نسيت كل ما يذكرها بهوراتيو، وسريعًا ما تصالحت مع عمتها التى غفرت لها. وفى الحقيقة من الممكن أن تكون قد انزعجت قليلاً من الملاحظات التى أشارت إليها ابنة أخيها خاصة فيما يخص الهدايا.

وعليها أن تُدرك أن تلك الإشاعات التى تنتشر بالخارج يمكن أن تُصيب سمعتها، وتعكس أقصى حدة وشدة فى ملامحها وسلوكها لسنواتٍ عديدة.

رجعت الآن مشاعر لينورا إلى بيلارمين بقوةٍ كبيرة بعد راحةٍ قصيرة. واقترحت على عمتها زيارته، حيث نصحتها عمتها بتدبير جدير بالثناء أن تنهى ذلك.

قالت: " لأنه يمكن أن يكون هناك أية حادثة تمنع الزواج المعتزم، وأى تصرف تجاه ذلك المحب يمكن أن يفسد سمعتك فى أعين الآخرين، يجب على كل امرأة أن تفكر وتأخذ حيطتها إلى أن تتزوج، وتُدرك إمكانية توقف العلاقات فجأة".

قالت لينورا يجب عليها أن تكون غير مُبالية فى تلك الحالة، لأنها ركزت حبها كله لهذا الرجل العزيز (كما تطلق عليه)، وإن كان من سوء حظها أن تفقده، فيجب عليها أن تهجر أى تفكير فى أى شخص للأبد. وعلى ذلك قررت أن تزوره، وسوف تناقض نصيحة عمتها الحكيمة، وسوف تنفذ قرارها فى المساء القريب.

كانت السيدة تواصل رواية قصتها عندما وصلت المركبة إلى الفندق حيث سيتناول الرفقاء غذاءهم، وكان السيد أدمس غير راضٍ بذلك إلى حد بعيد؛ حيث كانت أذناه أكثر جزء جائع فيه، وهو كالقارئ يمكنه التخمين بفضول نَهِمٍ ورغبةٍ شديدة فى سماع نهاية هذا الحب، على الرغم من أنه أعلن أنه نادرًا ما يتمنى نجاح تلك السيدة المتقلبة.

الفصل الخامس

شـــجار رهيب حدث فى النُّزل
الذى يتناول فيه الرفقاء غذاءهم،
وعواقبه الدامية للسيد أدمس.

وبمجرد أن نزل الركاب من المركبة، ذهب السيد أدمس كعادته مباشرة إلى المطبخ، حيث وجد جوزيف جالسًا بجوار المدفأة والمضيفة تدهن له ســاقه، إذ إن الحصان الذى اقترضه أدمس من كاتبه كان لديه ميــل شــديد للركــوع، ويمكــن الاعتقاد أن تلك هى مهنته، ومهنة سيده، وهو لا يُعطى أية بادرة لنواياه، فهو كثيرًا ما يكون راكعًا على ركبهِ عندما يترقبه الراكب. وهذا العيب كان مزعجًا بدرجــة كبيرة للقس الذى اعتاد عليه، ولأن ساقيه لامست تقريبًــا الأرض عنــدما ترجــل الحصان كانت هناك فرصة للسقوط، ورمى نفسه للأمام مستعدًا ببراعة فائقة ولــم يتلق أى أذى، وتدحرج هو والحصان عدة مرات ولمسافات عديدة، ثم بعــد ذلــك نهض الاثنان والتقيا كالصديقين. جوزيف المسكين الذى لم يعتد على ذلك النوع من البهائم، على الرغم من أنه فارس ممتاز، يترجل بسلام لكنه ســقط بــساقهِ تحــت البهيمة وتلقى كدمة عنيفة، والتى كانت السيدة الطيبة – كما قلنا آنفًا – تضع يــديها الدافئتين وبها بعض من الكافور فى نفس الوقت الذى دخل فيه القس المطبخ.

لم يكد يعبر عن قلقه بسوء حظ جوزيف حتى دخل مضيفهم، ولم يكن بــأى حال من الأحوال بنفس طيبة السيد طاوس، وكان حقا سيدًا كفؤًا لمنزلهِ وكل شيء فيه إلا ضيوفه، ذلك الرفيق الفظ الذى يُحدد دائمًا احترامه بِناءً على هيئة المسافر، من " بارك الله لك فى كرمك " حتى يُخلص قائلاً " أتأتى قريبًا"، ملاحظًا زوجتــه

راكعة لخادم، احتج قائلاً دون أن يفكر فى الظروف المحيطة " ما المرض الذى أصابه يا امرأة؟ لِمَ لا تهتمين براكبى المركبة الآخرين؟ اذهبى واسأليهم ما الذى سيتناولونه على العشاء.

قالت: " يا عزيزى، إنهم لن يتناولوا شيئًا سوى ما هو على الموقد، وسيكون جاهزًا الآن، إن ساق الفتى المسكين بها كدمات كثيرة جدا حقا". وبتلك الكلمات بدأت التدليك بعنف أكثر مما سبق، وصادف أن رن الجرس، فلعن زوجته وأمرها بالذهاب إلى الصحبة وأن لا تقضى اليوم بأكمله فى تدليك ساق الفتى، فهو لا يعتقد أن ساق الفتى فى حالة سيئة للغاية كما يتظاهر، ولو كانت ساقه فى حالة سيئة فسوف يجد طبيبًا على بعد عشرين ميلاً ليبترها. وبعد تلك الكلمات، مشى أدمس بخطوات واسعة عبر الحجرة، وطقطق أصابعه فوق رأسه، وبدأ يتمتم بصوتٍ عالٍ أنه سيحرم ذلك البائس من شىء ضئيل القيمة، لأنه اعتقد أن الشيطان لديه إنسانية.

وتسببت تلك الكلمات فى حوارٍ بين أدمس والمضيف؛ حيث كان بها ردان أو ثلاثة بصرامة، إلى أن أمر جوزيف الأخير أن يعرف كيف يُهذب نفسه ويتصرف بطريقة أفضل، وعلى ذلك نظر المضيف إلى أدمس بطريقة حادة وباحتقار مكررًا الأفضل منى، ثم ثار قائلاً إنه قادر على طردِه من منزله، كما أحضره، وكان على وشك أن يستخدم يديه العنيفتين، وعندما لاحظ أدمس ذلك ضربه بقبضة يده فى وجهه وفى الحال نزفت أنفه بشدة. ولم يكن المضيف مستعدًا أن يُهزم بكياسة، خاصة مع شخص مثل أدمس، فرد له ما فعله حتى بدت أنف القس أكثر احمرارًا من المعتاد. وعلى ذلك هاجم القس عدوه ثانية، وبضربة أخرى أسقطه على الأرض.

رأت المضيفة وهى زوجة أفضل من زوجها الفظ، وعندما رأت زوجها غارقًا فى دمه ومستلقيًا على الأرض؛ أسرعت فى الحال لمساعدته أو إلى حد ما للانتقام له؛ فحاولت إلقاء وعاء ملىء بدم خنزير على القس، لكن لسوء الحظ تعلق الوعاء أثناء إلقائه على الملبس بعد أن امتلأت يداها بالدم. فأمسكته بغضب ودون

أى تفكير ألقته فى وجه القس؛ وسال على لحيته وعلى ملابسه، وكان منظرًا بشعًا من الصعب رؤيته أو حتى تخيله. ورأت السيدة سيلبسلوب كل ذلك عندما دخلت المطبخ فى تلك اللحظة. ولأن تلك السيدة الطيبة ليست باردة وصبورة؛ سألت عدة أسئلة، ثم طارت باندفاع نحو غطاء رأس المضيفة وأمسكت به وببعض شعرها الذى اقتلعته فى تلك اللحظة، وفى نفس الوقت أعطتها عدة لكمات فى وجهها، وبالممارسة المتكررة على الخادمات الوضيعات تعلمت خدعة بارعة فى توجيه أفضل اللكمات.

ولم يستطع جوزيف المسكين أن ينهض من مكانه، وكان القس منشغلاً بمسح الدم من عينيه الذى أعماه تمامًا، وبدأ المالك توًّا يتحرك بينما كانت السيدة سيلبسلوب تمسك وجه المالكة بيدها الشمال واستخدمت يدها اليمين ببراعة، حيث بدأت السيدة الصياح بصوتٍ أزعج كل المجموعة فى الفندق.

وبالصدفة كان فى الفندق فى ذلك الوقت بجانب السيدتين اللتين وصلتا فى المركبة الرجلان اللذان كانا مع السيد طاوس عندما حُجز جوزيف بسبب أجر حصانه، وهما من تحدثنا عنهما حينما توقفا فى الحانة مع أدمس. وكان هناك أيضا رجل قد عاد توًّا من رحلته إلى إيطاليا، واحتشدوا جميعًا على الفور، عندما سمعوا تلك الصيحات المروعة حيث كان المتعاركان فى الأوضاع التى قد ذكرناها بالفعل.

والآن لم يعد صعبًا وضع حد لهذا النزاع، ورضى المنتصران بالثأر الذى أخذاه، ولم يكن للمنتصر ميول لاستئناف الشجار.

والشخص الذى لفت انتباه الجميع هو أدمس الذى غطاه الدم، والذى اعتقد الجميع أنه دمه؛ ونتيجة لذلك توقعوا أنه لن يعيش. ونهض المضيف الذى قد أفاق الآن من ضربته، وسريعًا ما نقلهم من ذلك الشعور بالخوف عليه، بتوبيخ زوجته لأنها أتلفت سجق الخنزير، وقال لها كان من الممكن أن يكون كل شيء على ما يرام لولا تدخلها، مضيفًا أنه كان مسرورًا جدا من السيدة التى لقنتها درسًا على

الرغم من أن ذلك ليس نصف ما تستحقه. وإلى جانب الكلمات عديمة الرحمة التى تلقتها تلك المرأة المسكينة فقدت كمية من شعرها، والذى تمسكه السيدة سيلبسلوب بيدها اليسرى وهى مبتهجة بالنصر.

قال المسافر مخاطبًا السيدة جرافيراس (بالإيطالية) ومتمنيًا أن لا يكون قد أصابها الخوف، وأنها كانت مجرد ملاكمة بسيطة. وقال إن الإنجليز – ويعتبر ذلك شيئًا مخجلاً – قد اعتادوا على ذلك accustomata على الرغم من أنه منظر غريب إلى حد ما بالنسبة له؛ حيث إنه قد أتى توًّا من إيطاليا، والإيطاليون لا يُدمنون الضرب باللكمات cuffardo ولكنهم اعتادوا على الضرب بالعصا bastonza. ثم ذهب إلى أدمس قائلاً له إنه يبدو مثل شبح عُطيل، وطلب منه أن لا ينثر الدم عليه، لأنه لا يستطيع أن يقول أنه ارتكبها. أجاب أدمس ببراءة بالغة قائلاً: " سيدى، أنا بعيد جدا عن اتهامك". ثم رجع بعد ذلك إلى السيدة وصاح قائلاً: " لقد وجدت الرجل الملطخ بالدم شخصًا عديم الفهم، وأستطيع أن أقسم أنى لم أر هذا المنظر فى طريقى".
"uno insipido del nullo senso. Damnata di spectaculo viterbo"

عَلِم أحد الرجال سبب هذا الهرج من المضيف الذى أكد له أن أدمس هو الذى بدأ بالضرب، همس فى أذنيه أنه يضمن له أنه سيُشفى. قال المضيف مبتسمًا: "يشفى!! نعم، نعم، أنا لست خائفًا من الموت بضربة أو ضربتين، وأنا لست جبانًا مثل هذا". قال الرجل: " أعنى أنك ستُشفى من إصابات ذلك الموقف، وبلا شك ستنوى إحضار وثيقة رسمية لأنك على ما يبدو أنك رجل ذو روحٍ عالية، ولديه شجاعة أن يترك أى أحد يهزمه دون أن يتخذ موقفًا ضده، إنه لرفيق مخزٍ حقا من يُهزم، بينما يمكنك الثأر عن طريق القانون، خاصة أنه قد أسال دمًا منك، وأتلف معطفك، وسوف يأخذ المحلفون كل ذلك فى الاعتبار. ذلك المعطف الجديد الممتاز لا يساوى أقل من شلن الآن". واستمر قائلاً: " أنا لا أهتم بالتدخل فى تلك الأمور لكنك لك الحق فى شهادتى، ولو حلفت سأنطق الحق. لقد رأيتك منبطحًا على الأرض والدم يسيل من أنفك. الرأى لك، لكن إن كنت فى مكانك فكل قطرة من

دمى ستنقل بجرام ذهب إلى جيبى، وتذكر أننى لا أنصحك لكى تذهب للقضاء، لكن إن كان القضاة مسيحيين سيكون التعويض ضخمًا". صاح المضيف وهو يهرش فى رأسه: " سيدى، ليس لدى أية رغبة للجوء إلى القضاء وأشكرك. لقد رأيت ذلك بدرجة كافية فى الأبرشية، حيث إن اثنين من جيرانى قد ذهبا للقضاء، وحكم عليهما هما الاثنين بالسجن".

وعند تلك الكلمة غير الموضوع وبدأ يستفسر عن سجق الخنزير، ولم يكن عذرًا كافيًا لزوجته أنها أتلفته من أجل الدفاع عنه، لذلك فإن رهبة الصُحبة خاصة الرحالة الإيطالى وهو شخصٌ ذو منزلةٍ رفيعة، كبحت ثورته ضد زوجته.

بينما كان أحد الرجال الذين ذكرناهم آنفًا مشغولاً كما رأينا بالدفاع عن المالك، والآخر كان مشغولاً بدرجة عالية بالدفاع عن السيد أدمس الذى قد نصحه بتحضير دعواه القضائية فى الحال، وقال إن هجوم السيدة يعتبر قانونيًّا، فقد كانا كالشخص الواحد، وهو مسئول عن دفع تعويضات، والتى قال إنها مهمة حيث إنه ظهر ملطخًا بالدم.

أجاب أدمس إنه لو كان صحيحًا أنهما كالشخص الواحد، فقد هاجم زوجته، وهو آسف أن يعترف بأنه هو الذى بدأ بضرب زوجها. صاح الرجل: " وأنا آسف باعترافك بذلك أيضا. لأن هذا لا يمكن أن تنظر إليه المحكمة، حيث لا يوجد أى دليل الآن، لكن الرجل الأعرج الجالس على الكرسى، والذى أعتقد أنه صديقك، وبالتالى لن يقول شيئًا، لكن ماذا صنع لك ".

قال أدمس: " كيف يا سيدتى، هل تعتقد أنى نذل يقاضى من أجل الانتقام ببرود ويستخدم طرقًا غير سوية للحصول عليه؟ لو عرفتنى وعرفت درجتى الكهنية، فأعتقد أنك أهنت كلاً منهما". واندهش الرجل عندما سمع كلمة درجته الكهنية (لأنه كان ملطخًا بالدم تمامًا، ولا يمكن أن يكون فى أية درجة متحضرة من درجات الفرسان) ثم استدار بسرعة وقال: "كل إنسان يعرف مهنته الخاصة به".

هدأت الأمور الآن وأوت المجموعة إلى حجراتها العديدة، وهنأ رجلان كلاهما الآخر على نجاحهما فى مهماتهما الطيبة للمصالحة التامة بين الأطراف المتنازعة. وذهب الرحالة الإيطالى إلى طعامه مرددًا بيت شعر لشاعر إيطالى يقول:" Je voi very well , que tuta e pace "

بمعنى: " إننى أرى جيدًا أن كل شىء فى سلام ".

بدأ الآن سائق المركبة فى أن ينزعج بحلول ركابه عليه، حيث أخبرتهم السيدة جرافيراس التى كانت تصر – على الرغم من احتجاج كل المجموعة – على أنها لن تسمح لخادم بالركوب معهم فى المركبة، فقد كان جوزيف المسكين عاجزًا تمامًا عن ركوب حصان. وتوسلت لها شابة صغيرة على ما يبدو أنها حفيدة إيرل، وكانت عيناها تدمعان تقريبًا، وتوسل السيد أدمس وعنفت السيدة سيلبسلوب، ولكن كان كل ذلك دون أية نتيجة.

قالت إنها لن تحط من قدرها وتركب مع خادم، وهناك عربات على الطريق إن رغب سيد المركبة ركوبها، وهى ستدفع لمكانين، لكنها لن تدع ذلك الشخص يركب معهم.

قالت السيدة سيلبسلوب: " سيدتى، أنا متأكدة أنه لا يستطيع أحد أن يرغم آخر على عدم ركوب المركبة".

أجابت السيدة: " سيدتى، أنا لا أعرف، فأنا لست معتادة على ركوب المركبة فنادرًا ما أسافر فيها".

أجابت سيلبسلوب: " ربما يا سيدتى، فهناك نبلاء يركبونها، ومنهم من هو أعلى مقامًا". قالت جرافيراس إن بعض الناس يعطون ألسنتهم أحيانًا الحرية لمخاطبة من هم أعلى منهم مقامًا، وهى لم تعتد على مخاطبة الخدم.

أجابت سيلبسلوب: " بعض الناس ليس لديهم خدم لمخاطبتهم، ومن جانبها، فهى تشكر الله أنها عاشت فى عائلة بها الكثير من الخدم، ولديها الكثير تحت قيادتها الخاصة أكثر من أية سيدة بسيطة فى المملكة ".

صاحت السيدة جرافيراس قائلة: " إنها تعتقد أن سيدتها لا تُشجع تلك الوقاحة مع من هم أعلى منها مقامًا ".

قالت سيلبسلوب: " أعلى منى مقامًا، من هم؟ "

قالت جرافيراس: " أنا أعلى منكِ مقامًا، وسوف أخبر سيدتك ".

ضحكت السيدة سيلبسلوب على ذلك بصوتٍ عالٍ، وقالت لهـا إن سـيدتها كانت واحدة من أعظم الطبقات العليا، وتلك المرأة البسيطة التى تسافر مثل بـاقى الشعب فى مركبة لن تصل بلا ريب إلى مرتبتها.

ذلك الحوار العنيف بين عامة الشعب وطبقة من الناس قد حدث عنـد بـاب المركبة، عندما جاء شخص وقور ليدخل الفندق، وعندما رأى جرافيـراس بـادر بمخاطبتها فى الحال قائلاً: " كيف حالك يا صغيرتى العزيـزة؟ " وأجابـت علـى الفور: "آه بابا، إننى سعيدة لأنك لحقت بى ". أجاب: " وأنا أيضا ".

قال: " توجد مركبة فى المتناول، وبها مكان لك، ولن تركبى ثانية فى هـذه المركبة إلا إذا كنت ترغبين فى ذلك".

قالت: " كيف تتخيل أننى أرغب فى ذلك". وهكذا قالت للسيدة سيلبسلوب أن تركب مع رفيقها إن أرادت، ثم أخذت يد أبيها الذى قد نزل توًّا من المركبـة ثـم سارا معًا إلى أحد الغرف.

فى نفس اللحظة سأل أدمس سائق المركبة هامسًا فى أذنيه، إن كان يعـرف هذا الرجل؟ أجاب سائق المركبة " إنه الآن رجل ذو مكانة اجتماعية، لديـه خيـل ويحتفظ برجولته، فالأيام تتبدل يا سيدى، فأنا أتذكر عندما كان لا يختلف عنى ".

قال أدمس: "آه، آه!!" أجاب: "إن والدى كان يسوق مركبة صاحب أمـلاك، بينما كان ذلك الرجل يركب أحد جياد المركبة، لكنه الآن مشرف على خدمته، وهو ذو مكانة اجتماعية".

طقطق أدمس أصابعه وقال إنه اعتقد أنها امرأة لعوب.

أسرع أدمس لإخبار السيدة سيلبسلوب بتلك الأخبار الرائعة، كما قد تخيلها هو، لكنه وجد أنها استقبلت تلك الأخبار بطريقة مختلفة عن ما توقعه.

تصورت المرأة الحصيفة التى كرهت غضب جرافيراس أنها ابنة رجل ذى ثروة صغيرة، وهى الآن تسمع أنها ابنة كبير خدم عائلة كبيرة من جيرانهم، فبدأت تخاف على مصلحتها مع السيدة. وتمنت لو كان هذا النزاع لم يصل لتلك الدرجة، وبدأت في التفكير فى طريقة للتصالح مع السيدة قبل أن تترك الفندق. ولحسن الحظ جاء إلى ذهنها المنظر الذى حدث فى لندن؛ وهو من النادر أن ينساه القارئ، حيث أراحها وجعلها تثق بنفسها، وهى لم تعد تخشى أى عدو مع سيدتها.

انضبط كل شيء الآن، ودخلت المجموعة المركبة، وكانت على وشك الرحيل عندما ذكرت سيدة أنها تركت مروحتها وقفازاتها وعلبة النشوق وزجاجة أملاح الشم، وتسبب كل ذلك فى بعض من التعطيل وتذمر سائق المركبة.

بمجرد أن تركت المركبة الفندق، بدأت السيدات التعليق على شخصية جرافيراس، فقالت واحدة منهن إنها شكت فى أنها مخلوقة وضيعة منذ بداية الرحلة. وقالت سيدة أخرى مؤكدة إنها ليس لديها ملامح السيدة ذات الطبقة الاجتماعية. وقالت سيدة ثالثة إنها لم تكن أفضل مما هى عليه. ثم استدارت إلى السيدة التى كانت تروى القصة فى المركبة قائلة: " هل سمعتِ من قبل أى شيء مفرط فى الاحتشام مثل تعليقاتها؟ حسنًا حررينى من مراقبة هذا التصنع فى الاحتشام".

أضافت الرابعة: " آه يا سيدتى كل هؤلاء المخلوقات نقدهن قاسٍ، لكن من جانبى فإننى أتعجب أين نشأت تلك البائسة، فيجب أن أعترف حقا أننى نادرًا ما أتحدث مع هذا النوع الوضيع من الناس، لأنه ربما يكون غريبًا علىَّ، لكن رفض الرغبة عمومًا فى كل المجموعة فيه شيء ما مذهل، فأنا من النادر أن أصدقه إن لم تشهد عليه أذنى".

قالت سيلبسلوب: " نعم، ويا لها من فتاة وسيمة، تلك المرأة يجب أن لا تُكره على شيء، فأنا أعتقد أنها تتطبع بالطبع التركى أكثر من الطبع المسيحى، فأنا متأكدة أنه لو كان لديها دم المرأة المسيحية فإن نظرة إلى تلك الفتاة الصغيرة يجب أن يحفها الحنان. وفى الحقيقة، هناك بعض البواعث القديمة التعيسة والبائسة التى تُثير اضطراب الإنسان، وعلىَّ ألا أتعجب إن كانت قد رفضت تلك الشىء. إنى فى مثل جمالها، لكنى لم أكن لأرغب فى صحبة هؤلاء الأشخاص الوضيعين، لذلك يجب أن ترفع رأسك عاليًا يا جوزيف فأنت تختلف عنهم، فأنا أصر على أنك شخص ملتزم".

تلك المحادثة جعلت جوزيف والسيدات أيضا يشعرون بالقلق، فهم يُدركون شخصية السيدة سيلبسلوب، وبدأوا يخافون من عواقب ما يحدث، فطلبت واحدة منهن من السيدة أن تكمل القصة.

قالت السيدة سيلبسلوب: " آه، سيدتى أرجوكِ أن تكملى القصة التى بدأتها فى الصباح" واستجابت على الفور تلك السيدة ذات الأخلاق العالية.

نهاية التعيسة الناقضة لعهدها.

عندما كسرت لينورا الحدود التى تفرضها اللياقة والحياء على جنسها، سريعًا ما تساهلت فى إطلاق عنان عاطفتها. كانت زياراتها إلى بيلارمين دائمة، وهى أيضا أطول من زيارات طبيبه له. بالاختصار، أصبحت قطعًا ممرضته، وكانت تعطيه أدويته، وعلى الرغم من ذلك كانت نصيحة عمتها الحصيفة على النقيض من ذلك، حيث إنها كانت تسكن تقريبًا فى غرفة حبيبها المصاب.

بدأت سيدات المدينة يفكرن فى تصرفها، وأصبح الموضوع الرئيسى لمحادثتهن أثناء تناول الشاى. واستهجنها بقسوة شديدة معظمُ السيدات خاصةً لينداميرا، وهى سيدة متحفظة وتتمسك بالرسميات، بالإضافة إلى أنها تذهب للكنيسة ثلاث مرات يوميًّا، وقد مكنها ذلك من التغلب على عدة هجمات حقودة على سمعتها الخاصة، فتلك هى فضيلة لينداميرا التى تسببت فى حقد الآخرين، ومع ذلك كان تصرفها حادًّا، وكانت تستفسر بإلحاح عن حياة الآخرين، ولم تكن قادرة على الهروب من أنها علامة لبعض إشاراتها التى لم تُصبها بأى أذى، وكانت تتبارك برجال دين، وكان الرجل الرئيسى فى صحبتها رجل دين، وباثنين أو ثلاثة منهم تشوهت سمعتها بطريقة همجية وغير عادلة.

قالت سيلبسلوب: " ليست غير عادلة تمامًا، فرجال الدين رجال مثل الآخرين من الناس".

الرقة العالية لعفة لينداميرا تألمت بقسوة من الحريات التى سمحت بها لينورا لنفسها، قالت إن هذا تحد لجنسها، حيث إنها لا تتخيل أن أيا من جنسها يمكن أن تسمح بأن يراها أحد فى صحبتها أو تتحدث معها. ومن جانبها فهى دائمًا ترفض أن ترقص فى تجمع معها خوفًا من أن تلوث سمعتها.

لكن أرجع إلى قصتى، بمجرد أن شُفى بيلارمين وذلك بعد شهر من إصابته، أعلن طبقًا لاتفاقه مع والد لينورا عرضه للزواج، وتسوية كل الأمور التى تمس ذلك الاتفاق. وقبل وصوله بقليل، تلقى الرجل العجوز تفاصيل العلاقة فى الخطاب التالى، الذى أستطيع إعادته حرفيًا، وقد قالوا إنه لم تكتبه لينورا ولا عمتها، على الرغم من أنه كان مكتوبًا بخط نسائى، وهو يتضمن تلك الكلمات:

"سيدى ، أنا آسفة لإعلامك أن ابنتك لينورا قد تصرفت بأقصى درجات الدناءة وأيضا التخلف مع الشاب الذى ارتبطت به، وهو (آسفة على تلك الكلمة) ما قد نبذته من أجل شخص آخر ذى ثروة أقل، على الرغم من أنه شخصية أعلى مقامًا. يمكنك اتخاذ الإجراءات التى تراها مناسبة لحل تلك المشكلة، وقد أديت ما اعتقدت أنه واجبى. على الرغم من أنك لا تعرفنى فإنى أكن احترامًا شديدًا لعائلتك".

لم يزعج الرجل العجوز نفسه بالرد على تلك الرسالة الرسمية، ولم يهتم بها منذ قراءتها إلى أن رأى بيلارمين. كان يقول الحقيقة، أحد هؤلاء الآباء الذين ينظرون إلى أولادهم بارتياب للعواقب السيئة لبهجة شبابهم، فلم يكن مبتهجًا بملازمتهم، لذلك لم يكن لديه أى مانع من أن يخلص نفسه من هذا العبء.

لكن يُعتبر أمام العالم أبًا طيبًا بدرجة كبيرة، لأنه ليس فقط جشعًا للغاية، لسرقة ونهب كل البشرية بكل ما أوتى من قوة، لكنه كان يحرم نفسه وسائل الراحة ومعظم ضروريات الحياة، وهى ما ينسبها جيرانه إلى الرغبة فى زيادة الثروات الشاسعة لأولاده، لكن فى الحقيقة لم يكن الأمر كذلك، فقد جمع المال حبًّا فى المال،

وكان يعتبر أولاده منافسين له، فقد كانوا يستمتعون بمحبوبته (ثروته) عندما لم يكن قادرًا على امتلاكها، حيث فتنته للغاية حتى جرفته بعاطفتها، ولم يكن لدى أولاده أى ضمان آخر لكى يكونوا ورثته، إلا ما سيحدده لهم القانون دون وصية، ولم يكن يحمل أية عاطفة كافية لأى شخص على قيد الحياة حتى يرهق نفسه بكتابة وصية له.

أتى بيلارمين إلى هذا الرجل بخصوص المهمة التى قد ذكرتها. إن شخصيته، وعربته، وعائلته، وعزبته بدت للأب أنها أشياء مناسبة لابنته، لذلك كان مستعدًا لقبول عرضه للزواج، لكن عندما تصور أن الاتفاق الرئيسى انتهى، وبدأ يتحدث فى تفاصيل الثروة، غير الرجل العجوز ملامحه فى الحال، قائلاً إنه قرر أن لا يُزوج ابنته على زواج سميث فيلد، أو هو ما يعنى زواج تبادل المنفعة، فمن أحبها وسيأخذها عندما يموت سيجد نصيبها فى ثروته فى خزائنه، لكنه رأى تلك الأمثلة من عدم الطاعة قد حدثت بسبب الكرم الزائد من الوالدين، لذلك أخذ على نفسه عهدًا أنه لن يساهم ولو بشلن طوال حياته.

وقد مدح المقولة التى قالها سولومون: " الاستغناء عن العقاب يفسد الأولاد". لكنه أضاف أنه يجب أن يؤكد أيضا أن ادخار الأموال ينقذ الأولاد، ثم بعد ذلك بدأ حديثًا عن إسراف الشباب فى العمر هذا العصر الحديث، ثم بدأ حديثًا عن الخيول وفى النهاية مدح خيول بيلارمين.

إن هذا الرجل الوسيم الذى كان من الممكن فى أى وقت آخر أن يكون سعيدًا بدرجة كافية لكى يسهب فى هذا الموضوع، إلا أنه الآن مهتم للغاية باستئناف تفاصيل الحديث عن تفاصيل الثروة، قال إن تلك الفتاة الشابة لها قيمة عالية عنده، وإنه لن يستطيع أن يفيها قدرها، لكن حتى حبه لها لا يمكن أن يمنعه من الاهتمام بأمور الحياة الضرورية، حيث سيكون مشهدًا غير مقبول له عندما يراها، وذلك عندما يصبح له الشرف أن يكون زوجها وهى تركب مركبة يجرها أقل من ستة جياد.

أجاب الرجل العجوز: " سيكونون أربعة، سيكونون أربعة". ثم بعد ذلك غير الحديث عن الخيول بالحديث عن الإسراف، ثم غير الحديث عن الإسراف وتحدث عن الخيول، إلى أن لف ودار وتحدث عن العربة ثانية، وما إن بـدأ الحـديث إلا وأرجعه بيلارمين إلى الموضوع لكن كان دون نتيجة، فقد هرب من الموضوع فى دقيقة. وفى النهاية أعلن الحبيب أن الوضـع الحـالى لعلاقاتـه الغراميـة يعتبـر مستحيلاً، على الرغم من أنه يحب لينورا أكثر من العـالم أجمـع tout le monde ولا يمكن أن يتزوجها دون أية ثروة".

وعلى ذلك أجاب الوالد، أنه أسف لأن ابنته ستفقد زوجًا ذا قيمة عالية، لأنه حتى لو كانت لديه الرغبة، ففى الوقت الحاضر ليس فى سلطته تقديم شلن واحـد، لأنه خسر خسائر كبيرة وتحمل نفقات كبيرة على المشاريع، والتى على الرغم من توقعاته الهائلة لها لم يأخذ منها شيئًا حتى الآن، حيث إنه لا يعرف ما سيحدث فيما بعد مثل ميلاد ابن أو مثل هذه الأحداث لكنه لن يعد، ولن يقيد بشروط عقد لأنه لن ينقض عهده من أجل كل بنات العالم.

بالاختصار، أيتها السيدات لكى لا أطيل ترقبكم، بعد أن حـاول بيلارمـين تجربة كل وسائل المناقشة والإقناع التى تمكن منها، وجد أن كل هذا ليس له تأثير، فى النهاية اضطر إلى المغادرة، لكن ليس للرجوع إلى لينورا، لكنه اتجه مباشـرة إلى مكان إقامته الخاص، وبعد أن مكث أيامًا قليلة، رجع إلى باريس، إلى البهجـة الفرنسية الشديدة وشرف الشعب الإنجليزى.

لكن بمجرد أن وصل منزله، أرسل فى الحال مرسالاً بالرسالة الأنيقة التالية إلى لينورا:

"الفاتنة الخلابة، إننى آسف أن أتشرف بإخبارك أننى لست الشخص الـسعيد heureux المقدر أن يكون (بين ذراعيك الرائعة) لكِ. إن والدك أخبرنى ذلك بذوق politesse لا يمكن رؤيته فى هذا المكان. ربما يمكنك تخمين أسلوبه فى الرفض.

يا إلهى إنكِ حقا ستصدقينني، أنا نفسى غير قادر على تسليم تلك الرسالة الحزينة، حيث إننى أنوى تجربة الجو الفرنسى لمعالجة عواقبها A j amais! cour! Audiable، لو ألزمك والدك بزواجك أتمنى أن نراكِ فى باريس، عندما تأتى الرياح ومن ثم ستكون أدفأ رياح فى العالم، لأنها ستكون محملة بتنهداتى.

الوداع يا أميرتى، يا له من حب".

" Adieu, ma princesse! Ah l'amour. "

بيلارمين

لن أحاول أيتها السيدات أن أصف حالة لينورا عندما تلقت تلك الخطابات. إنها صورة مرعبة، لن أكون سعيدة إذا رسمتها ولن تكونوا سعداء إذا رأيتموها، وفى الحال تركت المكان؛ حيث كانت موضوع السخرية والحديث، وأوت إلى المنزل الذى أشرت إليه عندما بدأت القصة، حيث عاشت حياة كئيبة وهى تستحق ذلك، ربما نشفق على حظها السيئ بدلاً من استهجانها على تصرف كانت نصائح عمتها السبب فيه، وهو تصرف تتعرض له الفتيات، وهو الذى يستحق اللوم فى تعليم جنسنا.

قالت سيدة فى المركبة: " لو أشفقت عليها، فسوف تكون شفقتى على فقدانها هوراتيو، لأننى لا أستطيع إدراك أى سوء حظ فى فقدانها زوجًا مثل بيلارمين".

قالت سيلبسلوب: " بالفعل فإننى أُقر أن هذا الرجل كان ذا قلب مزيف، لكن من الصعب أن يكون لها اثنان من المحبين ثم لا تحصل على زوجٍ على الإطلاق. لكن أرجوك يا سيدتى ماذا حدث لهوراتيو؟"

قالت السيدة: " إنه لا يزال غير متزوج، وكرس نفسه بشدة لشغله، وقد سمعت أنه ارتقى بثروة جديرة بالاعتبار. وما كان لافتًا أنه لم يسمع اسم لينورا إلا وتنهد ولم ينطق لفظًا عنها ولم يتهمها بتصرفها السيئ تجاهه".

الفصل السابع

فصلٌ قصيرٌ جدا

حيث كان للقس أدمس فيه

دور كبير.

بمجرد أن أنهت السيدة قصتها تلقت شكرًا من الصحبة، ويُخــرج جوزيــف الآن رأسه من المركبة وصاح قائلاً: " لن تصدقونى، يمشى السيد أدمس هناك دون حصان".

قالت سيلبسلوب: " يا إلهى، بالفعل فقد نسيناه فى النُّزل ولم يركب معنا حقا، إنه القس، فقد أعطى مثالاً آخر لغياب عقله، حيث كــان مــسرورًا عنــدما وجــد جوزيف داخل المركبة، وهو لم يفكر فى البهيمة فى الإسطبل، ووجد ساقيه رشيقة كما أراد، لذلك بدأ رحلته يلوح بعصا مصنوعة من خشب التفــاح، وقــد واصــل رحلته قبل المركبة يسرع الخُطى أحيانًا ويبطئ أحيانًا حتى أصبح لا يبعد عنها إلا ربع ميل".

طلبت السيدة سيلبسلوب من سائق المركبة أن يلحق به، وحاول ولكــن بــلا جدوى، حيث كلما أسرع فى قيادته كلما أسرع القس فى مشيته، وغالبًا يصيح قائلاً "آه، الحق بى إن استطعت". حتى حلف سائق المركبة فى النهاية أنه لن يحــاول أن يلحق به كما يلحق كلب الصيد وصاح قائلاً لخيله: " رفقًــا يــا أولاد ". وأطاعــت البهائم اللطيفة ذلك على الفور.

سنكون أكثر احترامًا لقارئنا أكثر مما هو مع السيدة سيلبسلوب، تاركين المركبة والمجموعة التى تتابع رحلتها، وسوف نواصل مع قارئنا تتبع القس أدمس الذى سلك طريقه دون أن ينظر وراءه، إلى أن سبق المركبة بثلاثة أميال، إلى أن أتى إلى مكان واصل فيه أقصى مسيره إلى اليمين، وبشق النفس كان من الممكن لمخلوق بشرى أن يفقد طريقه.

وقد واصل تلك المسيرة فكانت لديه قدرة رائعة على تلك الأنواع من الإمكانيات الضئيلة، مشى ثلاثة أميال على سطحٍ مستوٍ إلى أن وصل قمة التل وعندما نظر ما وراءه وأدرك أن المركبة ليس لها أثر، جلس على الأرض وأخرج كتاب أخيلس Aeschylus وقرر الانتظار هنا لوصولها.

وما إن جلس هنا حتى أفزعه صوت بندقية، فتفحص المكان؛ ورأى رجلاً يبعد عنه مائة خطوة حاملاً معه الحَجَل الذى قد أطلق عليه النار توًّا.

نهض أدمس من مكانه وكان مظهره مضحكًا بدرجة كبيرة، فإن رداءه قد سقط ثانيةً تحت معطفه، ووصل إلى ركبتيه، حيث نزلت التنورة تقريبًا إلى فخذيه، ولكن ضحك الرجل تراجع أمام دهشته لرؤية هذا الشخص فى ذلك المكان.

تقدم أدمس إلى الرجل قائلاً إنه تمنى أن يكون تمتع بممارسة رياضته"، أجاب الآخر: "قليلاً". قال أدمس: "إننى أرى ذلك، لقد أصبت حجلاً واحدًا". ولم يبد الرجل الأبيض أية إجابة لكنه واصل تعبئة سلاحه.

بينما كان يُعد البندقية، ظل أدمس صامتًا، وفى النهاية كسر هذا الصمت بملاحظة أنه مساء مبهج. وكان الرجل الذى كون من النظرة الأولى رأيًا بغيضًا جدا عن القس؛ قد لاحظ أن فى يده كتابًا يبدو أن به معلومات عن رداء الكهنة، وبدأ محادثةً بسيطة محاولاً تغيير رأيه عن مظهر القس فقال: " سيدى، أعتقد أنك لست من هذه المنطقة".

أخبره أدمس على الفور، لا، إنه مسافر، ودعاه جمال المكان والمساء أن يستريح قليلاً ويسلى نفسه بالقراءة. قال الرجل الرياضي: " يمكنني أنا أيضا الاستراحة، فأنا بالخارج طوال الظهر، ولم أر طائرًا إلى أن أتيت هنا".

قال أدمس: " ربما لم يكن الصيد وافرًا فى هذا الجوار".

قال الرجل: "لا ياسيدى، الجنود الذين يعسكرون فى المنطقة المجاورة قتلوه جميعًا".

قال أدمس: " إنه شيء محتمل جدا، لأن التصويب هو مهنتهم".

أجاب الآخر: " آه، التصويب فى الصيد، لكنني لا أرى أنهم مستعدون للتصويب على أعدائنا، فما حدث فى منطقة كارثجينا، لا يعجبنى، ولو كنت هناك أعتقد أنني كان علىَّ أن أخمن أشياء أخرى؛ فما قيمة حياة الرجل عندما تحتاجه البلد؟ الرجل الذى لا يضحى بحياته من أجل بلده يستحق الشنق". تحدث بتلك الكلمات بإيماءة عنيفة، بصوتٍ عالٍ جدا ولهجة قوية جدا، وملامح مجموعة للغاية، حيث إنه أخاف قبطانًا من جماعه مدربين على حمل السلاح يرأس مجموعته، لكن لم يكن السيد أدمس خاضعًا تمامًا للخوف، وقال له إنه معجب بفضيلته لكنه كرِه حلِفَه، وتوسل له أن لا يُغريه بتلك العادة السيئة للغاية التى بدونها يمكنه أن يحارب بجسارة مثل أخيلس.

فى الحقيقة، أفتنه هذا الحديث، وقال للرجل إنه مستعد للذهاب لمسافة بعيدة لمقابلة رجل يفكر بتلك الطريقة النبيلة، لو أسعده الجلوس سيكون سعيدًا للغاية للحديث معه، على الرغم من أنه رجل دين سيكون مستعدًّا أن يقدم حياته من أجل بلاده لو طُلب منه. جلس الرجل وأدمس، ثم بدأ الأخير، كما فى الفصل التالى، محادثة ليست من أغرب المحادثات فى هذا الباب فقط، وإنما فى أى باب آخر.

الفصل الثامن

آراء جديرة بالاهتمام من السيد إبراهام أدمس،
يظهر فيها الرجل الآخر في ضوء سياسي.

قال وهو يأخذ بيد الرجل: أؤكد لك يا سيدى، أننى سعيد بشدة لمقابلة رجل مثلك، فعلى الرغم من أنى قس فقير، سأتجرأ بالقول بأننى رجل أمين ولن أفعل شيئًا حتى أصبح مطرانًا، فعلى الرغم من أنه لم تصادفنى فى طريقى فرصة لعرض تضحية نبيلة، فأنا مررت بظروف فيها معاناة من أجل ضميرى، وأنا أشكر الله على تلك الفرص، فقد كانت لى علاقات ببعض الشخصيات البارزة فى العالم، خاصة ابن أخى وهو صاحب متجر، وعضو مجلس تشريعى لنقابة.

لقد كان فتى بارعًا، وكان تحت رعايتى عندما كان صبيًّا، واعتقد أنه يفعل ما آمره به إلى يوم مماته. فى الحقيقة، يبدو أنه غرور بالغ فىَّ لأتظاهر بأننى رجل بتلك المكانة، كأن تكون لى مصلحة كبيرة عند عضو مجلس تشريعى، لكن ظن الآخرون ذلك أيضا، فقد أظهره القس بوضوح ، حيث كان راعى أبرشيته فيما مضى يُرسل لى عند اقتراب الانتخاب ويخبرنى لو توقعت أن أستمر فى منصب راعى أبرشيته، حيث يجب علىَّ أن أُحضر ابن أخى ليُصوت لأحد الزعماء المؤيدين لسياسة البلاط، وهو رجل لم أسمع أنباء عنه حتى الآن. وأخبرت القس أننى ليس لدى سلطة على تصويت ابن أخى (غفر الله لى تلك المراوغة) فقد افترضت أنه سيعطى صوته تبعًا لضميره، فأنا سأحاول بكل الطرق أن أؤثر عليه بأن يدلى بصوته وفقًا لطلبه. قال لى إن المراوغة لا جدوى منها، حيث إنه علِم أننى قد تحدثت بالفعل إليه من أجل تأييد الفارس فيكل، جَارى، وفى الحقيقة فى

ذلك الوقت كانت الكنيسة فى خطر، فرغم ترقب كل الرجال البارعين لم يستطيعوا التنبؤ بما سيحدث لنا جميعًا. ثم أجبت بجرأة إن كان قد اعتقد أننى أعطيت وعـدًا، فأهاننى على إبداء أى نقض لتلك الوعود. وعزمت أن لا أكون مسهبًا، وكذلك فعل ابن أخى لمصلحة الفارس الذى تم اختياره فى المقام الأول بطرقٍ له، ولذلك فقدت أنا منصبى راعى الأبرشية.

حسنًا، سيدى لكن هل تعتقد أن الفارس قد ذكر من قبـل كلمـة الكنيـسة؟ وخلال عامين أصبح له مكان ومنذ ذلك عاش فى لندن، حيث قيل لى (لكن يغفـر الله لى أن صدقت ذلك) أنه لا يذهب كثيرًا للكنيسة. وبقيت، يا سيدى وقتًـا كبيـرًا دون أى منصب فى الأبرشية، وعشت شهرًا كاملاً على موعظة جنائزية واحـدة، والتى قد ألقيتها مع نفور رجال الدين لكن كان ذلك عرضيًا.

فى النهاية، عندما حصل السيد فيكل على منصبه، ووقف معه أحد الزعماء المؤيدين للبلاط ثانيةً، ويمكنه تأدية منفعة له هو وليس السيد فيكـل نفـسه. فقـد أخبرنى السيد فيكل بنفسه فيما مضى أن الكولينل المؤيد للبلاط كان عدوًّا لكل مـن الكنيسة والدولة، حث ابن أخى على مساندته، والكولينل نفسه عرض علىَّ أن أكون قسيسًا ملحقًا بالقصر، وأن أنضم إلى حزبه، وقد رفضت من أجل الـسيد أوليفـر هارتى، الذى قال لنا إنه سيضحى بكل شيء من أجل بلاده، وأعتقد أنـه اسـتثنى حبه للصيد الذى التزم به لمدة خمسة أعوام معًا، وذهب مـرتين للبرلمـان، وفـى إحدى المرتين أُخبرت أنه لم يُر من قبل فى المجلس التشريعى.

على الرغم من أنه رجل كفؤ، وأحسن أصدقائى، فبما أنه مطران فقد جعلنى أستبدل منصبى فى الأبرشية وأعطانى ثمانية جنيهات من جيبه الخاص لكى أشترى رداء للكهنة وعباءة وأُجهز منزلى. ونال اهتمامنا طوال حياته، وهـو لـم يعـش سنوات كثيرة. وبعد موته، نُفذت لى بعض الطلبات، لأن العالم بأكمله عَلِم أهميتـى بالنسبة لابن أخى البارع، وهو الآن رجل رائد فى إحدى الشركات، واشترى السيد توماس بوبى الضيعة التى رشح فيها السيد أوليفر نفسه. وقد كان شابًّا قد أتى تـوًّا

من رحلاته، وقد أسعدنى سماع مناقشته أمورًا تخصنى على الرغم من أننى لا أعرف شيئًا عنها. لو كنت أملك ألف صوت لصوت لهم جميعًا. وجعلت ابن أخى ينشغل بمصلحته، وقد تم انتخابه، وأصبح عضوًا ممتازًا فى البرلمان. وقالوا لى إنه يلقى خطابات تستغرق ساعة، وقيل لى إنه رجل ممتاز، لكنه لم يقنع البرلمان برأيه.

لقد وعدنى هذا الرجل المسكين بمصدر للرزق، وأعتقد أنه كان من حقى، لكن حدثت حادثة وهى أن سيدتى قد وعدت بذلك من قبل، ولم يكن معروفًا له.

وفى الحقيقة لم أسمع عن هذا إلا فيما بعد، لأن ابن أخى الذى توفى قبل موت صاحب المنصب بشهر، كان دائمًا يقول لى إنه يمكنه ضمانه. منذ ذلك الوقت كان للسيد توماس الرجل المسكين أعمال كثيرة ولم يكن لديه وقت لرؤيتى. أعتقد أنه كان إلى حد ما خطأ سيدتى أيضا التى لم تعتقد أن ملابسى ستكون ملائمة بدرجة كافية للطبقة الأرستقراطية على مائدتها. على الرغم من ذلك فيجب أن أكون عادلاً فى القول بأنه لم يكن ناكرًا للجميل، وكنت دائمًا أجد مطبخه ومئونته مفتوحَيْن لى، فى أوقاتٍ عديدة بعد تأدية الشعائر يوم الأحد، حيث إننى أعظ فى أربع كنائس ، جندت أرواحى بكأس من شراب البيرة. منذ وفاة ابن أخى أصبحت الشركة فى أياد أخرى، ولم أعد بالأهمية التى كنت بها سابقًا، ولم يعد لدى أى مواهب لعرضها فى خدمة بلدتى؛ حيث لا يعطى الشخص شيئًا إلا إذا كان لديه ما يؤخذ منه، وعلى الرغم من أننى فى كل المواسم الملائمة – مثل اقتراب موسم الانتخاب – قد قمت بهجوم أو هجومين فى مواعظى، حيث أسعدنى سماع موافقة السيد توماس، وجارى الآخر الأمين، وقد وعدونى جميعًا فى تلك الأعوام الخمسة بتدبير سياسة الكاهن لابن لى، وعمره الآن يقرب من الثلاثين، وكانت قدرته على التعليم لا نهاية لها، وأشكر الله على تلك الحياة الرائعة جدا، ولأنه لم يدخل جامعة رفض المطران تعيينه.

ولا يمكن اتخاذ الكثير من الحذر فى الاعتراف بأى منصب مقـدس، علـى الرغم من أننى آمل أنه لن يتصرف بخزى تجاه أى أمر، لكنه سيخدم ربه وبـلاده بأقصى قوته، كما حاولت أنا فعل ذلك قبله، وسوف يضحى بحياته إن تطلب الأمر ذلك.

وأنا متأكد أننى علمته تلك المبادئ، لذلك فقد قمت بواجبى وليس لدى شـىء أُجيب به على ذلك الموضوع، لكننى لست قلقًا منه، لأنه ولدٌ بارع، ولو ألقت بـه العناية الإلهية فى طريقه ليكون ذا منزلة فى ضوء العامة كما كان والده، فأجيـب عنه أنه سوف يستخدم مواهبه بأمانة كما فعلت أنا.

الفصل التاسع

يسهب الرجل المحترم فى الحديث عن الشجاعة والأعمال البطولية إلى أن تصنع حادثة مشئومة نهاية لهذا الحديث.

مدح الرجل السيد أدمس بشدة على قراراته السليمة، وقال له إنــه يأمــل أن ابنه يحذو حذوه، مضيفًا أنه إن لم يمت من أجل بلاده، فلن يستحق أن يعيش بهــا". إننى سأطلق الرصاص على الرجل الذى لا يُضحى بحياته من أجل بلاده".

قال الرجل: " سيدى، لقد حرمت ابن أخى من الإرث وهو فى الجيش، لأنــه لم يستبدل رتبته العسكرية ويذهب إلى جزر الهند الغربية. أعتقد أن هذا الــشخص الوضيع جبان على الرغم من أنه حقا يتظاهر بأنه عاشق. أتمنـــى أن أشــنق كــل هؤلاء الأشخاص. سيدى علىّ أن أشنق كل هؤلاء الأشخاص".

أجاب أدمس إن هذا سيكون قاسيًا للغاية، فالناس لم يصنعوا أنفــسهم، ولــو كان للخوف تأثير عظيم على العقل، لأشفقنا على الإنسان بدلاً مــن مَقتِــه بــشدة، فسوف يعلمه الوقت والمنطق أن يخفف من خوفه.

ثم قال إن الإنسان ممكن أن يكون جبانًا تارة، وشجاعًا تارةً أخــرى، قــال: "إن هومر الذى نسخ وفهم الطبيعة، قد علمنا ذلك الدرس، فنجد أن باريس يحــارب هيكتور وقد ولى الأدبار. فلدينا مثال قوى على ذلك فى تاريخ العــصور الــسابقة، فمنذ مرور سبعمائة وخمس سنوات على روما عندما انتصر بومبى العظــيم فــى العديد من المعارك ومُنح العديد من الانتصارات، ومن أجله أعد العديد من المؤلفين

الشجعان خاصةً سيسيزو وباتيركيليوس هذا المدح، ترك بومبى معركـة فارسـاليا قبل أن يفقدها، وتراجع إلى خيمته، حيث جلس مثل الوغد الجبان فى نوبة يـأس، وتخلى عن النصر الذى كان سيُحدد إمبراطورية العالم للقيصر.

أنا لم أقرأ كثيرًا فى تاريخ العصور الحديثة، أى السنوات الألف الماضـية، لكن هؤلاء الذين أقرأ لهم يستطيعون دون شك إعطاءك أمثلة مشابهة. وأنهى حديثه قائلاً: " إن كان قد اتخذ أية قرارات سريعة ضد ابن أخيه، فإنـه يأمـل أن يفكـر بطريقة أفضل ويسحب تلك القرارات".

أجاب الرجل بدفء شديد، وتحدث كثيرًا عن الشجاعة وعن بلاده، إلـى أن أدرك أن الوقت تأخر فسأل أدمس: ما المكان الذى ينوى الذهاب إليه لتمضية هـذه الليلة؟ فأخبره أنه ينتظر المركبة فى هذا المكان. قال الرجل: " المركبة!!، سـيدى إنهم رحلوا جميعًا. لابد أنك رأيت آخر مركبة أمامنا بحوالى ثلاثة أميال".

صاح أدمس: " أنا أحتج إذن، علىَّ أن أسرع وألحق بهم".

قال له الرجل: " إنه من الصعب اللحاق بهم، وإن لم يكن يعـرف طريقـه سيكون فى خطر، وسوف يضل طريقه وسط الـتلال، لأن الظـلام سـيحل الآن، ويمكن أن يسير بلا هدى طوال الليل، وربما يجد نفسه فى الصباح أبعد من نهايـة رحلته عما هو الآن".

لقد نصحه أن يَصحبه إلى منزله الذى يبعد عن طريقه بقليل، مؤكدًا له أنـه سيجد أحد رفقاء البلدة فى أبرشيته الذى يمكن أن يأخذه إلى المدينـة مقابـل سـتة بنسات حيث كان ذاهبًا.

قَبِل أدمس عرضه، وفى رحلتهما بدأ الرجل حديثه من جديد عن الـشجاعة وعار عدم استعدادنا فى كل الأوقات للتضحية بحياتنا من أجل دولتنا.

هَلَّ عليهما الليل فى نفس الوقت الذى كانا قد وصلا فيه بـالقرب مـن بعـض الأشجار، عندما سمعا فجأة أعنف صرخات يمكن تخيل أن تصدر من صوت نسائى.

حاول أدمس خطف البندقية من يد رفيقه؛ فقال له: "ما الذى ستفعله؟"

قال أدمس: " أفعله!!، إننى سأسارع بمساعدة تلك المخلوقة المسكينة التى يقتلها بعض الأوغاد".

قال الرجل وهو يرتعد: " أتمنى ألا تكون مجنونًا، هل فكرت أن تلك البندقية مُعدة للتنشين فقط، وأن اللصوص من المحتمل أن يكونوا مجهزين بمسدسات بها طلقات؟ إنها ليست مشكلتنا، دعنا نرحل بأسرع مما يمكن؛ وإلا يمكن أن نقع نحن فى أيديهم".

تزايدت الصرخات الآن، لم يستجب أدمس لكنه طقطق أصابعه، ولوح عصاه المصنوعة من خشب التفاح، وتوجه مباشرة للمكان الذى صدر منه الصوت، ورجل الشجاعة ذهب بسرعة تجاه منزله ويستهجن نقصها فى الآخرين. ونرجع إلى أدمس الطيب وهو ذاهب إلى المكان الذى تصدر فيه الضوضاء حيث وجد امرأة تصارع رجلاً قد ألقى بها على الأرض وقد تغلب عليها تقريبًا.

لم تكن قُدرات أدمس العظيمة ضرورية لتحديد حُكم صحيح لتلك المشكلة من النظرة الأولى، ولم ينتظر توسلات تلك البائسة المسكينة لمساعدتها، لكنه رفع عصاه وفى الحال ضرب المعتدى على أعلى رأسه، وطبقًا لرأى بعض السالفين فإن عقول بعض الأشخاص لا تتأثر إلا بما يعنيهم، ألم تتخذ الطبيعة (حيث لاحظ مثل الرجال الحكماء، أنها تُجهز المخلوقات بما هو ملائم لهم) عناية مقتصدة (كما تفعل مع من تنوى مقابلتهم) لكى تجعل هذا الجزء من الرأس سميكًا ثلاث مرات مثل هؤلاء الرجال العاديين، الذين قد صُمموا ليمارسوا قدراتهم التى يطلق عليها بالعامية العقلانية، ولأن العقول ضرورية لهم، فقد أُلزمت بترك مكان لهم فى فجوة الجمجمة، حيث لم يكن لتلك المكونات أية فائدة للأشخاص الذين يطلق عليهم أبطال، فكانت لها الفرصة أن تزيد من سُمك العظم لكى تجعله أقل عرضة لأى انطباع أو عرضة للتصدع أو الكسر، وحقا هؤلاء المقدر لهم قيادة الجيوش والإمبراطوريات، فقد جعل لهم هذا الجزء أحيانًا صلبًا كلية.

مثل ديك المصارعة عندما يشتبك في لعبة العاشق مع دجاجة، لو صادف له أن لمح ديكًا آخر قريبًا منه فعلى الفور يهجر أُنثاه ويعرض نفسه لخصمه، فكذلك الذى يغتصب عندما يرى العصا يقفز على الفور من على المرأة ويسرع لمهاجمة الرجل. ليس لديه أسلحة إلا ما أعطته الطبيعة.

ضم قبضته وقذف بها على الفور فى هذا الجزء من صدر أدمس حيث مكان قلبه. تمايل أدمس بشدة من تلك الضربة العنيفة ورمى بعصاه بعيدًا، ومسك هو أيضا بقبضته التى قد ذكرناها من قبل وأفرغها فى صدر خصمه، وهو لم يمسك به بإتقان بيده اليسرى، وفى نفس الوقت انقض برأسه (التى يستخدمها بعض أبطال الطبقة الدنيا مثل آلة الكبش التى يستخدمها القدماء كسلاح للأذى، وسبب آخر لتأمل براعة الطبيعة فى تركيبها من تلك المواد عديمة التأثر) واندفع برأسه فى بطن أدمس، وقلبه على ظهره، ولم يحترم قوانين البطولة التى تمنعه من أى هجوم على عدوه إلا بعد أن يقف على ساقيه ثانيةً، رمى نفسه عليه واستمر راقدًا عليه بيده اليسرى، وبيده اليمنى هاجم جسد أدمس حتى نال منه التعب، وحقا إلى أن أنهى (لنستخدم لغة الشجار) عمله، أو بلغة الشعر: "إلى أن أرسل به إلى عتمة الجحيم" أو باللغة البسيطة: "إلى أن مات".

لكن أدمس، وهو ليس جبانًا، ويمكنه تحمل الهزيمة مثل أى بطل مصارعة فى العالم، ما زال يرقد مترقبًا فرصته، ويرى الآن خصمه يلهث بجهد، وفى الحال بذل أقصى قوته، وبذلك النجاح أسقطه وأصبح متفوقًا عليه، عندما ثبت إحدى ركبتيه فى صدره، صاح قائلاً بصوتٍ مبتهج: " إنه دورى الآن ". وبعد بضع دقائق من الضرب المتواصل، أعطاه ضربة قوية بالضبط تحت ذقنه ولم يعد الرفيق يتحرك، وبدأ أدمس يقلق من أن ضربه بشدة، فلم يكن يريد أن يلوث يديه بالدم حتى لو كان دم مثل هذا الوغد.

نهض أدمس وقال للفتاة بصوتٍ عالٍ: " ابتهجى أيتها الفتاة، فلم تعودى فى خطر من المغتصب، الذى أخاف منه بشدة وهو راقد كالميت تحت قدميَّ، لكن

يغفر الله لى ما فعلته من أجل الدفاع عن البراءة". بدأت البائسة المسكينة فى استرداد قوتها لتقوى على النهوض، وبعد ذلك نهضت وهى ترتعد وجعلها الخوف حتى غير قادرة على الفرار. وعندما سمعت أن بطلها قد ظفر بالنصر أتت إليه، لكن ليس بدون بعض التخوف، وسريعًا ما هَدَأت بتصرفه اللطيف، وكلماته اللطيفة. وقد وقفنا بجوار الجسد الراقد دون حركة على الأرض، والذى قد تمنى أدمس أن يراه يتحرك أكثر من المرأة، توسل إليها بشدة أن تخبره، ما الذى جعلها تأتى فى ذلك الوقت من الليل فى هذا المكان المنعزل. أخبرته أنها كانت متوجهة إلى لندن، وبالصدفة قابلت هذا الشخص الذى قد أنقذها منه، والذى أخبرها أنه أيضا متوجهٌ فى رحلته لنفس المكان، وسوف يواصل صحبتها، فقبلت ولم تشك فى أنه ينوى أى أذى؛ حيث إنه أخبرها أنهما بالقرب من فندق صغير؛ حيث يمكنهما قضاء الليل فيه، وأنه سوف يأخذها إلى طريق أقصر من الطريق الرئيسى، حيث لو أنها شكت فيه (وهى لم تشك فيه، لأنه كان يتحدث معها بطيبة شديدة) وهى وحدها على تلك التلال فى الظلام فليست هناك مقاصد إنسانية لتتجنبه، لذلك وضعت كامل ثقتها فى العناية الإلهية ومشت معه، متوقعة فى كل لحظة أن تصل إلى الفندق، وفجأة عندما أتيا إلى تلك الشجيرات طلب منها التوقف وبعد بعض القبلات الوقحة التى قاومتها، وبعض التوسلات التى رفضتها، بدأ يضربها بيديه العنيفتين، وحاول ارتكاب فعلته الدنيئة عندما شكرت الله حيث أتى فى الوقت المناسب ومنعه. شجعها أدمس عندما قالت إنها وضعت كل ثقتها فى العناية الإلهية، وقال لها إنه لم يأت إلا بالعناية الإلهية لإنقاذها، كمكافأة على تلك الثقة. وتمنى حقا لو لم يحرم هذا البائس المؤذى من الحياة ولكنها إرادة الله. قال إنه يتمنى أن طيبة نواياه تغفر له فى العالم الآخر، ووثق فى دليلها الذى سيُبرِّئه.

ثم التزم الصمت وبدأ يفكر هل سيكون ملائمًا أن يهرب أم يسلم نفسه لأيدى العدالة، انتهى التفكير كما سيرى القارئ فى الفصل التالى.

الفصل العاشر

**رواية الأحداث التى أدت إلى الكارثة الغريبة
فى المغامرة السابقة، والتى أودت بأدمس
المسكين إلى كوارث جديدة،
ومن السيدة التى استطاعت الحفاظ على
عفتها بفضل ذراعه المنتصرة.**

انضم صمت أدمس إلى ظلمة الليل وعزلة المكان، مما أوحى لذهن المرأة المسكينة بأفكار مخيفة، فبدأت تخاف أن يكون أدمس عدوا أبشع من العدو الذى قد خلصها أدمس منه، ولأنها ليس لديها ضوءٌ كافٍ لتعرف عمر أدمس وترى النزعة إلى عمل الخير فى ملامحه، شكَّت أن يستغلها أدمس مثل بعض الرجال الأمناء الذين قد استغلوا بلدتهم وأنقذوها من أيدى أحد الناهبين من أجل أن يكونوا هم ناهبيها.

تلك هى الشكوك التى انتزعتها من صمته، لكنها كانت بلا أساس. تنبه أدمس لعدوه المهزوم وبدأ يزن بحكمة فى عقلهِ الاعتراضات التى يجب أن تُصنع لكل من الطريقتين اللتين قد ذُكرا باستمرار فى الفصل السابق، يميل حكمه لإحداهما وأحيانًا يميل للأخرى؛ حيث بدا له منهما أنه مفضل بطريقة متساوية تمامًا، وخطر بطريقة متساوية جدا، حيث إنه من المحتمل أن ينهى أيامه على الأقل يومين أو ثلاثة منها فى هذا المكان قبل أن يتخذ أى قرار، فى النهاية رفع عينيه مستكشفًا ضوءًا من على بعد، وفى تلك اللحظة وجد أحدًا يخاطبه أيها المسافر وفى الحال، سَمِع عدة أصوات وأدرك أن الضوء يقترب منه.

بدأ بعض الأشخاص الذين كانوا مصدر الضوء فى الضحك، وآخرون فى الغناء، وبدأ آخرون هتافات للفت الانتباه، وعند ذلك ظهر على المرأة بعض الخوف (حيث إنها أخفت شكوكها فى الشخص نفسه)، لكن قال أدمس: " ابتهجى أيتها الفتاة، وضعى ثقتك فى نفس العناية الإلهية التى تحميكِ إلى الآن، ولا تتخلى أبدًا عن طهارتك".

إن هؤلاء الأشخاص الذين قد اقتربوا الآن لم يكونوا، أيها القارئ، سوى مجموعة من الشباب قد أتوا إلى تلك الشجيرات؛ وذلك لملاحقة الخفافيش فى الأشجار كنوع من اللهو (لو أنك تجهل بهذا النوع من التسلية فمعنى ذلك أنك لم تسافر بعد من كيسنجتون، أو إسلينجتون، أو هاكنى، أو البوروغ) سأُخبرك أنه يتم من خلال الإمساك بشبكة كبيرة أمام مصباح مضىء، وفى نفس الوقت يجمعون الحشائش من أجل الخفافيش الطائرة عندما تتناثر من مأواها وأماكن تجمعها، وبذلك تقع داخل الشبكة.

أخبرهم أدمس بما حدث، وجعلهم يضعون المصباح المضىء أمام وجه الرجل الملقى على الأرض، لأنه يخاف إن كان قد ضربه بقوة على نحوٍ مهلك. لكن كانت مخاوفه حقا عابثة، حيث إن الرفيق فَقد صوابه بالضربة الأخيرة التى تلقاها، ثم استرد حواسه، وعندما وجد نفسه أنه تحرر من أدمس، استَمع بيقظة إلى الحديث الذى دار بينه وبين الفتاة، وقد انتظر رحيله بفارغ الصبر حتى يمكنه هو أيضا الرحيل، لأنه لم يعد لديه آمال فى نجاح رغباته، التى هدَّأها أدمس تقريبًا، كما لو كان قد حصل على ما أراده من الفتاة.

إن هذا الشخص مستعد لاغتنام أية فرصة، واعتقد أنه يمكنه الآن أن يلعب دورًا أحسن من الرجل الميت، وهكذا فى اللحظة التى سُلط فيها المصباح على وجهه قفز ورقد على أدمس وهو يمسكه قائلاً: " لا أيها الوغد إننى لست ميتًا، كما تعتقد أنت وعاهرتك المؤذية، بعد تلك الأعمال الوحشية التى ارتكبتها ضدى".

ثم وجه إلى الآخرين حديثه قائلاً: " من حسن حظى أنكم أتيتم لمساعدة مسافر مثلى، فلولا حضوركم لكان سرقنى وضربنى حتى الموت، هذا الرجل الوضيع وتلك المرأة التى استدرجتنى فى الطريق، الطريق الرئيسى، وانقض كلاهما علىّ كما ترون".

كان أدمس على وشك الرد عندما صاح أحد الرفقاء الشباب قائلاً " تبًّا لهما، دعونا نسلمهما للعدالة". بدأت المرأة المسكينة ترتعد، ورفع أدمس صوته، لكن بلا جدوى. بدأ ثلاثة أو أربعة منهم ضربَه، وكان أحدهم يسلط المصباح عليه، واتفقوا جميعًا أن ملامحه أحقر ملامح رأوها، وقال واحد من الصحبة وهو كاتب محامٍ إنه متأكد أنه رآه فى قفص المحكمة. أما المرأة فأصبح شعرها أشعث فى الشجار ونزفت أنفها، لذلك لم يستطيعوا أن يُدركوا إن كانت جميلة أم قبيحة، لكنهم قالوا إن رعبها الواضح قد كشف شعورها بالذنب.

وفتشوا جيوبها وجيوب أدمس بحثًا عن النقود التى قال الرفيق إنه قد فقدها، ووجدوا معها كيسًا به بعض الذهب، الذى أشبع حاجتهم خاصةً عندما رضى الرفيق بذلك.

ولم يكن مع أدمس سوى نصف بنى فقط، قال الكاتب إنها جراءة كبيرة حيث إنه منتهك قديم، أعطى ببراعة كل الغنيمة للمرأة. واستعد الباقى بالموافقة على ذلك. وقد اعتبروا تلك الحادثة مصدرًا أفضل للتسلية أحسن من الرياضة التى اعتزموها، فتخلوا عن عزمهم على اللحاق بالخفافيش الطائرة، وعزموا جميعًا على الذهاب إلى العدالة مع المذنبين.

وعندما علموا من يكون أدمس اليائس، ربطوا يديه خلفه، وأخبأوا شباكهم خلف الشجيرات وحمل أحدهم المصباح أمامهم، وجعلوا المذنبين أمامهم ثم بدأوا المسيرة، ولم يخضع أدمس فقط بالصبر على قدره، لكنه طمأن وشجع رفيقته على آلامها.

قال لهم الكاتب وهو فى طريقهم، إن تلك المغامرة مفيدة للغاية، لأنهم جميعًا سوف يستحقون نصيبهم من الثمانين جنيهًا، وهى مكافأة مقابل قبضهم على اللصوص. سبب هذا نزاعًا على الأجزاء التى حملوها على التوالى، فأصر أحدهم على أخذ النصيب الأكبر، لأنه أول من ضرب أدمس، وطلب آخر النصيب الأكبر، لأنه أول من سلط المصباح على وجه الرجل الملقى على الأرض، الذى قال: "انكشف كل شيء". وطلب الكاتب أربعة أخماس المكافأة لأنه هو الذى اقترح تفتيش المذنبين، وأيضا اقترح تسليمهما للعدالة، وقال إن العدالة الحقيقية هى أن يأخذ المكافأة بأكملها.

وافقوا فى النهاية على تلك المطالب التى تشير إلى القرار المقبل، وبدوا جميعهم موافقين على أن يأخذ الكاتب النصف.

ثم بدأوا يناقشون كم سيأخذ الفتى الذى كانت وظيفته فقط الإمساك بالشباك. قال بتواضع شديد إنه لا يريد نصيبًا كبيرًا، لكنه يأمل أن يسمحوا له بشيء ما، وهو أن يعلموا أنهم قد تركوا شباكهم له؛ وهذا منعه من الإمساك باللصوص (وهو ما يطلق على هذين الشخصين البريئين) فإن لم ينشغل بتلك الشباك لكان أمسكها شخص آخر، فأكمل أحدهم قائلاً يجب أن يرضى بأصغر نصيب يمكنه تخيله، ويجب أن يعرف أنهم يكرمونه بأكثر مما يستحق. لكنهم اتفقوا بالإجماع على استبعاده من أى جزء مهما كان، أقسم الكاتب على الأخص أنهم لو أعطوه شلنًا فعليهم أن يفعلوا ما يسرهم مع الباقى لأنه لم يورط نفسه فى المشكلة.

كان هذا نزاعًا حادًا، وقد لفت انتباه جميع الأطراف للغاية، حيث إنه لو وجد فى موقف أدمس لص ذكى وبارع لما تسبب فى إحداث أى متاعب للعدالة فى هذا المساء.

إنه حقا لم يحتج إلى أن يكون مجرمًا خبيرًا حتى يتمكن من الهروب، خاصة أن الليل قد صادقه، لكن وثق أدمس فى براعته أكثر من ثقته فى الهروب، ودون

التفكير في الهروب الذى كان سهلا أو المقاومة التى كانت مستحيلة، حيث كان هناك ستة شباب مفعمين بالحيوية إلى جانب الوغد نفسه الذى كان حاضرًا معهم، ومشى بخضوعٍ تام وعرفوا جيدًا كيف يقودونه.

بدأ أدمس يُنفس عن نفسه بالهتافات على نحوٍ متكرر أثناء رحلتهم، وفى النهاية خطر بباله جوزيف المسكين، إنه لم يستطع تكرار التنهدات عند ذكر اسمه، الذى قد سمعته رفيقته وهى فى أسى، لقد بكت بشدة قائلةً: " مؤكد، إننى أعرف هذا الصوت، أكيد إنك لن تستطيع، يا سيد إبراهام أدمس؟"

قال: "حقا أيتها الفتاة، إنه اسمى، هناك شىء ما فى صوتك يقنعنى أننى قد سمعته من قبل".

قالت: " لا سيدى، ألا تتذكر فانى المسكينة؟"

أجاب أدمس: "كيف، فانى!!، حقا إننى أتذكرك جيدًا، ما الذى جاء بكِ إلى هنا؟"

أجابت: " لقد أخبرتك يا سيدى، إننى كنت مسافرة إلى لندن، لكننى اعتقدت أنك قد ذكرت جوزيف أندروس، أرجوك كيف حاله؟"

قال أدمس: " لقد تركته، أيتها الصغيرة، هذا المساء، فى مركبة فى طريقها إلى أبرشيتنا، حيث كان ذاهبًا لرؤيتك".

أجابت فانى: " لرؤيتى! لا يا سيدى، مؤكد أنك تسخر منى، وما الذى يجعله يذهب لرؤيتى؟"

أجاب أدمس: " أتسألين؟ أتمنى يا فانى أن لا تكونى متقلبة، أؤكد لكِ أنه يستحق أحسن منكِ".

قالت: " لا يا سيد أدمس، ماذا يكون السيد جوزيف لى؟ أنا متأكدة أننى ليس لدىَّ أى شىء أقوله له سوى أنه خادم رفيق لخادمة أخرى".

قال: " إننى آسف لسماع ذلك، العواطف الطاهرة لشاب هى ما لا تُحقرها امرأة. إما أنكِ لا تقولين الحقيقة، أو أنك لا تستحقين هذا الرجل النبيل". ثم أخبرها أدمس بما حدث فى الفندق، واستمعت إلى ذلك بانتباه، وأحيانًا تصدر منها تنهدات، وعلى الرغم من ذلك تكون تصرفاتها على النقيض، وهو لا يستطيع أن يمنعها من سؤال ألف سؤال، يمكن أن تُطمئن أى أحد إلا أدمس، الذى لم يتفحص الناس إلى حد بعيد، أكثر مما رغبوا أن يدعوه يعرف حقيقة العاطفة التى تحاول هى أن تُخفيها.

الحقيقة هى أن تلك الفتاة المسكينة قد سمعت عن نكبة جوزيف من بعض الخادمين الذين ينتمون إلى المركبة التى قد ذكرناها سابقًا، والتى توقفت عند الفندق، بينما كان الشاب المسكين راقدًا فى فراشه، تلك اللحظة تركت مصدر الفائدة التى كانت تستغلها، وأخذت معها صُرة ملابس تحت ذراعيها وكل النقود التى تمتلكها فى كيس نقودها دون استشارة أحد، وذهبت لملاحقة الشخص الذى – على الرغم من حيائها من القس – أحبته بشدة لا يمكن وصفها، بأطهر وأرق عاطفة.

إن هذا الحياء الذى نثق به سوف يُزكى شخصيتها على كل القارئات، ولن يُفاجئ رجالنا إلى حدٍّ كبير، كما هم معروفون جيدًا بالجزء الأصغر سنًّا للجنس الآخر، ولن يمثل تبريرها مشكلة لنا.

الفصل الحادى عشر

ما الذى حدث لهم وهم أمام العدالة،
فصلٌ مليءٌ جدا بالدروس المستفادة.

انشغل الرفقاء المسافرون بنزاعٍ حادٍّ على تقسيم مكافأة القبض على هــذين البريئين، حيث إنهم قد حضروا قليلاً من محادثتهما.

وصلوا الآن إلى مبنى القضاء، وأرسلوا أحد خدمه لإعلام سيادة القاضى أن لديهم اثنين من اللصوص أحضروهما للقضاء.

أمرهم القاضى الذى قد رجِع توًّا من مطاردة ثعلب ولم ينه غذاءه بعــد، أن يضعوا المذنبين فى الإسطبل، حيث حضر كل خدم المنزل وكل الجيران واجتمعوا معًا لرؤيتهم بفضولٍ كبير؛ كما لو كان هناك شيء غير عادى أو أن المذنب لــيس كباقى الناس الآخرين.

أصبح القاضى الآن فى قمة مرحِهِ وسُكرِهِ، واعتقد أنه من المذنبين، وقــال لصُحبته إنه اعتقد أن لديهم رفيقًا بارعًا فى استجوابهم، قد أمرهم فــى حــضرتهِ. بمجرد أن دخل الحجرة بدأ يلعنهما قائلاً إن لصوص الطرق انتشروا الآن بكثــرة حتى أصبح الناس لا يستطيعون النوم بأمان فى فراشهم، وأكد لهما أنهما ســيكونان عبرةً عند تلاوة الحكم عليهما.

بعد أن أمضى وقتًا على هذا المنوال، ذكَّره كاتبه بأنه سيكون ملائمًا إذا أخذ شهادة الشهود ضدهم. وقد أمرهم بذلك فى نفس الوقت الذى كان يشعل فيه غليونه، بينما انشغل الكاتب فى تدوين شهادة الشخص الذى كان يدعى بأنه هو الذى سُرِق،

وانشغل القاضى بالسخرية من فانى المسكينة وأيده فى تلك السخرية كل من كان معه على المنضدة.

سألها واحد منهم إن كانت قاطعة طرق؟ وهمس آخر فى أذنها إن لم تكن حاملاً بطفل فهو فى خدمتها. وقال شخصٌ ثالث إنه يراهن أنها من نسب تيرين، إحدى العاهرات المشهورات. وعلى ذلك هز أحد الرفقاء رأسه وجوانبه، وهو فطن للغاية، قائلاً إنه اعتقد أنها لديها قرابة أوثق بتيربس (وهى كلمة لاتينية تعنى العار). وعلى ذلك ضحكوا جميعًا واستمروا فى ذلك مع الفتاة المسكينة عندما صاح رجل مُرتدٍ رداء الكهنة الخاص بالتدخين، وهو يدخن الغليون الذى يتصاعد دُخانه من تحت معطف أدمس، قائلاً: " لماذا نحن هنا أيها القس؟" قال القاضى: " يا إلهى، هل تسرق وأنت مُرتدٍ ملابس رجل الدين؟ دعنى أخبرك أن بُنيتك لن تؤهلك من الاستفادة من رجل الدين".

قال الرفيق الفطن " نعم، ستعم عليه فائدة واحدة من رجل الدين، وهو أنه سيُمجد على رءوس الناس". وعلى ذلك كانت هناك ضحكة ثانية. وتحمس الفطن الآن عندما رأى أن دعاباته بدأت ترفع المعنويات، والتفت إلى أدمس وتحداه أن يكمل الآيات واستفزه بتلاوة المقطع الأول فقال مكررًا:

" Molle meum levibus cord est vilebile telis"

وعلى ذلك قال أدمس بنظرة مليئة باحتقار لا يمكن وصفه إنه يستحق المعاقبة على قوله.

أجاب الرفيق الفطن: " وما الذى تستحقه يا دكتور، لأنك لم تقدر على الإجابة المرة الأولى؟ لماذا، سأعطيك واحدة، أيها الأبله، بـــ S".

" Si licet , ut fulvum spectatur in ignibus haurum "

" وألا تستطيع بـــ M أيضا؟ إن مهارتك أيها الرفيق الجميل مهـــارة القـــس لماذا لم تسرق بعضًا من لغة القس اللاتينية كما سرقت رداءه؟"

أجاب آخر على المنضدة: " لو فعل ذلك، ستكون عسيرة جدا عليـــه، إننـــي أتذكرك فى الجامعة كان لديك خبرةٌ مريرة فى هذا المزاح، لقد رأيتك تمسك برجلٍ قوى". قال الرجل المتحذلق: " لقد نسيت تلك الأشياء الآن، أعتقد أننى كنت أجيـــد ذلك من قبل. دعونا نرى ما الذى سأنهيه بـــ M ثانيةً

Mars , Bacchus , Apollo , virorum.

لقد كنت أستطيع فعله فيما سبق، آه، إن بك داء، ولذلك فإنك تستطيع الآن". قال الآخر: "لا يوجد أحد فى تلك البلدة يستطيع أن يتحداك".

لم يعد أدمس يتحمل، فقال: " أيها الصديق، إن لى صبيًّا عمره لـــم يتجـــاوز ثماني سنوات يمكنه تعليمك الآية الأخيرة التى تُتلى هكذا

" Ut sunt Divorum , Mars , Bacchus , Apollo , virorum.

قال المتحذلق ملقيًا النقود على المنضدة: " سوف أراهنك بجنيه على ذلك ". قال الآخر: " وأنا سأراهن بنصفها ".

أجاب أدمس: اتفقنا. لكن عندما وضع يده فى جيبه اضطر للتراجع واعترف أنه ليس لديه نقود، وقد جعلهم هذا يضحكون. وأثبت انتصار عدوه، وذلك لم يكـــن عدلاً، مثل التهكم والاحتقار الذى واجهه من الصُحبة بأكملها؛ حيث قالوا لأدمـــس إنه كان يجب عليه الذهاب إلى مدرسة قبل أن يحاول مهاجمة هذا الرجل باللاتينية.

أنهى الكاتب أداء الشهادة، وأيضا للشخص نفسه، وهؤلاء الذين قبضوا على المذنبين، وسلموهما للعدالة، حيث جعل القاضى الشهود يقسمون دون قراءة مقطـــع لفظى، أمر كاتبه أن يقاضيهما بالسجن.

ثم قال أدمس إنه تمنى أن لا يُدان دون سماع أقواله. صاح القاضى قائلاً: "لا، لا، سوف تُسأل عما تريد قوله دفاعًا عن نفسك، عندما تحين محاكمتك، نحن لا نُحاكمك الآن، إننى فقط سأسلمك للسجن، ولو تستطيع أن تثبت براءتك بهذا الوضع، ستكون شخصًا جاهلاً تمامًا، ولذلك لن يكون هناك أذى".

صاح أدمس قائلاً: " هل هذا ليس عقابًا يا سيدى، فالرجل البرىء يظل فى السجن عدة شهور؟ أتوسل إليك هل يمكنك على الأقل سماعى قبل أن تُصدر الأمر القضائى بالسجن؟"

قال القاضى: " ما الذى سيُفيد كل ما ستقوله؟ أليس هنا الأسود والأبيض ضدك؟ علىَّ أن أُخبرك أنك شخص وقح للغاية لأنك أخذت كثيرًا من وقتى، لذلك سأسرع بالأمر بسجنك".

أخبر الكاتب القاضى الآن أن ضمن الأشياء الأخرى التى تثير الشك، أنهم قد عثروا على مطواة فى جيب أدمس، وعندما قبضوا عليه وجدوا معه كتابًا مكتوبًا بالشفرة، ولم يستطع أحد قراءة كلمة فيه".

قال القاضى: " إن هذا الشخص ليس مجرد لص عادى، ويمكن أن يكون يدبر مكيدة ضد الحكومة". وطلب تقديم الكتاب؛ عندئذ أحضر المخطوط الذى كتبه أدمس من مخطوط لأخليوس بيده، وقد أحضره، وعندما تفحصه القاضى هز رأسه، والتفت إلى المذنب، وسأله عن معنى تلك الشفرات.

أجاب أدمس: " شفرات، إنه مخطوط أخيلوس". قال القاضى: "من؟، من؟" قال أدمس مكررًا: " أخيلوس".

قال الكاتب: "إنه رجل غير مألوف". قال القاضى: "أعتقد أنه اسم خيالى". أعلن واحد من الصُحبة أن هذا الاسم يبدو يونانيًا. قال القاضى: " يونانى؟ لماذا؟ إنها كلها كتابة ".

قال الآخر: "لا، إننى لم أقل إنه كذلك حقيقةً، لإننى لم أر كتابة يونانية منذ وقت طويل جدا".

قال وهو يلتفت إلى قس الأبرشية الذى كان حاضرًا: " هناك واحد، سوف يخبرنا فى الحال". أخذ القس الكتاب ولبس نظارته بوقار، ودمدم بعض الكلمات ثم نطق بصوتٍ عالٍ: "آه، إنه حقا مخطوط يونانى، إنها قطعة جميلة من العصور القديمة، إنها بلا شك قد سُرقت من رجل الدين الذى قد أخذ منه هذا المتشرد رداء الكاهن".

قال القاضى: " ما الذى عناه هذا الوغد بأخليوس؟" قال الطبيب بغضب به شيء من الاحتقار: " هل تعتقد أن هذا الشخص يعرف أى شيء فى هذا الكتاب؟ أخيلوس! آه! آه! إننى أرى الآن ماذا يكون مخطوط لأحد آباء الكنيسة، إننى أعرف رجلاً سوف يعطى صفقة كبيرة من المال على تلك القطعة العتيقة. آه، آه! سؤال وجواب".

البداية كان تعبيرًا باليونانية فى سؤال وجواب وذلك باليونانية Pollaki toi آه، ما اسمك؟ قال القاضى لأدمس" : " ما اسمك؟" فأجاب: " إنه أخليوس، وسوف أحتفظ به".

قال القاضى: " آه، إنه كذلك، قم بتنفيذ الأمر القضائى عليه. سأُعلمك كيف تضحك علىَّ باسم مزيف".

نظر واحد من المجموعة إلى أدمس بثبات وسأله إن كان يعرف السيدة بوبى، وعلى ذلك استرجع أدمس فى الحال وأجاب ببهجة: " آه، أيها الفارس!! أنت هنا؟ أعتقد أنك سوف تُعلم سيادته أننى برىء".

أجاب الفارس: " إننى فعلاً أستطيع، فإننى مندهش جدا لرؤيتك فى هذا الموقف". ثم تحدث مع القاضى فقال: " سيدى، أؤكد لك أن السيد أدمس رجل دين كما يبدو، وهو رجل ذو مكانة اجتماعية وله شخصية بارزة جدا. أتمنى أن تستفسر عن ذلك، فإننى مقتنع ببراءته."

قال القاضى: " لو كان رجلاً ذا منزلة اجتماعية وأنت متأكد من براءته، فلن أحاكمه هو، وسوف أُحاكم السيدة نفسها، وتأخذ كفالة هذا الرجل، تصفح الكتاب أيها الكاتب وانظر كيف سيأخذ الكفالة ثم ائتِ لقضاء المرأة بالسجن بأسرع ما تستطيع".

قال أدمس: "سيدى، أؤكد لك أنها بريئة مثلى".

قال الفارس: "ربما يكون هناك خطأ، أرجوك دعنا نسمع ما سيرويه السيد أدمس".

قال القاضى: " من كل قلبى، وسأعطى الرجل كأسًا ليتنبه قبل أن يبدأ. إننى أعرف كيف أهذب نفسى مع الرجل ذى المكانة الاجتماعية وأيضا مع رجل آخر. لا أحد يستطيع القول إننى قد حكمت بالسجن على رجل ذى مكانة اجتماعية منذ خدمتى بالمحكمة ".

ثم بدأ أدمس فى رواية ما حدث، حيث كان مسهبًا جدا فى روايته، ولم يُقاطع إلا بهمهمات من القاضى، ورغبته فى إعادة تلك الأجزاء التى بدت مهمة له.

وعندما انتهى اعتقد القاضى الذى قال عنه الفارس إن كل لفظ من القصة بإثبات صريح منه، على الرغم من أداء الشهادة بقسم مناقض. بدأ يطلق عديدًا من المتشردين والأوغاد على الشهود الذين قد أمرهم بالانتظار، لكن بلا جدوى، فعندما اكتشف الشهود ما حدث من تغيرات فى القضية انسحبوا سرًّا دون حضور الحكم.

أصبح القاضى الآن غاضبًا بشدة، وقرر ألا يسلم هؤلاء الأشخاص الأبرياء للمحاكمة؛ حيث إنهم قد تورطوا مثله. وأقسم أنه من صالحهم أن يجدوا الشخص المتهم بالحنث فى اليمين، ويحضروه أمامه فى غضون يومين، وإلا سيحبسهم، وسوف يتركهم لحسن سلوكهم. وقد وعدوه أن يبذلوا جهدهم من أجل ذلك الهدف، وأفرج عنهم. ثم أصر القاضى أن يجلس السيد أدمس معه ويأخذ كأسًا. وسلمه قس الأبرشية المخطوط دون أن يتفوه بكلمة، وأدمس أيضا لم يقل شيئًا، وأدرك بوضوح جهله ، الذى أفشاه، أما فانى فحسب طلبها كانت تحت رعاية خادمة المحكمة التى قد ساعدتها فى تنظيف نفسها وارتداء ملابس جديدة.

وما إن جلست الصُّحبة قليلا فى قاعة الاستقبال إلا وقد سمِعوا ضجيجًا بشعًا، حيث كان الأشخاص الذين قبضوا على أدمس وفانى يستمتعون بطعامٍ شهى،

تبعًا لعادة المنزل، مع بيرة القاضى كثيرة الكحول. وقد تشاجروا جميعًا دون أية رحمة، وانطلق القاضى إليهم، وسريعًا ما وضعوا حدًّا لهذا الشجار احترامًا لوجوده.

وعندما رجع إلى قاعة الاستقبال قال إن سبب هذا الشجار ما هو إلا خلاف على أنه لو حُكم على أدمس فمن سيأخذ أكبر نصيب من مكافأة القبض عليه؟ ضحكوا جميعًا على هذا ما عدا أدمس الذى أخذ البايب من فمه وتأوه بعمق، وقال إنه قلق لرؤية مثل هذه الانفعالات العنيفة فى الرجال، فقد تذكر قصة تشبهها بعض الشيء فى أحد الأبرشيات حيث يعمل راعى أبرشيته: " كانت هناك "، واستمر قائلاً: " منافسة بين ثلاثة شباب على منصب الكاتب الذى قد نظمته بأحسن قدرات لى، تبعًا للجدارة، حيث أعطيته للشخص الذى لديه أحسن موهبة فى قراءة الترنيمة.

وبمجرد أن استقر الكاتب فى منصبه وما إن بدأ خلاف بين المرشحين اللذين لم يتم اختيارهما فيما يتعلق بكفاءتها، كل منهما يتنافس كى يحصل على اختيارى، أزعج هذا الخلاف الحشد بشكلٍ متكرر، وأدى إلى نزاع على الترانيم، حتى اضطرنى هذا لإسكاتهما هما الاثنين. لكن، وآسفاه، لا يمكن إخماد روح المشاكسة، ولأنه لم يعد قادرًا على تنفيس نفسه فى الإنشاد، بدأ الآن فى الشجار. أدى ذلك إلى العديد من المعارك (لأن كفاءتهما هما الاثنين متقاربة جدا) وأعتقد أن المعارك ستنتهى بشكل وضع حدٌ للنزاع وتصالح الأطراف المتنازعة تمامًا".

وواصل أدمس حديثه فى إبداء بعض التأملات الفلسفية على حماقة ازدياد حدة النزاعات التى لم تنفع أى طرف.

ثم بدأ يدخن بقوة؛ ونتيجة لذلك حل صمت طويل، والذى قطعه فى النهاية القاضى الذى بدأ ينشد تسبيحاته ويُقيِّم نفسه إلى حد بعيد على فطنته الجميلة فى الخلاف السابق الذى كان أمامه.

وقاطعه أدمس بطريقةٍ سريعة، ونشب خلاف بينه وبين سيادته الآن، إن كان أو لم يكن واجبًا عليه تحت حدة القانون أن يُسلمه للمحاكمة، وقال أدمس على ما أصر عليه الآخر إنه يجب عليه تسليمه للمحاكمة، وأصر القاضى بشدة أنه غير واجب عليه تسليمه للمحاكمة.

من المحتمل أن يؤدى هذا إلى شجار (لأن كلاً منهما كان صارمًا جدا وإيجابيًّا فى رأيه) وبالصدفة سمعت فانى أن شابًّا كان ذاهبًا من منزل القاضى إلى الفندق القريب من المنزل، حيث وصلت إليه المركبة التى كان يركب بها جوزيف.

وبتلك الأخبار أرسلت فى الحال للقس من خارج قاعة الاستقبال، وعندما وجد أدمس أنها قررت الذهاب (على الرغم من أنها لم تقل السبب، لكنها تظاهرت أنها لا تستطيع تحمل رؤية وجوه هؤلاء الذين قد اتهموها بتلك الجريمة) عزم على الذهاب معها، ووفقًا لذلك ترك القاضى والصُّحبة، وبذلك أنهى خلافًا بدا فيه القانون متصفا بشيء من الخزى؛ لأن يصنع قاضيا وكاهنا معًا بذر الشقاق بينهما.

الفصل الثانى عشر

مغامرة سارة جدا وممتعة للأشخاص المعنيين،
وللقارئ طلق المحيا.

بدأ أدمس وفانى والمرشد رحلتهم معًا فى الواحدة صباحًا، حيث كان القمر كاملاً، وما إن مشوا أكثر من ميل حتى هبت عاصفة شديدة من الأمطار ألزمتهم اللجوء إلى فندق أو حانة، حيث أعد أدمس لنفسه تدفئة جيدة، وخبزًا وخمرًا وغليونًا، وبدأ يدخن بسرور بالغ ونسى تمامًا ما حدث.

جلست فانى أيضا أمام المدفئة، لكن نفد صبرها للغاية بتلك العاصفة. وقد لفتت انتباه مضيف البيت وزوجته ووصيفة المنزل والشاب مرشدهم، وأدركوا جميعًا أنهم لم يروا أحدًا بنصف جمالها، ولو أنك حقا أيها القارئ لديك تصورا عن شكل الحب، أنصحك أن تتغاضى عن الفقرة التالية، والتى سوف تجعل تاريخنا مثاليًا، وسنضطر للجلوس بتواضع آملين أن نستطيع الهروب من مصير بيجماليون، لو صادف أن يوحى لنا أو لك بتلك الصورة، فربما نكون فى حالة ضعف مثل ترجسس، وربما نقول لأنفسنا quod petis est nusquam، [بالعربية] "ما الذى تبحث عنه هنا الآن" أو لو أن أجمل ملامح بها موجودة فى وجه امرأة أمام أعيننا، فربما نقول لرغباتنا، colum ipsum petimus stultitia بمعنى: "بغبائنا نبحث عن السماء نفسها".

إن فانى الآن فى التاسعة عشرة من عمرها، وهى طويلة وذات بنية رقيقة، لكنها ليست واحدة من هؤلاء الفتيات النحيفات اللاتى تبدون كالمعلقة فى مشرحة

لأى غرض آخر. فعلى النقيض، إنها ممتلئة، فبدت كأنها ستتفجر من مؤخرة ملابسها الضيقة خاصة فى الجزء الذى يقيد ثدييها المنتفخين. ولم يحتج وركاها إلى طوق ليساعد فى تضخيمهما. إن الشكل الدقيق لذراعيها أظهر تكوين تلك الأطراف التى أخفتها، وعلى الرغم من أن ذراعيها قد احمرا قليلا بسبب ما مرت به، فإن كمها أو منديلها قد انزلق على ذراعيها ، وكَشْفُ أى جزء من رقبتها يظهر بياضًا لا يقدر أحسن رسام إيطالى على تلوينه.

لون شعرها كستنائى وجعلته الطبيعة كثيفًا للغاية، وقد قصرته واعتادت أن تعقصه على رقبتها كل يوم أحد على الموضة. جبينها عالٍ وحاجباها مقوسان ومليئان عن المعتاد، وعيناها سوداوان ولامعتان، وأنفها يميل إلى أنف الرومان، وشفتاها حمراوان ورطبتان، وشفتها السفلية – وفقًا لرأى بعض السيدات – كانت ممتلئة بعض الشيء، وأسنانها بيضاء، لكنها ليست متساوية تمامًا. وترك مرض جلدى صغير أثرًا واحدًا فقط على ذقنها، وهو أثر كبير يظنه الناس نُقرة فى ذقنها. وخدها الشمال أمامه خد آخر قريب جدا منه، والخد الأول ما هو إلا مرآة للخد الآخر.

إن بشرتها جميلة، وهى متأثرة قليلاً بالشمس، لكن انتشر عليها هذا التورد الذى تود أجمل السيدات استبداله ببياضها. بالإضافة إلي هذا، ملامح على الرغم من أنها خجولة للغاية، فقد ظهرت فيها حساسية لا يمكن تصديقها، وحلاوة ابتسامتها لا يمكن تقليدها أو وصفها. لاختصار كل هذا إن بها رقة طبيعية أسمى من اقتناء الفن، أدهشت كل من رآها.

تلك المخلوقة الجميلة تجلس بجوار المدفأة مع أدمس، عندما لفت انتباهها فجأة صوت من حجرة قريبة يغنى تلك الأغنية:

قل، كلوى، أين يمكن لعاشق أن يَشردَ

وهو بجمالك مهمل؟

ليجرف ذكراك بعيدا
إلى أى مدى يمكن لنهر النسيان أن يجرى
البائس الذى عُوقب إلى حد الموت
يهرب ويترك العدالة خلفه
آه، لكن هل يمكنه أن يهرب من عقلِهِ!!
آه، السعادة التى لم يفكر بها أحد من قبل!!
هكذا تمتلكها كلوى
لا هى، ولا سلطة الطغيان القاسية
يمكن أن تنتزع من صدرى صورتها
لكن ألم يشعر نرجسس بكثيرٍ من النشوة
يرى بعينيه الفتن التى يُحبها؟
لكن ما رآه الصبى المغرم
تمناه بشوقٍ كبير بين ذراعيه
كيف سيكون خيالك العزيز
الذى يملأ صدرى بالحزن
أيمكن أن يحمل لك شبهًا
يمنحه الحزن وليس الفرح؟
هذا الزيف ينتزعه من قلبى
سلطتكم على الرغم من التعذيب الذى بعنفٍ أهاجمه

فعلى الرغم من أن الهلاك سيثبت الألم المهلك
سأجد راحةً فى هلاكى
آه!! انظر إلى الحورية العزيزة على الأرض
تأتى وهى تبتسم وترقص
يرقص آلاف المحبين فى موكبها
وكل النعم محتشدة حولها
لتقابلها تطير كالرياح اللينة
وتبعث كل ما هو حلو من الأزهار
آه يا له من محتالٍ وهو يُقبل عينيها
يفترس كثيرًا من الحلاوة من أنفاسها
وتلهب نفسى وأنا أحملق
لكن تبدو نظراتها رقيقة وعطوفة
وصل أملى تقريبًا إلى ما أرغبه
وتركت اليأس الضعيف بعيدًا وطرت متنقلاً بجنون
وأمسكت بشوقٍ نعمتى
عناقها نصف عناق وتنسحب
لكنها ترفض بفتور قبلتى الشغوفة
تلك الاندفاعات جعلتنى جريئًا
همست لها بالحب إننا وحدنا

واتركى الباقى ليظهره الخالدون

ولا يمكن أن نخبرهم بأية لغة إلا لغتهم

آه، إن كلوى تلفظ أنفاسها الأخيرة، فبكيت

إلى أى حد سأتحمل قسوتك!!

فأجابت ووجهها يحمر خجلاً آه!! ستريفون Strephon

إنك لم تكن من قبل متحمسًا

كان أدمس طول هذا الوقت يتأمل قطعة من تأليف أخيليس دون أى إصغاء للصوت، على الرغم من أنه قد سمِع أحد الألحان عندما كان يلقى نظره على فانى؛ فصاح قائلاً: " يا إلهى، إنكِ تبدين شاحبة للغاية".

قالت: " شاحبة!! يا سيد أدمس، يا إلهى". وسقطت إلى الوراء على مقعدها. قفز أدمس وألقى كتابه – أخليوس – بالمدفأة ثم بدأ يتأوه وهو ينادى على الناس الموجودين بالمنزل من أجل المساعدة.

واستدعى كل واحد على الفور داخل الحجرة، وكان ضمن الحاضرين المغنى، لكن آه! أيها القارئ، عندما رأى هذا العندليب – وهو لم يكن سوى جوزيف أندروس نفسه – محبوبتَه فانى فى الموقف الذى وصفناه، فلن تستطيع تخيل تهيج عقله. ولو أنك لا تستطيع؛ اترك التأمل وشاهد سعادته عندما عانقها بين ذراعيه، وجد الحياة والدموية ردت إلى خديها. عندما رآها تفتح عينيها المحبوبتين وسمعها بأرق نبرة تهمس قائلةً: " هل أنت جوزيف أندروس؟ " فأجاب بشوق: "هل أنت فانى؟" ثم ضمها إلى قلبِه، فترك على شفتيها أثر قبلات لا عدد لها، دون التفكير فى الحاضرين. لو غضبت المحتشمات من إغراء تلك الصورة يمكنهن إغلاق أعينهن، ونرى القس أدمس يرقص عبر الحجرة فى نشوة من الفرح. ربما يشك بعض الفلاسفة إن لم يكن أسعد الثلاثة، فطيبة قلبه استمتعت بالنعم التى تهللت

في صدرها معًا مع صدره. لكننا سنترك تلك الخُطب التي أثرت فينا بعمق إلى هؤلاء الذين يبنون فرضياتهم المفضلة، حيث سيرفضون نفاية ما وراء الطبيعة لتأسيس ومساندة طرفنا، سنعطيه بوضوح من جانب جوزيف الذى لم تكن سعادته فقط أعظم من سعادة القس، ولكنها دامت لمدة أطول، فبمجرد أن انتهت نوبات النشوة الأولى التي انتابت أدمس، نظر تجاه المدفأة حيث كان إخليوس يلفظ أنفاسه الأخيرة، وفي الحال أنقذ البقايا المسكينة، ليرى جلد الغنم يغطي صديقه العزيز، حيث كان شُغل يديه ورفيقه المتلازم لأكثر من ثلاثين سنة.

وبمجرد أن شفيت فاني تمامًا؛ بدأت تُقيد تهور نشواتها، وبدأت تتأمل فيما فعلته وسمحت به في حضور العديد من الأشخاص، وبالتالي ظهر عليها اضطراب فدفعت جوزيف بعيدًا عنها برقة، وترجته أن يهدأ ويكف عن العناق والقبلات.

عندما رأت السيدة سيلبسلوب؛ انحنت وأظهرت احترامًا لها، لكن لم تشكرها هذه السيدة المتكبرة، فقد نظرت في ناحية أخرى، وانسحبت على الفور إلى حجرة أخرى، وهمهمت وهي ذاهبة، متعجبة من تكون تلك المخلوقة؟

الفصل الثالث عشر

رسالة تخص الطبقة العليا والطبقة السفلى،

ورحيل السيدة سيلبسلوب وهى فى حالة

مزاجية سيئة، تاركة أدمس وصحبته فى مأزقٍ

بغيض.

بلا شك سيبدو غريبًا للغاية للعديد من القُراء. أن السيدة سيلبسلوب التى عاشت سنوات عديدة مع فانى فى نفس المنزل، نسيتها تمامًا، والحقيقة أنها تتذكرها جيدًا جدا.

وعلى الرغم من أننا لسنا مستعدين لأى شىء غير طبيعى يظهر فى قصتنا هذه، سوف نحاول شرح أسباب تصرفها هذا، وبلا شك سنكون قادرين على إرضاء فضول القارئ. إن السيدة سيلبسلوب لم تنحرف مطلقًا عن الطريق العادى بهذا التصرف، وهى فى الحقيقة قد فعلت هذا لكى لا تنحدر عن مستواها، ولكى لا تصبح معرضة للنقد. إنه لمن المعروف أن الأنماط البشرية منقسمة إلى نوعين من الناس، ووفقًا للمنطق أشخاص من طبقة عليا، وأشخاص من طبقة سفلى.

وبالنسبة لأشخاص الطبقة العليا، فلا أريد أن يفهم أحد أننى أعنى حرفيًّا الأشخاص الذين ولدوا بمعايير أعلى من باقى أنماط الناس، ولا مجازًا، صفوة الشخصيات، أو الإمكانيات، لذلك يجب ألا يفهم أنى أعنى بالطبقة السفلى من هم عكس ذلك.

إن أشخاص الطبقة العليا ما هم إلا أشخاص لهم قواعد وسلوك فى طبقاتهم، وأشخاص الطبقة السفلى ليس لهم قواعد أو سلوك. فقدت الآن كلمة "قواعد وسلوك" معناها الأصلى مع طول استخدامها؛ حيث إنها فى الوقت الحاضر تعطينا فكرة مختلفة تمامًا، لأننى خُدعت فى الأشخاص الذين يتخذون لأنفسهم قواعد وسلوكًا معينًا، فنحن لا نستطيع إدخال عنصر المنشأ، والإنجازات التى تتفوق بها جماعة البشر، حيث إنه فى الحقيقة ما يعنيه الشخص ذو القواعد والسلوك، ليس سوى أنه شخص يتصرف بقواعد وسلوك الوقت الذى هو فيه، ولا تعتبر الكلمة حقيقةً أكثر من الآن.

الآن، لأن العالم انقسم بين الأشخاص الذين لديهم قواعد وسلوك، والأشخاص الذين ليس لديهم قواعد وسلوك، نشب بينهم خلاف محموم، فإنهم يحاولون تجنب الشك الذى يمكن أن ينتج عن تبادلهم الحديث علانية، على الرغم من أنهم غالبًا يتفقون فى الحديث سرًّا.

فى هذا الخلاف من الصعب القول بأن أى طرف قد نجح، فقد استولى الأشخاص الذين يتخذون لأنفسهم قواعد وسلوكًا بمناصب عديدة لأغراضهم الخاصة، مثل البلاط الملكى، والاجتماعات، وحفلات الأوبرا، والحفلات الراقصة، إلى آخره.

أما الأشخاص الذين ليس لديهم قواعد أو سلوك، بالإضافة إلى منصب ملكى واحد أطلق عليه مكان الفوضى الخاص بعظمته، وقد استحوذوا على كل أماكن المتعة والمرح والكرنفالات إلى آخره.

هناك مكانان وافقوا على اقتسامهما وهما الكنيسة والمسرح، حيث يفصلون أنفسهم بطريقة ملحوظة؛ فيمجد أشخاصُ القواعدِ والسلوك أنفسهم فى الكنيسة على رءوس الأشخاص الذين ليس لديهم قواعد وسلوك، لذلك فى مكان المسرح يحقرون أنفسهم بنفس الدرجة تحت أقدامهم.

لم أر هذه التفرقة ولا يوجد شخص قادر على وصفها، إنه شيء كافٍ أن ننظر بعيدًا إلى كل طرف على أنهم إخوة فى المسيحية؛ فهم نادرًا ما يعتبرون أنفسهم من نفس الفصيلة.

إن هذا المصطلح " أشخاص أغراب " وأشخاص لا يعرفون الخالق والتعساء والبهائم والوحوش والعديد من التسميات الأخرى، من الواضح أنها تبرهن ما سمعته السيدة سيلبسلوب غالبًا من سيدتها، واعتقدت أنها أيضا لها الحق فى أن تستخدمه بدورها، وربما لم تكن مخطئة فى شأن هذين الطرفين، خاصة من يعتبرون على الحدود بين هذين الطرفين، فندرك أنهم أقل أشخاص الطبقة العليا، والأعلى فى الطبقة السفلى، فغالبًا ما يغيرون أطرافهم وفقًا للمكان والوقت، فيكونون من الذين يراعون القواعد والسلوك فى مكان، ويكونون غالبًا من الذين لا يراعون القواعد والسلوك فى مكانٍ آخر.

وفيما يتعلق بالوقت، ربما يكون غير سارٍّ معاينة صورة الاستقلالية مثل نوع من السلم، فعلى سبيل المثال ينهض مبكرًا فى الصباح الحوذى أو ولد فى نفس وصفه، حيث تكون العائلات الكبيرة ما هى إلا مقامات كبيرة، يبدأ فى تنظيف الملابس بالفرشاة، وتلميع حذاء جون الذى قد ارتدى ملابسه، ثم يقوم هو بنفس مهام السيد سكند هاند، فارس الرجل. بالطريقة المماثلة، ثم بعد قليل يحضر الفارس بعد أن يستعد؛ حتى يقوم بتجهيز سيده الذى يقوم بمجرد أن يتم استعداده بدوره بتقديم فرائض الولاء والطاعة للذات الملكية التى تتفضل عليه؛ بأن يقوم بمساعدته فى ارتداء ملابسه والاستعداد للحفل.

ربما لا يوجد فى هذا السُّلم الاجتماعى بأكمله نوع من الاستقلالية، أى واحد يخطو لمسافة أكبر من الآخر، لذلك يبدو السؤال للفيلسوف: إذا كنت ستختار أن تكون رجلاً عظيمًا فى السادسة صباحًا أو فى الثانية بعد الظهر. ومن ثم سيكون نادرًا لاثنين من هؤلاء الذين سيعتبرون أن الألفة مع الأشخاص الأقل شأنًا نوع من التنازل، وإذا خطوًا خطوةً واحدة أبعد يعتبر انحطاطًا.

والآن أيها القارئ أتمنى أن تصفح عن هذا الاستطراد الطويل؛ والذى بدا ضروريا لى للدفاع عن شخصية السيدة سيلبسلوب العظيمة ضد ما يمكن أن يفكر فيه أشخاص الطبقة السفلى، الذين لم يروا أشخاص الطبقة العليا، والذين يمكن أن يسخروا منها. ونحن الذين نعرفهم نجد يوميا أشخاصًا من طبقات عليا جدا يعرفوننا فى مكان واحد وليس فى مكان آخر، اليوم وليس غدًا، فمن الصعب شرح ذلك بطريقة أفضل، وربما وفقًا لرأى البعض، لو خلق الله الرجال فقط ليسخروا منهم فليس هناك جزء من تصرفنا الذى سيُجيب عن نهاية إبداعنا أحسن من ذلك.

لكن لنرجع إلى قصتنا، يتخيل أدمس الذى لم يعرف كثيرًا عن هذا، مثل القطة الجالسة على المنضدة، أن ذاكرة السيدة سيلبسلوب، أصبحت أسوأ مما كانت فتبعها إلى الحجرة المجاورة، وصاح قائلاً: " مدام سيلبسلوب، إنها واحدة من معارفك القديمة، انظرى كم هى امرأة جميلة، لقد كبرت منذ أن تركت خدمة السيدة بوبى".

أجابت بوقارٍ كبير: " أعتقد أننى أتذكر شيئًا ما فيها، لكننى لا أتذكر كل الخادمات الأقل شأنًا فى عائلتنا".

ثم استمرت لإرضاء فضول أدمس قائلة له: "عندما وصلت الفندق وجدت عربة جاهزةً من أجلها، فمن المنتظر أن تأتى سيدتها قريبًا جدا إلى البلدة، فاضطرت أن تسرع بأقصى درجة، وتعاطفًا مع عدم قدرة جوزيف على المشى أخذته معها، وفى النهاية ازدياد قوة العاصفة؛ أتى بهم إلى هذا المنزل حيث وجدهم".

بعد أن أعلمت أدمس أنه قد ترك حصانه، وعبرت عن بعض تعجبها من أنه قد ضل طريقه بعيدًا، وقابلته كما قالت بصحبة تلك الخادمة، التى خشيت ألا تكون أفضل مما يجب أن تكون عليه.

وما إن تذكر أدمس الحصان حتى أخذ فى التفكير فى شخصية فانى. واحتج بأنه اعتقد أنه ليست هناك فتاة في الوجود فى عفتها، صاح قائلاً: " أتمنى من قلبى، أتمنى من قلبى " – مطقطقًا أصابعه – ... "من هم من طبقة أعلى منها كانوا مثلها". أكمل ليطلعها على الحادثة التى كانت سبب لقائهم، لكنه عندما ذكر ظروف تخليصها من الاغتصاب قالت إنها ترى أنه ملائم للجيش أكثر من أن يكون رجل دين، فلن يصبح رجل دين إذا استخدم العنف مع أى أحد، كان من الأفضل أن دعا لها بقوة.

قال أدمس إنه لا يشعر بالخجل مما فعل، أجابت إن الخجل ليس من صفات رجل الدين.

كان من المحتمل أن يشتد هذا الحوار، لولا دخول جوزيف الحجرة فى الوقت المناسب لكى يطلب مغادرة السيدة سيلبسلوب ليقدم فانى، لكنها رفضت بشدة أن تسمح لمثل هذه الفاسقة، وقالت له من الأفضل أن تُحرق قبل أن تَدعه يركب فى عربة معها لو احترمته مرة، لأن الفاسقة التى يعرفها هوجمت على الطريق من أجله، مضيفة أن السيد أدمس قد تصرف بطريقة جيدة جدا، وهى لا تشك فى رؤيته مطرانًا يومًا ما.

انحنى بأقصى ما استطاع ثم صاح قائلاً: " أشكرك يا سيدتى على هذا اللقب المبجل، الذى من أجله سأتخذ كل الطرق الأمينة لكى أستحقه".

فقالت بسخرية: " طرق أمينة جدا، لتجمع الناس معًا".

وعند تلك الكلمات مشى أدمس خطوتين أو ثلاثًا عبر الحجرة بخطوات واسعة، عندما أتى سائق المركبة لإخبار السيدة سيلبسلوب أن العاصفة قد انتهت، وأن القمر كان ضوؤه ساطعًا. ثم أرسلت إلى جوزيف الذى كان جالسًا مع فانى فى الخارج ورغبت أن يذهب معها، لكنه رفض نهائيا أن يترك فانى، مما أثار غضب السيدة الفاضلة.

قالت إنها ستُخبر سيدتها بما يحدث، وبلا شك فإنها ستخلص الأبرشية من هؤلاء الأشخاص، وأنهت بخطابٍ طويل مليء بكلماتٍ صعبة جدا ومريرة، وبعض الأفكار المشينة عن رجال الكنيسة، والتى ليس من الملائم إعادتها. فى النهاية، عندما وجدت أن جوزيف لم يتحرك اندفعت بقوة داخل العربة، وهى تنظر إلى فانى نظرة تشبه نظرة كليوباترا إلى أوكتافيا فى المسرحية.

وإذا قلنا الحقيقة فقد أصبحت سيئة الطبع وخائبة الأمل؛ لوجود فانى، وكانت هكذا منذ المرة الأولى التى رأت فيها جوزيف فى الفندق، تخيلت آمالاً لشىء ما كان يمكن أن يتحقق فى حانة بما أنه مكان جيد. من المحتمل حقا أن السيد أدمس لم ينقذ فانى وحدها من خطر الاغتصاب هذا المساء.

عندما نقلت العربة سيليبسلوب الغاضبة، اجتمع أدمس، وجوزيف وفانى حول المدفأة حيث بدأت محادثة بريئة وجميلة، ولكنها من الممكن ألا تكون مسلية للقارئ، سرعان ما هلّ الصباح، ونلاحظ أنه لم يذهب أحد منهم إلى الفراش هذه الليلة.

نام أدمس قليلاً فى مقعد كبير بعد أن دخن ثلاثة غليونات وترك المحبين، حيث كانت عيناهما مشغولتين جدا ولم يشعرا بأية رغبة فى إغلاقهما، من أجل الاستمتاع ببعضهما. وظلا فى سعادة بضع ساعات، وهى سعادة لا يستطيع أحد من قرائى إذا لم يكن قد وقع فى الحب من قبل أن يفهم تلك السعادة، على الرغم من أن لنا ألسنة عديدة مثل هومر للتعبير عنها، والتى يمثلها كل المحبين الحقيقيين لعقولهم الخاصة دون أدنى مساعدة منا.

إنه كافٍ بعد أن نقول إن فانى بعد العديد من التوسلات، تركت نفسها فى النهاية لجوزيف، وكانت تقريبًا فاقدة الوعى بين ذراعيه، بتنهدات أرق وألطف من أية نسمة عربية، همست إلى شفتيه التى كانت قريبة جدا من شفتيها قائلةً " آه، جوزيف، لقد فزت بى، سأكون ملكك للأبد."

شكرها جوزيف وهى على ركبتيه وعانقها بلهفة، وبادلته هى الآن ذلك، ثـم قام وهو فى نشوة وأيقظ القس، وهو يتوسل له جديًا، أن يـربط بينهمـا بالربـاط المقدس فى تلك اللحظة.

وبخه أدمس على طلبِهِ هذا، وقال له إنه لن يوافق لأى سبب على أى شيء مناقض لتقاليد الكنيسة، فهو ليس لديه ترخيص حتى يزوجهـا، ولا ينـصحه حقـا بالحصول على واحدٍ، حيث فرضت الكنيسة تقليدًا وهو الجهر بالدعوة الذى أذعـن له كل المسيحيين، وبإسقاطه نسب العديد من التعاسة التى أصابت الكثير من الناس فى الزواج، وأنهى قائلاً: " كما أن العديد اتحدوا معًا تحت كلمة الإله التى قد يسمح بها، وألا يتحدوا معًا بزواج غير قانونى".

اتفقت فانى مع القس قائلة لجوزيف وهى خجلانة أنها أكدت لـه أنهـا لـن توافق على شيء مثل ذلك، وأنها قد تعجبت من عرضِهِ لذلك.

وبهذا القرار أراحت وأرضت أدمس، واضطر جوزيف أن يـصبر حتـى الجهر بالدعوة، على الرغم من أنه حصل على موافقة فانى فى حـضور أدمـس، بتقديم طلب عند وصولها.

أشرقت الشمس الآن منذ بضع ساعات عندما اكتشف جوزيـف بـذهول أن ساقه قد شفيت، فعزم المشى قدمًا، لكن عندما استعدوا لبدء رحلتهم وقعـت حادثـة أخرتهم قليلاً.

وتلك الحادثة ما هى إلا حساب ما يقدر بسبعة شيلنات وهـو لـيس مبلغًـا كبيرًا، لو فكرنا فى كمية الخمر الكثيرة التى شربها السيد أدمس.

وهم لم يكن لديهم حقا اعتراض على أن الفاتورة معقولة، لكن العديـد مـن الاعتراضات على احتمال دفعها؛ ولأن الشخص الذى هاجمها أخذ كيس نقودهـا ولسوء الحظ نسى أن يُعيده. لذلك ظل الحساب هكذا:

السيد أدمس ورفيقه الدكتور	٠٧٠
فى جيب السيد أدمس	٠٠٦,٥
فى جيب السيد جوزيف	٠٠٠
فى جيب فانى	٠٠٠
الميزانية	٠٦٥,٥

ظلوا صامتين بضع دقائق قليلة، يحملق كل واحد منهم للآخر، عندما ضرب أدمس على أصابع قدمه وسأل المضيفة ألا يوجد رجل دين فى الأبرشية؟

فأجابت: " يوجد ". فأجاب هو: " هل هو غنى؟" وأجابت هى على ذلك أيضا بالإيجاب. ثم طقطق أدمس أصابعه ورجع سعيدًا إلى أتباعه صاح قائلاً: " هيركا، هيركا ". وهو ما لم يكن مفهومًا. وأخبرهم بالإنجليزية البسيطة: "ليس هناك مشكلة". لأنه وجد أخًا فى الأبرشية هو الذى سيدفع الحساب، بمجرد أن يذهب إلى منزله ويحضر النقود ويُعطيها لهم فى الحال.

الفصل الرابع عشر

مقابلة بين القس أدمس والقس تريليبر.

ذهب القس أدمس إلى منزل القس تريليبر الذى وجده مجردًا إلـــى صـــدره، مرتديًا "مريلة" وفى يده دلو، وقد أتى توًّا بعد إطعام خنازيره، حيــث كـــان الـــسيد تريليبر قسًّا يوم الأحد فقط ، والأكثر ملائمة أن نُطلق عليه فى الأيام الستة الأخرى أنه مزارع.

إنه يعمل فى قطعة أرض يملكها، بالإضافة إلى ذلك يؤجر قطعـــة أكبـــر. تحلب زوجته أبقاره، وتتولى صناعة اللبن والزبد وتمد الأسواق بالزبد والبيض.

وكانت عنايته الأكثر بالخنازير، حيث نالت عنايته بالمنزل، وحـــضر بهـــا معارض، كان عُرضة فيها للعديد من النكت، وكان له وضع خاص فى نقل شراب البيرة الذى هو أقل شأنًا من البهائم التى يبيعها.

إنه حقا أحد أكبر الرجال حجمًا يمكنك رؤيته، وباستطاعته القيام بدور السيد جون فالستاف دون هراء.

بالإضافة إلى هذا فإن استدارة بطنِه تظهر بشكلٍ ملحـــوظ لقـــصر قامتـــه، ويتصاعد ظله بطريقة قريبة جدا كلما بَعدُ فى الطول عندما يرقد على ظهـــرِه، أو عندما يقف على ساقيه، وصوته عالٍ وأجش، ونبراته عريضة للغاية.

ولإتمام كل هذا؛ لديه جلال فى مشيِه إذا مشى، وهى ليست مـــشية الإوزة، فهو يتهادى ببطء.

عندما علم السيد تريليبر أن شخصًا ما يُريده خلع على الفور مريلته وارتدى ملابس النوم، وهو الرداء الذى يقابل به دائمًا رفقاءه.

زوجته التى أخبرته بوصول السيد أدمس، أخطأت خطـأً صـغيرًا، لأنهـا أخبرت زوجها أنها تعتقد أن هنا رجلاً أتى من أجل خنازيره.

جعل هذا الافتراض السيد تريليبر يسرع بأقصى سـرعة لمقابلـة ضـيفه، بمجرد أن رأى أدمس؛ لم يشك أن سبب مجيئه ماهو إلا ما تخيلته زوجته، أخبـره أنه أتى فى وقتٍ مناسب جدا، حيث إنه كان منتظرًا تاجرًا هذا المـساء القريـب، وأضاف أنها جميعًا تتصف بالنقاء والسمنة، والقطعة تُقدر بما فوق العشرين.

أجاب أدمس أنه اعتقد أنه لا يعرفه، قال تريليبر: " نعم، نعم، لقد كنت أراك أحيانًا فى معرض، لماذا لم نتعامل معًا من قبل، إننى أضمنك، نعم، نعم ".

صاح قائلاً: " إننى أتذكر وجهك جيدًا، لكننى لن أضيف كلمة قبل أن تراها، ولن أبيع قطعة من لحم الخنزير المملح كما هو الآن فى الزريبة".

وعلى ذلك أمسك أدمسَ بيديه العنيفتين، وسحبه إلى زريبة الخنـازير التـى كانت على بعد خطوتين من نافذة قاعة استقباله، وبمجرد أن وصلا صاح قـائلاً : "اقترب وأمسكها، اقترب يا صديقى وأمسكها لتقرر إن كنت ستشترى أم لا".

وبتلك الكلمات فتح البوابة، ودفع أدمس إلى زريبة الخنازير، مُصِرًّا على أن يمسكها قبل أن يتحدث بكلمة معه.

أدمس الذى كان أدبه الغريزى عكس أى تكلف، اضطر للاستجابة قبـل أن يستطيع تقديم نفسه، ورقد محاولاً الإمساك بذيولها، وأوقعه هذا الحيـوان العنيـد، حيث إنه ألقى بأدمس المسكين فى مستنقع وحل.

بدلاً من أن يساعده تريليبر على أن ينهض انفجر فـى الـضحك، ودخـل الزريبة وهو يقول لأدمس ببعض من الاحتقار: " ألا تعرف كيف تمسك خنزيـرًا؟"

وذهب ليمسك واحدًا بنفسه، لكن أدمس الذى رأى أنه كان مؤدبًا بما فيــه الكفايــة، هرب قبل وصول الحيوان إليه بمجرد أن وقف على ساقيه وصاح قــائلاً: " Nil habeo cum porcis" [بالعربية] "ليس لدى ما أفعله مع الخنزير"

"إننى رجل دين يا سيدى، ولم آتِ من أجل شراء الخنزير ". أجاب تريليبــر أنه أسف لهذا الخطأ، لكن اللوم على زوجتِهِ، مضيفًا أنها حمقاء ودائمًــا ترتكــب أخطاء فاضحة.

ثم طلب من أدمس الذهاب لتنظيف نفسه، وهو سيتبعه بعد إغلاق الزريبــة. طلب أدمس المغادرة من أجل تجفيف معطفه، والجُمَّة، والقبعة، بجوار المدفأة، وقد وافق تريليبر على ذلك.

أحضرت له السيدة تريليبر حوض ماء ليغسل وجهه، لكن أمرها زوجها أن تتصرف بهدوء ولا تكون حمقاء كما فعلت؛ وإلا سترتكب الكثيــر مــن الأخطـــاء الفاضحة، ثم وَجه أدمس إلى المضخة.

بينما كان أدمس مشغولاً، أدرك تريليبر أن مظهر ضيفه لا يوحى بالاحترام فأغلق باب صالة الاستقبال، وأخذه الآن إلى المطبخ قائلاً له أنه يعتقد أن كأسًا من الشراب لن يؤذيه، وهمس فى أذن زوجته أن تصب قليلاً من أسوأ أنواع البيرة.

بعد صمتٍ قليل، قال أدمس: " سيدى أعتقد أنك قد أدركت بالفعل أننى رجل دين". صاح تريليبر قائلاً ويبتسم: "آه، آه، أراك مرتديًا رداء الكاهن، ولن أغــامر بالقول إنه رداءٌ كامل".

أجاب أدمس إنه حقا لا بأس به، لكن لسوء حظه اضطر أن يمزقه منذ عشر سنوات من أجل المرور فوق باب.

رجعت السيدة تريليبر بالشراب قائلة لزوجها إنها اعتقدت أن الرجل مسافر، وسيكون مسرورًا إذا أكل لقمة.

أمرها تريليبر أن تكف بوقاحة لسانها، وسألها هل اعتاد القسيسون السفر دون خيول؟ مضيفًا أنه يعتقد أن الرجل ليس لديه شيء لأنه ليس لديه مِئزر.

قال أدمس: " نعم يا سيدى نعم، إن لدى حصانًا، لكننى تركته خلفى".

قال تريليبر: " إننى سعيد لمعرفتى بأن لديك واحدًا، لأننى أؤكد لك أننى لا أحب أن أرى رجل دين يمشى على قدميه، إنه ليس لائقًا، ولا يناسب وقار الملابس".

وهنا قال خطابًا طويلاً عن وقار الملابس (أو إلى حد ما العباءة) وهو لا يستحق الرواية، إلى أن أعدت زوجته المنضدة ووضعت مقدارًا من طعام العصيدة من أجل إفطاره.

ثم قال لأدمس: " إننى لا أعرف يا صديقى لماذا أتيت لزيارتى، لكن بما أنك هنا، لو تعتقد أنه ملائم لك أن تأكل لقمة، فيمكنك فعل هذا".

قَبل أدمس الدعوة وجلس القسيسان معًا، ووقفت السيدة تريليبر منتظرة خلف مقعد زوجها كما لو كانت هذه هى عادتها.

أكل تريليبر بشهية لكنه نادرًا ما وضع شيئًا فى فمه دون أن يجد خطأً فى طهى زوجته، وتحملت المرأة المسكينة كل هذا وهى صابرة.

وهى حقا لم تكن متعجبة مطلقًا من عظمة وأهمية زوجها فى لفتاته المتكررة لها التى تخرج من فمه، فهى دائمًا تحمل حبها الشديد لرأيه الذى لا يُخطئ.

إذا قلنا الحقيقة فقد دربها القس بأكثر من طريقة، وتهذبت المرأة التقية بمواعظ زوجها؛ حيث إنها قررت أن تستقبل الأشياء السيئة فى هذا العالم مع الأشياء الحسنة. وهى حقا كانت مشاكسة فى البداية، وقد أخذ ذلك منه كثيرًا حتى أصبحت أحسن، إلى حد ما بحبها لذلك، وإلى حد ما بخوفها من ذلك، وإلى حد ما بدينها، وإلى حد ما بالاحترام الذى دفعه، وإلى حد ما بما تلقاه من الأبرشية.

فبالاختصار كان عليها أن تخضع تمامًا، وهى الآن تعبد زوجها كما فعلت سارة مع إبراهيم وهى تناديه (ليس بلورد وهو كالإله لكن) سيدى.

بينما كانوا على المنضدة أعطاها زوجها مثالاً قويًّا على عظمته، حيث إنها عندما أخذت كأس البيرة من أدمس، خطفه من يده وصاح قائلاً: "لقد طلبته أولاً". والتهم شراب البيرة.

وأنكر هذا أدمس، وعندما حكّم زوجته بينهما، والتى على الرغم من أن يقينها كان لأدمس فإنها لم تجرؤ على الشهادة ضده.

وعلى هذا قال: " لا يا سيدى، إننى لست وقحًا لكى آخذه منك إن كنت طلبته أولاً، لكن أود أن أعلمك أننى رجل أعلى منزلة فلا أترك أفضل من فى المملكة ليشرب قبلى فى بيتى عندما أطلب أنا أولاً".

بمجرد أن انتهوا من إفطارهم بدأ أدمس الحديث بالطريقة التالية: " أعتقد يا سيدى أنه وقتٌ مناسب لأُخبرك بمسألة وجودى، إننى مسافر، وأمضى فى هذا المكان بصحبة اثنين من الشباب صبى، وفتاة، من أبناء أبرشيتى وبجزء من منصبى بوصفى راعى أبرشية، وقد توقفنا فى منزل للضيافة فى الأبرشية، حيث دلونى هناك عليك بما أنك راعى الأبرشية هنا.

قال تريليبر: " على الرغم من أننى راعى الأبرشية، أعتقد أننى متحمس مثل القس نفسه، أو ربما قائد الأبرشية المجاورة أيضا، أعتقد أننى أستطيع شراءهما معًا".

قال أدمس: " سيدى، إننى سعيد بهذا المكان، إن مشكلتى الآن يا سيدى هى أننى قد سُلبت مالى بسبب العديد من الحوادث، ولست قادرًا على دفع حسابنا، وهو سبعة شلنات، لذلك أطلب منك مساعدتى باقتراض السبعة شلنات، وأيضا سبعة شلنات أخرى، والتى ربما أرجعها إليك، لكن إن لم أرجعها، فإننى مقتنع أنك ستغتنم الفرصة بكل سرور لادخار ثروة فى أفضل مكان أحسن مما يقدمه العالم".

افترض أن غريبًا دخل مكتب محامٍ، وقد تخيله المحامى كاتبًا عندما كان المحامى يمد يده من أجل أخذ الأتعاب؛ فعليه أن يرفع دعوى قضائية ضده.

افترض أن صيدليًّا أمام باب مركبة بها بعض الأطباء العظام لهم كفاءة بارزة، فبدلاً من إعطاء توجيهات للمريض، تقدم له هو بجرعة دواء.

افترض بدلاً من أن يقدم وزير مبلغًا ضخمًا من المال، يعامل سيدى ... بعصا المكنسة. افترض بدلاً من أن يكون لصديق عادى أو لقبطان تعود القيادة، عفة وكرامة وجمال ومشاركات وتأمل، يكون له دَوىٌّ من الرذائل، وعار وقباحة وحماقة واحتقار فى أُذن حاميه. افترض عندما يتقدم تاجر بفاتورته لرجل يعرف القواعد والسلوك و عليه أن يدفعها، أو افترض أنه فعل ذلك فعلى التاجر أن يمتنع عن طلب نقود إضافية وأن ينتظر.

بالاختصار، خمن ما الذى لا تستطيع افتراضه مساويًا للدهشة التى حلت على تريليبر بمجرد أن أنهى أدمس كلامه. بدأت عيناه تتقلب لبرهة فى صمت، فيتفحص أدمس أحيانًا، ثم زوجته، ثم يلقى بعينيه ناظرًا إلى الأرض، ثم يرفعهما ناظرًا إلى السماء.

فى النهاية، انفجر فى الحديث باللهجة التالية: " سيدى، إننى أعتقد أننى أعرف أين أدخر ثروتى القليلة وأيضا ثروة أخرى. أشكر الله أننى لست غنيا مثل بعضهم، إننى راضٍ، فهذه نعمة أعظم من النعمة التى فيها الأغنياء، فأفضل من أن تكون غنيا أن تكون راضيًا بما قُسم لك، وهذا أعظم من أن تمتلك العالم، الذى يمكن للإنسان امتلاكه دون أن يكون غنيا. ازدادى يا ثروتى!! ماذا يحدث حيث تكون ثروة الإنسان، حيث يكون قلبه فى الكتاب المقدس، حيث يجب أن تكون ثروة المسيحى".

جعلت هذه الكلمات الدموع تَذرف من عينى أدمس، فأمسك يد تريليبر فى سعادة قائلاً: " أخى، أشكر الله على الحادثة التى جعلتنى أحضر لرؤيتك، لقد مشيت

أميالاً عديدة لكى أتحدث معك، وصدقنى سأزورك مرة ثانية قريبًا. لكن يا صديقى إننى متعجب هذه المرة من انتظارى، لذلك أعطنى المال الآن". نظر تريليبر نظرةً عابسةً وصاح قائلاً: " أتريد سرقتى؟ " وعند ذلك انفجرت الزوجة فى البكاء، وركعت على ركبتيها وتأوهت قائلةً: " سيدى العزيز!! بحق السماء لا تسرق سيدى، إننا مجرد أشخاص فقراء".

قال تريليبر: " انهضى أيتها الحمقاء، واذهبى وشأنك، هل تعتقدين أن هذا الرجل سيغامر بحياته؟ إنه شحاذ، وليس لصًّا". قال أدمس: "فى الحقيقة، إن هذا صحيح تمامًا".

صاح تريليبر قائلاً: " إننى أتمنى من قلبى، لو كان الرجل الذى يجمع الضرائب هنا، لعاقبتك كالمتشرد على وقاحتك. أربعة عشر شلنًا، إنى لا أعطيك شيئًا ضئيل القيمة. أعتقد أنك لست إلا رجل دين أحسن من هذه المرأة (مشيرًا إلى زوجته)، ولو أنك تستحق خلع العباءة التى عليك لتنقلك من مكان إلى آخر بهذه الطريقة.

قال أدمس: " سأغفر لك شكوكك، لكن افترض أننى لست رجل دين، فعلى الأقل إننى أخوك ومسيحى مثلك، وهذا أكثر من أن أكون رجل دين، وعليك أن تخفف محنتى".

أجاب تريليبر: " أتوعظنى؟، هل تتظاهر بتوجيهى فى واجبى؟ "

صاحت السيدة تريليبر: " قصة بارعة لوعظ سيدى".

صاح تريليبر قائلاً: " اسكتى أيتها المرأة، أود أن أعلمك، يا صديقى (مخاطبًا أدمس) إننى لن أتعلم واجبى من واحد مثلك، إننى أعلم من هو أحق بالصدقة بدلاً من إعطائها لمتشردين".

قالت الزوجة: " علاوة على ذلك، لو كنا مقتنعين، فإن منزلة الفقراء تضطرنا لإعطائهم مزيدًا من الصدقة".

أجاب تريليبر: " اصمتي أيتها الحمقاء، منزلة الفقراء!! كُفى عن هذا الكلام الفارغ". ثم استدار لأدمس وقال له إنه لن يعطيه شيئًا.

قال أدمس: " إننى آسف حيث إنك لا تعلم ما هى الصدقة، لأنك لا تخرجها كما يجب، علىَّ أن أُعلمك، لو وثقت فى معرفتك لتبرئة نفسك، سوف تجد أنك انخدعت، على الرغم من أن عليك إضافة الإيمان عليه، دون الأعمال الخيرة."

قال تريليبر: " أيها الرفيق، هل تتحدث ضد الإيمان فى منزلى؟ اخرج من بيتى، لم أعد أتحمل البقاء تحت سقف واحد مع مؤذٍ يتحدث عبثًا عن الإيمان والكتاب المقدس". قال أدمس: " لا تذكر الكتاب المقدس".

صاح تريليبر قائلاً: " كيف! لا أذكر الكتاب المقدس؟ أتكفر بالكتاب المقدس؟" أجاب أدمس: " لا، لكنك أنت تكفر به، لو يمكننى تبرير تآمركم، حيث إن قيادتهم واضحة للغاية، ومكافأتهم، ومعاقبتهم كبيرة جدا، حيث من المستحيل أن يؤمن الإنسان بإخلاص دون طاعة. الآن ليس هناك قيادة يمكن التعبير عنها، ولا واجب ممكن الاستمتاع به بكثرة إلا الصدقة. إذن فلا أتردد فى القول على من يتجنب الصدقة أنه ليس مسيحيا".

قال تريليبر: " لا أنصحك أن تقول عنى إننى لست مسيحيًّا، إننى لن أنتظرها منك، لأننى أومن أننى خَيِّرٌ مثلك." (على الرغم من أنه الآن إلى حد ما بدين جدا حقا على التمرينات الرياضية، فقد كان فى شبابه أحد أحسن المصارعين، ومبارزى النبابيت فى المقاطعة)

عندما رأته زوجته يمسك بقبضته اعترضته وتوسلت إليه ألا يتشاجر، لكن يظهر بمظهر المسيحىّ الحقيقيى ويأخذ حقه منه بالقانون.

وحيث لم يكن هناك شيء يستفز أدمس ليُظهر هجومًا إلا هجومًا مطلقًا عليه أو على صديقه، ابتسم على إيماءات تريليبر الغاضبة، وقال له إنه آســف لرؤيــة هؤلاء الرجال يرحلون بالتتابع دون أية مراسم أخرى.

الفصل الخامس عشر

مغامرة ونتيجة ،
مثال جديد أعطاه القس أدمس عن غياب
ذاكرته المستمر.

عندما رجع إلى الفندق وجد جوزيف وفانى يجلسان معًا. لقد كانــا بعيــدين تمامًا عن التفكير فى غيابه الطويل، حيث إنه خاف أن يفكرا فى ذلــك، فهمــا لــم يفتقداه أو حتى يفكرا فيه فى الحقيقة، لقد تأكد منهما أنهما قد قضيا تلك الــساعات فى حديث مبهج للغاية، لكن حيث إننى لم أستطع السيطرة عليه أو روايتــه؛ لــذلك فلن أستطيع نقله للقارئ.

أخبر أدمس المحبين بفشل نجاح مغامرته، وقد كانوا جميعًا مرتبكين للغاية، ولم يقدر أحد منهم على عرض أية طريقة للرحيل، حتى فى النهاية أشار جوزيــف باستدعاء المضيفة وطلبوا منها أن تثق بهم، فقالت فانى إنه لا أمل فى هذه السيدة؛ حيث كان وجهها أبغض وجه سيدة قد رأته.

لكن قد خاب ظنها، حيث إنه بمجرد أن سألت المضيفة السؤال وافقت بالفعل وتمنت لهم بابتسامة واحترام رحلة طيبة.

على الرغم من أن مهارة فانى فى قراءة ملامح الوجه تستوجب التــساؤل، سوف نُغامر بتقديم سبب واحد، وهو الذى من المحتمل أن يستميلها إلى تلك الثقــة وطلاقة المحيا.

عندما قال أدمس إنه ذاهب لزيارة أخيه، قال ذلك دون أن يتعمد أن يسىء فانى وجوزيف فهمه؛ حيث اعتقدا أنه يقصد أخاه بالفطرة وليس أخاه فى الله، لذلك أبلغ المضيفة عندما استفسرت عنه أنه ذهب لمقابلة أخيه؛ لذلك وبسبب ما يمتلكه السيد تريليير من ادعائه التدين والوقار والتحفظ والصرامة ورأيه عن الثروة الهائلة، وسلطته الكبيرة فى أبرشيته، جعلتهم جميعًا يعيشون فى أقصى درجات الخوف منه.

لذلك بلا عجب عَرفت المضيفة أنه باختياره يمكنها بيع كأس آخر من الشراب، لم تجرؤ على إهانة أخيه المزعوم بجحد الدين.

إنهم الآن على وشك الرحيل، عندما تذكر أدمس أنه قد ترك معطفه وقبعته عند السيد تريليير، ولم يكن راغبًا فى زيارته مرة ثانية، ولم يكن لدى المضيفة أى خادم بالمنزل لكى يحضر تلك الأشياء.

كان هذا سوء حظ مناسب، حيث لم تنخدع فى قرارها باستضافة أدمس الذى قد أهانه تريليير بأفظع الكلمات، خاصة عندما سمع أن لديه الثقة بالتظاهر بأن يكون على صلة قريبة به.

وعند رجوعها غيرت موقفها، قالت إن بعض الناس من الممكن أن يخجلوا من السفر فى الجوار وأن يتظاهروا بما ليس بهم.

إن الضرائب عالية، ومن جانبها فهى ملتزمة بدفع ما عليها، فليس من الممكن لها أن تثق ولن تثق فى أى أحد ولا حتى فى أبيها. إن النقود ليست قليلة، وعليها جمع مبلغ من المال، لذلك فقد توقعت أنهم سيدفعون الحساب قبل أن يتركوا المنزل.

تحير أدمس الآن للغاية، لكن لأنه يعرف أنه يمكنه بسهولة اقتراض هذا المبلغ فى أبرشيته، ولأنه يعرف أنه سيسلفه لأى شخص فى محنة، فبشجاعة قوية بدأ رحلة فى أنحاء الأبرشية، لكنه رَجع مفلسًا كما ذهب، يتأوه ويندب أنه من

الممكن أن يكون فى بلدة تدين بالمسيحية وهو بائس يموت جوعًا وسط أتباعه الذين يُحيطون به.

وبعد أن ذهب، بدأت المضيفة التى جلست كحارسة مع فانى وجوزيف تحكى لهم عن طيبة القس تريليير. وهو حقا لم يكن فقط شخصية طيبة جدا بالنسبة للجوار، لكنه كان معروفًا عنه أنه رجل خيِّر للغاية، فعلى الرغم من أنه لم يعط أشياء ضئيلة القيمة، فإن تلك الكلمة دائمًا فى فمه.

بمجرد أن رَجِع أدمس مرة ثانية هبت عاصفة شديدة للغاية، فقالت المضيفة وسط أشياء أخرى إنهم إن تحركوا دون دفع الحساب، سوف تتجاوز عنهم بضمان. قال الفلاسفة العظام مثل أفلاطون وأرسطو وربما شخص آخر عندما تفشل البراعة الشديدة فأحيانًا تُحرز المصادفة الهدف، ويكون هذا بأن يحدث ما لا يمكن توقعه.

عَبر فرجيل Vergil عن هذا بوضوح بالغ قائلاً:

Turne, quod optanti divum promittere nemo
Auderet , volvenda dies , en! attulit ultro.

بمعنى: (أن ما تعدكم الآلهة بتلبيته يمكن بمرور الوقت أن تُلبى تلك الآمال).

كان يمكن أن أنقل أقوالاً أخرى مشابهه عن كثير من العظماء لو باستطاعتى، لكن لا تُسعفنى ذاكرتى، سأواصل ضرب أمثلة عن تلك التأملات بالأمثلة التالية:

فقد صادف (حيث لم يكن أدمس بارعًا بدرجة كافية لأن يجد حلاً) فى هذا الوقت وجود رفيق فى الحانة، كان يعزف على الطبلة قبل ذلك فى كتيبة إيرلندية، وهو الآن يسافر من مدينة إلى أخرى بائعًا متجولاً.

وقد استمع هذا الرجل بانتباه لحديث المضيفة، وفى النهاية أخذ أدمسَ جانبًا وسأله عن قيمة المبلغ الذى قد احتجزوا من أجله. وبعد أن أخبره أدمس، تنهد وقال

إنه آسف لأنه كثير للغاية لأنه لا يمتلك سوى ستة شلنات وستة بنسات فى جيبه، وأنه على استعداد أن يقدمها لهم بكل رضا.

أبدى أدمس سعادته وصاح قائلاً إن هذا سيحل المشكلة؛ حيث إنه يمتلك معه ستة بنسات، وهكذا إن هؤلاء الفقراء لم يتلقوا أية رحمة أو شفقة من الأغنياء، وفى النهاية ساندهم فى محنتهم صدقة بائع متجول فقير.

سأترك لقارئى الحرية؛ ليبدى ما يريد من ملاحظات تسره فى تلك الحادثة، فيكفينى أن أخبره بعد جزيل الشكر الذى أبداه أدمس ورفقاؤه، وسأله أين يمكن أن يجدوه لإعادة المال إليه وبدأوا جميعًا رحلتهم دون أية مجاملة لمضيفتهم، وقال أدمس إنه سيأخذ حذره ألا يذهب هناك ثانيةً، ومن جانبها أكدت لهم أنها لا تريد استقبال ضيوف مثلهم.

الفصل السادس عشر

مغامرة غريبة جدا، أبدى خلالها السيد أدمس
أعظم دليل على طيبة وبساطة قلبه،
والتى تفوق خبراته فى أمور هذا العالم.

مشى مسافرونا حوالى ميلين من هذا الفندق، وكان لديهم أكثر من سبب جعلهم يذهبون إلى قلعة وهمية مثل دى كويكسوت؛ نظرًا للصعوبة التى واجهوها فى الخروج منه، حتى وصلوا إلى أبرشية ورأوا لوحة دعوة معلقة خارجها.

استفسر أدمس عن الطريق من رجل بجوار الباب وهو يدخن الغليون، وتلقى منه إجابة لطيفة للغاية مصحوبة بملامح مبتسمة، وبدأ القس الطيب الذى انشرح صدره للحب والحنان يسأل عدة أسئلة أخرى خاصةً عن اسم الأبرشية ومن هو مالك المنزل الضخم الذى كانت واجهته تطل عليهم.

أجاب الرجل بنفس الأسلوب السابق، وأما عن المنزل فأخبرهم أنه ملكه. ثم واصل كلامه بالطريقة التالية: " سيدى أعتقد من هيئتك أنك رجل دين، وبما أنك تسافر علي قدميك، أعتقد أن كأسًا من البيرة الجيدة لن تضرك، وأؤكد لك أن مالك الضيعة التى أقيم بها يعتبر أحسن مالك فى هذه المقاطعة. ما قولك، هل ستتوقف قليلاً لكى ندخن الغليون معًا؟ لا يوجد تبغ أفضل من هذا".

أسعد هذا العرضُ أدمسَ، الذى روى عطشه هذا اليوم بشراب لا بأس به، ليس أفضل بكثير من مخزون خمر السيدة تريليبر الذى كان أقل سواء فى النقاء أو الطعم الذى تساقط من تلك الحبوب التى منحها زوجها الكريم لخنازيره.

ومع ذلك، شكر الرجل بشدة على دعوته الطيبة، وطلب من جوزيف وفانى أن يتبعاه، ودخل حانة حيث الجبن والخبز الكبير وإبريق من البيـرة. وبمجـرد أن جلسوا أمامه تناول المسافرون الثلاثة الطعام بنهم لا حد له أكثر مما يمكن أن نجده فى أفضل مطعم رخيص فى الأبرشية فى شارع جامس.

كان الرجل مبتهجًا للغاية لتصرف أدمس الودى والمبهج، خاصة فى الألفـة التى تحدث بها مع جوزيف وفانى، والذى كان يناديهم أحيانًا أطفالى، وهى كلمة لا تعنى سوى أنهما أبناء أبرشيته، قائلاً إنه يعتبر كل هؤلاء الذين جعلهم الله مسئوليته – باعتباره راعى الأبرشية – أبناءه.

سلم الرجل عليه ومدحه بدرجة كبيرة على رقة مشاعره، وقال: "إن هذه حقا هى المبادئ الحقيقية للمسيحية، وأتمنى بشدة أن تنتشر فى كل مكان، لكـن علـى النقيض فأنا آسف للقول إن قس أبرشيتنا بدلا من أن يقدر أبناء أبرشـيته الفقـراء كجزء من عائلته؛ يبدو أنه يعتبر أنهم ليسوا من نفس فصيلته، فنادرًا ما يتحدث إلى أحد، إلا بعض أغنيائنا، بل إنه حقا لا يُحرك قبعته احترامًا للآخرين. إننى أضحك أحيانًا عندما أراه يوم الأحد يتبختر فى ساحة الكنيسة مثل الـديك الرومـى بـين صفوف أبناء أبرشيته، وهم ينحنون له بخضوع تام، ولا ينتبه إليهم كمجموعة مـن رجال الحاشية الأرقاء يحكمهم أكثر الأمراء غرورًا فى المسيحية. لكن إذا اعتبرنا هذا الغرور فى الإنسان العادى سخيفًا، فمن المؤكد أنـه مكـروه وبغـيض فـى الأشخاص المسئولين عن الروحانيات، فإذا كان هؤلاء المغرورون الذين يتفاخرون بثيابهم الملكية يثيرون سخريتنا، فمن المنطقى أن هذا الغرور عندما نراه فى رجل دين لابد وأن يثير احتقارنا".

قال أدمس: " بلا شك، إن رأيك صحيح، لكننى أتمنى أن تكون تلك الأمثلـة نادرة، فإن رجل الدين الذى أتشرف بمعرفته يتصرف بطريقة مختلفة، أرجـو أن تسمح لى يا سيدى أن أقول إن استعداد عديد من جمهور الناس يعرض إدانة رجال الكنيسة، ويمكن أن يكون سببًا لتجنبهم كثيرًا من الذل".

قال الرجل: "حقا إن هذا صحيح، إننى أجد يا سيدى أنك رجل له تفكير، وأنا سعيد لتلك الفرصة لمعرفتك، ربما مقابلتنا صدفة تكون غير ملائمة لك فى الوقت الحاضر، سأقول لك فقط إن الإلزام بتلك العيشة قديم وغير ثابت وقد أُنعم علىّ بها. أيها الطبيب أعطنى يدك وثبت نفسك بها بموتِهِ".

قال له أدمس إنه لم يبغض فى حياتِهِ إلا بعجزه المطلق ليبدى أى رد لذلك الكرم النبيل والزائد عن الحد.

صاح الرجل قائلاً: " إنه مجرد شىء يسير، يا سيدى، فأنت تستحق المزيد "أكثر من ثلاثمائة فى السنة". أتمنى لو تتضاعف الضيافة من أجلك".

انحنى أدمس وبكى من مشاعره، وشكره حينما سأله الآخر إن كان متزوجًا او لديه أى أولاد إلى جانب أولاده الروحانين الذى قد ذكرهم.

أجاب القس: " سيدى، إن لدى زوجة وستة أولاد فى خدمتك".

قال الرجل: " هذا لسوء الحظ، حيث إننى أرغب أن آخذك إلى منزلى لتكون قسيسى، على الرغم من أن لدى آخر فى الأبرشية (فإن بيت الكهنة ليس جيدًا بدرجة كافية) والذى سوف أجهزه لك. أرجوك هل زوجتك تعرف شيئًا عن صناعة اللبن؟"

قال أدمس: " لا أستطيع القول أنها تعرف". قال الرجل: " إننى آسف لهذا، كنت سأُعطيك نصف دستة أبقار وأراضٍ جيدة لحفظها".

قال أدمس وهو مبتهج: " سيدى إنك سخى للغاية."

قال الرجل: " العفو، إننى أقدر الثروة فقط لأنها تعطينى فرصة لفعل الخير، لأقابل شخصًا أرغب فى خدمته أكثر منك". عند تلك الكلمات سلم عليه بشدة، وقال له إن لديه حجرة جيدة لاستضافتِهِ هو وأصدقائه.

توسل إليه أدمس بأنه لا يريد أن يكون عبئًا عليه، وهم سيكونون على ما يرام بإقامتهم فى المنزل حيث كانوا، ونسى أنهم ليس لديهم ستة بنسات. لم ينكر الرجل هذا، وقال لنفسه كم تبعد المسافة التى سيسافرون إليها؟ قال إنها رحلة طويلة جدا إذا أخذوها على الأقدام، وقال إنه سيكون معروفًا منه لو سمحوا له أن يقرضهم خادمًا وخيلاً، مضيفًا أنهم لو أسعدوه بصحبتهم يومين فقط سيجهزهم بمركبته ذات الجياد الستة.

استدار أدمس إلى جوزيف وقال: " من حسن الحظ أن هذا الرجل طيب معك، إننى خائف أن ساقك الضعيفة لن تتحملك لفترة طويلة ".

ثم تحدث إلى الشخص الذى وعده بتلك الوعود السخية بعد كثير من الانحناءات، صاح قائلاً: " بارك الله فى أول ساعة تعرفت فيها على رجل خَيِّر مثلك، إنك حقا مسيحيى أصيل، وسوف تتشرف بك البلدة التى تعيش فيها، وأنا مستعد للسفر للحج فى الأراضى المقدسة لرؤيتك، فإن المزايا التى تلقيناها من طيبتك تمنحنى قليلاً من السرور مقارنة بما أستمتع به من أجلك، عندما أفكر فى الكنوز التى تقدمها لمن هم مجرد مارة فى المنطقة التى تقيم بها. لذلك أيها الرجل الكريم؛ فإننا سنقبل طيبتك وأيضا استضافتك الكريمة التى عرضتها علينا في منزلك هذا المساء، وأيضا إمدادنا بالراحة من خلال إعطائك خيولك لنا صباح غد".

ثم بدأ يبحث عن قبعته كما فعل جوزيف، وأصبحا هما وفانى مستعدين للرحيل، عندما توقف الرجل قليلاً وبدأ يتأمل الفضاء لحظة وقال متعجبًا: " مؤكد لم يكن هناك أى سوء حظ، لقد نسيت أن مديرة منزلى قد سافرت للخارج وأغلقت كل حجراتى، حقا إننى سأكسرها من أجل فتحها لكم، ولكننى لن أستطيع تجهيزكم بفراش، لأنها أيضا قد وضعت كل فرش الأسرة فى مكانٍ بعيدٍ. إننى سعيد إنها أتت إلى ذهنى؛ قبل أن أطرح عليكم مشكلة المشى هناك، علاوةً على ذلك أعتقد أنكم ستجدون راحةً أفضل هنا أحسن مما تتوقعون. أيها المالك هل بإمكانك إمداد كل واحد من هؤلاء بفراش جيد؟ "

قال المضيف: " نعم، وستسعد سيادتك، وهى أسِرَّة لن يستحى سيد أو قاضٍ فى المملكة أن يرقد فيها".

قال الرجل: " إننى أعتذر بشدة على خيبة الأمل، ولن أسمح لهـا أن تأخـذ المفاتيح بعيدًا معها ثانيةً".

قال أدمس: " أرجوك يا سيدى لا تقلق، سنكون على ما يرام هنا، ولن ننسى معروف إقراضك خيولك لنا".

قال الرجل المحترم: " ستنتظرك الخيول هنا فى أية سـاعةٍ مـن الـصباح تحبها".

الآن وبعد الكثير من الملاطفات المملة للغاية تتعدد كثير مـن المـصافحات بنظراتٍ حنونة للغاية وابتسامات لكل من الآخر، وبعد تجهيز الخيول فى الـسابعة من الصباح التالى تركهم الرجل ورحل إلى منزلِه الخاص. ورجع أدمس ورفقـاؤه إلى المنضدة، حيث دخن القس غيليونًا آخر ثم ذهبوا ليستريحوا.

نهض السيد أدمس مبكرًا جدا، ونادى على جوزيف لينهض مـن فراشِـه، ونشب بينهما نزاع محموم للغاية؛ حول إن كانت فانى ستركب خلف جوزيـف أم خلف خادم الرجل، أصر جوزيف على ذلك؛ حيث إنه شُفى تمامًا، وهو قادر علـى الاعتناء بفانى مثل أى شخص آخر. لكن لم يوافق أدمس على ذلك، وقال إنه لـن يطمئن عليها، وهى راكبة خلفه لأنه أضعف مما يتصور هو.

استمر الشجار لوقتٍ طويل، وأصبح ساخنًا للغاية، عندما وصل خـادم مـن عند صديقهم الطبيب؛ ليقول لهم إنه لسوء الحظ مُنع من إقراضهم أى خيل، حيـث إن سائس خيله قد وضع – بدون علمه – كل الإسطبل تحت فحص طبى.

أسكتت هذه المعلومة الجديدة المتشاجرين، صاح أدمس قائلاً: " أليس هنـاك شخص سيئ الحظ مثل هذا الرجل المسكين؟ أنا أحتج، إننى حزين جدا عليه أكثـر

من نفسى، أترى يا جوزيف هذا الرجل طليق المحيا كيف يعامله خادموه، واحـــدة تغلق على فرش الأسرة، وآخر يضع خيوله تحت الإشراف الطبى، وأعتقـــد لأنـــه كان فى هذا المنزل الليلة الماضية؛ لابد أن كبير خدمه أغلق مخازن خمره. بـــارك الله علينا!! كيف تُستغل الطبيعة الطيبة فى هذا العالم!! إننى أحتج، وإننى قلق عليه أكثر من نفسى".

صاح جوزيف قائلاً: " وأنا لست قلقًا، فإننى قلق أكثر على أن أمشى علـــى قدمى، وكل قلقى هو كيف سنخرج من هذا المنزل، إلا إذا بعث الله بائعًا متجـــولاً آخر ليُخلصنا. لكن من المؤكد أن هذا الرجل لديه شعور حنون لـــك؛ حيـــث إنـــه سيُقرضك مبلغًا أكبر مما نمتلكه هنا، وهو لا يزيد على أربعة أو خمسة شلنات".

قال أدمس: " هذا صحيح جدا يا صغيرى، سأكتب خطابًا لـــه، وأحـــاول أن أطلب منه ثلاثة أنصاف كِرَاون، ولن يكون هناك أذى إذا أصبح معنـــا اثنـــان أو ثلاثة شلنات فى جيوبنا، حيث إننا سنُسافر أربعين ميلاً كاملـــة، فمـــن الممكـــن أن تكون هناك حاجة لها". استيقظت فانى الآن، وذهب جوزيف إليها وتـــرك أدمـــس ليكتب خطابه، والذى قد انتهى منه، وأرسل صبيًا به إلى الرجل، ثم جلس بجـــوار الباب وأشعل الغليون، وأخذ يشغل نفسه بالتأمل.

غاب الصبى وقتًا طويلاً أكثر من اللازم، رجع جوزيف الذى كان مع فانى الآن إلى القس، أبدى بعض التخمينات أن يكون المشرف على خدمه قد أغلق كيس نقوده أيضا. وعلى ذلك قال أدمس: " من المحتمل جدا، وهو يتساءل كيف لا يضع الشيطان أفكارًا وقحة شريرة ، إنه لا يجدر به أن يعيش مـــع مثـــل هـــذا الـــسيد المحترم، لكنه أضاف أن المبلغ كان صغيرًا للغاية؛ وبما أنه رجل نبيل فـــسيكون قادرًا بسهولة على تدبيره فى الأبرشية على الرغم من أنه ليس فى جيبه.

قال: " حقا، إن كان أربعة جنيهات أو خمسة أو أى مبلغ كبير مـــن المـــال، ربما يختلف الوضع".

جلسوا الآن لتناول الإفطار، وهو بعض من الخبز المحمص والخمر، عندما رجع الصبى وقال لهم إن الرجل لم يكن فى بيتِه.

قال أدمس: " حسنًا ولماذا، أيها الصغير لم تنتظر حتى رجوعه؟ اذهب ثانيةً أيها الصبى الطيب، وانتظر حتى يأتى بيته، إنه لن يذهب بعيدًا، حيث إنـه دعانـا لقضاء هذا اليوم وغد فى منزله؛ لذلك ارجع أيها الصبى وانتظر حتى يعود لبيته". ذهب الرسول ورجع مرة ثانية بسرعة كبيرة، قائلاً إن الرجل قد ذهب إلى رحلـة طويلة، ولن يرجع البيت هذا الشهر.

بتلك الكلمات بدا أدمس مرتبكًا للغاية قائلاً: " لابد أنها حادثة مفاجئـة مثـل مرض أو موت قريب، أو وجود نكبة غير متوقعة". ثم استدار إلى جوزيف قـائلاً: "أتمنى لو كنت تركتنى أقترض هذا المبلغ الليلة الماضية". أجاب جوزيـف وهـو مبتسم: " لقد خُدِع تمامًا لأن هذا الرجل كان سيجد عذرًا لعدم إقراضه".

قال: "إننى أعترف أننى لم أكن مسرورًا للغاية بتظاهره بالطيبة أمامك مـن المقابلة الأولى؛ حيث إننى قد سمعت رجالاً يلبسون ملابسنا فـى لنـدن ويـروون روايات عديدة مثل قصص أسيادهم. لكن عندما رجع الـصبى يقـول إنـه لـيس بالمنزل، عرفت فى الحال ما سيكون، حيث عندما لا يهتم رجل ذو قواعد وسـلوك بأن يفى بوعوده؛ فالعادة أنه يأمر خادميه أن يقولوا إنه ليس بالمنزل للشخص الذى وعده، وهو ما يسمى فى لندن جحده. لقد جحدت السيد توماس بوبى حوالى مائة مرة، وعندما يُصر الشخص على الحضور لشهر أو أحيانًا أطول من ذلك، يتم إخبـاره فـى النهاية أن الرجل قد رحل خارج المدينة، ولم يستطع فعل شىء فى الأمر".

قال أدمس: " يا إلهى، ما الأذى الذى حل بالعالم المسيحى؟ إننى أعترف أن هذا تقريبًا مساوٍ لما قرأته عن الوثنية. لكن من المؤكد يا جوزيف أن شكوكك بهذا الرجل غير عادلة، فمن هو الشخص السخيف الذى سيرتكب شـرًا مـن أجـل لا شىء؟ وهل يمكنك إخبارى ما الذى سيستفيده من خداعنا بادعاءاته هذه؟"

قال جوزيف: " إنه ليس بإمكانى أن أعطى أسبابًا لما يفعله الرجال مع رجل على مستوى علمك".

قال أدمس: " إنك تقول الحق، المعرفة بالرجال يمكن تعلمها فقط من الكتب، أفلاطون وسينيكا إنهما مؤلفان عظيمان، لذلك إننى أخشى يا صغيرى أنك لا تقرأ أبدًا".

أجاب جوزيف: " حقا لست أنا يا سيدى، إن كل ما أعرفه هو مثل بين رجال جنسنا. إن أغلب هؤلاء الذين يوعدون كثيرًا قليلاً ما يوفون بوعودهم، وسمعتهم أحيانًا يقولون إنهم قد وجدوا الأكثر احترامًا فى تلك العائلات لا يوفون بشىء. لكن سيدى، بدلاً من التفكير فى مثل هذه الأمور، سيكون من الحكمة الآن أن نجد طريقة للخروج من هذا المنزل، حيث بدلاً من أن يؤدى الرجل الكريم لنا أية خدمة ترك لنا الحساب بأكمله لكى ندفعه".

كان أدمس سيجيب عندما أتى المضيف، وبابتسامة ساخرة قال: " حسنًا يا سادة، لم يرسل الفارس خيوله لكم بعد، ساعدنى الله!! كيف يوعد الناس بسهولة!! "

قال أدمس: " كيف؟ هل تعرفون عنه أنه فعل ذلك من قبل؟"

أجاب المضيف: " آه، هل رأيت ذلك، إنها ليست مشكلتى يا سيدى أن أقول أى شىء للرجل فى وجهه، لكن الآن إنه ليس هنا، أؤكد لك أنه ليس لديه صديق فى ثلاثة أسواق حتى المدينة المجاورة. إننى أعترف أننى لم أستطع أن أمنع الضحك حينما سمعته يعرض عليك الاستضافة، فهو بذلك يطلق دعابة جميلة. لقد اعتقدت أنه سيعرض عليكم منزلى، لأنه ليس ملكه لكى يهبه لآخر".

بتلك الكلمات قال أدمس إنه لم يقرأ عن مثل هذا الشخص البشع.

قال: " لكن ما يبغضنى هو أنه أوقعنا فى دين كبير معك يزداد، ولن نقدر على دفعه، لأننا لا نملك نقودًا معنا، وما هو أسوأ، أننا نعيش على مسافة بعيدة

وثقت بنا فإننى خائف، حيث إنك ستفقد نقودك؛ لأننا لن نجد أية وسيلة سهلة لإعادة نقودك إليك".

قال المضيف: " أثق بك يا سيدى!!، سأفعل من كل قلبى. إننى أحترم رجال الدين جدا ولا أعتقد أنه يجحد ثقة أحد فيهم على تلك التفاهة، علاوةً على ذلك إننى أحب خوفك من عدم دفعك النقود لى. لقد فقدت كثيرًا من الديون طوال حياتى، لكنهم وعدونى بدفعها جميعًا فى وقتٍ قصير جدا. سوف أحرز هذا الحساب لأنه شىء جديد. أؤكد لك أنه الأول من نوعه. لكن ما قولك يا سيدى، هل نأخذ كأسًا أخرى قبل أن نفترق؟ إنه سيضيع وقتًا لكنه سيُحرز كثيرًا، وإن لم تدفع لى شلنًا لن تُدمرنى الخسارة".

أحب أدمس هذه الدعوة جدا، خاصةً أنه قالها بنبرةٍ ودودة للغاية. سلم على المضيف وشكره قائلاً إنه سيعطل نفسه من أجل كأس أخرى، وهذا من أجل سعادته إلى حد ما بالصحبة أكثر من سعادته بالشراب، مضيفًا أنه سعيد لأنه وجد بعضًا من المسيحيين الحقيقيين ولا يزالون بالمملكة، حيث إنه بدأ تقريبًا يشك أنه يقيم فى بلدة يسكنها فقط يهود وأتراك. صب المضيف الطيب الشراب، وذهب جوزيف وفانى إلى الحديقة، حيث بدأوا يسلون أنفسهم بحديث الحب.

جلس أدمس ومضيفه وملأ الاثنان كأسيهما وأشعل كلاهما الغليون الخاص به، وبدأ الاثنان هذا الحوار الذى سيجده القارئ فى الفصل التالى.

الفصل السابع عشر

حوار بين السيد إبراهام أدمس ومضيفه، حيث هدد عدم اتفاقهما فى الآراء بكارثة مشئومة أوقفها المحبان فى الوقت المناسب.

قال المضيف: "سيدى، أؤكد لك أنك لست أول من وعده سيدنا ولم يفِ بوعده؛ فهو معروف بذلك، وهؤلاء الذين يعرفونه لا يأخذون بكلامه، وأنا أتذكر شابًا قد وعد أبويه ليكون مُحصل ضرائب. وقد علَّم هذان الشخصان المسكينان، اللذان لم يستطيعا تحمُّل ذلك، ابنهما الكتابة والحسابات ومعرفة أخرى لكى يؤهلاه لهذا المنصب، ولم يحقق الصبى تلك الآمال، فلم يذهب لحرث الأرض ولا لأى نوع آخر من العمل، وكان دائمًا يرتدى ملابس أنيقة بقدر ما استطاع، فكان يرتدى أسبوعيًا قميصين نظيفين ومصنوعين من الصوف، وهذا لعدة أعوام، إلى أن لَحق فى النهاية بالسيد فى لندن؛ معتقدًا أنه سيُذكِّره هناك بوعوده لكنه لم يستطع رؤيته. لذلك، ولأنه لم يكن لديه نقود، ولم يكن لديه عمل، وقع فى صحبة السوء، وسلك مسالك مؤذية، وفى النهاية عوقب بالنفى، وتلك الأخبار أصابت الأم بالأسى.

سوف أحكى لك قصةً أخرى حقيقية عنه: كان لى جار مزارع له اثنان من الأولاد قد رباهما على العمل، وقد كانا ولدين وسيمين، ولم يكن هناك شيء يشبع رغبة السيد سوى أن الأصغر يجب أن يكون قسًا. وعلى هذا أقنع الوالدَ بإدخاله المدرسة، ووعده أنه سوف يُعيله فى الجامعة، وعندما أصبح سنه مناسبًا أعطاه ما يُعينه على العيش. لكن بعد أن أصبح عمر الصبى سبع سنوات فى المدرسة، وأحضره والده إلى القاضى بخطاب من سيده أنه أصبح جاهزًا للجامعة، وبدلاً من

أن يتذكر سيده وعده أو يُرسل على نفقته، كل ما قاله لوالده إن الصبى أصبح دارسًا رائعًا. وللأسف لم يستطع تحمل نفقته بإرساله لجامعة إكسفورد أربع سنوات أو خمس سنوات أو أكثر من ذلك، فى هذا الوقت لو استطاع أن يُعطيه منصب راعى الإبرشيه لعينه.

قال المزارع إنه ليس رجلاً مؤهلاً لمثل هذا الشىء.

قال السيد: لماذا، إننى حزين جدا لأنك قد أعطيته علمًا كثيرًا للغاية، فإذا لم يستطع أن يحصل على ما يُعينه على العيش؛ فإلى حدٍّ ما سيُفسده هذا، ويجعله يقوم بأى شىء آخر، وابنك الآخر الذى يكتب اسمه بصعوبة سيكون مستقبله أفضل، لأنه يجيد الحرث والزرع وظروفه أفضل من أخيه".

بالفعل لم يجد الصبى المسكين أصدقاء يُساعدونه على الاستمرار فى تعليمه، ولأنه لم يكن مستعدًا للعمل أدمن الشراب المسكر، على الرغم من أنه كان قبل ذلك صبيًا وقورًا، وفى وقت قصير وبسبب حزنه بالإضافة إلى إدمانه الخمر؛ أصيب بالتهاب رئوى ومات.

لا يزال لدى المزيد يمكننى أن أقصه عليك: كانت هناك صَبِيَّةٌ، وهى أجمل من فى الجيران، وقد أغواها بالذهاب إلى لندن، وقد وعدها أن يجعلها سيدة لها مكانة اجتماعية؛ لتعمل عند إحدى سيدات الطبقات الرفيعة، لكن بدلاً من أن يفى بكلمته، سمعنا أنها قد أصبح لها طفل منه، وأصبحت عاهرة وضيعة، ثم أصبحت تُدير قهوة فى كوفنت جاردن، ثم بعد قليل توفيت فى السجن بسبب حمى فرنسية.

إننى أستطيع أن أروى لك أقاصيص أكثر، لكن كيف تتخيل أنه قد أشبع رغبته ضدى؟

عليك أن تعرف يا سيدى أننى قد نشأت رجلاً يعمل فى البحر، ولى العديد من الرحلات البحرية إلى أن أصبحت فى النهاية سيدًا على سفينةٍ لى، وكنت فى طريقى لصُنع ثروة، حينما هاجمنى أحد هؤلاء المهاجمين الملعونين، الذى قد أخذ

سُفننا قبل بداية الحرب، وبعد شجار فقدت فيه أكبر جزء من طاقمى، وقد دُمـرت كل حِبال الأشرعة والصوارى، وتلقيت رصاصتين بين الرياح والميـاه، فـأُجبرت على الاستسلام.

استولى هؤلاء الأفراد على سفينتى بالقوة، وهى مركب تزن مائة وخمسين طنًّا – وقد كانت جميلة – وقد وضعونى مع رجل وصبى فى سفينة سـيئة ذات مـؤخرة ضيقة، حيث كان بها ضجة كبيرة، وفى النهاية وصلنا إلى ميناء ملاموسـى علـى الرغم من أننى أومن أن الإسبان لم يتخيلوا أننا نستطيع أن نعيش يومًا فى البحر.

عند عودتى هنا، حيث تعيش زوجتى فى تلك البلدة، قال لـى السـيد إنـه مسرور للغاية من محاربتى للعدو، وأنه يسعى إلى ترقيتى لرتبة ملازم أول علـى سفينة حربية إذا قبلت ذلك، وقد أكدت له شاكرًا أننى سأقبل.

حسنًا، يا سيدى، سنتين أو ثلاث سنوات مضت، حيث وعدنى خلالها وعودًا متكررة، ليس فقط من السيد لكن (كما أخبرنى) من قائد البحرية. وهو لم يرجع من لندن، لكن تم التأكيد لى أن مع أول وظيفة شاغرة سيتم تعيينى، والـذى لا يـزال يُدهشنى عندما أُفكر فيه تلك الوقاحة التى خَفَّضت ثقتى بعد الكثير من خيبة الأمـل أكثر من السابق.

فى النهاية يا سيدى بعد أن زاد حزنى وأصبحت متشككًا بعض الشىء بعـد كثير من التأجيل، كتبت لصديق لى فى لندن؛ حيث قـد علمـت أن لديـه بعـض معارف فى منزل قائد البحرية، وطلبت منه أن يرجع لمصلحة السيد؛ حيث إننـى فى الحقيقة كنت متخوفًا من أنه يتعامل مع المشكلة ببرودٍ أكثر مما يتظاهر به.

وتعتقد ما الإجابة التى أرسلها لى يا صديقى؟ حقيقة يا سيدى إنه إخبرنى أن القاضى لم يذكر اسمى فى الإميرالية فى حياته، وإذا لـم تكـن مـصلحتى أكثـر إخلاصا نصحنى أن أتخلى عن مطالبى؛ وقد فعلت ذلك على الفور، وبالاتفاق مـع زوجتى قررت أن أؤسس حانة حيث أُرحب بك بشدة وأقدم لك خدماتى، ويـذهب السيد وكل هؤلاء الأوغاد الوضيعون معًا إلى الجحيم.

قال أدمس: "آه، تبًا، آه تبًّا!! إنه حقا رجل مؤذٍ، لكن آمل أن يتوب الله عليه، إذا استطاع، لكن وضاعة تلك الرذيلة الكريهة، وإذا فكر مرة أنه واحد من أكثر الناس افتراء، وأنه يكذب بطريقةٍ مهلكة، مؤكد أنه يحتقر نفسه لدرجة لا تُطاق، حيث سيكون من المستحيل أن يستمر لحظة فيما يفعله. ولنعترف بالحقيقة، على الرغم من دناءة شخصيته التي يستحقها، له في ملامحه علامات كافية من عدم الخداع، ونزعة من اللطف التي تجعل من مظهره مسيحيًّا طيبًا".

قال المضيف: "آه، سيدي، سيدي، لو كنت سافرت بعيدًا مثلي، وتحدثت مع العديد من الجنسيات حيث كنت أتسوق فلن تعطي اهتمامًا لمظهر الأشخاص الخارجي أو أيه علامات في ملامحهم!! سأنظر هناك ربما أرى رجلاً عنده مرض جلدي، لكن لا أتوقع أكثر من ذلك".

لقد قال ذلك باحترام أقل لتأمل القس؛ فقد ضايقه إلى حد كبير، وأخذ الغليون من فمه بسرعة، وهكذا أجاب قائلاً: "سيدي، ربما أكون قد سافرت أبعد منك دون مساعدة سفينة. هل تتخيل الإبحار في مدن مختلفة أو بلاد مختلفة سفرًا؟ لا. Coelum non animum mutant qui trans more currunt. بمعنى: (إنهم يغيرون مناخهم، ليس عقولهم التي تندفع عبر البحر) إنني أستطيع الذهاب أبعد أكثر منك في مساءٍ واحد أكثر مما تذهبون في اثني عشر شهرًا. ماذا، هل رأيت أعمدة هرقل Hercules وأسوار قرطاج Carthage ليس هذا فحسب، ربما قد سَمِعت عن سكيلا Scylla ورأيت شاريبديس Charybdis ، ربما دخلت المكان الذي وُجِدَ أرشميدس Archimeeds فيه عندما تم الاستيلاء على سيراكيوس Syracuse.

أعتقد أنك قد أبحرت وسط سيلادس Cyelades، ومررت على المضايق المشهورة التي تتخذ اسمها من هيل Helle السيئة الحظ التي وصف مصيرها بأنها أبولونيس Apollonius ربوديس Rbodius ، لقد مررت بنفس النقطة. إنني أتخيل المكان الذي سقط فيه دادليوس Daedalus في هذا البحر، لأن الشمس أذابت

أجنحته الشمعية، إننى لا أشك أنك قد اجتزت بحر الأكسين Euxine ، ليس هذا فحسب، فربما تكون قد ذهبت إلى ضِفاف الكاسبيان وزرت كلويش Colchis ، حتى البحر إن كان هناك نسيج ذهبىّ".

أجاب المضيف قائلاً: "كلا، حقيقةً يا سيدى، أنا لم أذهب إلى مثل هذه الأماكن".

رد أدمس قائلاً: "لكننى ذهبت إلى كل هذه الأماكن".

صاح المضيف قائلاً: "إذن، أعتقد أنك قد ذهبت الى جزر الهند الشرقية، حيث لا يوجد مثل هذا المكان، وأنا أقسم على ذلك، سواء فى الغرب أو فى الشام؟"

قال أدمس: "أرجوك أين الشام؟ أهى فى الهند الشرقية ناحية اليمين؟"

صاح المضيف قائلاً: "يالك من مسافر بارع، ولا تعرف الشام. نصيحتى لك ألا تتحدث عن تلك الأشياء معى!! لا تزودنا بذلك أيها الرحالة، لن تصل إلى شيء هنا. منذ أن أصبح أسلوبك غير واضح ولا تزال تُسيءُ فهمى".

قال أدمس: "سأخبرك أن السفر الذى أعنيه موجود فى الكتب؛ الطريقة الوحيدة للسفر حيث تستطيع الحصول على أية معرفة. وتعلمت منها ما أثبته الآن، فالطبيعة عمومًا تترك آثارًا كفن لتصوير العقل للملامح، ومن النادر أن تنخدع فى تلك الملامح البارعة. أعتقد أنك لم تقرأ كتاب سقراط فى هذا الموضوع؛ ولذلك سأحكيها لك، أكد أحد خبراء علم ملامح الوجه أنه كشف بوضوح من خلال ملامح سقراط أنه كان متشردًا فى طبيعته. كانت شخصيته مناقضة تمامًا للنزعة العامة لكل تصرفات هذا الرجل العظيمة، وهذا الرأى أثار سخط أبناء أثينا، لذلك ألقوا الحجارة عليه، ودمروه بسبب جهله، ولم يمنعهم إلا اعتراف سقراط بحقيقة استنتاجات العالم، والاعتراف بأنه على الرغم من تصحيحه لنزعته بالفلسفة، فقد مال بطبيعته للرذيلة كما قيل عنه. الآن أرجوك، قل لى كيف يعرف أحد هذه القصة، إن لم يكن قرأها؟"

قال المضيف: "حسنًا، يا سيدى، وما الذى سيفيد سواء قرأهـا أحـد أو لـم يقرأها؟ من يسافر للخارج مثلى، ستكون دائمًا عنده فرص كافية لمعرفـة العـالم، دون أن يتعب نفسه بقصة سقراط أو أى شخص آخر".

قال أدمس: "صديقى، لو استطاع أحد أن يلف العالم بحرًا، ويرسو فى كـل ميناء فيه دون تعلم، سيرجع إلى وطنه جاهلاً كما ذهب".

قال المضيف: "ساعدك الله، كان لدىَّ كبير الملاحين، أيها الرفيق المـسكين! وكان بالكاد يعرف القراءة والكتابة، لكنه كان يستطيع قيادة السفينة أفضل مـن أى قائد حربى، وكان عالمًا أيضا بأمور التجارة إلى حد كبير".

قال أدمس: "التجارة – كما أثبت أرسطو فى الفـصل الأول مـن كتـابه السياسة – تحتل مكانة أقل من مكانة الفيلسوف، وتعتبر شيئًا غريبًا فى إدارتها فى الوقت الحالى".

نظر المضيف إلى أدمس بثبات وبعد صمت استغرق دقيقة سأله إن كان أحد الذين يكتبون فى الصحف اليومية؛ "حيث إننى قد سمعت أن الـذين يكتبونهـا هـم قساوسة".

قال أدمس: "صحف يومية"، ما هى؟"

قال المضيف: "إنها جريدة قذرة، توزع على أنحاء الأمـة لعـدة سـنوات، تُسىء إلى التجارة والرجال الأمناء، وأنا لا أقبل أن أضعها على منضدتى، فهى لا تقدم لى أية قيمة.

قال أدمس: "لست أنا حقيقةً، فأنا لم أكتب أى شىء سوى المواعظ، وأؤكـد لك أنى لست عدوًّا للتجارة، فأساسها الأمانة، ليس هذا فحسب، فأنا دائمًا أنظر إلى التاجر على أنه عضو قيم للغاية فى المجتمع، وربما لا يكون أقل شأنًا إلا لرجـل ذى تعليم عال".

قال المضيف: "لا، أعتقد أنه ليس كذلك، ولا حتى للشخص نفسه، في أي شيء تستخدم المعرفة في بلد دون التجارة! وما الذى ستفعلونه أنتم أيها القساوسة لكي تزودوا بالملابس وتُطعموا بطونكم؟ من الذى سيزودكم بالحرير، والكتان، والصوف وكل ضروريات الحياة الأخرى؟ إننى أتحدث خاصة عن دور البحارة".

قال القس: "أنت تعنى رفاهيات الحياة، لكن أعترف أنها ضروريات، هناك شيء أكثر ضرورة من الحياة نفسها وهو تلقى المعرفة، إننى أعنى المعرفة بالدين. من الذى سيزودك بالتقوى، والحلم، والتواضع، والصدقة، والصبر، وكل الفضائل المسيحية الأخرى؟ ومن الذى سيُطعم أرواحكم بلبن الحب الأخوى، ويطعمها بكل الأطعمة طيبة المذاق من القداسة التى تطهرها فى الحال من كل مشاعر شهوانية غير طاهرة، وتغذيها بروح غنية حقيقةً بالسمو؟ من يفعل هذا؟"

قال المضيف: "آه، مَنْ حقا! ، حيث إننى لا أتذكر، ولم أر قط تلك الملابس أو الأطعمة، ولذلك فى نفس الوقت يا سيدى إننى فى خدمتك".

كان أدمس على وشك أن يجيب ببعض من القسوة، حينما رجع جوزيف وفانى وأصرا على رحيله بتحمس كبير، وأنه لم يرفض لهما ذلك، ولذلك أمسكا بعصاه، وترك المضيف (ولم يكن أحد منهما سعيدًا بالآخر كما كان فى المرة الأولى التى جلسا فيها معًا). ورحل مع جوزيف وفانى اللذين عبرا عن نفاد صبرهما، وجدد كل منهم معًا رحلتهم.

الباب الثالث

الفصل الأول

تمهيد لمدح السيرة الذاتية.

على الرغم من أنه من الممكن أن يكون الابتذال الموجود فى أسلوب هؤلاء الذين يكتبون الرومانسية، وهم من يسُمون كتبهم "تاريخ إنجلترا، وتــاريخ فرنــسا، وتاريخ إسبانيا، إلى آخره.... " فمن المؤكد أن الحقيقة موجودة فقط فــى أعمــال هؤلاء الذين يُمجدون حياة العظماء، وهذا ما يُسمى عادة السيرة الذاتية، كما يُسميه الآخرون الطوبوغرافيا (وهى رسومات لأقاليم) أو كوربوجرافيــا (وهــى أيــضا رسومات لأقاليم) تلك الكلمات تُبرز جيدًا الفرق بينهم.

فالكلمة الأخيرة (كوربوجرافيا) تعنى وصف الــبلاد والمــدن، وبمــساعدة الخرائط تؤدى مهمتها بطريقة دقيقة جدا ويمكن الاعتماد عليها.

لكن بالنسبة لأعمال وشخصيات الرجال فكتاباتهم ليست حقيقية تمامًا، وليس هناك برهان آخر أفضل من التناقضات اللانهائية بين اثنين من راســمى الخــرائط اللذين يتطابقان بكتابتهما على تاريخ نفس الدولة، فعلى سبيل المثال:

اللورد كلاريندون، والسيد ويتلوك والسيد إشــارد ورابــين، والعديــد مــن الآخرين، حيث تُوضح حقائق بطرق مختلفة، كل قارئ يؤمن بما يرضيه بالفعــل عندما يتميز التقييم بالتشدد والشك؛ فذلك ليس إلا الرومانسية، وفيها أشبع القــارئ رغبته بإبداع خصب وتأليف خصب.

لكن على الرغم من أن هؤلاء يختلفون إلى حدٍّ بعيد فى روايــة الحقــائق، فبعضهم ينسبون النصر إلى أحد الطرفين، وآخرون ينسبون إلى الطــرف الآخــر.

وبعضهم يرسم شخصية نفس الرجل على أنه متشرد، بينما يضعه آخرون على أنه شخصية عظيمة وأمينة، مع ذلك يتفق الجميع على المكان الذى تحدث فيه الأحداث والذى يظهر فيه الشخص على أنه متشرد وأمين فى نفس الوقت.

معنا نحن كتاب السيرة الذاتية يختلف الوضع؛ فالحقائق التى نقدمها يمكن الاعتماد عليها، على الرغم من أننا أحيانًا نخطئ الزمان والمكان اللذين تحدث فيهما تلك الحقائق، على الرغم من أنها تستحق فحص النقاد، سواء كان الكاهن شريسوستوم الذى يخبرنا مثل سيرفانتس أنه مات من أجل حب الجميلة مارسلا التى كرهته؛ حيث يشك البعض أنه كان فى أى وقت فى إسبانيا، لكن هل هذا الأحمق موجود فعلاً؟

هل يوجد فى العالم شخص متشكك مثل هذا لينكرجنون كارديينو Cardenio، وغدر فرديناند Ferdinand، ووقاحة فضول أنسيلمو Anselmo، وضعف كاميلا Camilla، وحيرة صداقة لوثاريو Lothario، ربما فيما يخص الوقت والمكان الذى عاش فيه هؤلاء الأشخاص قد يكون هذا المؤرخ الطيب غير كفء.

لكن المثال الأكثر شهرة من هذا النوع موجود فى القصة الحقيقية لـ جيل بلاس Gil Blas، حيث ارتكب كاتب السيرة الذاتية خطأً فاضحًا فى تحديده مدينة سانجيدو Sangeado والذى استغل مرضاه مثل تاجر الخمر الذى يضع أوعية للخمر؛ حيث كان يفرغ عروقهم من الدماء ويملؤها بالمياه، ألا يعرف الجميع حتى الذين ليس لهم دراية بالتاريخ الطبيعى أن إسبانيا ليست البلد التى عاش فيها هذا الطبيب؟

وأخطأ أيضا نفس الكاتب فى بلدة رئيس أساقفته، وأيضا فى الشخصيات العظيمة التى كانت مشاعرها مرهفة لدرجة أنها لا تستطيع تذوق التراجيديا، وفى أشياء أخرى عديدة.

يمكن ملاحظة نفس الأخطـــاء أيضا فى رواية سكارون Scarron، وألــف ليلة وليلة The Arabian Nights، وقصة ماريان Marianne، و الفلاح المحظوظ Le Paysan Parvenu، وربما قليل من الكتاب الآخرين من تلك الطبقة، وهم مــن لم أقرأ لهم، أو لا أتذكرهم فى الوقت الحاضر؛ فأنا لا أســتطيع أن أفهــم هــؤلاء الأشخاص ذوى العبقرية المفاجأة، كُتاب الرومنسيات الهائلة، أو الرواية الحديثــة، وكُتاب أطلانتيس، وهم من سجلوا فى رواياتهم دون مساعدة من الطبيعة أو التاريخ أشخاصًا لم ولن يكونوا، وحقائقَ لم تكن وليس من الممكن أن تحدث، وأبطالهم من نتاج خيالهم الشخصى، وعقولهم مكان الفوضى، حيث تجتمع كل تلــك الأفكــار، وذلك لا يعنى أن هؤلاء الكُتّاب لا يستحقون التكريم، فربما يستحقون أعلى جدارة، فما هو أكثر سموًّا من أن تكون مثالاً على العبقرية الإنسانية!! ربما يمكن أن نطبق عليهم ما قاله بلزاك عن أرسطو، إنهم طبيعة ثانية (فليس لهم علاقة بـــالنوع الأول من المؤلفين أى أنهم مؤلفون من طبقة أقل شـــأنًا، وهـــم لا يـــستطيعون الوقـــوف بمفردهم؛ فهم فى حاجة إلى ما يستندون إليه كالعكاز)، لكن هؤلاء الـــذين أتحـــدث عنهم الآن يبدو أن لديهم ركائز يصفها البارع فولتاير فى خطاباته العبقريـــة" قـــد تصل بك بعيدًا لكن بخطى غير منتظمة". بالفعل بعيدًا عن اهتمام القارئ، بعيدًا عن الفوضى والليلة القديمة.

لكن لنرجع إلى الطبقة السابقة، وهم راضون بالنقل عن الطبيعة بـــدلاً مـــن خلق أشياء مبتكرة من الرُّكام المشوش فى عقولهم، أليس هذا كتابًا مـــشابهًا مثـــل الذى يسجل إنجازات دون كويكسوت المشهور، وهى تستحق أن تسمى قصة أكثـــر من قصة ماريان، حيث تقيدت الأخيرة بزمن محدد، أما الأولى فهى تاريخ العـــالم عمومًا. على الأقل الجزء الذى تهذبه القوانين، والفنون، والعلوم، ومنذ ذلك الوقـــت حتى هذا اليوم، ليس هذا فحسب، بل ما بقى الحال على ما هو عليـــه. سأواصـــل الآن تطبيق تلك التأملات على العمل الذى أمامنا، وقد سردتها مبدئيًّا؛ لتجنب بعض تركيبات الطبيعة الطيبة للبشرية المتطلعين دائمًا لرؤية فضائل أصدقائهم المدونـــة، وربما يلجأون إلى أجزاء محددة.

إننى لا أشك أن العديد من قرائى سيتعرفون على المحامى فى المركبة من اللحظة التى سمعوا فيها صوتَه. إنه أيضا خلاف حينما يتقابل الفطن والمحتشمة مع بعض من معارفهم، وأيضا باقى شخصياتى. لذلك لكى أمنع تلك المواقف التى تتسم بالكراهية، أعلن أن كل ما أصفه هنا هو سلوكيات وليست أفرادًا، بل وليست شخصًا بعينه؛ لكن أصنافًا بشرية.

ربما يقول البعض، أليست الأشخاص مأخوذة من الحياة؟ وأجيب عن هذا بالإثبات، بل أعتقد أننى يجب أن أثبت أننى كتبت أكثر مما رأيت.

إن المحامى ليس فقط يحيا، لكنه بقى لأربعة آلاف سنة، وآمل أن الله يمد فى حياته لسنوات أخرى عديدة قادمة. وهو حقا لم يقيد نفسه لمهنة واحدة، أو ديانة واحدة، أو بلدة واحدة؛ لكن حينما ظهر أول مخلوق وضيع وأنا على مسرح الإنسانية جعل من نفسه مركز الخلق كله، يسبب لنفسه آلامًا، ولن يجلب خطرًا، ولن يقدم نقودًا ليساعد أو يحمى إخوانه فى الإنسانية، ثم ولد محامينا.

وبينما يعيش هذا الشخص الذى وصفته على الأرض، وسيبقى عليها طويلاً. لذلك فإن هذا ليس شرفًا له، لنتخيل أنه يقلد شخصًا مبهما بعض الشىء، حيث صادف أنه يشبهه فى ملامح معينة، أو ربما فى مهنته؛ حيث إن مظهره فى العالم محسوب لأغراض نبيلة وعامة.

وليس لفضح شخص بائس جدير بالشفقة أمام دائرة صغيرة وتافهة من معارفه، لكن لنحيى الآلاف من أمثاله، حيث يمكن لهم تأمل عيوبهم ومحاولة تقليلها، وهكذا بترك العار الخاص يمكننا تجنب العار العام.

تلك الأماكن هى حدٌّ فاصل بيِّن، كما أنها تفرق بين الشخص الذى يسخر من آخر. فالأول يصحح الأخطاء لمصلحة الشخص كوالد، أما الأخير فيعرض الشخص نفسه كعبرة للآخرين كأنه جلاد.

فضلاً عن ذلك، هناك بعض الأوضاع التى يجب أخذها فى الاعتبار، مثل مصمم الصور، فعلى الرغم من اختلاف الموضة فى الأوقات المختلفة؛ فإن تشابه الملامح لا ينقص بتلك الطرق.

هكذا أعتقد أننا يمكننا المغامرة بالقول إن السيدة طاوس شخصية مشابهة لمحامينا، ربما خلال التغييرات التى مرت بها، وهى بدورها عملت وراء البار فى فندق، ولن أتردد فى إثبات أنها أيضا فى عصر من العصور جلست على العرش.

بالاختصار، حيث يجتمع اعتلال كبير فى المزاج، وبخل، وعدم التعاطف مع تعاسة البشر، ودرجة من النفاق، كل هذا اجتمع فى تكوين هذه الأنثى، وتلك المرأة هى السيدة طاوس، حيث امتزجت نزعة الطيبة بفقر الروح والتفهم، وقد ظهرت فى رجل ولم يكن هذا الرجل سوى زوجها المتسلل.

لن أؤخر قارئى إلا لإعطائهِ تحذيرًا واحدًا من نوع آخر من البشر، حيث فى معظم شخصياتنا لا نقصد هجاء الأشخاص، لكن لكل من هم فى تلك النوعية فى وصفنا العام نحن لا نعنى الشمولية، لكن يجب أن نفهم أن هناك استثناءات عديدة، فعلى سبيل المثال فى وصفنا للطبقة العليا؛ لا نعنى الذين – على الرغم من طبقتهم الرفيعة – يتنازلون فى تصرفاتهم فيصبح علو شأنهم شيئًا سهلاً لمن هم أقل منهم شأنًا.

فى تلك المجموعة يمكننى تسميته سيدًا كريمًا؛ حيث لم ترفعه الطبيعة؛ ولكن رفعته الثروة؛ فبينما يرتدى أنبل مظاهر الشرف على جسدهِ، يحمل علامة الكرامة أكثر ثقة على العقل، مزينة بالعظمة، وغنية بالمعرفة، ومزينة بروحٍ مميزة.

لقد رأيت هذا الشخص غُمر بالكرم، حينما تحدث عن الحرية، وكان للشخص نفسه نصير ورفيق.

يمكننى تسمية شخص عادى ارتفع عاليًا فوق العامة بقدراتٍ أعلى شأنًا من سلطة أميره ليمجده، حيث إن تصرفه مع هؤلاء أجبره على أن يكون أكثر لطفًا من الإلزام نفسه، وهو سيد عظيم عَذب المعاشرة، فلو استطاع أن يُجرد نفسه من العظمة المتأصلة فى أخلاقه فسوف يكون غالبًا أقل معارفه ينسى من كان السيد لهذا القصر الذى قد استُضيفوا فيه بلطف.

تلك صور أعتقد أنها يجب أن تكون معروفة، وهى مأخوذة من الحياة، تتجاوز حدودها. لذلك فإننى أعنى بهؤلاء الأشخاص الذين قد وصفتهم مجموعة من التُعساء، وهم عار لأجدادهم؛ حيث ورثوا أشرافهم وثرواتهم (أو ربما أعظم من أمهاتهم، فذلك الانحلال من النادر تصديقه) وهم متعجرفون ليعاملوا هؤلاء بعدم احترام، وهم على الأقل مساوون لمؤسسى عظمتهم.

إننى أعتقد أنه من المستحيل تصور منظر يستحق سُخطنا أكثر من هذا الشخص، وهو ليس فقط وصمة لشعار النبل لعائلة عظيمة؛ لكنه فضيحة للأصناف البشرية، يحتفظ بتصرف متشامخ للرجال الذين هم شرف لسجيتهم وعار لثروتهم.

والآن أيها القارئ، بعد تلك التلميحات، يمكنك لو أسعدك هذا أن تواصل تكملة قصتنا هذه الحقيقية.

الفصل الثانى

مشهد ليلى، حيث تحدث عدة مغامرات رائعة لأدمس ورفقاء السفر.

كان الوقت متأخرًا للغاية حينما ترك مسافرونا الفنـدق أو الحانـة (يمكـن تسميتها بأى من الاسمين)، وما إن رحلوا لعدة أميال حتى حل علـيهم الليـل، أو أدركهم الليل. فيجب أن يعذرنى القارئ إن لم أكن دقيقًا فى الطريق الذى اتخـذوه، حيث إننا الآن نقترب من مكان عائلة بوبى، وهو اسم حساس يمكـن للأشـخاص الماكرين أن يستخدموه، تبعًا لنزعاتهم الشريرة للعديد من قضاة البلـدة الفاضـلين، وهم جنس من الرجال الذين ننظر إليهم على أنهم غير مؤذين تمامًا، ومن أجلهـم نكنُّ احترامًا كاملاً، ولن نساعدهم بتلك الأغراض الماكرة.

ساد الظلام الآن على نصف الكرة الأرضية، حينمـا همـست فـانى إلـى جوزيف وهى تطلب أن ترتاح قليلاً؛ حيث إنها كانت متعبة للغاية ولا تـستطيع أن تمشى أكثر من ذلك.

وعلى الفور أقنع جوزيف القس أدمس الذى كان يمشى بسرعة كالنحلـة، أن يتوقف. بمجرد أن جلس بدأ يرثى نفسه، لأنه فقد كتابه العزيز أخيلس، لكنـه هَـدأ قليلاً عندما تذكر أنه لو كان معه لما استطاع أن يرى حتى يقرأ فيه.

كانت السماء مغيمة للغاية ولم تظهر نجمة واحدة. وحقا إنه طبقًا لـ ميلتون Milton فإن الظلام واضح، مع ذلك فهذه الظروف مناسبة جدا لجوزيف، فلم تشك فانى أن أدمس سيراها، فأطلقت عنان عاطفتها ولم تفعل ذلك من قبـل، وسـندت

رأسها على صدرهِ، وألقت ذراعيها بإهمال حوله، وتركته يضع وجنته بالقرب من وجنتها. كل هذا غمر جوزيف بالسعادة فلم يغير جلسته، لأنها أجمل جلسة في أجمل قصر في الوجود.

جلس أدمس على بُعد من المحبين، ولم يكن راغبًا في إزعاجهما، بدأ يشغل نفسه في التأمل، حيث لم يقض وقتًا طويلاً في مثل هذا النشاط من قبل؛ حيث إنه وجد أضواء من على بعد يبدو أنها تقترب منه. فنادى على الفور، لكن لسوء حظه ودهشته توقفت لحظة ثم اختفت. ثم نادى على جوزيف وسأله إن كان قد رأى الضوء، فأجاب جوزيف إنه قد رآه، "وهل لاحظت كيف اختفى؟" فأجاب: "على الرغم من أنني لا أخاف من الأشباح، فأنا لا أنكر وجودها تمامًا".

ثم بدأ يتأمل الأشياء غير المادية، وقطع هذا التأملَ عدةُ أصوات اعتقد أنها تقريبًا قريبة جدا منه، على الرغم من أنها في الحقيقة لم تكن قريبة بدرجة كبيرة. على الرغم من أنه يمكنه سماعهم بوضوح فهم يتفقون على قتل أي شخص يقابلونه، وبعد قليل سَمِع واحدًا منهم يقول إنه قد قتل اثني عشر شخصًا في الأسبوعين الماضيين.

سقط أدمس الآن على ركبتيه، وسلم نفسه للعناية الإلهية، وفاني المسكينة التي سمعت تلك الكلمات البشعة، عانقت جوزيف بشدة، حيث كانت أُذناه منصتتين أيضا، فقد كان قلقًا عليها، أما عن نفسه فقد كان مستعدًا أن يدفع حياته ثمنًا لتلك الأحضان.

سحب جوزيف الآن مطواته الصغيرة، أما أدمس الذي كان قد انتهى من أقواله، فقد أمسك عصاه وهي سلاحه الوحيد وذهب تجاه جوزيف، حيث وجده قد ترك فاني وجعلها تقف في المؤخرة، لكن كانت نصيحته غير مثمرة، حيث إنها تشبثت به ولم تأخذ في اعتبارها وجود أدمس، وقالت في صوت هادئ إنها ستموت بين ذراعيه. عانقها جوزيف بشوق لا يمكن وصفه، وهمس إليها أنه يفضل الموت بين ذراعيها بدلاً من أن يعيش بعيدًا عنها.

قال أدمس ملوحًا بعصاه إنه يكره الموت مثل أى شخص، ثم ردد قائلاً بصوتٍ عال:

Est hic، est animus lucis contemptor et illum
Qui vita bene credat emi quo tendis، honorem.

بمعنى : "هذه نفس تقدر الحياة وعن طيب خاطر ستهبها من أجل الشرف الذى تلتزم به".

وحينئذٍ توقفت الأصوات للحظة، ثم قال واحد منهم "من هناك؟ " وعلى ذلك كان أدمس حكيمًا بدرجة كافية؛ حينما لم يُعط أيه إجابة، وفجأة لاحظ أضواء كثيرة ظهرت جميعًا مرة واحدة من الأرض، وتقدمت بسرعة تجاهه. فاستنتج على الفور أنه شبح وبدأ الآن يتصور أن كل الأصوات من نفس النوع؛ فقال مناديًا "بسم الله، ماذا تريد؟" وبمجرد أن تحدث سَمِع واحدًا من الأصوات يقول: " إنهم قادمون".

ثم سَمِع عدة ضربات كما لو كان عدد من الرجال مشغولين بمبارزة العصى. وما أن تقدم تجاه مكان المبارزة حتى أمسكه جوزيف من ثوبه، وتوسل إليه؛ حيث إنهما من الممكن أن ينتهزا فرصة الظلام ويُهرِّبا فانى بعيدًا عن الخطر الذى يهددها.

فاستجاب فى الحال، وحمل جوزيف فانى وسلكوا طريقهم جميعًا، ودون أن ينظروا خلفهم أو يلحق بهم أحد مشوا ميلين كاملين، ولم تَشتكِ فانى المسكينة مرة من أنها متعبة، حينما رأوا أن أضواء عديدة تناثرت على مسافة صغيرة، وفى نفس الوقت وجدوا أنفسهم على تل شديد الانحدار. انزلقت قدم أدمس واختفى فى الحال، وأخاف ذلك كلا من فانى وجوزيف بدرجة كبيرة، ولكن فى الواقع لو سمح لهما الضوء بالرؤية لما استطاعا منع نفسيهما من الضحك لرؤيته، حينما رأيا القس قد تدحرج إلى أسفل التل من القمة إلى القاع دون أن يلقى أى أذى. ثم هتف بصوتٍ عالٍ بقدر ما استطاع ليعلمهما أنه فى أمان ولكى يخفف عنهما مخاوفهما عليه.

توقف جوزيف وفاني بعض الوقت يفكران فيما يفعلانه، وفى النهاية تقدما خطوات قليلة؛ حيث قَل الانحدار، ثم أمسك جوزيف يد فاني ومشيا بثبات أسفل التل دون أن يخطوا خطوة خاطئة، وفى النهاية جعلها تهبط إلى القاع حيث أتى إليهما أدمس.

من هنا اعلمن أيتها السيدات الريفيات الجميلات أن تفكرن فى ضعفكن، وفى العديد من المناسبات التى تكون فيها قوة الرجل مفيدة، لكن ينبغى أن تَزِنَّ ذلك واحرصن ألاَّ يكون شريك حياتكن رجلاً ضعيف البنية وجميلاً معجبًا بجماله beaux et petit maîtres بدلاً من أن يكون قادرًا مثل جوزيف على حملكن بذراعين مُفعَمتين بالحيوية فى الطرق الوعرة والتلال المنحدرة من الحياة؛ فإنه سوف يحتاج إلى حدٍّ ما لمساندة أطرافه الضعيفة بقوتكن ومساعدتكن.

تحرك مسافرونا الآن إلى الأمام، حيث ظهر أقرب ضوء وعبروا حقلاً عامًّا وأتوا إلى أرضٍ خضراء؛ حيث أصبحوا بعيدين تمامًا عن الضوء، ولكنهم صدموا عندما وجدوا أنهم وصلوا إلى ضفاف نهر. توقف أدمس هنا وقال إنه يستطيع العوم، لكنه لم يعرف كيف يمكن لفاني أن تعبر النهر، وأجاب جوزيف قائلاً لو مشوا على طول ضفاف النهر فمن المؤكد أنهم سيجدون جسرًا قريبًا، خاصَّة أن تلك الأضواء تؤكد لهم أن هناك أبرشية بالقرب من هنا. قال أدمس "حقا إن هذا صحيح، أنا لم أفكر فى ذلك". ووفقًا لذلك، أخذوا بنصيحة جوزيف وعبروا اثنتين من الأراضى الخضراء، وأتوا إلى بستان صغير قادهم إلى المنزل.

طلبت فاني من جوزيف أن يطرق على الباب مؤكدة له أنها متعبة للغاية؛ ولا تستطيع أن تقف على قدميها. قام بهذا أدمس الذى كان فى المقدمة، وبمجرد أن فُتح الباب ظهر رجل بسيط. وأخبره أدمس أن معهم فتاة متعبة للغاية بسبب رحلتها وهى مضطرة أن تدخل إذا تركهم لكى تُريح نفسها.

أدرك الرجل الذى رأى فاني بضوء الشمعة التى يمسكها فى يده، أنها تبدو طاهرة ومحتشمة، ولم يكن لديه مخاوف من تصرف أدمس المهذب، وقال فى

الحال إن الفتاة يمكنها أن تُريح نفسها فى منزله. ثم قادهم إلى حجرة ملائمة للغاية حيث كانت زوجته تجلس على منضدة، فنهضت فى الحال وساعدتهم فى الجلوس على المقاعد، وبمجرد أن جلسوا سألهم صاحب المنزل إن كانوا يريدون أى شىء لينعشوا به أنفسهم.

فشكره أدمس وقال إنه سيكون شاكرًا لو أعطاه كوبًا من البيرة، وقد اختار جوزيف وفانى أيضا ذلك.

وبينما ذهب ليملأ وعاء كبيرًا جدا بهذا الشراب، قالت زوجته لفانى إنها تبدو متعبة للغاية، وسألتها إن كانت تريد شيئًا أقوى من شراب البيرة، لكنها رفضت وشكرتها كثيرًا قائلة أنها حقا متعبة للغاية، لكنها تأمل أن بعض الراحة سوف تعيد حيويتها.

بمجرد أن جلست المجموعة كلها، توجه السيد أدمس - الذى شَرِب البيرة، وبإذن من الجميع أشعل غليونه - إلى سيد المنزل وسأله إن كانت الأرواح الشريرة قد اعتادت المشى فى هذا الجوار، ولم يتلق إجابة على هذا، بدأ يُخبره عن المغامرة التى واجهوها أثناء مشيهم بين المنحدرات، بينما كان يواصل قصته طرق شخص ما على الباب بشدة. اندهش الجميع بعض الشىء، وأصبح وجه كل من فانى والسيدة شاحبًا، ذهب الرجل الذى غاب بعض الوقت، وظلوا جميعًا صامتين ينظر كل واحد للآخر وسمعوا أصواتًا عديدة تتحدث بصوتٍ عالٍ.

كان أدمس مقتنعًا تمامًا أن تلك الأرواح بالخارج، وبدأ يتلو بعض التعاويذ للتخلص من الأشباح، وكان جوزيف يميل إلى نفس رأى أدمس، أما فانى فكانت تخاف أكثر من الرجال بالخارج، وبدأت السيدة الطيبة نفسها تشك فى ضيوفها وتخيلت أن هؤلاء متشردون ينتمون لعصابتهم.

فى النهاية، رجع سيد المنزل وهو يضحك قائلاً لأدمس إنه اكتشف من هو شبحه، وأن مرتكبى القتل هم لصوص الغنم، والاثنا عشر شخصًا الذين قُتلوا ما هم

إلا اثنا عشر غمن الغنم، مضيفًا أن رعاة الغنم قد تغلبوا عليهم، وقد ضَمَنوا اثنين ورفعوا دعوى إلى قاضى تلك المنطقة.

أراح ذلك مخاوف كل الصُّحبة كثيرًا، لكن تمتم أدمس فى نفسه قائلاً إنه مقتنع بحقيقة الأشباح.

جلسوا جميعًا الآن حول المدفأة مبتهجين إلى أن تفحَّص سيد المنزل ضيوفه ورأى رداء الكهنة ينزل تحت معطف أدمس، وزى الخدم المتسخ الذى يرتديه جوزيف أندروس، لم يكن مناسبًا للألفة بينهما، فبدأ يفكر فى بعض الشكوك التى لم تكن فى مصلحتهم، فبعد أن خاطب نفسه قال لأدمس إنه أدرك من ملابسه أنه رجل دين، واعتقد أن هذا الرجل الأمين خادمه.

قال أدمس: "سيدي، إننى رجل دين وفى خدمتك، لكن هذا الرجل الذى أصبت حينما قلت إنه أمين هو الآن ليس فى خدمة أحد، وهو لم يعش فى أية عائلة أخرى سوى السيدة بوبى التى صرفته من خدمتها، أؤكد لك دون أية جريمة ارتكبها".

قال جوزيف إنه ليس مندهشًا أن الرجل فوجئ برؤية السيد أدمس بطيبته الشديدة وبصحبته رجل فقير.

قال أدمس: "يا بنى، إننى سأخجل من ردائى لو اعتقدت أن الرجل المسكين الأمين أقل من أن يستحق اهتمامي أو ألفتى. إننى لا أعرف كيف يستطيع هؤلاء الذين يعتقدون ذلك أن يعترفوا بأنفسهم أنهم تابعون وخادمون لله الذى لم يصنع أية تفرقة إلاَّ بالمصادفة بتفضيل الفقراء على الأغنياء". قال: "سيدى، إن هذين المسكينين هما من أبناء أبرشيتى وأنا أرعاهما وأحبهما مثل أولادى. هناك شيء ما فريد فى قصتهما، لكن ليس لدى وقت الآن لكى أرويه".

علِم سيد المنزل الذى له خبرة كبيرة بالحياة تجعله يجهر برأيه بأن أدمس غاية فى البساطة. ولم يكن متأكدًا بعد إن كان أدمس رجل دين حقا أو أنه مجرد

رجل دين يرتدى رداء الكهنة. لذلك ولكى يختبره أكثر؛ سأله إن كان السيد بوب Pope قد نشر مؤخرًا أى شيء جديد؟

فقال أدمس إنه قد سَمِع مدحًا عظيمًا عن هذا الشاعر، لكنه لم يقرأ أو يعرف أى شيء من أعماله.

قال الرجل: " آه ها!! أوقعتك؟"

قال: "ماذا؟ ألم تقرأ قصيدته هومر؟"

قال أدمس إنه لم يقرأ أية تراجم للكلاسيكيات.

قال الرجل: "حقا؟ لماذا؟ " رد أدمس قائلاً: "هناك سمو فى اللغة اليونانية التى أعتقد أنه ليس هناك لغة حديثة يمكن أن تصل إليها".

ثم أضاف أدمس: "هل تعرف اليونانية يا سيدى؟"

قال الرجل: "قليلاً يا سيدى"

صاح أدمس قائلاً: "أتعرف يا سيدى من أين يمكننى شراء كتاب أخيلس؟ فقد أضعت كتابى مؤخرًا لسوء الحظ".

كان أخيلس فى متناول الرجل، وهو يعرفه جيدًا بالاسم فقط، لذلك رَجِع إلى هومر وسأل أدمس قائلاً أى جزء من الإلياذة Iliad يعتقد أنه ممتاز؟

أجاب أدمس يجب أن يكون سؤاله أكثر دقة، ما نوع الجمال الذى كان رئيسيًا فى الشعر؟ حيث إن هومر كان بارعًا فيها جميعًا.

واستمر قائلاً: "وحقا، ماذا يقول سيسرو عن الشخص البارع فى الخطابة؟ ربما يُطبق على شاعر عظيم: يجب عليه أن يدرك كل الامتيازات".

لقد فعل هومر ذلك بأعلى درجات الامتياز؛ لذا فهناك سبب قوى أن الفيلسوف يذكره فى الفصل الثانى والعشرين من كتابه الأشعار على أنه الشاعر الأوحد.

إنه أبو الأعمال المسرحية وأيضا الملحمية وليس فقط الأعمال التراجيدية، وكذلك الأعمال الكوميدية أيضا، حيث إن أحد أعماله مارجيتس Margites، الذى لسوء الحظ كما يقول أرسطو يحتوى على عناصر الكوميديا، كما تحمل الإلياذة والأودسه Odyssey عناصر التراجيديا.

لذلك فنحن ندين لأريستوفانيس Aristophanes، وأيضا يوربيدس Euripides، وسوفوكليس Sophacles وكتابى المسكين أخيلس.

لكن بعد إذنك سنحصر أنفسنا (على الأقل فى الوقت الحاضر) بالإلياذة Iliad، وهي من أنبل أعماله، على الرغم من أن أرسطو وهوراس Horace لم يعطياها الأفضلية - على ما أتذكره - على الأودسة odyssey.

فأولاً: بالنسبة لموضوعه هل من الممكن أن يكون أى شيء أكثر بساطة وفى نفس الوقت أكثر نبالة؟ فهو يستحق المدح الذى وجهه إليه هؤلاء النقاد الحصفاء لأنه لم يختر الحرب بأكملها، والتى - على الرغم من أنها كما يقول اكتملت بداية ونهاية - ستكون أعظم من فهمها ومن خلال وجهة نظر واحدة.

لذلك فقد تعجبت لماذا كاتب ملتزم مثل هوراس Horace يُسميه فى رسالته إلى لوليوس Lollius، كاتب أو مؤرخ الطروادية Trojani belli scriporem ثانيًا: أداؤه سماه رأى أرسطو التوفيقية البراجماتية Aristatle progmaton systeriss هل من الممكن أن يتصور العقل الإنسانى فكرة عن تلك الوحدة الكاملة وفى نفس الوقت يكون مفعمًا للغاية بالعظمة؟ وعليّ أن ألاحظ هنا ما لا أتذكر أن أحدًا لاحظه، الإصلاح أو الربط بين أمرين Harmotton أى توافق أحداثه مع موضوعه، فإن كان الموضوع عن "الغضب" هل يمكن أن يكون هناك أحداث أنسب من الحرب التى تنشب منها كل حادثة، ولها تروى على الفور كل قصة؟

ثالثًا: أخلاقياته التى يضعها أرسطو فى المرتبة الثانية فى وصفه لأجزاء عديدة من التراجيديا والتى يقول عنها إنها متضمنة فى الأداء، إننى فى حيرة إن

كنت إلى حدٍّ ما أعجب بدقة حكمه على السمو الجميل، أم باتساع خياله في تنويعها.

فبالنسبة للسابق، كيف يمكن أن نفرق بدقة بين شعور أخيلس بالإهانة والرفض وبين عاطفة أجاممنون Agammenon المهينة!!

كم تختلف شجاعة أجاكس Ajax الوحشية إلى حدٍّ بعيد من جُرأة ديوميديس Diomedes اللطيفة، وحكمة نستور Nestor وهي نتيجة التفكير الطويل والخبرة من براعة أوليس Ulysses كل هذا من خلال تأثير الفن الخفي!! فلو فكرنا في تنوعها فربما سنقف مع قول أرسطو في فصله الرابع والعشرين؛ حيث لا يوجد أي جزء من تلك القصيدة الإلهية يخلو من الأخلاقيات.

في الحقيقة، يجب أن أؤكد أنه لا توجد شخصية من الشخصيات الإنسانية لم تتناول في جزء أو آخر. وهكذا ليست هناك عاطفة لا يستطيع أن يصفها، ألا يوجد شيء بداخل قارئه لا يستطيع إثارته؟

وإذا كان لديه أية مهارة تفوق الآخرين فستكون في هؤلاء الذين يثيرون الشفقة.

إني متأكد من أنني لم أقرأ القصتين اللتين فيهما أندروماك Andromache دون أن تدمع عيناي في الأولى حزنًا على الخطر، وفي الثانية حزنًا على موت هيكتر Hector، فالصور البلاغية رفيعة؛ لدرجة أنني مقتنع أن الشاعر يتمتع بأفضل قلب ممكن تصوره، كما أنني لا أستطيع منع نفسي من ملاحظة كيف ينقد سوفوكلس Sophocles بعضًا من جمال الإبداع في محاكاة كلام أندروماك Andromache الذي وضعه على لسان تيكميسا Tecmessa.

ومع ذلك فإن سوفوكليس Sophocles أعظم عبقري كتب التراجيديا، وليس هناك أحد من خلفائه في هذا الفن أو من جاءوا من بعده، فلا يوربيدس Euripides ولا سينكا Sēneca كاتبي التراجيديا استطاعا أن يصلا إلى مستواه. وبالنسبة

لأحاسيسه وكلماته فلستُ فى حاجة إلى قول أى شيء. السابق يتسم بوضوح يصل إلى أقصى درجات الكمال، وبالنسبة للأخير أرسطو فدون شك قررت أن قراءته واضحة للغاية.

سوف أذكر شيئًا آخر، ما يسميه هذا الناقد العظيم فى تقسيمه للتراجيديا "أوبسيس" Opsis أو المشاهد، وهو الملائم للملحمة مثل ملاءمته للمسرحية، بهذا الاختلاف ففى الأول يبدأ فى مشاركة الشاعر، وفى الأخير يبدأ فى مشاركة الرسام.

لكن هل يتخيل الرسام مشهدًا مثل الذى فى الإلياذة Iliads الثالثة عشرة والرابعة عشرة؟ حيث يرى القارئ فى منظر واحد تنبؤ "تروى" مغطاة Troy مع الجيش مستعدًا أمامه وجيش جريسيان Grecian، ومعسكره، وأسطوله بالإضافة إلى جوبيتر المشترى جالسًا على جبل أيدا Ida، ورأسه مغطاة بسحاب والبرق فى يده ناظرًا تجاه ثراس Thrace ويمر نيبتون عبر البحر الذى يقسِّم كل جانب؛ ليسمح بمروره ثم يجلس بنفسه على جبل ساموس Samos، فتتفتح السماوات، وتجلس كل الآلهة على عروشها. شيء فيه سمو!! إنه شعر.

ثم ألقى أدمس مائة بيت يونانى من الشعر بصوت مُعبر، وأسلوب كاد أن يُخيف النساء، وبالنسبة للرجل فقد أصبح بعيدًا تمامًا عن أى شك فى أدمس، بل إنه أصبح يشك فى أن لديه مطرانًا فى منزله.

وأسهب فى مديح مفرط فى علمه، وبدأت طيبة قلبه تُسهب لكل الأغراب. قال إنه يُشفق على المرأة المسكينة، التى بدت شاحبة وضعيفة بسبب رحلتها، وفى الحقيقة تصوُّر لمنزلتها أعلى بكثير مما تستحقه.

قال إنه حزين لأنه لا يستطيع إيجاد مكان لمبيتهم جميعًا، لكن إن كانوا راضين بجلوسهم بجوار مدفأته فيمكنه أن يسهر مع الرجال، ويمكن للفتاة إن أرادت ذلك أن تشارك زوجته فراشها، والذى قد نصحها أن تأوى إليه، حيث إنهم سيمشون أكثر من ميل لأى فندق للاستراحة، وهذا ليس جيدًا.

أدمس الذى أحب جلسته وشرابه وتدخين غليونه وصحبته، أقنع فانى بقبول هذا العرض الكريم، وأيده جوزيف فى هذا الرجاء، ولم تكن هناك صعوبة شديدة فى إقناعها، لأنها لم تنم الليلة الماضية إلا قليلاً، ولا تستطيع المواصلة أكثر من ذلك، حتى الحب نفسه لم يكن قادرًا إلا بشق النفس أن يجعل عينيها مفتوحتين وقتًا أطول.

لذلك قبلت العرض بصدرٍ رحب، وأعدت السيدة الطيبة كل شيء صالح للأكل فى بيتها ووضعته على المنضدة، ولأنهما دعيا الضيوف بشدة، استمتع الضيوف بالطعام جدا خاصةً القس أدمس.

وبالنسبة للاثنين الآخرين فقد كانا مثالين لصدق الملاحظة العضوية أن الحب مثل الأشياء الحلوة الأخرى، فلا يثير الشهوة إلى الطعام.

بمجرد أن انتهت فانى من العشاء، وبناء على طلبها أوت إلى الفراش، وتحملت السيدة الطيبة صحبتها.

انسحب بتواضع سيد المنزل، وأدمس، وجوزيف، ولم يصر الرجل على العكس تمامًا، والتفوا حول المدفأة، حيث (فلنستخدم كلمات أدمس) استكمل أدمس تدخين الغليون الخاص به، وأعد الرجل زجاجة من البيرة الممتازة، وهو أحسن شراب فى المنزل.

إن تصرف جوزيف المتواضع ولباقته، وهى الصفة التى أعطاها أدمس له، والصداقة التى بدت تُسليه، بدأت تؤثر على شعور الرجل وأثارت فضوله ليعرف التفرد الذى ذكره أدمس فى قصته.

لم يُرضِ أدمس هذا الفضول إلا بمجرد أن وافق جوزيف، ووفقًا لذلك روى كل ما عرفه، بكل حنان ممكن لشخصية السيدة بوبى، وأنهى بالعاطفة الصادقة المشتركة منذ عهد بعيد بينه وبين فانى، ولم يخف وضاعة تعليمها وميلادها.

تلك الأحداث الأخيرة قد شفَت تمامًا الغيرة التى ثارت فى عقل الرجل أخيرًا، أن فانى ابنة رجل ذى منزلة اجتماعية، وأن جوزيف قد هرب معها، وقد اهتم أدمس بحبكة الرواية.

لقد فُتن الآن بضيوفه وشربوا نخبهم ببهجةٍ كبيرةٍ، وشكروا أدمس كثيرًا الذى قضى لحظات كثيرة حين كان يروى القصة بالتفصيل.

قال له أدمس إن فى سلطته الآن رد ذلك المعروف، حيث كانت طيبته تفوق العادة وأيضا كان مالكا لرصيد من الأدب الذى لم يتوقع أن يجده تحت هذا السقف، فأثار فيه فضولاً أكثر مما عرفه.

قال: "لذلك، إن لم يكن شاقًا عليك اروِ لنا قصتك، إذا سمحت".

أجاب الرجل إنه لا يستطيع أن يرفض ما هو من حقه. وبعد بعض من الاعتذارات العامة وهى المقدمة المعتادة للقصة، بدأ هكذا.

الفصل الثالث

في هذا الفصل يروى الرجل قصة حياته.

"سيدى، إننى أنحدر من عائلة محترمة، وولدت رجلاً ذا منزلة اجتماعيـــة. كان تعليمي متحررًا وفى مدرسة عامة، وقد واصلت فيها إلى حدٍّ بعيـــد إلـــى أن أصبحت أجيد اللغة اللاتينية، كما أصبحت متمرسا إلى حدٍّ ما فى اللغة اليونانية.

تُوفى أبى حينما كان عمرى ستة عشر عامًا، وتركنى حرًّا، وقد ورثت عنه ثروة معقولة، وقد أراد ألا آخذها حتى أبلغ من العمر خمسًا وعشرين سنة، حيـــث إنه كان يؤكد دائمًا أنه لم يحن الوقت بعد الذى يمكن أن يترك فيه أى رجل يـــشق طريقه بنفسه، على الرغم من أن تلك الرغبة كانت مكتوبة فى وصـــيته بطريقـــةٍ مبهمة، حيث نصحنى المحامون أن أناقش المسألة مع أوصيائى. إننى أعترف أننى لم أهتم كثيرًا برغبات والدى المتوفى، فقد كنت متأكدًا منها إلى حدٍّ كبيـــر، حيـــث إننى قد اتبعت نصيحتهم، وسريعًا ما نجحت حيث إن الأوصـــياء لـــم يعارضـــوا المسألة من جانبهم بعنادٍ كبير".

قال أدمس: "سيدى، هل يمكننى أن أتشرف باسمك؟"

أجاب الرجل أن اسمه ويلسون، ثم واصل قائلاً:

"لقد مكثت فترة قصيرة جدا بالمدرسة بعد وفاته، فبما أننى كنت شابًّا متهورًا فقد كنت لا أطيق الصبر حتى أنخرط فى الحياة، وأهلتنـــى مـــواهبى، ومعرفتـــى، ورجولتى بدرجةٍ كبيرة. وأرجع أسباب كل المحن التى قابلتها فى المـــستقبل إلـــى دخولى الحياة مبكرًا، فبجانب المشاكل الواضحة التى قد تنتج عن هذا كانت هنـــاك

مشكلة أخرى لم تكن بهذا الوضوح، فالانطباع الأول الذى يأخذه عنك البشر من الصعب التخلص منه؛ فيا لها من تعاسة أن تثبت شخصيتك فى الحياة قبل أن تعرف قيمتها أو تزن عواقب التصرفات التى تحدد سمعتك فى المستقبل.

"لقد تركت مدرستى وسنى أقل من السابعة عشرة، وذهبت إلى لندن ولم يكن فى جيبى سوى ستة جنيهات.... تصورت أنه مبلغ كبير إلا أننى أنفقته سريعًا. كنت طموحًا فى أن أكون رجلاً ذا منزلة اجتماعية، فأدركت أننى بحاجة إلى ترزى بدل، وصانع شعر مستعار، وبعض التجار الذين يُتاجرون فى تجهيز الجسد البشرى.

على الرغم من قلة نقودى وجدت التعامل معهم بالدين أسهل مما توقعت، فقدموا لى كل ما أريده. لا شك أن ذلك قد أدهشنى، إلا أننى قد تعلمت منذ ذلك الوقت حكمة من التُجار فى هذا الجزء من المدينة، أنهم يتاجرون بأكبر مبلغ يستطيعونه؛ ليكسبوا بقدر ما يستطيعون، ثم يقبضون على الزبون بأسرع ما يستطيعون.

فكرت بعد ذلك فى إتقان الرقص، والمبارزة بالسيف، وركوب الخيل، والموسيقى، لكن احتاج ذلك إلى وقتٍ ومصاريف، فقصرت اهتمامى على الرقص، حيث إننى تعلمت قليلاً منه فى شبابى، ويمكننى المشى لمدة دقيقة بطريقةٍ أنيقة، وبالنسبة للمبارزة بالسيف اعتقدت أن حُسن دُعابتى ستحمينى من خطر الشجار، وبالنسبة للخيل تمنيت لو لم أفكر فيها، أما الموسيقى فتخيلت أننى سوف أتقنها بسهولة، حيث إن زملائى فى المدرسة كانوا يتظاهرون بمعرفتها فى الأوبرا دون أن يكونوا قادرين على الغناء أو العزف على الكمنجة.

إن المعرفة بالمدينة مقوم آخر، واعتقدت ذلك حينما كررت زيارة الأماكن العامة، ووفقًا لذلك زرتها بصفة دائمة، فسريعًا ما أتقنت الجُمل الحديثة، وتعلمت كيف ألقى بعض الأقوال الطريفة التى تعتبر أحدث صيحة، وعرفت أسماء ووجوه أكثر الرجال والنساء المتواكبين مع الموضة.

لم يبق الآن شيء سوى المكيدة التى اعتزمت إتقانها على الفور، أعنى الاشتهار بها. والحقيقة كنت ناجحًا للغاية فى وقتٍ قصير للغاية؛ فقد عرفت نصف دستة من أجمل سيدات المدينة".

عند تلك الكلمات تأوه أدمس بعمق، ثم سأل الله أن يسبغ نعمته عليه، وصاح قائلاً يا إلهى!! يا لها من أوقات شريرة (تنم بالشر) ".

قال الرجل: "ليست كما تتصور، فأؤكد لك أنهن كن جميعًا عذارى، ولم أعرف شيئًا يجعلنى أعتقد عكس ذلك تمامًا. إن الاشتهار بالمكيدة معهن هو كل ما كنت أبغى وهو ما وصلت إليه، وبما أننى أشبعت غرورى حتى فى ذلك، فمن المحتمل جدا أن الأشخاص الذين عرضت عليهم الخطابات كانوا يعرفون مثلى أنها مزيفة، وأنى كتبتها أنا لنفسى". قال أدمس محدقًا: "تكتب خطابات لنفسك!!"

أجاب الرجل: "آه سيدى، إنه خطأ هذه الأوقات، نصف مسرحياتنا الحديثة بها أحد تلك الشخصيات. إن المعاناة التى مررت بها لا تُصدق، والطرق السخيفة التى استخدمتها لانتهاك شخصية السيدات ذوات المنزلة الرفيعة لا تُصدق، فإذا صادفنا أن تحدث أحد ما فى سعادة عن أية سيدة، كُنت أجيب قائلاً: لعنها الله ستكون باغية قريبًا. يرد علىّ قائلاً إنه يعتقد أنها سيدة ذات أخلاق فاضلة. أجبت: آه، إنك دائمًا تفكر فى عفة السيدة حتى تكون فى الشوارع، لكن أنا وأنت، وأى أشخاص آخرين (مستديرًا إلى آخر فى الصُّحبة) نعرف غير ذلك.

عند ذلك سحبت ورقة من جيبى ربما فاتورة الترزى، وقبلتها وصحت قائلاً فى نفس الوقت: "بحق إزميل لقد كنت مغرمًا بها".

قال أدمس: "استمر من فضلك، لكن لا تحلف كثيرًا".

قال الرجل: "سيدى، إننى آسف، حسنًا سيدى فى تلك المسيرة من الحياة أمضيت ثلاث سنوات كاملة".

أجاب أدمس: "أية مسيرة من الحياة؟ إننى لا أتذكر أنــك قــد ذكــرت أيــة مسيرة".

قال الرجل مبتسمًا: " إن تعليقك فى محله، لقد قلت فى تلك المسيرة التى لــم أفعل تقريبًا فيها شيئًا، أنا أتذكر أنى بعد مضى بعض الوقت قمت بتدوين مــذكرات يوم واحد، وهى تمثل جميع الأيام خلال تلك الفترة، وسأحاول إعادة قراءتها لك:

نهضت فى الصباح وأخذت عصاى الكبيــرة، وخرجــت مرتــديًا بــدلتى الخضراء، وشعرى مزين (تأوه أدمس)، ومشيت الهُوينَى حتى حــوالى العاشــرة، ذهبت إلى المزاد، قلت للسيدة إن وجهها متسخ. ضَحِكت بشدة على شيء ما قالــه الكابتن، إننى لا أتذكر ماذا؛ حيث إننى لم أسمعه جيدًا".

همس السيد: "انحنيت للدُوق، وكان يحاول الحصول على علبة النشوق، لكنه لم يفعل خشية أن أكون قد أخذتها.

من ٢ إلى ٤ ارتديت ملابسى. تأوه.

من ٤ إلى ٦ تناولت الغذاء. تأوه.

من ٦ إلى ٨ ذهبت إلى القهوة.

من ٨ إلى ٩ دربرى لان، مكان اللعب.

من ٩ إلى ١٠ فندق لينكولن فيلاس.

من ١٠ إلى ١٢ قاعة الاستقبال، تأوه كبير.

فى كل هذه الأماكن لم يحدث شيء يستحق التعليق عليه".

على ذلك قال أدمس ببعض من الشدة: "سيدى، إنها أقل من حيــاة حيــوان وبالكاد أعلى من حياة النبات، وأنا مندهش ما الذى يجعل رجلاً فى رجاحة عقلــك يفعل ذلك".

أجاب الرجل: "إن الذى يقودنا إلى الحماقات أشياء كثيرة أكثر مما تتخيل يا دكتور، التفاخر وحب النفس؛ فقد كنت مخلوقًا حقيرًا، وأؤكد لك أنك أنت لن تحتقر هذا الكريه أكثر منى الآن. فى ذلك الوقت كنتُ معجبًا بنفسى؛ لأحتقر شخصًا بمظهرك الحالى (سامحنى) بكل معرفتك وصفاتك الممتازة التى قد لا حظتها فيك".

انحنى أدمس وطلب منه أن يكمل، قال الرجل: "بعد أن أكملت سنتين فى تلك المسيرة من الحياة وقعت حادثة اضطرتنى أن أغير المكان، حيث كنت يومًا ما فى قهوة جامس أتصرف بحريتى مع فتاة ذات منزلة رفيعة، فكّر ضابط من الحرس الملكى في ذلك الوقت أن يُكذبنى. أجبت من الممكن أن أكون أخطأت لكننى عزمت على أن لا أقول إلا الصدق، ولم يجب علىِّ إلا باحتقار. بعد ذلك لاحظت برودًا غريبًا من كل معارفى، لم يتحدث إلىَّ أحد منهم أولاً، وقليل منهم كان يردّ لى الانحناءة للتحية، تركتنى الصُحبة التى اعتدت أن أتناول معهم الغذاء، وفى غضون أسبوع وجدت نفسى وحيدًا فى شارع جامس كما لو كنت فى صحراء. فى النهاية، قال لى رجل عجوز أمين يرتدى قبعة كبيرة وسيفًا طويلاً، إنه يشفق على شبابى؛ لذلك نصحنى أن أُظهر للعالم أننى لست هذا الوغد الذى يعتقدونه. فى البداية، لم أفهمه لكنه شرح ما يعنى وأنهى قائلاً لى، لو كتبت تحديًا إلى القبطان فهو على استعداد فى أن يذهب إليه به".

صاح أدمس قائلاً: "حقا! يا له من شخصٍ خيِّر".

أكمل الرجل قائلاً: "طلبت مهلة حتى اليوم التالى للتفكير فى الأمر، وعدت إلى مسكنى. لقد وزنت العواقب على كلا الجانبين بقدر ما استطعت، فرأيت من جانب خطر هذا البديل، إما أن أفقد حياتى أو أن تكون يدى ملطخة بدم رجل لم يكن عدوًّا لى من قبل. قررت سريعًا أن الفائدة التى ستعود علىَّ من هذا الحل لا يستحق تلك المجازفة، لذلك قررت أن أترك المكان، وذهبت إلى فندق "المعبد" حيث حجزت غرفة لى، وسريعًا ما حصلت هناك على مجموعة جديدة من المعارف الذين لم يعرفوا شيئًا مما حدث لى فى السابق.

فى الحقيقة لم أستحسنهم بـ ـجة كبيرة؛ حيث كان نزلاء هذا الفندق مجرد خيال للآخرين. إنهم يمثلون تصنع التصنع، إن تفاهة هؤلاء مضحكة أكثر من تفاهة الآخرين. تقابلت هنا مع رفقاء أذكياء، وهم يشربون مع أرستقراطيين لا يعرفونهم فى السابق، وأوقعوا فى شباكهم سيدات لم يروهن من قبل. أصبحت كوفنت جاردن أقصى طموحى، حيث تألقت فى شرفات المسارح، وزرت العاهرات، والباغيات وكل تلك الألاعيب الملعونة. وسريعًا ما أوقف طبيبى تلك الأعمال، والذى أقنعنى بضرورة أن أرتاح فى حجرتى لمدة شهر. فى نهاية هذا الشهر، أصبح لدى وقت للتفكير، وقررت أن أهجر أى حديث مع الجميلات والأنيقات من كل نوع وأن أتجنبهم إن أمكن، وأتجنب أية فرصة للرجوع لهذا المكان".

قال أدمس: "إننى أعتقد أن نصيحة العزلة والتفكير لمدة شهر ملائمة جدا، لكننى كنت أفضل أن تكون من رجل دين بدلاً من أن تكون من الطبيب".

ابتسم الرجل لبساطة أدمس، ودون أن يخوض أكثر فى هذا الموضوع الكريه؛ قال ما يلى: "بمجرد أن استرددت صحتى تمامًا، رجعت عاطفتى تجاه السيدات، وكنت خائفًا أن أعود إلى سابق تصرفاتى، لذلك قررت أن تكون لى عشيقة".

لم آخذ وقتًا طويلاً قبل أن أحدد اختيارى لسيدة كانت عشيقة لرجلين من قبل، وقد رُشحت لها عن طريق بغيٍّ مشهورة.

أخذتها إلى حجراتى حيث أقيم، وأعددت لها إقامة مريحة خلال فترة معيشتنا سويًّا. وكان من الصعب علىَّ أن أدفع ثمن إقامتها معي، لكنها قالت لى ألا أقلق بشأن هذا الموضوع، حيث وجدتها قبل مضى ربع اليوم فى حجرتى تتحدث بأسلوب فيه ألفة شديدة مع شاب مرتدٍ مثل الضابط، لكنه كان فى الحقيقة موظفًا فى المدينة.

بدلاً من الاعتذار عن عدم إخلاصها؛ تفوهت فجأة بعدد من كلمات السب، وطقطقت أصابعها فى وجهى وأقسمت أنها تُحط من شأنها إذا أخلصت لأحسن رجل فى إنجلترا.

وعلى ذلك افترقنا، وأمدتها على الفور نفس الباغية بشخص آخر يعولها. ولم أكن مهتمًّا كثيرًا بانفصالنا، حيث إننى وجدت خلال يوم أو يومين أنى مضطر للذهاب لزيارة الطبيب مرة ثانية.

وأُجبرت الآن أن أُكفر عن ذنوبى لبضعة أسابيع، وفى خلال هذا الوقت تعرفت على فتاة جميلة ابنة رجل ذى منزلة اجتماعية، وقد أمضى أربعين سنة فى الجيش، شارك فى كل الحملات تحت إشراف الدوق مارل بوروا، وتوفى وهو بدرجة ملازم ويتقاضى نصف مرتب، وترك أرملة مع تلك الطفلة فقط، وفى تلك الظروف الأليمة لم يكن لديهما إلا معاش صغير من الحكومة، وما تضيفه الابنة من القليل الذى تأخذه من عملها؛ حيث إنها بارعة للغاية فى خياطتها. تلك الفتاة فى بداية معرفتى بها طلب منها الزواجَ شابٌ فى ظروفٍ جيدة. إنه كان صبيًّا لتاجر ملابس كتانية ولديه ثروة قليلة كافية لتأسيس تجارته.

كانت الأم سعيدة للغاية بهذا الزواج؛ حيث إنها فى الحقيقة لديها أسباب كافية لذلك، ولكنى منعت هذا الزواج. لقد أظهرته فى صورة سيئة للغاية للفتاة، واستخدمت التملق، والوعود، والهدايا جيدًا، وحتى لا أطيل فى هذا الموضوع أكثر من اللازم، سيطرت على تلك الفتاة المسكينة وأخذتها بعيدًا عن أمها!!

بالاختصار، لقد أفسدتها. (عند تلك الكلمات نهض أدمس فجأة ومشى بخُطى واسعة عبر الحجرة، ثم استبدل مكان كرسيه).

إن تأثرك بتلك القصة لا يزيد عن تأثرى بهذا الجزء من قصتى أكثر منى، أؤكد لك أنه فى رأى لا أستطيع أن أكفر عن ذنبى بدرجةٍ كافية.... لكن لو أنك تكره أفعالى حتى الآن، فإلى أى مدى سيزداد سخطك؛ عندما تسمع العواقب المميته لتلك الأعمال الهمجية والحقيرة؟ لذلك بعد إذنك سأكتفى بذلك".

قال أدمس: "على الاطلاق، استمر أتوسل إليك، وسيمنحك الله التوبة الخالصة من تلك الأعمال والأشياء الأخرى العديدة التى قد رويتها".

استمر الرجل قائلاً: "لقد أصبحت سعيدًا، لأننى امتلكت فتاة جميلة لديها تعليم جيد، وعندها صفات عديدة مقبولة جذبتنى. عشنا بضعة شهور معًا فى تآلف شديد دون أية صحبة أو محادثة إلا المحادثة التى كانت بيننا، لكن لم يستمر هذا دائمًا، وعلى الرغم من أننى لا أزال أكنّ مشاعر عميقة لها فقد بدأت أبحث عن الراحة مع صحبة أخرى؛ وبالتالى بدأت أتركها بالتدريج، وفى النهاية قضت أيامًا كاملة بمفردها، ولم تستطع إلا أن تعبر عن عدم راحتها فى تلك المناسبات، واشتكت من تلك الحياة الكئيبة التى سلكتها. لمعالجة ذلك عرفتها على عشيقات أخريات، ومن ثم اعتادت لعب الورق معهم وألعابًا متكررة وانحرافات أخرى.

ولم تمض فترة طويلة على تلك الصداقات الحميمة قبل أن ألاحظ تغيرًا ملحوظًا فى سلوكها، وتلاشى تدريجيًا كل شيء طاهر ومتواضع فيها، حتى أُفسد عقلها تمامًا. وتأثرت بالصُّحبة سريعًا وأعطت لنفسها أهمية مصطنعة، لم يكن سهلاً أن تقيم حفلة فى حجرتى لكن كانت تفعل ذلك بالخارج.

كانت تنهب النقود بشرهٍ، ومسرفة بدرجة كبيرة، وطليقة فى محادثتها، ولو اعترضت على أى طلب من طلباتها فتكون العواقب المباشرة القسم والبكاء ونوبات المرض. وبما أن بهجة الحب الأولى انتهت منذ فترة طويلة؛ فسريعًا ما جعل هذا السلوك مشاعرى تنفر منها، وبدأت أفكر فى أنى سعيد بأنها ليست زوجتى، وأن أعزم على الانفصال عنها، ولَمَّحت لها بذلك، فاهتمت بألا تعطينى فرصة لطردها خارج المكان ولذلك رحلت من نفسها، وقبل أن ترحل كسرت مكتبى وأخذت معها كل ما وجدته، وهو ما يصل إلى حوالى مائتى جنيه إسترلينى.

فى بداية شعورى قررت أن أتبعها لكى أقتص منها بالقانون، لكن من حسن حظها أنها هربت خلال فترة ثورتى، بعد ذلك هَدأت وفكرت أننى الذى بدأت

بالعدوان، وقد جرحتها لأننى لم أعوضها حينما سلبتها من براءتها، وسمعت فى نفس الوقت أن السيدة العجوز المسكينة والدتها قد انفطر قلبها بسبب هروب ابنتها منها، وأنهى بأننى قاتلها".

(قال أدمس وهو يتأوه: "إنك بالفعل تعتبر قاتلها")، كنت مسرورًا أن الله تعالى اتخذ تلك الوسيلة لمعاقبتى، وقررت بهدوء أن أخضع للخسارة.

فى الحقيقة، لقد تمنيت ألا أسمع عن تلك المخلوقة المسكينة التى أصبحت فى النهاية مجرمة طريدة، وبعد بضع سنوات أصبحت بغيًّا معروفة، فى النهاية أنهت حياتها التعيسة فى نيوجيت (سجن لندنى شهير)".

هنا أخذ الرجل نفسًا عميقًا، وكرره السيد أدمس بصوتٍ عالٍ جدا، وظل الاثنان فى صمت ينظر كل منهما إلى الآخر لبضع دقائق.

فى النهاية، واصل الرجل قائلاً: "لقد كنت مخلصًا تمامًا لهذه الفتاة أثناء الفترة التى كنت أعولها بأكملها، لكن لم تكد ترحل قبل أن أكتشف علامات أكثر على خيانتها لى، وهى أكثر من خسارتى نقودى.

بالاختصار، لقد اضطررت إلى زيارة الطبيب مرة ثالثة، واستغرقت وقتًا حتى أُشفى هذه المرة.

الآن أقسمت على عدم التعامل فى المستقبل مع الجنس، واشتكيت بصوتٍ عالٍ أن السعادة لم تعوض الألم، ولُمت المخلوقات الجميلة فى لغةٍ بذيئة مثل جافينال الذى قد لعنها فى ما مضى. لقد نظرت إلى كل بغايا المدينة نظرة مقت ليس من السهل تخيلها، بدت شخصياتها لى كأماكن مرسومة يسكنها المرض والموت، لن يجعلهن جمالهن أشياء مرغوبًا فيها فى عينى إلا مظهرًا جذابًا خادعًا؛ يجعلنى أشتهى دواء أو تابوتًا فيه أطباق مُذهبة.

لكن على الرغم من أننى لم أعد عبدًا لهذا الأمر؛ فقد وجدت بعض اهتمام فى نفسى بموضوع الحب. إن كرهى للنساء نقص يوميا، وأنا لست إيجابيًّا، لكن خدعنى الزمن ثانيةً على يد بعض البغايا المعروفات، حيث إننى لم أتحرر من عاطفتى تجاه سافيرا الخلابة التى دخلت فجأة إلى قلبى وأحدثت فيه تأثيرًا كبيرًا.

إن سافيرا زوجة لرجل يفهم فى الذوق ويتودد للنساء، وأعترف أنه شخص بدا أنه يستحق حبها، على الرغم من أن سمعته لم تكن كذلك. إنها حقا كانت فتاة لعوبًا تستحق المخاطرة من أجلها "Coquette achevee".

قال أدمس: "سيدى أرجوك ما معنى Coquette؟ لقد قابلت هذا الكلمة فى المؤلفات الفرنسية، لكننى لم أحدد أية فكرة عنها. أعتقد أن لها معنى نفس كلمة Anglice.،une sotte ، أحمق ".

أجاب الرجل: "سيدى، ربما كنت لم تخطئ كثيرًا، لكن بما أنها نوع خاص من الحماقة، سأحاول وصفها.

إن كل المخلوقات تتناغم فى الخلق تبعًا لفائدتها، إننى أعرف قليلاً من الحيوانات ليست فى مقامٍ حقير، وحقيقةً لا يتظاهر هذا المخلوق كثيرًا بأى شىء أكثر من الغريزة، فعلى الرغم من أننا أحيانًا نتخيل أنها تحيا بعاطفة التفاخر والأنانية، فإن جزءًا كبيرًا من تصرفاتها يندرج تحت هذا الدافع الدنىء. على سبيل المثال العديد من الإيماءات والخدع الساخرة أكثر حماقة لما يمكن ملاحظته فى حركات البهائم والطيور الأكثر إضحاكًا، والتى ستقنع المشاهد أن البائس الأحمق كان يهدف إلى احتقارنا.

الحقيقة أن صفته المميزة هى التظاهر والتصنع، ويمكن الوصول إلى ذلك والتحكم فيه فقط عن طريق الهوى، حيث إن الجمال والحكمة والدهاء وطلاقة المحيا والأدب والصحة تتأثر أحيانًا بتلك المخلوق، إذن فالقباحة والحماقة والتفاهة ورداءة الطبع وقلة الأدب والمرض أيضا مُتظاهر بها فى دوره. إن حياته تتمثل فى ذلك دائمًا، والقاعدة الوحيدة التى يمكنك تشكيلها أنها ليست كما تبدو على الإطلاق.

لو كان ممكنًا للأحمق أن يحب (حيث إن هذا لا يحدث، فلو حصل على تلك العاطفة ستتوقف الحماقة على الفور) سيرتدى قناع اللامبالة، لو لم تكن كراهية الشيء محببّة، سيمكنك التأكد، حينما يحاولون إقناعك بحبهم، أنهم على الأقل غير مبالين بك.

وفى الحقيقة تلك هى حالة سافيرا التى بمجرد أن رأتنى بضع مرات أثرت إعجابها وأعطتنى ما يمكن أن يطلق عليه نوع من التشجيع؛ غالبًا تنظر إلى، وعندما تلاحظ أننى أنظر إليها تضع على الفور حدا لنظراتها، كاشفةً فى نفس الوقت بقدر ما يمكن عن دهشة وعاطفة.

لم تفشل تلك الطرق فى النجاح فيما كانت تهدف إليه، وحيث إننى أصبحت أكثر أهمية لها من معجبيها تقدمت بالتدريج تجاهى أكثر من الآخرين.

وكانت تتصنع الصوت المنخفض والهمس والتحدث بطريقة طفولية والتنهد والضحك وإشارات أخرى عديدة للعاطفة التى تخدع آلافًا يوميا.

عندما ألعب (لعبة الورق) معها تنظر إلىَّ جديًّا، وفى نفس الوقت تفقد توزيع ورق اللعب على اللاعبين، أو تمتنع عن اللعب بورقة من نفس النقش، ثم تنفجر فى ضحكة ساخرة وتصيح قائلًة: لا!، إننى لا أستطيع تخيل ما أفكر فيه.

حتى لا أطيل عليك، بعد أن توددت إليها بدرجة كافية، كما اعتقدت واقتنعت تمامًا. أننى قد أثرت عاطفةً شديدة فى سيدتى، بحثت عن فرصة للتصارع معها.

تَجنبت ذلك بقدر ما يمكن، على الرغم من أنها فى النهاية أتاحت لى تلك الفرصة. لن أصف تفاصيل تلك المقابلة، فيكفى أن أقول إنها حتى لم تعد تستطيع أن لا تتظاهر بفهم ما أعنى، فتصنعت دهشة شديدة ثم على الفور عاطفةً شديدة، لقد تعجبت مما رأيته فى تصرفها الذى من الممكن أن يجعلنى أهينها بتلك الطريقة، وحينما انقطعت عنى اللحظة الأولى استطاعت أن تقول لى إننى ليس لدىَّ طريقة أخرى للهروب من عاقبة استيائها إلا بعد الانقطاع عن رؤيتها، أو على الأقل التحدث معها مرة أخرى.

لم أكن راضيًا بتلك الإجابة، واستمرت ملاحقتى لها، لكن دون نتيجة، وفـى النهاية اقتنعت أن زوجها له الملكية الوحيدة لها، ولم يكن له أو لأى شخص آخـر تأثير على قلبها. ووضعت حدًّا لاتباع هذا الطريق المسدود ignis fatuus بـبعض عروض الصداقة التى اقترحتها على زوجة مواطن، والتى على الرغم من أنها لـم تكن صغيرة جدا ولا جميلة؛ كانت مقبولة جدا، لا يرفـضها تكـوينى المـتعطش للحب.

وهكذا سريعًا ما أرضيتها؛ حيث إنها لم تترك تلميحاتها بشأن أصلها البـارد المتبلد، على العكس فقد أبرزوا لها دائمًا شدة رغبتى فى الحب.

ولم تُعطِنى أى سبب للشكوى؛ فقد لَبَّت الدفء الذى أثارته بغيرة متـساوية. ولم تعد الفتاة اللعوب التى كنت أتعامل معها، لكن لشخص أكثـر حكمـة مـن أن يعرف العاطفة النبيلة؛ لكى تتحول إلى شهوة وحب للـنفس مـن الحـب للـشهوة الساخرة من التفاهة . وعلى الفور أصبح كل واحد منا يفهم الآخر، وبما أن السعادة التى نبحث عنها تكمن فى إرضاء رغبة مشتركة، فسريعًا ما وجدناها واسـتمتعنا بها.

لقد اعتقدت فى البداية أننى سعيد للغاية لامتلاكى تلك العشيقة الجديدة، حيث إن حبها سريعًا ما تحول إلى شهوة ترضى شهية مريض، لكن كـان لهـا تـأثير مختلف علىَّ، فقد حملت عاطفتى أعلى مما يقدر عليه الشباب والجمال. لكـن لـم تظل سعادتى غير المنقطعة، فالمخاوف التى تكمن فى غيرة زوجهـا مثلـت لنـا صعوبة كبيرة".

صاح أدمس قائلاً: "بائس مسكين!! إننى أشفق عليه".

قال الرجل: "حقا إنه يستحق الشفقة ، حيث إنه أحب زوجته بحنـانٍ كبيـر، وأؤكد لك أنه إرضاء كبير لى، حيث لم أكن أول رجل استحوذ على شعورها بعيدًا عنه".

ظهرت أيضا تلك المخاوف مبنية على معلومات موثوقة، حيث كشفنا في النهاية وكان عنده شهود على علاقتنا. ثم طالب بمحاكمتي قانونيًا وأخذ ٣٠٠٠ جنيه تعويضًا؛ مما عرَّض ثروتي للحجز حتى أدفع ما عليَّ، وما كان أسوأ أن طلاق زوجته كان بسببي.

لقد عشت معها حياةً صعبة للغاية، فإلى جانب أن عاطفتي قد أصبحت الآن أكثر هدوءًا فإن غيرتها المتزايدة كانت مزعجة للغاية.

في النهاية، خلَّصني الموت من الانزعاج بالتفكير في أني سبب نكبتها التي لم تدعني أتخذ أية وسيلة أخرى للابتعاد.

" وقد ودَّعت الآن الحب، وقررت أن أتبع طرقًا أخرى للسعادة أقل خطرًا وأقل تكلفة. لقد تعرفت على مجموعة من الرفقاء المبتهجين الذين كانوا ينامون طوال النهار ويسكرون طوال الليل، يمكننا القول إنهم رفقاء يضيعون أوقاتهم بدلاً من العيش.

إن أحسن حديث بالنسبة لهم لم يكن سوى الضوضاء والغناء والهتاف والنزاع والسُكْر والتدخين، كانت تلك هي المقومات الرئيسية لتسليتنا.

فعلى الرغم من أنهم كانوا سيئين فقد كان من الممكن احتمالهم بدلاً من قصصنا الأخرى الحزينة التي كانت مملة بدرجة كبيرة، وهي بالنسبة لهم حقائق شائعة غير واضحة، أو نزاعات حادة على أمور تافة تنتهي عادةً بالرهان.

لقد لجأت فترةً إلى تلك الطريقة من الحياة بعد التفكير جديًا أولاً، وأصبحت عضوًا في ناد يتردد عليه شباب لهم قدرات هائلة، ولجأت إلى زجاجة الخمر لمساعدة محادثتنا التي كشفت عن أعمق نقاط في الفلسفة.

لقد انشغل هؤلاء الرجال بالبحث عن الحقيقة وبملاحقتها، وألقوا بكل أنواع التحيز المتعلقة بالتعليم جانبًا، وألزموا أنفسهم فقط بالمنطق الإنساني من المجادلة البشرية. بعد أن عرض لهم هذا المرشد العظيم بهتان هذا المعتقد القديم جدا، لكنه

بسيط، حيث إن هناك إلهًا فى الكون، ساعدهم فى إفادته بتأسيس قاعدة مؤكدة للصواب بالتمسك بكل ما وصلوا إليه من أقصى طهارة للتعاليم الأخلاقية.

جعلنى التأمل أكثر بهجة بهذا المجتمع كما جلعنى أكره وأبغض المجتمع السابق. بدأت الآن أُقيِّم نفسى على أنى كائن فى ترتيب أعلى مما تخيلته من قبل، وكان أكثر فتنة بقاعدة الصواب، كما وجدته حقيقةً فى طبيعتى لاشىء معارض له.

لقد التزمت باحتقار كل الأشخاص الذين أرادوا إغواءات أخرى للطهارة، علاوّة على جمالها وبراعتها الجوهرية، وكان لرفقائى الحاليين رأى عظيم جدا عنها، مع ملاحظة أنهم عُرضة للموت، وقد وثقت بهم بكل ما هو أقرب وأعز لى.

بينما انشغلت فى هذا الحلم المبهج حدث حادثان أو ثلاثة على التتابع، أدهشتنى فى البداية؛ حيث إن أحد فلاسفتنا العظماء أو رجال قاعدة الصواب قد انسحبوا من بيننا آخذين معهم زوجة أحد أقرب أصدقائهم.

ثانيًا ترك واحد من نفس الجمعية النادى دون أن يتذكر ترك كفالته.

اقترض ثالث مبلغًا من المال منى، ولم أتلق أى ضمان منه، حينما سألته أن يُعيده أنكر القرض مطلقًا.

تلك الممارسات العديدة متناقضة للغاية مع قاعدتنا الذهبية؛ جعلتنى أبدأ الشك فى موضوع أنها معصومة من الخطأ، لكن حينما نَقلت معتقداتى لفرد من أفراد النادى قال ليس هناك شر أو خير مطلقًا فيها؛ حيث إن تلك التصرفات عُنيت بظروف عامل الخير أو الشر.

فمن الممكن أن يكون الرجل الذى هرب مع زوجة جاره له ميول طيبة للغاية، لكنه تَغلب عليه حدة العاطفة العنيدة، وفى وقائع أخرى يمكن أن يكون عضوًا كفؤًا جدا للجمعية، فلو خلق فيه جمال أية امرأة اضطرابًا فمن حقه الطبيعى أن يعبر عن الرغبات بأشياء عديدة أخرى. لقد كرهتها للغاية، لذلك تركت الجمعية فى المساء ولم أرجع إليها ثانيَة.

لأنى الآن قد بدأت حالة انعزال، وهي حالة لا أحبها؛ أصبحت أتردد على المسارح، وهى فى الحقيقة كانت دائمًا تسليتى المفضلة. أمضيت معظم أوقات الليل ساعتين أو ثلاثًا خلف المشاهد المسرحية؛ حيث تقابلت مع عديد من الشعراء الذين عقدت معهم لقاءات فى الحانات، وكان بعض الممثلين أيضا فى صحبتنا.

فى تلك المقابلات تسلينا عمومًا بالشعراء من خلال قراءة أعمالهم، وتسلينا بالممثلين بإعادة أجزاء من مشاهدهم، وقد لاحظت فى تلك اللقاءات رجلاً أمد تسليتنا بأحسن ما أسعد صحبتنا على نحوٍ مشترك، وعلى الرغم من أنهم كانوا فى غاية اللطف معه لم يتركوا فرصة لغيابه إلا وسخروا منه. لقد أبديت بعض التعليقات التى من المحتمل أن تكون واضحة جدا وتستحق الرواية".

قال أدمس: "سيد"، ارو تعليقاتك من فضلك".

قال الرجل: "إذن، أولاً قد توصلت من التأمل عمومًا إلى أن الموهوبين يميلون إلى التكلف، أليس صحيحًا؟ إن الناس يتساوون فى غرورهم بالغنى والقوة والجمال والكرامة إلى آخره، وذلك يظهربوضوح فى أعين المشاهدين، حيث إن الموهوب الفقير مضطر أن يُبرز أداءه ليعرضه لك، وهو على استعداد أن يفعل ذلك، إلا أن الرأى البذىء الذى قد ذكرته قائم على أساس ما. لكن، أليس الشخص الذى ينفق مبالغ هائلة على أثاث منزله أو مظهره والذى يستهلك أوقاتًا كثيرةً، ويبذل جهدًا عظيمًا فى إلباس نفسه، أو الذى يظن بنفسه أنه دُفع لإنكار الذات والجهد، أو حتى النذالة، يفعل ذلك ليحظى بلقب المضحى مثل الموهوب الفقير الذى يرغب فى أن يجعلك تقرأ قصيدته أو مسرحيته؟

تعليقى الثانى هو أن التكلف أسوأ المشاعر، وهو مناسب لإفساد العقل أكثر من أى شيء آخر، فبما أن الأنانية شعور عام نريد الاعتراف به، لذلك فإنه من الطبيعى أن نكره ونحسد هؤلاء الذين يقفون بيننا وبين الخير الذى نرغب فيه.

الآن، هؤلاء الذين لديهم طموح ومفعمون بالحيوية قليليون، حتى فى حالة الجشع نجد أن عديدًا من هؤلاء ليسوا عقبات لطموحاتنا، لكن الرجل التافه يبحث عن الشهرة وكل شيء ممتاز أو جدير بالثناء يكون فى شخص آخر علامة على كراهيته".

بدأ أدمس الآن يتحسس جيوبه وصاح قائلاً: "آه، لا! لقد كان معى". وعلى ذلك سأله الرجل عن الذى يبحث عنه، قال إنه بحث عن خطبة الموعظة التى اعتقد أنها رائعة ضد كل أنواع الغرور.

صاح قائلاً: "تبًا له، تبًا له، لماذا أترك تلك الموعظة خارج جيبى؟ لو كانت على بعد خمسة أميال سأكون مستعدًا لإحضارها لأقرأها لك".

أجاب الرجل بأنه لا حاجة لها؛ فقد شفى من هذا الشعور.

قال أدمس: "ولهذا السبب سأقرأها لأننى واثق أنك ستعجب بها، فى الحقيقة إننى أكبر عدو لأى انفعال أكثر من الشعور السخيف وهو الغرور ".

ابتسم الرجل واستمر قائلاً: "من تلك الجمعية مررت بسهولة على المقامرين، حيث لم يحدث شيء ملحوظ إلا انتهاء ثروتى؛ وقد ساعدنى هؤلاء الرجال سريعًا على إنهائها. وفتح ذلك مشاهد من الحياة غير معروفة: الفقر والمحن بقطارهما المخيف المظلم، والمحامون، وحواجب المحكمة الذين طاردونى ليلاً ونهارًا. وأصبحت ملابسى قذرة، وسمعتى سيئة، ومعارفى وأصدقائى من كل الأنواع أصبحوا باردين فى معاملتهم.

هذا الموقف أوحى إلىّ بأغرب فكرة يمكن تخيلها، وما هى إلا كتابة مسرحية، حيث كان لدى فراغ كافٍ، لأن خوفى من حواجب المحكمة قيدنى كل يوم فى حجرتى، وحيث إننى دائمًا كانت لى ميول وشيء ما من العبقرية فى ذلك الاتجاه، جلست للعمل، وخلال شهور قليلة أنتجت عملاً من خمسة فصول، وتم قبوله فى المسرح.

لقد تذكرت أننى قد أخذت فيما مضى تذاكر من شعراء آخرين وذلك بمدة طويلة قبل ظهور مسرحياتهم، وقررت أن أتبع نفس هذا الأسلوب، والذى كان ملائما جدا لظروفى الحالية، فأحضرت على الفور عددًا من التذاكر.

فى الحقيقة إن حالة السعادة هى حالة الشعراء، كنت سأكون أسعد بكثير لو أن تلك التذاكر سارية فى المخبز والحانة والشمَّاع، لكن وا أسفاه!! فلن يأخذها حائك الملابس عند الدفع لـ البقرم والكنفا ودعامة الشريط، ولن يأخذها حاجب المحكمة كنوع من الملاطفة (البقشيش).

فى الحقيقة إنها ليست سوى إجازة مرور يمكن الاستعطاء عن طريقها، شهادة يريد المالك بها خمسة شلنات، والتى تُغرى المسيحيين الذين لديهم استعداد لتقديم الصدقة. لقد جربت الآن ما هو أسوأ من الفقر، أو إلى حدٍّ ما العاقبة الأسوأ من الفقر، أعنى الانتظار وتوقع الأفضل.

لقد انتظرت كثيرًا ساعات طويلة فى الصباح فى قاعات الاستقبال الباردة الخاصة بالرجال الذين لهم منزلة رفيعة، فبعد أن رأيت أحط أوغاد فى زينة وزركشة، ورأيت السماسرة والمهرجين يتبعون أحدث موضة، لقد قالوا لى أحيانًا، عندما أبعث رسالة عليها اسمى، إن سيدى لا يمكنه رؤيتى فى الصباح، وبثقة كافية إننى لم أكن أجرؤ على دخول المنزل.

أحيانًا كان يسمح لى فى النهاية بالدخول، وكان الرجل العظيم يعتقد أنه من الملائم له الاعتذار بإخبارى أنه قد تعطل".

قال أدمس: "تعطل، أرجوك ما معنى هذا؟ "

قال الرجل: "سيدى، إن الربح الذى سمح به بائع الكتب لمؤلفى أحسن الأعمال كان صغيرًا للغاية؛ حيث إن رجال مستوى اجتماعى معين وثروة معينة فى بعض السنوات الماضية كانوا رعاة العلم والموهبة، واعتقدوا أنه من المناسب تشجيعهم أكثر من ذلك بإعطائهم تبرعات تطوعية.

هكذا، بريور Prior ، ورو Rowe، وبوب Pope، وبعض رجال آخرين ذوى عبقرية تلقوا مبالغ كبيرة على أعمالهم من العامة.

بدت تلك الطريقة سهلة للحصول على المال فأدنأ المؤلفين التافهين لهذا الوقت عرضوا نشر أعمالهم بنفس الطريقة، والعديد منهم كان عندهم ثقة لبدء تبرعات لما لم يُكتب ولا حتى ما نُويت كتابته.

أصبحت التبرعات بتلك الطريقة لا نهاية لها، ونوعًا من الضرائب المفروضة على العامة، وجد بعض الأشخاص أنه ليس من السهل تمامًا أن يميزوا المؤلف الجيد من الردىء، أو يعرفوا ما العبقرية التى تستحق التشجيع وما التى لا تستحق؛ ليمنعوا نفقة التبرع لهذا العدد الكبير، واخترعوا طريقة ليحرروا أنفسهم من كل التبرعات، وكان ذلك بتلقى مبلغ صغير من المال نظرًا لإعطاء مبلغ كبير لو تبرعوا، حيث فعل ذلك الكثير وتظاهر الكثير بفعل ذلك من أجل إسكات الجميع. وقد اتبعوا نفس الطريقة أيضا مع تذاكر المسارح التى كانت سببًا للشكوى العامة وهذا ما يطلقون عليه أنهم قد أصبحوا مُعطّلين من التبرع".

قال أدمس: "لا يمكننى قول شيء إلا أن هذا ملائم بدرجة كافية، وبطريقة ما مطابق للرجل الذى لديه ثروة كبيرة، والذى يعطل نفسه حينما تناديه بشجاعة الرجال ذوى الأهلية الذين أجبروا على التعطل فى الحقيقة".

قال الرجل: "حسنًا يا سيدى، نعود لقصتى. أحيانًا كنت أتلقى جنيهًا من رجل ذى منزلة رفيعة، يعطيه لى على مضض مثل الصدقات التى تعطى عمومًا لأدنأ الشحاذين، وقد أخذ مقابلها من خلال قضاء خدمات، كما لو كان قد أنفقها فى عمل شريف، ويمكن أن يكون قد منحنى ربحًا كثيرًا ورضاءً كثيرًا لا نهاية له.

بعد حوالى شهرين قضاهما بهذة الطريقة الكريهه وأقصى درجات الشعور بالخزى، بينما كنت أفتخر بآمالى بشأن توقع حصاد كثير من مسرحيتى، وبسؤال الملقن لأعرف متى يبدأ التدريب عليها، أبلغنى أنه قد تلقى أوامر من المديرين

بإرجاع المسرحية لى ثانيةً، حيث إنهم لن يستطيعوا تمثيلها هذا الموسم، لكن لو أخذتها وقمت بمراجعتها، سيكونون مسرورين لرؤيتها ثانية. لقد خطفتها منه بسخطٍ كبير، وذهبت إلى حجرتى حيث ألقيت بنفسى على الفراش فى نوبة يأس".

قال أدمس: "كان من الأفضل أن تُلقى بنفسك راكعًا على ركبتيك مصليًا لأن اليأس خطيئة".

استمر الرجل قائلاً: "بمجرد أن انغمست فى أول نوبة انفعالية، بدأت أفكر ما الطريق الذى يجب أن أسلكه فى موقف دون أصدقاء أو نفوذ أو ائتمان أو سمعة من أى نوع.

بعد أن فكرت مليًّا فى أشياء عديدة فى ذهنى، لم أستطع رؤية أية إمكانية أخرى لأجد لنفسى ضروريات الحياة التعيسة أكثر من التفكير فى اللجوء إلى حجرة بالقرب من المحكمة، وأن أبدأ كتابة مرافعات للمحامين؛ حيث قد أُهلت لذلك جيدًا حيث إننى كاتب بارع.

بعد أن عزمت على هذا الهدف نفذته على الفور. لقد تعرفت على محامٍ قد قام بأعمالٍ لى طلبتها منه، لكن بدلاً من إعطائى مرافعات لأكتبها ضحك على طلبى وقال لى إنه خائف أن أحول أعماله إلى مسرحيات، وهو يتوقع أن يراها على خشبة المسرح. حتى لا أرهقك بأمثلة من هذا النوع من الآخرين، وجدت أن أفلاطون plato لم ينظر للشعراء بمقتٍ أشد مما يفعله رجال الأعمال.

حينما أغامربالذهاب إلى القهوة، وكان هذا أيام الآحاد فقط (فالأشخاص محصنون من القبض عليهم بسبب الدين يوم الأحد) تنتشر همسة عبر الحجرة التى تأتى دائمًا بسخرية "إنه الشاعر ويلسون" حيث إننى لا أعرف إن كنت قد لاحظت، لكن هناك عداوة شديدة فى طبيعة الرجال التى إذا لم يتخلص منها أو على الأقل يزود بتعليم وأدب جيد، يبتهج عندما يكون شخص آخر مرتبكا أو غير راضٍ عن نفسه.

يظهر هذا بكثرة في كل التجمعات إلا تلك التجمعات الممثلة بأشخاص لهم منزلة رفيعة، وخاصةً وسط الشباب من كلا الجنسين؛ حيث يربطهم النسب والثروات بأن يكونوا جماعة مهذبة، أعنى الطبقة الدُّنيا من الطبقة الأرستقراطية، والطبقة الأعلى من العالم التجارى، وهم فى الحقيقة أدنى طبقة فى البشرية.

حسنًا، سيدى، بينما أُكمل بتلك الحالة التعيسة بعملٍ ليس كافيًا أن يحمينى من الجوع، فشهرتى بأننى شاعر كانت سبب هلاكى، وقد تعرّفت بالصدفة على بائع كتب، وقال لى إنه يشفق على رجل فى علمى وعبقريتى يُجبر على تلك الوسيلة للحصول على سبل العيش، وهو يشفق علىَّ، ولو اشتغلت معه سيتعهد بإمدادى بما هو ملائم لى.

رجل فى ظروفى، كما علِم جيدًا، ليس لديه اختيار. ووفقًا لذلك قَبِلت عرضه بشروطه التى لم تكن إحداها فى صالحى، وقبلت بكل قوتى.

لم يعد لدى سبب لرثاء احتياجى للعمل حيث إنه جهزنى بما هو كثير، ففى نصف عام كتبت كثيرًا لدرجة أنى بدأت أفقد بصرى. وأنا أيضا قد ضقت من حياتى التى قضيتها فى الجلوس، ولم يتحرك جزء من جسدى سوى ذراعى الأيمن، وقد جعلنى هذا غير قادر على الكتابة لوقتٍ طويل.

وقد حدث هذا لسوء الحظ؛ مما تسبب فى تأجيل نشر عمل، ولم يبع عملى الأخير كما يجب، رفض بائع الكتب أية ارتباطات أخرى، وذمنى أمام أخيه قائلاً إننى شخص عاطل ومهمل. مع ذلك كنت أعمل نصف عمل ونصف كفاح حتى الموت خلال فترة خدمتى له، ادخرت قليلاً من النقود التى اشتريت بها تذكرة يانصيب؛ وقررت أن ألقى بنفسى فى سباق الحظ، وأجرب ما إذا كانت الدنيا تجعلنى أصلح الجروح التى فعلتها بى على منضدة اللعب.

وبهذا الشراء أصبحت تقريبًا مفلسًا، وحينما لم أكن تعيسًا بدرجة كبيرة دخل حجرتى حاجب محكمة فى ملابس امرأة حيث أرشده إلىَّ بائع الكتب. فقبض على

وأنا مرتدٍ بدلة حاكها لى حائك ماهر، وهى بخمسة وثلاثين جنيهًا، وهو مبلـغ لـم أستطع لأجله تدبير ضمان، ولذلك نقلنى إلى منزله حيث حبسنى فى حجرة بعيـدة عن الباب. فلم يكن لدى الآن صحة (حيث إننى قد شُفيت بشق النفس مـن توعـك صحتى)، ولا حرية، ولا مال، ولا أصدقاء، وقد تخليت عن كل الآمـال، وحتـى الرغبة فى الحياة".

قال أدمس: "لكن لم يستغرق هذا كثيرًا، فبلا شك أطلـق حائـك الملابـس سراحك فى لحظة معرفته حقيقة بمشكلتك، وعلم أن ظروفك لن تسمح لك بالدفع".

أجاب الرجل: "آه، سيدى، إنه عَلِم ذلك قبل أن يقـبض علـىّ، لـيس هـذا فحسب، فقد عَلِم أنه لم يكن هناك شىء سوى ضعفى يمكن أن يمنعنى مـن دفـع ديونى، حيث إننى كنت زبونه عدة سنوات، وقد دفعت له مبالغ كبيرة من المـال، وكنت دائمًا أدفع مع مراعاتى للدقة فى المواعيد فى أيام ثرائى، لكن عندما ذكرتـه بذلك، وأكدت له أنه إذا لم يعق محاولاتى سأدفع له كل النقود بأقصى جهد وأقصى كد يمكن بذله، وأن أدخر فقط ما هو كاف لجعلى أظل حيًّا، فأجاب أن صـبره قـد نفد، حيث إننى أجلته من وقت لآخر، وأنه يريد النقود، وقد وضع الأمر فـى يـد محامٍ، وإذا لم أدفع له على الفور أو أجد ضمانًا سيكون مـصيرى الـسجن وأن لا أتوقع أية رحمة".

صاح أدمس قائلاً وهو يقوم من على كرسيه: "ربما يتوقع هو رحمة، حيث إنه لن يجدها! كيف يردد هذا الحقير أدعية الله، حيث يجد الكلمة التـى ترجمتهـا، وأعرفها دون سبب "خطايا" والتى تعنى فى الأصل "ديونًا" وحيث من المؤكد أننا لا نغفر للآخرين ديونهم حينما لا يكونون قادرين على دفعها، فمؤكد لن يُغفـر لنـا، عندما نصبح غير مستعدين للدفع".

توقف وأكمل الرجل قائلاً: "بينما كنت فى هذا الموقف الباعث للأسى زارنى أحد معارفى السابقين، والذى قد أبلغته أن لدىّ ورقة يانصيب، وكان على وجهـه

بهجةٍ كبيرة، فسلم عليّ بحرارة وتمنى لى السعادة بثروةٍ ضخمة؛ حيث قال لى "فازت تذكرتك بجائزة قدرها ٣٠٠٠ جنيه إسترلينى".

عند تلك الكلمات طقطق أدمس أصابعه، وهو فى قمة الفرح، على الرغم من أنها لم تستمر كثيرًا؛ حيث أكمل الرجل قائلاً: "وآسفاه!! يا سيدى، إنه مجرد حظ خادع ليغرقنى فى القاع، حيث إننى قد بعت تذكرة اليانصيب منذ يومين مضيا لقريب رفض أن يسلفنى شلنا دونها من أجل أن أحصل على رغيف خبز.

بمجرد أن علم صديقى ببيعى المشئوم، بدأ يشتمنى وذكرنى بكل تصرفاتى السيئة وسوء إدارتى لحياتى، فقال إننى شخص لا يستطيع أن يدخر ثروته إن كان يمكن ادخارها، فقد دُمرت الآن دون أية آمال لإمكانية استردادها، ولن أتوقع أية شفقة من أصدقائى؛ حيث سيكون ضعفًا كبيرًا للغاية أن يُشفقوا على نكبات رجل يتصرف بطيش لتدمير نفسه.

ثم وصف لى وصفًا نابضًا بألوان حية بقدر ما استطاع، شكل الحياة التى كان يمكن أن أتمتع بها لو لم أكن تخلصت بحماقة من تذكرتى.لقد طلبت منه التماس العذر لى إن اقتضى ذلك.

لكنه لم يرد على ذلك وبدأ يشتمنى ثانيةً؛ حتى لم أعد أستطيع تحمل ذلك، وطلبت منه إنهاء زيارته. ثم استبدلت بمنزل حاجب المحكمة السجن؛ حيث لم يكن معى نقود كافية لتدبير شقة منفصلة. لقد احتشدت مع عدد كبير من التعساء البائسين، حيث شاركتهم الحرمان من كل وسائل الراحة في الحياة، حتى كل ما ينعم به البهائم، وحتى الهواء الصحى. وفى تلك الظروف المخيفة بعثت خطابات إلى كل معارفي السابقين، وأيضا هؤلاء الذين كنت آنفا أقرضهم نقودًا دون توقع استردادها؛ لأتلقى مساعدتهم لكن دون جدوى، وكان ألطف رد تلقيته اعتذارًا بدلا من رفض.

بينما فترت همتى فى حالة بشعة الوصف للغاية، وكانت أرض الذل وما هو أدنى من ذلك، ومصيرى هو العقاب المسيحى لقليل من الإهمال والطيش، بينما كنت فى تلك الحالة وصل شخصٌ السجنَ وسأل عنى وسلمنى الخطاب التالى:

سيدى.. إن والدى الذى بعثَ له تذكرتك فى اليانصيب الأخير، توفى فى نفس اليوم الذى فاز فيهِ بالجائزة كما سمعت، وتركنى وريثة وحيدة لكل ثروته. لقد تأثرت كثيرًا بظروفك الحالية والصعوبات التى شعرت بها وأوصلتك لبيع ما كان يمكن أن يجعلك سعيدًا، حيث أرغب فى قبولك ما هو مرفق مع الخطاب، وأنا خادمتك المتواضعة: هاريت هارتى.

وماذا تعتقد ما كان مرفقًا مع الخطاب؟"

قال أدمس: "لا أعرف، أتمنى أن لا يكون أقل من جنيه".

"سيدى إنه كان بنكنوتًا بمائتى دولار".

قال أدمس فى سعادة: "مائتا دولار؟"

قال الرجل: "أؤكد لك، ليس أقل من ذلك، مبلغ لم تكن نصف بهجتى به مثل بهجتى بالاسم العزيز للفتاة الكريمة التى أرسلته، التى لم تكن فقط أحسن، بل أجمل مخلوقة فى العالم، ومن أجله شعرت بعاطفة كبيرة لم أخفها لها. قبلت اسمها ألف مرة وفاضت عيناى بالحنان والعرفان بالجميل، لقد كررت. لكن حتى لا أحجز عنك تلك السعادة، لقد حصلت على حريتى على الفور ودفعت كل ديونى، ورحلت وفى جيبى أكثر من خمسين جنيها، لأشكر الطيبة التى أنقذتنى من كل ذلك.

ثم صادف أنها تركت المدينة، وتلك كانت ظروفًا بعد تفكير أسعدتنى؛ فبتلك الوسيلة كانت عندى فرصة أن أظهر أمامها بملابس أكثر لياقة.

بعد رجوعها المدينة خلال يوم أو يومين، ألقيت بنفسى عند قدميها لأشكرها شكرًا كبيرًا، وقد رفضته بتواضع ورجاحة عقل، وقالت لى إننى لن أستطيع إلزامها أكثر من ذلك، وإذا أردت إرضاءها يجب ألا أفكر فى هذا الحدث الذى يحزننى.

واصلت قائلة: " إن ما فعلته ما هو إلا شيء تافه من وجهة نظرى، وربما هو أقل إلى مالا نهاية مما يجب أن أفعله، ولو أنك تفكر فى الاشتغال بأى عمل بمبلغ كبير ربما يكون نافعًا لك، لن أكون قاسية فى الضمان أو الفائدة ". لقد حاولت التعبير عن كل عرفانى بالجميل بقوتى لتلك الطيبة الوافرة، فعلى الرغم من أنه ربما كان عدوى، وبدأ يؤلم عقلى بالآم كثيرة أكثر من كل الآلآم التى قد تحملتها، وقد أثّرت علىّ تأثيرًا أقسى من الفقر والمحن والسجون، واجتمع كل هذا ليجعلنى أشعر يا سيدى بأن هذه التصرفات الطيبة كانت كافية أن يُثيرها أى قلب طيب، عاطفة الصداقة القوية لشخص له نفس المشاعر، أو نفس العمر أو الشكل، وجنس مختلف، أتى من امرأة صغيرة وجميلة، امرأة قد عرفت كمالها وحملت لها عاطفة قوية، على الرغم من أن اليأس جعلنى أحاول إلى حدٍّ ما أن أكبحها وأخفيها بدلاً من أن أنميها أو أعترف لها بها.

باختصار، لقد اجتمعت كل الأسباب ضد الجمال والرقة والحنان، تلك الابتسامات الساحرة، آه يا سيد أدمس، فى اللحظة التى فقدت فيها نفسى ونسيت مواقفنا المختلفة دون تفكير ما الشكر الذى أصنعه تجاه طيبتها، بأن أطلب منها، وهى التى أعطتنى كثيرًا، أن أهب لها كل شيء، فمسكت يديها برفق ووضعتها على شفتى وضغطت عليها بحرارة ملتهبة لا يمكن تصورها، ثم رفعت عينىّ السابحتين فى الدموع، فرأيت وجهها وعنقها قد توهجا احمرارًا، وحاولتْ أن تسحب يديها، إلا أنها لم تستطع أن تسحبها منى؛ فقد مسكت بها بأرق قوة. وقد وقفنا نرتجف وعيناها فى الأرض، وأنا أنظر إليها بثبات يا إلهى... ما الذى يحدث بنفسى!! إننى أحترق حبًّا وأمانىّ وإعجابًا وعرفانًا بالجميل وبكل عاطفة رقيقة، ومال كل هذا إلى شيءٍ واحد خلاب.

فى النهاية، تغلبت عاطفتى على العقل والاحترام وتركت يديها برفق، وحاولت بجنون أن أضمها بين ذراعىّ، حينما استردت بعض إرادتها، فاندفعت بعيدًا عنى سائلة ببعضٍ من الغضب إن كان هناك أى سبب لتوقع تلك المعاملة منى.

فسقطت ساجدا أمامها، وقلت لها إن كنت قد أهنتها فإن حياتى ملك يـديها؛ حيث إننى مستعد للتضحية بأى طريقة من أجلها.

قلت يا سيدتى، إنكِ لست مستعدة تمامًا لعقابى، إننى أعترف بـذنبى، إننـى أكره التفكير فى أننى قد ضحيت بسعادتك لإسعاد نفسى. صدقينى، إننى نادم بصدق على جحودى للجميل. صدقينى أيضا إنها عاطفتى، عاطفتى التى ليس لها حـدود، والتى نقلتنى بعيدًا. لقد أحببتك بشوقٍ ورقة، والطيبة التى أبديتها تجاهى قد أوقعـت فى نفسى تعاسة لم تحدث من قبل، وبلتنى بكل ما هو وضيع، وملائـم للمرتزقـة، وقبل أن أتركك للأبد حيث قررت فعل ذلك على الفور، صدقينى لو أن الحـظ قـد رفعنى إلى القمة لكنت رفعتك إليها بكل سعادة.

آه، ياله من حظ ملعون!! قالت بأرق صوت: لا، لا تلعن الحظ؛ لأنه جعلنى سعيدة، وإن كانت سعادتك قد وضعت فى حوزتى، سوف أقول لك إنك لن تطلـب شيئًا معقولاً وقد أرفضه؟

قلت : سيدتى ، إنكِ مخطئة لو كنت متخيلة كما يبدو عليكِ أن سعادتى فـى حوزة الحظ الآن، لقد قمت بالفعل بالكثير ليكون لدى أية أمنية، فهى لحدث مبارك، والذى يمكننى به المساهمة بحياتى لأقل مشاركة فى سعادتكِ. وبالنـسبة لـى، إن السعادة الوحيدة هى أن أسمع عن سعادتك، وإذا جعلها الحظ كاملة، سأغفر له كـل أخطائه تجاهى.

قالت مبتسمة: حقا إنك تستطيع، فإن سعادتك هى سعادتى. وقد عرفت مـن زمن قيمتك، بل يجب أن أعترف.

قالت وهى تتوهج احمرارًا: "لقد اكتشفت منذ وقت عاطفتك التى تـصارحنى بها، على الرغم من تلك المحاولات التى حاولت بها إخفاءها وهى مجرد تظـاهر، وإذا لم يكف استخدام العقل، فأنا أكررقولى أنك لاتسطتيع أن تطلب منى أى شـىء أرفضه، لقد نطقت تلك الكلمات برقة لا يمكن تخيلها، حيث تدفق دمى على الفـور حيث كان متجمدًا فى قلبى واندفع ببهجة عبر كل وريد.

وقفت لحظة صامتا ثم طرت إليها واحتضنتها بين ذراعىَّ، لم أعد أقاوم، وقلت لها برفق يجب أن تسلمنى نفسها. آه سيدى، أأستطيع أن أصف شكلها؟ لقد بقيت صامتة لا تتحرك تقريبًا، وأصرت أن أتركها، وبتلك الطريقة استجبت على الفور.

لك أن تتخيل أننى سريعًا ما رأيتها ثانية، لكننى أعتذر لك، إننى أخشى أن أكون قد أخرتك كثيرًا فى رواية خصوصيات المقابلة السابقة؟"

قال أدمس وهو يلعق شفتيه: "على العكس تمامًا فأنا مستعد لسماعها ثانية."

أكمل الرجل قائلاً: "حسنًا سيدى، لكى أختصر بقدر الامكان، فى خلال أسبوع وافقت أن تجعلنى أسعد البشر. وسريعًا ما تزوجنا، وحينما تفحصت ثروة زوجتى (وأوكد لك اننى لم أكن فى ذلك الوقت متفرغًا بدرجة كافية لفعل ذلك) وجدت أنها تصل الى حوالى ستة آلاف جنيه، أغلبها فى صورة ممتلكات، حيث كان أبوها تاجر خمر، وقد بدت راغبة، إذا أردت أنا أن أستمر فى نفس التجارة.

وباستعداد وتهور شديد باشرت ذلك، ولأننى لم أتربَّ على أسرار المهنة، وكنت أحاول أن أتعامل بأقصى أمانة واستقامة فسريعًا ما وجدت ثروتنا تضمحل، انخفضت ثروتنا رويدًا رويدًا، فأنا لم أغش الخمر بعد استيرادها، وقد بعتها نظيفة كما أتت، وقد انتقدها تجار الخمر على وجه العموم بقسوة ، ولم أستطع أن أسمح لهم ببيعها بثمن رخيص مثل هؤلاء الذين حصلوا على ضعف الفائدة بثمن أقل. وسريعًا ما بدأت أيأس من تحسين ثروتى بتلك الطرق، ولم أكن متساهلاًعلى الإطلاق فى الزيارات التى تلقيتها من الذين تخلوا عنى فى فقرى وتجنبونى فى محنتى والآن هم مستعدون جدا أن يجددوا معرفتهم بى.

بالاختصار، قد رأيت على نحوٍ وافٍ أن ملذات الدنيا فى المقام الأغلب هى الحماقة، ومهمتها فى المقام الأغلب الخداع، وكلاهما ليسا أفضل من الغرور. إن النّاس الذين يسعون وراء الملذات يمزق كل واحد منهم الآخر على سبيل المنافسة لإنفاق المال، والناس الذين يسعون وراء العمل يُمزق كل واحد منهم الآخر للحصول عليه.

إن سعادتى تكمن كلية فى زوجتى التى أحببتها حُبًا لا يوصف، وهى تبادلنى هذا الحب تمامًا، ولم تكن طموحاتى إلا أن أعول عائلتى المتنامية، حيث أصبحت عائلة كبيرة بثانى طفل. لذلك انتَهزت الفرصة لكى أسألها عن رأيها فى مباشرة حياة هادئة، وبعد أن سَمِعت مبرراتى وأَدْرَكت تأثرى بها تقبلت بالفعل.

وسريعًا ما شغلنا ثروتنا الصغيرة التى انخفضت تحت ثلاثة آلاف جنيه، واشترينا بجزءٍ منها هذا المكان الصغير؛ حيث أوينا إليه سريعًا بعد أن استبدلت بعالم ملىء بالتهيج والضوضاء والكراهية والحسد وجحود الجميل عالمًا ينعم براحة البال والهدوء والحب.

لقد عشناها تقريبًا عشرين سنة بمحادثات أخرى قليلة غير محادثتنا، أخذنا بعض الجيران لناس أغراب للغاية؛ وقد قدمونى لقاضى الأبرشية على أننى رجل مجنون، وقدمنى القس على أننى عضو فى الكنيسة المشيخية، لأننى لم أصطد مع أحد أو أسكر مع آخر".

قال أدمس: "سيدى، أعتقد أن الثروة قد دفعت لك كل ديونها فى تلك العزلة الجميلة".

أجاب الرجل: "سيدى، إننى شاكر الخالق العظيم لكل الأشياء المباركة التى أتمتع بها هنا. إن لدى أفضل زوجة، وثلاثة أبناء لُطفاء، وأكن لهم الحنان الأبوى الحقيقى، لكن ليست هناك نِعَم صافية فى هذه الدنيا، فخلال ثلاث سنوات من وصولى هنا فقدت ابنى الأكبر". (هنا تنهد بمرارة).

قال أدمس: "سيدى، يجب أن نخضع للعناية الإلهية، ونفكر فى أن الموت شىء عادى للجميع".

أجاب الرجل: "حقا علينا أن نستسلم، وإن كان قد مات يمكننى تحمل المصيبة بالصبر، لكن وآسفاه! لقد خَطفه من منزلى بعض الرحالة المؤذين، الذين يُطلِقون عليهم الغجر، ولم أستطع بالبحث المتقن أن أسترده.

ابنى المسكين!! إن له أحلى ملامح، بالضبط مثل أمه ". وعندئـذٍ سـقطت بعض الدموع دون قصد من عينيه، وأيضا من عين أدمس الذى يتعاطف دائمًا مع أصدقائه فى تلك الأوقات.

قال الرجل: "هكذا، يا سيدى، لقد أنهيت قصتى، التى إن كنت دقيقًـا فيهـا أسألك أن تعذرنى، والآن بعد إذنك، سوف أحضر لك زجاجة أخرى".

وقد قبل القس العرض بسعادة.

الفصل الرابع

وصف لأسلوب حياة السيد ويلسون،
والمغامرة المأساوية للكلب،
وأمور أخرى خطيرة.

رجع الرجل بالزجاجة، وجلس أدمس والرجل لبعض الوقت في صمت حينما اندفع الأول صاح قائلاً: "لا، لن أفعل هذا".

استفسر الرجل عن ما يعنيه، فأجاب أنه كان يفكر في أنه من الممكن أن الملك الراحل ثيودر كان الابن الذي فقده، لكنه أضاف أن عمره لا يمكن أن يتناسب مع هذا الوهم. قال: "على الرغم من ذلك فإنه ينظر إلى الأشياء من أحسن وجه، ومن المحتمل جدا أن يكون رجلاً عظيمًا أو دوقًا، وربما يزورك مرة ثانية، يومًا ما أو آخر، وله تلك الصفة".

أجاب الرجل أنه يعرفه جيدًا وسط عشرة آلاف، حيث إن على صدره الأيسر توجد علامة حبة من الفراولة؛ وقد أعطته أمه هذه العلامة لحبه تلك الفاكهة.

نهضت الآن الفتاة الجميلة في الصباح من فراشها، وفي ملامحها نضارة الشباب والحيوية، وعلى شفتيها البارزتين بعض قطرات الندى اللينة، بدأت مشيتها اليومية باكرة على التلال الشرقية، بعد ذلك تسللت الشمس إلى حجرة زوجته، وتقدم الرجل لتحية زوجته ثم عرض على ضيفه التمشية ليلقي نظرة على حديقته الصغيرة، ووافق على ذلك بسرور، في نفس الوقت استيقظ جوزيف من نومه، حيث غرق فيه لساعتين، وذهب معهما.

لم تكن هناك أحواض زرع، ولا أحواض ينبجس منها الماء (النافورة)، ولا تماثيل لتزين تلك الحديقة الصغيرة. إن الزينة الوحيدة كانت ممرًّا صغيرًا تظلل عليه شجيرات البندق، بفجوة صغيرة فى نهاية إحداها، حيث اعتاد الرجل أن يأوى وزوجته إليها حينما يكون الطقس حارًّا، ويتسليان مع أطفالهما الذين يلعبون فى الممر أمامهم.

لكن على الرغم من أن الزهو ليس له مكان هنا، فإن هناك مجموعة من الفاكهة وكل شيء مفيد للمطبخ، يكفى بدرجة كبيرة لكى يلفت إعجاب أدمس الذى قال للرجل إنه بالتأكيد لديه بستانى.

أجاب "سيدى، إن البستانى أمامك الآن، وكل ما تراه هنا هو كلية من صنع يدى، بينما أجهز ضروريات المائدة؛ فأنا أيضا لدى شهية لها. فى الفصول المعتدلة نادرًا ما أمضى أقل من ست ساعات من الأربعة والعشرين ساعة فى هذا المكان؛ حيث إننى لست عاطلاً. وبتلك الطرق أصبحت قادرًا على الحفاظ على صحتى منذ وصولى هنا دون اللجوء إلى طبيب. فأنا عمومًا أقوم فى الفجر لتأدية تمرينات رياضية، بينما تُلبس زوجتى أطفالها وتعد إفطارنا، بعد ذلك نادرًا ما نتفرق باقى اليوم، فحينما لا يجعلهم الطقس يتجمعون معى هنا، أكون دائمًا معهم بالداخل، حيث إننى لا أخجل من الحديث مع زوجتى ولا من اللعب مع أولادى، والحقيقة أننى لا أفهم كيف يحاول أصحاب الميول المتقلبة من الرجال أو أصحاب الأعمال إقناعنا أن النساء أحط شأنا منا.

فبالنسبة لزوجتى أعترف أننى لم أجد أحدًا من رجال جنسى قادرًا على استنتاج أدق تأملات فى الحياة أو التعبير عنها بطريقة أكثر قبولاً، ولا أصدق أى أحد له صديق أكثر إخلاصًا أو أكثر شجاعة. ومؤكد بما أن تلك الصداقة قد تهذبت برقة وحنان أكثر وأكدتها وعود أغلى، وهى عهود الزواج، وأى ارتباط يمكن أن يكون أقوى من ارتباطنا بثمرة علاقتنا؟ ربما يا سيدى أنت نفسك لست أبًا ولو كنت كذلك، تأكد أنك لن تستطيع تخيل سعادتى بأولادى الصغار.

أود أن لا تهزأ بى لو رأيتنى ممددًا على الأرض، وأولادى يلعبون حولى.

قال أدمس: "سوف أحترم هذا المنظر، أنا نفسى أب الآن لستة أولاد، وكنت أبًا لأحد عشر، وأستطيع القول إننى لم أعاقب أحدًا من أولادى إلا إذا فعل ذلك مدرس مدرسته، ثم أشعر بكل ضربة على مؤخرتى.

وأما ما تقوله عن ما يخص النساء، فإننى أحيانًا أرثى زوجتى التى لا تفهم اليونانية".

ابتسم الرجل وأجاب قائلاً إنه لا يخشى أن يدخل فى ذهن زوجته فهم شيء سوى الاعتناء بأسرتها.

قال: "على العكس، أؤكد لك، إنها ربة منزل ذات مكانة، وقليل من الرجال المديرين للمنازل يفهمون فن الطبخ أو صناعة الحلويات جيدًا، لكنها فنون ليس لها ضرورة كبيرة الآن، على الرغم من ذلك، الخمر التى قد مدحتها كثيرًا أثناء العشاء الليلة الماضية كانت أحد الأشياء التى تصنعها، فى الحقيقة كل شراب فى منزلى من صنعها ما عدا البيرة، التى تقع فى دائرة اختصاصى".

قال أدمس: "وأؤكد لك أنها ممتازة، ولم أتذوق مثلها".

"كان فى الماضى لدينا خادمات، لكن منذ أن كبرت بناتى لا تريد أن تتركهن ينغمسن فى الكسل، فالثروة التى سأتركها لهن قليلة جدا، ونحن لا ننوى تربيتهن فوق مستوى الطبقة التى من المحتمل فيما بعد أن ينتمين إليها، ولا تعليمهن احتقار أو تحطيم زوج رقيق الحال. فى الحقيقة، إننى أتمنى لهن رجالاً بنفس عقليتى، وأن تكون حياتهن حياة هادئة، حيث إننى قد جربت تلك السعادة الصافية الهادئة التى تتسم بالرضا والتى لا تتناسب مع سرعة الحياة ومشاغل الدنيا".

كان يكمل حديثه على هذا المنوال، حينما استيقظ الصغار، واتجهوا بلهفة تجاهه، وطلبوا منه أن يباركهم، وكانوا يخجلون من الأغراب، لكن الابنة الكبرى أخبرت أباها أن والدتها والسيدة الصغيرة أعدا الإفطار. فذهبوا جميعًا حيث أعجب

الرجل بجمال فانى التى قد تخلصت الآن من آثار التعب، ولبست ملابس نظيفة تمامًا؛ فالمتشردون الذين أخذوا كيس نقودها تركوا لها صُرَّتها.

لكن لو كان الرجل قد تعجب من جمال تلك الفتاة، فإن ضيوفه قد فتنوا بالحنان الذى ظهر فى تصرف كل من الزوج والزوجة معًا ومع أولادهما، وتعامل الأولاد الحنون والمطيع تجاه والديهما.

تلك الأمثلة أسعدت أدمس المتعاطف، وعلى حدٍّ سواء الاستعداد الذى أبدوه ليكرموا ضيوفهم واستعدادهم أن يقدموا لهم أحسن أشياء فى منزلهم، وما أسعده كثيرًا مثال أو مثالان على أنهم خيرون، فبينما كانوا يتناولون الإفطار استُدعيت السيدة الطيبة لمساعدة جارتها المريضة وقد فعلت ذلك ببعضٍ من المودة، وذهب الرجل الطيب لحديقته فى نفس الوقت؛ ليعطى رجلاً شيئًا ما يريده، فلم يكن لديهم شىء يريده هؤلاء، ولم يرحبوا بإعطائهم هذا الشىء.

كان هؤلاء الأشخاص الطيبون فى قمة السعادة، إلى أن سمعوا دوى بندقية، وبعد ذلك أتى كلب صغير – وهو المفضل للابنة الكبرى – يترنح ملطخًا تمامًا بالدماء ورقد عند أقدام سيدته، انفجرت البنت المسكينة التى كان عمرها حوالى الحادية عشرة فى البكاء عندما رأت ذلك، وأتى فى الحال أحد الجيران، وقال لهم إن الفارس الصغير وهو ابن سيد الضيعة قد أطلق عليه الرصاص حينما مر به، حالفًا فى نفس الوقت أنه سيقيم الدعوى على سيده؛ لأنه يحتفظ بجرو صغير حيث إنه أعطى إنذارًا أنه لن يترك واحدًا فى الأبرشية.

مات الكلب وقد أخذته سيدته فى حضنها وكان يلعق يديها. وأبدت ألمًا شديدًا حينما فقدته، وبدأ الأولاد الآخرون فى البكاء لنكبة أختهم، ولم تستطع فانى نفسها أن تحجم عن البكاء. بينما حاول الأب والأم تهدئتها، أمسك أدمس بعصاه وخرج وراء الفارس، ولم يستطع جوزيف أن يمسكه، ولم يستطع أن يلجم لسانه ، ونطق كلمة "وغد" بانفعال شديد، وقال إنه يستحق أن يشنق أكثر من قاطع الطرق، وتمنى أن يجلده.

أخذت الأم طفلتها، وهى تندب وتحمل كلبها الميت بين ذراعيها، وخرجا من الحجرة حينما قال الرجل إنها ثانى مرة يحاول فيها هذا الفارس أن يقتل البائس الصغير، وقد جرحه مرة من قبل بطريقة مؤلمة، مضيفًا أنه ليس لديه دافع سوى سوء الطبع، حيث إن الكلب الصغير الذى لا يتعدى حجمه قبضة يده، ولم يبتعد أكثر من عشرين ياردة عن المنزل فى السنوات الستة التى امتلكته فيها ابنته.

قال إنه لم يفعل شيئًا ليستحق تلك المعاملة، لكن والده لديه ثروة كبيرة جدا تقويه وقد كان مستبدًا مثل أى طاغية فى الكون، وقتل كل الكلاب، وسلب كل البنادق التى فى الجوار، ليس هذا فقط؛ فقد سحق بقدميه الشجيرات، ومشى على الذرة ومشى فى البساتين دون أى احترام كما لو كان طريقًا عامًّا.

قال أدمس: "أتمنى لو أستطيع أن أمسكه فى حديقتى، على الرغم من أننى من الممكن أن أغفر له مشيه عبر منزلى، بدلاً من هذا التصرف السيئ".

قاطع بهجةَ تلك المحادثة تلك الحادثةُ، ولم يستطع الضيوف مساعدة مضيفهم الطيب فيها، وكانت الأم تواسى البنت المسكينة، التى كان مزاجها فى حالة جيدة جدا، فسريعًا ما نسيت الفقدان المفاجئ لكلبها الصغير، حيث كانت تُلاطفه فى بضع دقائق قبل الحادثة، وحيث إن جوزيف وفانى تمنيا بلهفة الذهاب إلى البيت ليباشرا حياتهما السابقة، التى أصر أدمس عيها، فقد طلبا الرحيل الآن.

أصرّ الرجل كثيرًا على أن ينتظروا العشاء، لكن حينما وجد أنهم متلهفون للرحيل استدعى زوجته، ووفقًا لذلك أدت كل مراسم الانحناءات والاحترامات التى تسعد أكثر لرؤيتها بدلاً من روايتها.

فبدأوا الرحيل وتمنى لهم الرجل وزوجته بشدة رحلة طيبة، وقد شكروهم بشدة لحسن استضافتهم، ثم رحلوا وقال أدمس: "تلك هى الطريقة التى كان الناس يعيشون بها فى العصر الذهبى".

الفصل الخامس

جدل حول المدارس، استمر على الطريق
بين السيد إبراهام أدمس وجوزيف،
واكتشاف رحَّب به كلاهما.

أنعش مسافرونا أنفسهم جيدًا فى منزل الرجل، فقد انتعش جوزيف وفانى بالنوم، والسيد إبراهام أدمس بالشراب والتوباكو، وأكملوا رحلتهم بنشاطٍ مبهج، وتابعوا الطريق الذى توجهوا إليه، وسافروا العديد من الأميال قبل أن يقابلوا أية مغامرة تستحق الرواية.

فى هذا الفاصل سنقدم لقارئينا محادثة لافتة جدا، كما نراها تخص المدارس الخاصة، والتى دارت بين السيد جوزيف أندروس والسيد إبراهام أدمس.

لم يذهبوا بعيدًا قبل أن ينادى أدمس على جوزيف ليسأله إن كان قد حضر قصة الرجل، فأجاب: "كل الجزء السابق، وألا تعتقد أنه كان رجلاً غير سعيد بالمرة فى شبابه؟"

أجاب الآخر: "رجل غير سعيد، حقا"

صاح أدمس قائلاً وهو يعبس بفمه: "جوزيف، لقد اكتشفت السبب فى كل المحن التى حلت عليه، إن المدارس الخاصة، يا جوزيف، هى سبب كل الكوارث التى عاناها فيما بعد

إن المدارس الخاصة هى حضانة كل أنواع الرذيلة وكل الأعمال اللاأخلاقية. إن كل الأشخاص التعساء الذين أتذكرهم فى الجامعة قد تربوا فيها.

آه، يا إلهى!! إننى أتذكر كما لو كان بالأمس، مجموعة منهم يسمونهم دارسى الملك، لقد نسيت لماذا... أشخاص أشرار للغاية!! جوزيف يمكنك أن تشكر الله أنك لم تُربَّ فى مدرسة خاصة، وإلا ما كنت احتفظت بفضيلتك.

دائمًا يكون أول اهتماماتى بأخلاقيات الصبى، فأعتقد إلى حدٍّ ما أنه يجب أن يكون أحمق بدلاً من أن يكون ملحدًا أو عضو الكنيسة المتشددة، ما قيمة كل معرفة العالم إذا ما قورن بأهمية النفس؟ ما الذى يمكن للإنسان أن يستبدله بنفسه!! لكن أساتذة المدارس الكبرى لا يزعجون أنفسهم بمثل هذا الشىء. إننى أعرف صبيًّا فى الثامنة عشرة فى الجامعة لا يقدر على تعليمه الشفهى، لكن من جانبى فإننى دائمًا أضرب صبيًّا لأنه لا يقدر على ذلك مثل أى درس آخر. صدقنى يا صغيرى إن كل محن الرجل نشأت لأنه تعلم فى مدرسة خاصة".

أجاب جوزيف: "لست أنا الذى أتجادل على أى شىء معك يا سيدى، خاصةً مسألة من هذا النوع؛ فمن المؤكد أن كل العالم سيسمح لك أن تكون أحسن مدرس لمدرسة فى كل بلدنا".

قال أدمس: "نعم، أعتقد أن هذا حقى دون كثير من الغرور، بل إننى أعتقد أنه يمكننى الذهاب إلى المقاطعة المجاورة أيضا.. لكن "gloriari non est meum بمعنى: لست أنا المتباهى.

قال جوزيف: "مع ذلك يا سيدى، كما يسرك يمكنك أن تفتح هذا الحديث معى"، "إنك تعرف أن أستاذى الراحل، السيد توماس بوبى قد تربى فى مدرسة خاصة، وهو أحسن رجل فى الجوار. ولقد سمعته كثيرًا يقول لو كان عنده مائة ولد؛ سوف يربيهم فى نفس المكان. فقد كان رأيه وكنت أحيانًا أسمعه يقوله، فالولد الذى ينقل من مدرسة خاصة إلى العالم سيتعلم كثيرًا هناك فى سنة واحدة أكثر من

الولد الذى تعلم تعليمًا خاصًّا فسوف يتعلمه فى خمس سنوات. لقد اعتاد القــول إن المدرسة نفسها قد مهدته لطريق عظيم (أتذكر أن هذه كانــت كلماتــه بــالحرف) فالمدارس الكبيرة هى مجتمعات صغيرة، حيث يمكن لولد له أية دراية أن يرى فى مثالٍ ما سيجده بعد ذلك فى العالم ككل."

قال أدمس: Hinc illae tachrymae (بمعنى : من هنا فتلك الـدموع) مــن أجل هذا السبب، إننى أفضل مدرسة عامة، حيث يظل فيهــا الأولاد فــى بــراءة وجهل، فطبقًا لذلك قطعة جميلة فى مسرحية كاتو cato كتبها جوزيــف أديــسون، وهى التراجيدية الإنجليزية الوحيدة التى قرأتها، فلو كانت معرفة الـدنيا ســتجعل الناس أوغادًا، لعاشت جوبة جاهلةً للأبد.

من الذى لا يفضل أن يحتفظ بطهارة ولده بدلاً من أن يتمنى لــه الحــصول على دائرة الفنون والعلوم بأكملها، والتى يمكن أن يتعلمها فــى فــصول مدرســة خاصة، فلن أكون عابثًا، لكننى أقيم نفسى أن أكون فوق الجميع nulli secundum، فى تدريس تلك الأشياء؛ فالصبى يمكنه تعلم الكثير فى مدرسة عامة مثل تعلمه فى التعليم الخاص".

أجاب جوزيف: "ويمكنه باستلام ارتكاب" كثير من الرذائل يشهد دهاء عديد من رجال البلدة الذين تعلموا فى مكان يقرب من منازلها، وهم خبثاء كما لو كــانوا تعلموا الدنيا منذ طفولتهم. إننى أتذكر حينما كنــت فــى الإصــطبل أن الحــصان الصغير لو كان متوحشًا بطبيعته فلن يصلحه شىء، ونفس الــشىء ينطبــق علــى الناس، لو كان هناك ولد مؤذٍ ولديه ميول شريرة، فليس هناك مدرسة، حتــى لــو كانت خاصة، تجعل منه ولدًا طيبًا، على العكس، لو كان لديه عقل سليم؛ فيمكنــك أن تثق به أن يسافر إلى لندن أو أى مكان آخر؛ فلن يكون معرضًا لخطر الفــساد. علاوةً على ذلك، لقد كنت أحيانًا أسمع سيدى يقول إن الانضباط فى مدارس خاصة أفضل بكثير من الانضباط فى المدارس العامة".

قال أدمس: "إنك تتحدث مثل المغفل، وأيضا سيدك. الانــضباط حقــا!! لأن شخصًا يضرب عشرين أو ثلاثين ولدًا فى صباح يوم أكثر من صباح يوم آخــر، لذلك هو أفضل من يعلم الانضباط، وإننى على استعداد للجدال في هذه النقطة مــع كل من تعلموا من وقت شيرون Chiron إلى هذا اليوم، ولو كنت أستاذًا على ستة أولاد فقط سأحتفظ بالانضباط التام وسطهم مثل الأستاذ فى أعظم مدرسة فى العالم.

إننى لا أقول شيئًا، أيها الشاب يجب أن نتذكر أننى لا أقول شيئًا، لكــن لــو تعلم السيد توماس نفسه فى أقرب بيت وتحت تعليم شخص مــا – تــذكر أننــى لا أسمى أحدًا – ربما يكون هذا أفضل له، لكن لابد أن يجعله والــده علــى درايــة بمعرفة العالم "Nemo mortalium omnibus horis sapit (بمعنى: لا يوجد بــشر يعرف دائمًا ما هو الصواب).

حينما رآه جوزيف يواصل بتلك الطريقة، اعتذر عدة مــرات، مؤكــدًا أنــه ليست لديه أية نية للإهانة.

قال: "أعتقد ذلك يا صغيرى، وأنا لست غاضبًا منك، لكــن هــذا للاحتفــاظ بالانضباط الجيد فى مدرسة". ثم واصل كما سبق وذكر أسماء كل الأساتذة المسجلة أسماؤهم فى الكتب القديمة، وفضل نفسه عليهم جميعًا. فى الحقيقة، لو كــان هــذا الرجل الطيب لديه ما يتحمس من أجله – أو ما يُقال بالعامية تعصب أعمى – فهو لهذا الأمر، إنه يعتقد أن أستاذ المدرسة أعظم شخصية فــى العــالم، وهــو نفــسه الأعظم بين جميع أساتذة المدرسة، وليس هناك شيء من تلك النقاط يتنازل عنه من أجل الإسكندر الأكبر وهو يقود جيشه".

واصل أدمس حديثه إلى أن أتى إلى أحد أجمل بقاع الأرض فى الكون. إنها نوع من الأراضى المنحدرة الطبيعية التى كونتها الرياح فى نهرٍ صغير، والذى قد زُرع بأخشابٍ سميكة، وارتفعت الأشجار تدريجيًّا كل منها فوق الآخر بالتسلق على الأرض التى تقف عليها؛ حيث إنها يختبأُ بأغصانها. لقد بدت كما لــو كانــت قــد

نُظمت بتصميم أمهر مزارع. تتألأ على التربة نبات أخضر لا يمكن تقليده بالرسم، ويثير المكان بأكمله أفكارًا رومانسية في عقول أكبر من عقلَيْ جوزيف وفاني دون مساعدة الحب.

حينئذ انتصف النهار واقترح جوزيف على أدمس أن يستريحوا قليلاً في هذا المكان المبهج ويُنعشوا أنفسهم ببعض المؤن التي أمدتهم بها السيدة ويلسون الطيبة. لم يعترض أدمس على الطلب؛ لذلك جلسوا وسحبوا لحم دجاج بارد وزجاجة خمر، لقد صنعوا وجبة ببهجةٍ جذبت حسد كثير من جماعة متألقين حول منضدة. لن أتغاضى عن أنهم وجدوا وسط مؤنهم ورقة صغيرة تحتوي على قطعة من الذهب التي تخيل أدمس أنه قد وضعها بطريق الخطأ واستردها، لكن في النهاية أقنعه جوزيف أن السيد ويلسون قد اتخذ تلك الوسيلة الملائمة لتجهيزهم بالزاد من أجل رحلتهم، حينما رووا المحنة التي مروا بها عندما خفف عنهم ذلك كرم البائع المتجول.

قال أدمس إنه سعيد لرؤية هذا المثال من الطيبة، ليس من أجل وسائل الراحة التي وجدوها، وإنما من أجل فاعلها الذي سيكون له ثواب عظيم عند الله.

وقد أراح نفسه أيضا بالتفكير في أنه سينتهز قريبًا فرصة لإرجاعها له؛ حيث سيقوم الرجل برحلة في غضون أسبوع إلى سومرستشير، وسوف يمر على أبرشية أدمس، وقد وعده بصدق أنه سيزوره، وهو حدث اعتقدنا أنه غير مهم ذكره، لكن هؤلاء الذين لهم شعور كبير تجاه الرجل مثلنا سيسعدون به، وسيعطيهم آمالاً لرؤيته مرة ثانية.

ثم تحدث جوزيف عن الصدقة التي سيراها القارئ لو أحب ذلك في الفصل التالي، حيث إننا نكره أن يبدأ في قراءة مثل هذه الأشياء دون إعطائه إنذارًا مسبقًا.

الفصل السادس

تأملات جوزيف أندروس الأخلاقية،

ورحلة صيد،

ونجاة القس أدمس بأعجوبة.

قال جوزيف: "إننى أتعجب أحيانًا يا سيدى، حينما أرى أن أمثلة المتصدقين فى البشر قليلة، فعلى الرغم من أن طيبة قلب الرجل لم تجعله يميل لتخفيف محنة الآخرين يُخيل لى أن رغبته فى أن يكون كريمًا تدفعه إلى ذلك.

ما الذى يلهم رجلاً ما لبناء منازل جميلة، وشراء أثاث جميل وصور وملابس وأشياء أخرى بنفقة كبيرة إلا أنه يطمع فى أن ينال احتراما أكثر من الآخرين؟

أليس الذى يقوم بعمل من أعمال الصدقة على سبيل المثال لتخليص عائلة فقيرة من كل شقاء الفقر، أو مساعدة تاجر سيئ الحظ بمنحه مبلغًا من المال كوسيلة لكسب قوته من عمله، وإعفاء مدين غير قادر من ديونه أو تخليصه من السجن، أو ما شابه ذلك من أمثلة طيبة، لخلق إنسان أكثر كرمًا واحتراما بدلاً من حصوله على أفخم منزل وأثاث، وصور أو ملابس يمكن رؤيتها؟ فهذا لا يخفف عن الشخص نفسه، لكن كل من سمع اسم هذا الشخص يجب، كما أتخيل، أن يحترمه احتراما لا حدَّ له أكثر من مالك كل الأشياء الأخرى التى حينما نعجب بها كثيرًا نمدح البانى والعامل والرسام وصانع الزينة وصانع الملابس وغيرهم، حيث أنتجوا تلك الأشياء بإبداعهم، وذلك أحسن من الذى يمتلك تلك الأشياء بنقوده.

فمن جانبى، عندما أنتظر، سيدتى، فى حجرة معلق بها صور جميلة، فبينما كنت أنظر إليها لم أفكر مرة فى مالكها ولا فى أى شخص آخر، كما لاحظت حينما سألت لمن تلك الصور؟ لم يجبنى أحد قط، "سيد المنزل"، لكن كانوا يجيبون قائلين إنها لـ أمى كونيل Ammy Connil، أو لـ بول فرنيش Paul varnish، أو لـ هوجارث هانيبال Hogarthi Hannibal وأعتقد أنها أسماء الرسامين، لكن حينما يُطرح سؤال وهو: من خلّص هذا الشخص من السجن؟ من الذى أقرض هذا التاجر المنهار نقودًا لكى يُزوِّده برأس مال؟ من الذى ألبس تلك العائلة المُكونة من أطفال مساكين؟ من الواضح جدا ما هى الإجابة.

وعلاوةً على ذلك، هل سيخطئ هؤلاء الناس لو تخيلوا أنهم يحصلون على أى فخر على الإطلاق بتلك الطرق؟ فأنا لا أتذكر أننى كنت مع سيدتى فى أى منزل ومَدحت المنزل أو الأثاث، لكننى سمعتها عند رجوعها المنزل تهزأ وتسخر بكل ما قد مدحته، وقد قال لى بعض الرجال من الخدم أن نفس الشيء يحدث مع عائلتهم، لكننى أتحدى أكثر الرجال حكمة فى العالم أن يحول التصرفات الطيبة الحقيقية إلى سخرية. إننى أتحداه أن يفعل ذلك.

ومن سيحاول ذلك سيضحك على نفسه بدلاً من أن يجعل الآخرين يضحكون، فنادرًا ما يكون هناك من يفعل فعلاً خيرًا، إلا ويتفق الجميع على مدح من فعلوا ذلك.

فى الحقيقة، إنه غريب أن كل الرجال يتفقون على مدح أعمال الخير ولا أحد يحاول أن يستحق هذا المدح، بينما على العكس، فالجميع يشكون من الشر والجميع يشتاقون إلى أن يصبحوا لا يساء إليهم.

ولا أعرف سبب ذلك، لكنه من وضوح النهار لهؤلاء الذين يتحدثون فى العالم، كما فعلت خلال السنوات الثلاث الماضية".

قالت فانى: "إذن، فهل كل العظماء أشرار؟"

فأجاب جوزيف: "من المؤكد أن هناك بعض الاستثناءات، فبعض رجال من طبقتنا يتحدثون عن الأعمال الخيرية التى يقوم بها أسيادهم، وقد سمعت السيد بوب، الشاعر العظيم، على منضدة سيدتى، يروى قصصًا عن رجل عاش فى مكان يسمى روس، وآخر فى باث، وآخر نسيت اسمه لكنه فى كتاب الأشعار.

فقد بنى هذا الرجل منزلاً فخمًا أيضا، يحبه القاضى كثيرًا، لكن كانت صدقته أوضح بكثير من منزله، على الرغم من أنه موجود على تل، ومما يعطيه احتراما أكثر.

إنها الصدقة التى وضعته فى الكتاب، حيث يقول القاضى إنه يضع كل من يستحقونه، ولتكن متأكدًا، حيث إنه يعيش وسط كل هؤلاء العظماء، ولو كان هناك مثلهم يعرفهم"... كل هذا كان كلام جوزيف أندروس الذى استطعت أن أتذكره، والذى رويته بأقرب كلمات لما قاله بقدر الإمكان مع بعض التعديلات الصغيرة جدا.

لكننى أعتقد أن القارئ لم يندهش من صمت القس أدمس الطويل، خاصةً أنه قد أتيحت له فرص عديدة لكى يُبدى فضوله وتأمله.

الحقيقة هى أنه غرق فى النوم من بداية الرواية السابقة، والحقيقية لو يفكر القارئ أن ساعات عديدة مرت منذ أن أغلق عينيه، فلن يتعجب من اضطجاعه حتى لو هنلى Henley نفسه، وهو واعظ مشهور (لو أى شخص مثله) كان على منبره أو أمامه لن يتعجب من اضطجاعه.

فبينما كان جوزيف يتحدث واصل فى اتجاه واحد، ورأسه متكئة على جانب واحد، وعيناه متجهتان إلى الأرض، فبمجرد أن تنبه لوضع أدمس حينما نظر إليه، حيث كان ممددًا على ظهره، ويشخر بصوتٍ أعلى من النهيق المعتاد للحيوانات ذات الأذن الطويلة، استدار إلى فانى وأمسك يديها وبدأ مداعبةً، والتى على الرغم من أنها تتفق مع أطهر براءة واحتشام، لم تكن لتسمح ولا كان هو ليحاول أخذ

أكثر من ذلك فى وجود آخرين. فبينما كانوا يسلون أنفسهم بتلك الطريقة المبهجة وغير المؤذية، سَمِعا حشدًا من كلاب الصيد يقترب منهم فى صياح شديد، وفى الحال رأوا بعد ذلك أرنبًا يقفز من الأشجار ويعبر المياه ويقف على بضعة أمتار منهم فى العشب، وبمجرد أن أصبح الأرنب على الأرض جلس على قدميه الخلفيتين وليستمع إلى أصوات الذين يلاحقونه.

كانت فانى سعيدة بدرجة مدهشة بالبائس الصغير، واشتاقت إلى حمله بين ذراعيها، لكى تحميه من الأخطار التى بدت تهدده، لكن الجزء العقلانى من الخلق لا يمكنه دائمًا تمييز أصدقائه من أعدائه بطريقة ملائمة. العجيب أن هذا المخلوق الأحمق فى اللحظة التى شاهدها، هرب من الصديقة التى ستحميه واجتاز الأراضى الخضراء مرة ثانية ومر على النهر الصغير على الجانب المقابل، على الرغم من أنه كان ضعيفًا ومنهكًا للغاية؛ حيث إنه سقط مرتين أو ثلاثًا وهو فى طريقه. أثّر هذا فى قلب فانى الحنون التى تعجبت بدموعٍ فى عينيها من الوحشية التى تهدد حياة هذا الحيوان المسكين البرىء، والذى لا يحميه شىء، وتضعه تحت أقصى تعذيب من الهجوم. ولم تأخذ وقتًا طويلاً فى تأمل هذا النوع إلا واندفعت مطاردات مفاجئة من خلال الأخشاب؛ حيث نادوا بنبراتٍ رنانة، وأصوات الملك الذى كان حاضرًا بينهم على ظهر حصان.

عبرت الكلاب النهر الآن وتتبعت خطوات الأرنب، حاول خمسة فرسان أن يقفزوا ونجح منهم ثلاثة، ووقع اثنان من على سرج الفرس فى المياه، ووقع أيضا رفقاؤهما وخيولهما، وواصلوا مزاحهم، وتركوا أصدقاءهم وركابهم وتمنوا مساعدة الحظ أو أن يستخدموا أكثر طرق القوة حيوية من أجل حرياتهم.

لم يكن جوزيف غير مبالٍ على الإطلاق بما يحدث، فقد ترك فانى لحظةً مع نفسها، وذهب إلى الرجال الذين كانوا توًّا على أقدامهم يهزون آذانهم، و بمساعدته اجتازوا الضفة بسهولة (حيث لم يكن النهر الصغير عميقًا على الإطلاق) ودون أن يشكروا مساعدهم الطيب أسرعوا عبر الأرض الخضراء وطلبوا من زملائهم الرياضيين أن يوقفوا خيولهم لكنهم لم يسمعوهم.

إن كلاب الصيد الآن وراء فريستها المسكينة المترنحة والمصابة بدوار حيث تدل كل خطوة من خطواته أنه أُصيب تقريبًا بالإغماء، وزحف خلال الأخشاب، وبدأ تقريبًا يلف المكان، حيث وقفت فانى حينما لحق به أعداؤه، وأمسكوا به حين لم يستطع أن يختبئ منهم، وفى الحال مزقوه إلى قطع أمام فانى، التى لم تكن قادرة على مساعدته بأى شكل سوى شعورها بالشفقة، ولم تستطع أن تقنع جوزيف الذى كان رياضيًّا فى شبابه، أن يحاول فعل أى شىء مناقض لقوانين الصيد؛ يكون لصالح الأرنب الذى قال إنه قد قُتل بطريقة شرعية.

لقد أمسكوا بالأرنب على بعد متر أو مترين من أدمس الذى كان نائمًا بالقرب من الحبيبين، وحينما افترسته كلاب الصيد وسحبته خلفها وأمامها سحبته بالقرب منه؛ حيث إن بعضًا منها أمسكت بردائه(ربما قد حسبته جلد الأرنب) ، واستخدمت أخرى فى نفس الوقت أسنانها لمسك جمته التى قد ربطها بمنديل فى رأسه، وبدأت تطيح بجسده بقسوة، وكان لهذه الحركة تأثير عليه أكثر مما كان للضوضاء، ومن المؤكد أنها تذوقت لحمه بنكهته اللذيذة، مما كان يمكن أن يتسبب فى إنهاء حياته، لكن لأن تلك القوة أيقظته نهض فى الحال، وبعد أن هز نفسه ليتخلص من جُمته وببراعة رائعة استرد ساقيه التى بدت أنها العضو الوحيد الذى قد وثق من سلامته.

وبعد أن أنقذ نفسه بهذه الطريقة، ترك عن طيب خاطر ثلث ردائه الذى أصبح غنيمة للعدو، فهرب بأقصى سرعة يستطيعها يطلب المساعدة، ولم يحط ذلك من قدر شجاعة شخصيته، عندما نأخذ فى الاعتبار عدد مهاجميه، وعنصر المفاجأة حيث أُخذ على غرة، ولو كان هناك شخص شجاع بدرجة وحشية لا يمكنه الهروب فى أى ظرف مهما كان، إننى أقول (لكننى أهمس بذلك برفق وأعلن بهيبة دون أية نوايا لإهانة أى شجاع فى البلدة) فأقول أو إلى حدٍّ ما أهمس بأنه شخص جاهل ولم يقرأ هومر Homer، ولا فرجيل Vergil ولا يعرف أى شىء عن هكتور Hector أو ترنس Turnus، بل وليس على دراية بقصة بعض العظماء، الذين عاشوا فى

هذه الدنيا، فعلى الرغم من أنه شجاع مثل الأسد أو النمر فقد هرب، ويعلم الله إلى أى مدى، ويعلم الله لماذا فاجأ أصدقاءه وفاجأ تسلية أعدائهم.

لكن لو أن أشخاصًا بتلك الميول البطولية قد شعروا ببعض الإهانة؛ بسبب سلوك أدمس فنؤكد لهم أنهم سيسعدون كثيرًا بما سنرويه الآن عن جوزيف أندروس.

وصل زعيم المجموعة أو كما يقول الرياضيون أتى حينما ظهر أدمس كما ذكرنا من قبل. إن هذا الرجل معروف بحبه للضحك، لكن لكى لا نخلط الأمر، خاصةً أننا فى صدد هذا الموضوع، فقد كان مطاردًا كبيرًا للرجال، فى الحقيقة هو حتى الآن اتبع رياضة واحدة مع كلاب من أنواع خاصة، فقد احتفظ بزوجين أو ثلاثة أزواج، تنبح من أجل هذا الغرض فقط. على الرغم من أنه اعتقد أنه الآن مع رجل يتمتع بالبديهة، وكان مستعدًا أن يشغل نفسه برياضةٍ أخرى، ولذلك صرخ بصوت عالٍ، ثم هرب بعيدًا فشجع كلاب الصيد على ملاحقة أدمس، مؤكدًا أنه كان أكبر أرنب قد رآه، فى نفس الوقت هلّل هاتفًا كما لو كان عدوًا يهرب من أمامه؛ حيث قلده زوجان أو ثلاثة من البشر على ظهر حصان قد ذكرناه من قبل.

الآن مهما كانت مبادئك سواء كانت تأملاً أو أيا كان اسمها فإن اختيارك على رأس السيرة الذاتية قد ألهم كل الكتاب فى أيامنا هذه، فأنت الذى انغرست فى هذا المرح الرائع بقلم جليفر Gulliver الخالد، الذى وجّه القرار باهتمام، بينما قد مجدت أنت أسلوبًا رجوليًا عصبيًا، فليس لك يد فى الإخلاص والمقدمات والترجمات، حيث ستكون مستعدًا لاستهلال عمل يروى لحياة سيسرو Cicero، فى النهاية دون مساعدة أدنى نوع من الأدب، ولا حتى ضد ميوله، فقد أُجبر فى بعض صفحات كتابه كولى سيبر Colley Cibber أن يكتب إنجليزية، هل ستساعدنى فى الذى لم أجد نفسى غير كفء فيه؟ هل ستقدم المخلص والشاب والمرح والشجاع جوزيف أندروس حيث سيراه الناس بإعجابٍ وحسد؟ فالعذارى المحبون قلقون بشوقٍ واهتمام على سلامته.

بمجرد أن أدرك جوزيف أندروس محنة صديقه حينما هاجمه أولاً كلاب لها حاسة شم سريعة، أمسك بالعصا، بيده اليمنى، العصا التى ورثها الده عـن جـده، والتى أعطاها له رجل ذو قوة جبارة من كنت Kent، هدية فى هذا اليـوم الـذى كسر فيه ثلاثة رءوس على المنصة. إنها عصا لها قوة جبـارة، ومهـارة رائعـة صنعها واحد من أحسن عمال السيد ديراد؛ حيث لا يمكن لحرفى آخر أن يـصنع مثله، وقد صنع كل هذه العصيان التى يمشى بها أخيرًا فى الصباح فـى المنتـزه، لكن هذه العصا هى أفضل ما صنع على الإطلاق. على رأسها نقش أنف وذقـن، والتى قد يظنها البعض كسارة بندق. تخيل العالمان بخبايا الأمـور يعلمـان أنهـا صُممت لترمز لـ جورجون، لكن كانت فى الحقيقة منسوخة مـن وجـه بـارون إنجليزى يتمتع بدهاء ومرح وجاذبية لا نهاية لها. وقد نوى أن ينقش هنا العديد من القصص مثل مسرحية الليلة الأولى للقبطان... حيث سـترى النقـاد قـد نقلوهـا مزخرفة من الصناديق إلى الحفرة، ومجدها السكان القدماء للجمهـور، ومثلوهـا بتهكم. وقد نوى أن يرسم حجرة المزاد التى يظهر فيها السيد كوك عاليًا فوق منبره يصف ويمدح وعاء مصنوعًا من الخزف، وتعجب بدهشة قائلاً : كيف لـم يزايـد أحد على هذا الشيء الرائع؟ وقد نوى نقش أشياء أخرى عديدة، لكنه أُجبر أن يترك كل ذلك؛ لعدم وجود مساحة كافية.

بمجرد أن أمسك جوزيف تلك العصا بيديه ولَمعت عيناه بنظـراتٍ حـادة، وبشجاعة جرى بأقصى سرعة لمساعدة صديقه. لحق بـه تمامًـا مثـل روك ود وأمسك الجزء الأسفل من ردائه الذى كان ممزقًا، ومتدليًا على الأرض.

أيها القارئ، ما كنا ننوى أن نقدم تشبيهًا لتلك الحادثة لسببين:

الأول هو أنه سيُقاطع الوصف الذى يجب أن يكون سريعًا فى هذا الجـزء، لكنه ليس مهمًا بدرجة كبيرة؛ فقد كانت هناك مقاطعات كثيرة من قبل، لكن الثـانى وهو السبب الأهم هو أننا لا نجد تشبيهًا مناسبًا لغرضنا، ففى الحقيقة المثال الـذى يمكن أن نضربه ليكون أمام أعين القارئ فجأة هـو فكـرة الـصداقة والـشجاعة

والشباب والجمال والقوة وخفة الحركة، كل هذا تمثل في شخصية جوزيف أندروس.

لذلك فلندع هؤلاء الذين يصفون الأسود والنمور والأبطال الأقوى منها، يشيدون في قصائدهم أو مسرحياتهم بتشبيه جوزيف، وهو نفسه فوق أي تشبيه.

الآن أمسك روك ود سريعًا بأسفل رداء القس وأوقف هروبه، الأمر الذي بمجرد أن أدركه جوزيف وجّه العصا نحو رأسه ورماه أرضًا.

ثم سقط جولر ورينج ود على معطفه، وكانوا بلا شك سيلقونه على الأرض، ولولا أن استجمع جوزيف قوته وأعطى جولر تلك الضربة على ظهره فتركه وجرى يصرخ بعيدًا.

بقي لك مصير أصعب يا رينج ود، رينج ود أحسن كلب صيد يلاحق أرنبًا، والذي لا يلهث بلسانه أبدًا، كانت حاسة الشم قوية بلا شك، وكان بارعًا في اقتفاء الأثر حتى على الطريق العام، لايستطيع أن يسبقه كلب آخر، واحترمه جميع الحشد، الذي حينما يبدأ اللعب يعرف أنه سيكسب لقد سقط بضربة جوزيف.

كان ثندر وبلاندر ووندر وبلوندر الكلاب الأخرى ضحايا لعصا جوزيف، ووقعت جميعًا على الأرض.

ثم جرت الكلبة فايرماد التي رباها السيد جون تمبل في منزله، وأطعمها على منضدته الخاصة وأرسلها أخيرًا الفارس خمسين ميلاً هدية، وهي محمومة نحو جوزيف وعضته في ساقه، ولم يكن هناك كلب محموم أكثر منها؛ حيث إنها من سلالة أمازونية فقد أقلقت الذكور في بلدتها، وهي الآن قد قامت بهجوم غير كفء، وشاركت مصير هؤلاء الذين ذكرناهم من قبل، لولا تدخل ديانا (للقارئ أن يصدق إن أسعده ذلك) في تلك اللحظة وفي شكل الصياد خطفت كلبتها بين ذراعيها وأنقذتها في آخر لحظة.

تغير وجه القس الآن وأسقط بعصاه عديدًا منهـا علـى الأرض وتنـاثرت أخرى إلى أن هاجمه سيزر أسقطه على الأرض. ثم طار جوزيف لإنقاذه وبتلك القوة بدأ النصر، ياله من سحقٍ أبدى لاسمه!! وجرى كاسار يعوى بعيدًا.

اشتدت المعركة الآن بعنف مخيف، حينما رفع الصياد صوته، وهو رجـل مطارد وذو سن كبير وله منزلة رفيعة، ونادى على كلاب الصيد فى المعركة قائلاً لها بلغةٍ تفهمها أن استمرارها أطول من ذلك شيء لا جدوى منه، حيث إن القـدر قرر النصر لأعدائهم.

هكذا روت بتأمل عميق وبوقارها المعتاد تلك المعركة المذهلة، معركة لـم يُضاهيها أى شاعر رومانسى أو كاتب أيًا كان؛ ولأنها أتت إلى النهايـة توقفـت، لذلك سنكمل بأسلوبنا العادى لاستكمال هذه القصة.إن الفارس وأتباعه الذى أخذتـه فى البداية نوبة شديدة من الضحك على شخصية أدمس وبسالة جوزيف، والذى قـد رأى حتى الآن الاشتباك ببهجةٍ أكثر من أية مطاردة، أو مباراة إطـلاق النـار، أو سباق أو شجار أو هراء أو تحمُّل المضايقة التى لم يمارسوها قط، بدأوا الآن يعون خطورة مطاردتهم، انتشر العديد منهم فى الحقول. لذلك، نادى الفـارس أصـدقاءه حوله كحراس أمان لسلامته، وركب بشجاعة إلى مقاتليه واستجمع كل المخـاوف التى قهرها فى ملامحه، وسأل جوزيف بصوتٍ ذى سلطة عن ما يعنيه بمهاجمـة كلابه بتلك الطريقة.

أجاب جوزيف بشجاعةٍ كبيرة: إنها بدأت بمهاجمة صـديقه، ولـو أن تلـك الكلاب تخص أعظم رجل فى المملكة سيعاملها بنفس الطريقة، فلو احتوت أوردته على نقطة دم واحدة فلن يقف صامتًا ويرى هذا الرجل (مشيرًا إلى أدمس) يـسىء له رجل أو حيوان. وحينما قال ذلك لوح مهددًا هو وأدمـس بأسـلحتهما الخـشبية ووضعا نفسيهما فى هذا الوضع، فقد اعتقد الفارس وأتباعه أنـه لمـن الملائـم أن يتفوقوا عليهما قبل أن ينتقموا لكلابهم التى تعاونهم فى الصيد.

في تلك اللحظة نسيا فانى التى انتابها كثير من القلق بسبب الخطر الذى يهدد جوزيف؛ فأتت بأقصى سرعة.

اندهش الفارس وكل الفرسان كثيرًا بجمالها؛ حيث إنهم فى الحال ثبتوا عيونهم وتفكيرهم كليةً عليها، وقالوا جميعًا أنهم لم يروا مخلوقة بهذا الجمال.

لم يشغلهم المرح ولا الغضب لحظةً أكثر، لكنهم جلسوا جميعًا مندهشين فى صمت. كان الصياد الوحيد الذى لم ينتبه لجاذبيتها هو الذى كان مشغولاً بقطع آذان الكلاب؛ محاولاً إعادتها للحياة، وقد نجح إلى حدٍّ كبير حيث بقى اثنان فقط دون أية حركة مذبوحَين فى ساحة المعركة. وهكذا قال المطارد لا بأس بذلك فمن جانبه لن يلوم الرجل وتعجب لأن سيده يشجع الكلاب لمطاردة المسيحيين، فقد كانت أحسن طريقة لإفسادها أن يجعلها تتبع الهوام بدلاً من أن تطارد أرنبًا.

علم الفارس بالأذى الذى لحق بها، وعلم بوجود أذى من نوع آخر فى رأسه، فاقترب من السيد أدمس وخاطبه بطريقةٍ أفضل مما سبق، واعتذر له لما حدث، فقد حاول بكل ما استطاع أن يمنعه لحظة معرفته لشخصيته من ملابسه ومدح خادمه الشجاع بدرجة كبيرة كما مدحه جوزيف أيضا.

ثم دعى السيد أدمس للعشاء، وتمنى أن تأتى معه الفتاة الصغيرة. ورفض أدمس لكنه كرر الدعوة بكثيرٍ من الجدية واللطف، واضطر فى النهاية أن يقبل، وجمع جوزيف جمته وقبعته وأشياء أخرى أُتلفت فى المعركة (حيث كان من المحتمل أن ينسوا تلك الأشياء) وهندم نفسه بقدر ما استطاع ثم تحرك الحصان قدمًا فى نفس الخطى تجاه منزل الفارس الذى كان موجودًا على مسافة قريبة جدا.

بينما كانوا فى الطريق جذبت فانى المحبوبة انتباه الجميع، وحاولوا التنافس على مغازلتها، وسوف يعذرنى القارئ لعدم رواية الأمر، حيث لم يقولوا شيئًا جديدًا أو غير معروف، لذلك فهو أيضا لم يدون المداعبات اللافتة التى داعبوا بها أدمس، والتى توضح أن مطاردة القس هى أفضل رياضة فى العالم، ومدح البعض

وقوفه بجوار النافذة، حيث قيل إنه يفعل ذلك مثل الحيوان الثدييّ الذى يسكن فـــى الأرض ببهجة. وعلى الرغم من أنـها ستقلل من منزلة تلك القصة، فقد أضـــحكتهم كثيرًا، وكانت للفارس ورفقائه مصدرًا للتسلية واللهو.

الفصل السابع

مشهد للشواء يتناسب مع الذوق
والزمن الحالى.

وصلوا جميعًا إلى منزل الفارس، بينما كان العشاء معــدًا، وحــدث نــزاع محدود بسبب فاني؛ حيث طلب الفارس الذى كان أعزب أن يجعلها تجلــس علــى منضدته الخاصة، لكنها لم توافق، ولم يسمح السيد أدمــس لهــا بالانفــصال عــن جوزيف، لذلك انتهى الأمر بها وجوزيف إلى الذهاب إلى المطبخ؛ حيث أمر الخدم أن يجعلوه يشرب حتى يصبح مخمورًا، ونفس الأمر بالنسبة لأدمــس، وقــد نُفــذ الأمر، واعتقد الفارس أنه سيحقق بسهولة ما أراده، وحينما رآها من أول مرة نوى أن يرتكب الرذيلة مع فاني.

وليس من الخطأ قبل أن نواصل سرد القصة أن نوضح القليل عن شخــصية هذا الرجل وشخصيات أصدقائه.

إن سيد هذا المنزل كان رجلاً ذا ثروة ضخمة، أعزب كما قلنــا، وعمــره حوالى أربعين سنة، لقد تعلم (لو أمكننا استخدام التعبير) فى هذه القرية، وفى منزله الخاص تحت رعاية أمه ومعلم خصوصى، كانت لديه أوامر ألا يصحححه أبدًا، ولم يجبره على تعلم أكثر مما أحب؛ حيث كان تعليمه قليلاً، وكان تعليمه فى طفولتــه فقط، ففى سن الخامسة عشرة كرّس نفسه كليةً للصيد وتسليات ريفية أخرى، فقــد اهتمت أمه بتجهيزه بالخيول وكلاب الصيد وكل الضروريات الأخــرى، وحــاول معلمه أن يفوز برجاء تلميذه؛ حيث عَلِم أنه يستطيع أن يُعيله، فأصبح رفيقه لــيس

فقط فى تلك النشاطات لكن فى كل شىء كان يستسيغه الفارس الصغير ومن ذلك شرب الخمر.

فى سن العشرين بدأت أمه تعتقد أنها لم تفِ بواجب الأمومة؛ لذلك قررت أن تُلحق ابنها لو أمكن – بما اعتقدت أنه سيعطيه كل ما كان يجب أن يتعلمه – فى مدرسة خاصة أو فى الجامعة.

هذا ما يسمونه على نحوٍ شائع السفر، وبمساعدة المعلم الخصوصى الذى كان يواظب على الحضور؛ نجحت فى ذلك بسهولة. لقد قام بجولة فى أوروبا لمدة ثلاث سنوات كما يسمونها، ثم عاد إلى وطنه مجهزًا بملابس وعبارات فرنسية وخدم، واحتقر بلده احتقارًا شديدًا، خاصةً أنه لم يكن لديه إخلاص للروح الخالصة والأمينة لأجداده.

فرحت أمه كثيرًا بعودته، وحيث إنه الآن متحكم فى ثروته، فسريعًا ما ضمن لنفسه مقعدًا فى البرلمان، وكان يعتبر أفضل الرجال فى سنه، لكن ما ميزه أساسًا هو اهتمامه وسعادته بكل ما هو مضحك ومنفر فى جنسه؛ لذلك فهو لم يختر رفيقًا إلا وكان يتمتع بصفة واحدة من تلك المقومات، وهؤلاء الذين تَظهر فيهم تلك الصفات بأقصى درجة كانوا أكثر أحبائه. ولو وجد رجلاً ليس لديه تلك المقومات أو حاول إخفاء تلك النقائص؛ فيكون سعيدًا للغاية فى اختراع طرق لإجباره على السخافات التى لم تكن فى طبيعته لعرضها. من أجل هذا الغرض كان لديه مجموعة من رفقائه الذين أطلقنا عليهم من قبل جبناء، وهم فى الحقيقة لم يكن لديهم احترام كبير لهذا النائب.

إن عملهم هو أن يطاردوا ويعرضوا كل شىء ليس لديه إخلاص للصفات التي سبق ذكرها، وخاصة فى أحسن وأهم الشخصيات، لكنهم إن فشلوا فى بحثهم فهم يحولون حتى الفضيلة والحكمة إلى سخرية، لأن هذا هو تسلية سيدهم ومصدر رزقهم.

الرجال الذين لديهم ميول الجبن هم الآن فى منزله، وقد أحضرهم معه من لندن، كان ضمنهم ضابط بنصف أجر، كبير السن ومقامر وشاعر ممل وطبيب مشعوذ، وعازف كمان غير ما هر، ومعلم رقص ألمانى أعرج.

بمجرد أن تم تجهيز العشاء بينما كان السيد أدمس يصلى صلاة شكر نقل مقعده من خلفه، لذلك حينما حاول الجلوس وقع على الأرض، وهكذا كانت أول مزحة لتسلية المجموعة. قام بثانى نكتة الشاعرُ الذى جلس بجواره على الجانب الآخر وانتهز فرصة، حينما كان أدمس المسكين يشرب باحترام نخب سيد المنزل، فقلب طبق الحساء على بنطلونه، ومع الاعتذارات الكثيرة التى قام بها، وردود القس اللطيفة أحدث كثيرًا من المرح فى المجموعة.

النكتة الثالثة قام بها أحد الخدم الذى كُلف بنقل كمية من الجن (شراب مسكر) فى شراب السيد أدمس الذى قال إنه أحسن شراب شَربِه، لكنه إلى حدٍّ ما غنى جدا بالشعير. ساهم ذلك مرة ثانية فى إضحاكهم.

لم يستطع السيد أدمس، الذى عرفنا منه معظم تلك الرواية، أن يتذكر كل هذا النوع من الدعابات التى مارسها عليه، فقد كانت طبيعته غير المؤذية تجعله بطيئًا فى اكتشافها. وفى الحقيقة، لولا المعلومات التى تلقاها من خادم العائلة. هذا جزء من قصتنا الذى نأخذه على أنه شيء عادى، إلا أنه سيكون ناقصًا لولا ذلك، ومع ذلك يجب أن نعرف أنه من المحتمل أن بعض النكت الكثيرة (كما يطلقون عليها) قد أُطلقت أثناء عشائهم، لكننا على أية حال قد تمكنا من معرفة معظمها. عندما انتهى العشاء بدأ الشاعر فى ترديد بعض الأشعار التى قالها ارتجالاً، والأشعار التالية نسخة منها، أنجزها بأقصى صعوبة:

قصيدة ارتجالية عن القس أدمس:

هل رأى إنسان مثل هذا القس

رداؤه قديم وجمته ليست جديدة؟

ربما حَسِبه المطاردون ثعلبًا

برائحة أفضل كثيرًا من خنزير فظ

لكن لن يجعل هذا أى بشر يحدق النظر؟

ليرى أن القس يؤسر على أنه أرنب

بل يُخطئ فوبيوس (إله الشعر) هكذا بطريقةٍ جسيمة حتى أنه،

ربما يأخذك على أنك ممثل بارع.

عند تلك الكلمات نزع الشاعر بسرعة جمة الممثل وتلقى تشجيع الصحبة، ربما لبراعة يده أكثر من رأسه. بدلاً من أن يرد الممثل النكتة للشاعر بدأ يعرض مواهبه فى نفس الموضوع. لقد ردد عديدًا من نبذات ساخرة عن مسرحيات تعكس طبيعة رجل الدين كاملة؛ حيث استقبل كل الحاضرين هذا بتهليل هائل.

إنه الآن دور مدرس الرقص ليعرض مواهبه، لذلك تخاطب مع أدمس بلغة إنجليزية غير سليمة فقال له:

He was a man ver well made for de dance، and he supposed by his walk dat he had learn of some g reat master.

بمعنى: إنه رجل ماهر فى الرقص، ومن مشيته يُعتقد أنه تعلم من مدرس عظيم.

قال إنها صفة جميلة فى رجل دين أن يرقص، وأنهى متمنيًا أن يرقص رقصة المنوت قائلاً له إن رداءه مثل التنورة؛ لذلك سيكون شريكه فى الرقص.

عند تلك الكلمات دون انتظار رد نزع قفازاته، وكان عازف الكمان يجهز كمانه. أبدت الصحبة بأكملها استعدادها لرهان مدرس الرقص، أن القس سيتفوق عليه فى الرقص، لكنه رفض قائلاً إنه اعتقد ذلك أيضا، فهو لم ير أى رجل فى

حياته بدا يرقص جيدًا مثل هذا الرجل. ثم تقدم ليأخذ يد أدمس، لكن انسحب أدمس بسرعة، وفي نفس الوقت أمسك على قبضته، وهو يقول له ألا يتمادى في الاستظراف حيث إنه لا يحتمل سخريته منه.

بمجرد أن رأى مدرس الرقص قبضته ابتعد عنها بحكمة، ووقف بعيدًا يقلد أدمس الذى ركَّز عينيه عليه، لن يخمن ما كان فيه لكنه تجنب ما يحاول فعله. في نفس الوقت وجد الكابتن فرصة لكي يشبك في ردائه مفرقعة نارية، ثم أشعلها بالشمعة الصغيرة التي يشعلون منها تبغهم. ولأن هذه اللعبة كانت غريبة على أدمس معتقدًا أنها ستفرقع في الحقيقة، اندفع من مقعده وأخذ يقفز حول الحجرة؛ وكان هذا مضحكًا للمشاهدين الذين قالوا إنه أحسن راقص على وجه الأرض. بعد أن انتهى تعذيبه بالمفرقعة النارية، وانتهى اضطرابه قليلاً، رجع إلى المنضدة واقفًا كما لو كان سيُلقى خطابًا.

صاح الجميع: اسمعوه، اسمعوه. فتحدث قائلاً ما يلي:

"سيدى، إننى حزين لرؤية شخص كان القدر كريمًا معه لأقصى درجة وهو يرد ذلك بنكران الجميل، فعلى الرغم من أنك لم تُهنِّى بنفسك، فإنه من الواضح أنك سعيد بما فعله الآخرون، ولم توقف العديد من الوقاحات التى قاموا بها... وفي الحقيقة ما قاموا به نحوك لو كنت قد فهمت حقا تلك الوقاحات، لأننى ضيفك وقوانين الضيافة تفرض عليك حمايتى. اعتقد رجل أنه من الملائم إلقاء بعض الأشعار عنى، فلا يمكننى أن أقول عنها إلا أننى أُفضل أن أكون الموضوع أكثر من المؤلف. لقد سره أن يتكلم عنى بعدم احترام وأنا قس، وأرى أن وضعى ليس هدفًا للاحتقار، ولن أكون كذلك إلا إذا قمت بما يقلل من وضعى؛ لهذا أتمنى ألا تعتبروا الفقر سببًا لذلك. وقد ردَّد رجل آخر بعض الجُمل حيث ذكر فيها وضعى نفسه بعدم احترام، ويقول إن تلك الجُمل مأخوذة من مسرحيات، إننى متأكد أن تلك المسرحيات هى فضيحة للحكومة التى سمحت بها، ولعنة على الأمة التى تُمثل فيها تلك المسرحيات.

لن أعلق على الطريقة التى عاملنى بها الآخرون، فحينما يفكرون فى ذلك سيعتبرون هذا السلوك غير ملائم لسنى ووضعى الدينى، فلقد وجدتنى يا سيدى مسافرًا مع اثنين من أبناء أبرشيتى (أنا لا أبالى بالمطاردين التابعين لك الذين هجموا علىّ؛ حيث إننى أغفر لهم هذا تمامًا، سواء كان هذا عبثًا أو إهمالاً من المطاردين) إن مظهرى أقنعك تمامًا أن دعوتك لى صدقة، على الرغم من أننا فى الحقيقة نستطيع أن نعتنى بأنفسنا، فلو أمامنا مائة ميل سفر فإننا قادرون على تحمل نفقاتنا بكرامتنا".

عند تلك الكلمات أخرج نصف الجنيه الذى كان موجودًا فى السلة. "إننى لا أعرض لك هذا من باب تباهى الأغنياء، لكن لأقنعك أننى أقول الحقيقة. إنك قد أجلستنى على منضدتك، وهذا شرف لم أتظاهر به. فمنذ أن جئت هنا حاولت أن أتصرف معك بأقصى احترام، لو فشلت فلم يكن هذا بتدبير منى، وأنا لا أفعل هذا بالتأكيد، ولست مذنبًا حتى أستحق تلك الإهانات التى لقيتها. لو كانت دنيئة بالنسبة لوضعى وفقرى (وأنت ترى أننى لست فقيرًا للغاية) فأنا لا أقبل العار، وأنا أدعو بشدة أن تحول عنك الخطيئة". هكذا انتهى، وتلقى تصفيقًا عامًّا من الصُّحبة بأكملها. ثم قال له سيد المنزل أنه آسف لما حدث؛ حيث إنه لا يستطيع اتهامه بأية مشاركة فيه؛ وقد لاحظ جيدًا أن الأشعار سيئة جدا؛ بحيث إنه يستطيع أن يرد عليها بسهولة، والألعاب النارية كانت بلا شك إهانة كبيرة جدا فعلها به مدرس الرقص، فلو أنه قد سبب له مشكلة يستحقها سيكون سعيدًا جدا لرؤية تلك المشكلة (فمن المحتمل أن يكون قد قال الصدق).

أجاب أدمس: إن من فعلها ليست مهمته معاقبته بتلك الطريقة، حيث إنه قد اتهم، قال: "إننى شاهد، على براءته؛ فعينى عليه طوال الوقت، أيًّا كان يغفر الله له يمنحه قليلاً من الإنسانية". أجاب القبطان بنظرةٍ ونبرةٍ فظة: إنه تمنى لو لم يفكر فيه.

ولو قال أى شخص إنه لم يفعل ذلك سوف يقنعه بخطئه بقطع رقبته. قال أدمس وهو مبتسم إنه يعتقد أنه يتحدث بطريقةٍ صحيحة بالصدفة. فرد الكابتن على ذلك قائلاً: "ماذا تعنى بالتحدث بطريقة صحيحة؟ لو لم تكن قسًّا لما تقبلت تلك الكلمات؛ لكن رداءك يحميك. لو أى شخص يحمل سيفًا تحدث كثيرًا، لسحبته من أنفه أمام هذا".

أجاب أدمس إنه لو قام بأية وقاحة تجاهه فلن تحميه عباءته. وأمسك قبضته بإحكام، وقال إنه ضرب رجلاً أكبر منه حجمًا. قام الرجل بكل ما يستطيع لتشجيع نزعة الحرب فى أدمس، ويتمنى أن تنشب معركة لكن خاب أمله؛ لأن الكابتن لم يقل إلا: "إنك قس حسن جدا". ويشرب نخب كنيسة الأم العجوز، انتهى النزاع.

والطبيب الذى ظل صامتًا وقد كان أكثرهم وقارًا لكنه أكثرهم أذى، قد حيا أدمس بكلامٍ متسم بالأبهة إلى درجة كبيرة وإلى حدٍّ كبير ذم تصرفه. وواصل مدحه للكنيسة والفقر، وفى النهاية رجح غفران ما حدث لأدمس الذى أجاب على الفور أنه غفر كل شىء، وفى دفء طيبته ملأ كأسًا من البيرة المركزة (شراب يفضله عن الخمر) وشرب نخب الصحبة بأكملها، وسلم على الكابتن والشاعر بحرارة، وتحدث مع الطبيب باحترام شديد، والذى لم يضحك ظاهريًّا على أى شىء حدث؛ حيث إن لديه تحكمًا تامًّا فى عضلاته، ويمكنه أن يضحك فى نفسه دون أن يُظهر أقل علامات فى ملامحه.

بدأ الطبيب الآن خطابًا ثانيًا رسميًّا، وفيه تحدث عن خفة الروح فى الحديث وهو ما يسمى عادةً المرح. وقال هناك تسليات مناسبة لكل الأعمار والدرجات من الثرثرة إلى مناقشة نقطة فلسفية، وأن الناس قد اكتشفوا أن لهم اختيار تسلياتهم، قال: "حيث إنها تثير بدرجةٍ كبيرة توقعاتنا لسلوك الصبية فى المستقبل؛ ونحن ندرك وهم فى أعمارهم غيرِ الناضجة بدلاً من أن يلعبوا البلى أو الكرة أو ألعابًا صبيانية أخرى، أن يختاروا فى أوقات فراغهم أن يمارسوا قدراتهم العقلية فى قياس مهارتهم والتعلم وما شابه ذلك، لذلك يجب أن يوحى إليهم باحتقارٍ مساوٍ للشخص الذى نكتشفه يلعب البلية أو لعبة صبيانية أخرى".

أشاد أدمس برأى الطبيب بدرجة كبيرة وقال إنه يتعجب أحيانًا من بعض القطع فى المؤلفات القديمة حيث إن سيبيو Scipio، لاليوس Laelius، وبعض العظماء الآخرين قد تصوروا أنهم يمضون ساعات عديدة فى التسلية من أتفه نوع.

أجاب الطبيب إن لديه مخطوطًا يونانيًا قديمًا مسجلاً فيه التسلية المفضلة لسقراط. قال القس بشوقٍ إنه سيكون ممنونًا بدرجة لا حدَّ لها إذا سمح له بتفحصه.

فوعده الطبيب بإرساله إليه، وقال إنه يعتقد أنه يستطيع وصفه. قال: "أعتقد، أننى بقدر ما أتذكر، أنه كان هكذا، أنشأ عرشًا على أحد جوانبه يجلس ملك، وعلى الجانب الآخر ملكة وحراسهما وخدمهما مُصطفين على كلا الجانبين، تقدم لهم سفير، وهو جزء اعتاد سقراط تأديته، وحينما يصعد إلى العرش يخاطب الملكية بكلامٍ رزين مليء بالفضيلة والطيبة والدروس الأخلاقية وما شابه ذلك. بعد ذلك جلس بين الملك والملكة وتم استضافته بطريقةٍ ملكية.

أعتقد أن هذا الجزء الرئيسى، ربما أكون قد نسيت بعض التفاصيل؛ فقد قرأتها منذ وقتٍ طويل".

قال أدمس إنها حقا تسلية تستحق استجمام رجل عظيم، وأعتقد شيئًا مشابهًا لذلك يجب أن يحدث لعظمائنا بدلاً من لعب الورق أو تضييع الوقت فى شىء آخر تافه، حيث قيل له إنهم يبددون كثيرًا من الوقت فى حياتهم.

أضاف إن الديانة المسيحية هى أنبل موضوع لتلك الخطب بدلاً من أى شىء يخترعه سقراط.

وافق سيد المنزل على ما قاله أدمس، وقال إنه قرر أن يؤدى المراسم فى هذا المساء القريب. واعترض الطبيب على ذلك؛ حيث لم يَجّهز أحد بخطاب، قال "إلا إذا (مستديرًا إلى أدمس بملامح بها وقار وهى التى خدعت أكثر الرجال دراية) كانت لديك موعظةٌ جاهزة أيها الطبيب". قال أدمس "سيدى، إننى لا أسافر دون واحدة؛ خوفًا لما يمكن أن يحدث".

لقد أقنعه بسهولة بصديقه الكفء، حيث نادى الطبيب الآن لمباشرة الجزء الخاص بالسفير؛ لذلك أرسل الرجل بأوامر فورية لتأسيس العرش الذى تم بناؤه بعد أن شربوا زجاجتين من الخمر.

وربما لن يكون للقارئ فيما بعد سبب ليتعجب من نباهة الخدم. فى الحقيقة، إذا اعترفنا بالحقيقة أن العرش لم يكن سوى هذا، كان هناك مغطس الماء مجهزًا من كل جانب؛ حيث كان هناك مقعدان مرتفعان عن سطح المغطس، وفوق كل هذا بطانية، وعلى الكرسيين يجلس الملك والملكة، أعنى سيد المنزل والكابتن.

وتقدم الآن السفير (وهو أدمس) بين الشاعر والطبيب، حيث يقرأ موعظته لتسلية كل الحاضرين، وقد صَعِد إلى مكانه وجلس بين فخامتهما.

حينئذ نهضوا على الفور، فوقعت البطانية فى الماء؛ وابتل رأس وأذن أدمس بالماء. هرب الكابتن، لكن لسوء الحظ لم يكن سيد المنزل رشيقًا كما يجب، حيث أمسكه أدمس قبل أن ينزل من عرشه وسحبه معه فى الماء؛ وقد ابتهجت الصُّحبة كلها لذلك.

بعد أن غطس الرجل فى الماء مرتين أو ثلاثًا، وثب أدمس من المغطس ونظر بحدة للطبيب الذى نُقل بالتأكيدِ إلى نفس مكان الشرف، لكنه انسحب بحكمة ثم بحث عن عصاه، وحينما وجدها وأيضا وجد أتباعه؛ قال إنه لن يستطيع أن يمكث لحظة أطول فى هذا المنزل. فرحل دون أن يعلم مضيفه برحيله الذى قد انتقم انتقامًا أقسى مما نوى عليه، فهو لم يهتم بدرجةٍ كافية بتجفيف نفسه فى الوقت المناسب؛ فأخذ بالصدفة بردًا أدى إلى حمى كلفته حياته.

الفصل الثامن

بعض القراء سيعتقدون أنه مقتضب جدا،
والبعض الآخر يعتقدون أنه طويل جدا.

رحل أدمس وجوزيف، الذى غضب أكثر من صديقه بسبب المعاملة التى لقيها، كانت عصوانهما فى يدَيْهما، وقد حملا فانى على الرغم من معارضة الخدم الذين قد منعوهم بقوة، ورحلوا بأسرع ما استطاعوا دون أية مخاوف من ملاحقتهم؛ حيث إن السيد أدمس يمكنه بالممارسة منع أى أذى.

بمجرد أن سَمِع الرجل الذى أعطى تلك الأوامر لخدمه بما يخص فانى وكان لا يخشى تمامًا من فرارها على أقل تقدير، أنها هربت، أصيب بهياج وأرسل على الفور عدة أوامر، إما أن يحضروها أو لا يرجعوا.

ذهب بتلك الرسالة الشاعر والممثل والجميع، ما عدا مدرس الرقص والطبيب. كانت ليلةً مظلمة تمامًا، بدأ فيها أصدقاؤنا رحلتهم، وقاموا بتلك الرحلة، وسريعًا ما وصلوا إلى فندق يبعد سبعة أميال. هنا وافقوا بالإجماع على أن يمضوا المساء، حيث أصبح السيد أدمس جافًا كما كان من قبل بدء مهمته.

إن هذا الفندق الذى يمكننا فى الحقيقة أن نطلق عليه حانة لم تكن عليه لافتة مكتوبًا عليها "الفندق الجديد"، ولم يزودهم بمؤن إلا خبزًا وجبنًا وخمرًا؛ حيث كانت وجبة كافية جدا، فالجوع يجعل الطعام البسيط أفضل من الطهى الفرنسى.

بمجرد أن بدأوا يأكلون شكر أدمس الله على طعامهم قائلاً إنه أكل طعامه القليل برضا أكثر من عشائه الفاخر، وأبدى احتقاره الكبير لحماقة البشر الذين

يُضحون بآمالهم فى الجنة من أجل اقتناء ثروة شاسعة، على الرغم من أن الراحة موجودة فى أقل حالة من التواضع وأقل مؤن.

قال رجل وقور كان جالسًا بجوار المدفئة يدخن الغليون، وهو أيضا مسافر مثله: "هذا صحيح جدا، يا سيدى، لقد كنت مندهشًا كثيرًا مثلك حينما فكرت أن تَقييم البشرية عمومًا يكمن فى درجة الغنى، إلا أن خبرة كل يوم تُبين لنا كم هو قليل ما فى مقدورهم، فما الذى نرغب فيه حقا ويمكنهم منحه لنا؟ هل يمكنهم منح الجمال للمشوه أو القوة للضعيف أو الصحة للعاجز؟ بالتأكيد لو يستطيعون ذلك فلن نرى كثيرًا من الوجوه الذميمة تطارد تجمعات العظماء، ولا أعدادًا من التعساء الضعفاء تفتر هممهم فى مركباتهم وأماكنهم.

كلا، فحتى ثروة مملكة بأكملها لايمكن أن تُخفى قبح فتاة شاحبة فى مقتبل عمرها، ولا أية أدوية لعلاج سقم هذا الرجل الشاب.

ألا يسبب لنا الأغنياء القلق بدلا من أن يكونوا مصدرًا للراحة، والحسد بدلاً من الحب، والخطر بدلاً من الأمان؟ هل يطيلون فترة امتلاكهم للأشياء، أو يطيلون الأيام التى يستمتعون بها؟

فإلى حدٍّ بعيد إن الكسل والرخاء والاهتمام التى يشهدونها تُقصِّر حياة ملايين وتجعلهم فى ألمٍ وبؤس؛ مما يؤدى بهم إلى القبر سريعًا.

إذن فأين قيمتها إن كانت لا تهيئ ولا تقوى أشكالنا، ولا تهدئ ولا تطيل حياتنا؟

مرة ثانية هل يمكنها تزيين العقل بدلاً من تزيينها للجسد؟ ألا يملأون قلوبهم إلى حدٍّ ما بالغرور، وينفخون خدودهم بالتفاخر، ويسدون آذانهم لكل دعوة للفضيلة ويغلقون أحشاءهم لكل دافع للرحمة؟"

قال أدمس فى بهجة: "أعطنى يدك يا أخى، حيث إننى أعتقد أنك رجل دين".

أجاب الآخر: "لا، حقيقة" (فى الحقيقة، إنه كان قسًّا لكنيسة فى روما، لكن هؤلاء الذين يفهمون قوانيننا لن يتعجبوا لأنه لم يكن مستعدًّا للاعتراف بذلك).

قال أدمس: "أيًّا كنت، فلقد أبديت مشاعرى بدقة، وأعتقد أننى قد وعظت بكل لفظ من كلامك أكثر من عشرين مرة، حيث يبدو لى دائمًا سهلاً أن أزود بحبلٍ (وهى ترجمة صحيحة للكلمة التى نترجمها بـ "جَمَل") ليدخل عين إبرة أفضل من رجل غنى يدخل مملكة السماء".

قال الآخر: "هذا يا سيدى، سوف تحصل عليه بسهولة إذا تنبأت به، وهو للأسف صحيح، لكن بما أن التنبوء بمصلحتنا عن بعد لا يؤثر علينا بقوة، فربما يكون به بعض الفائدة للبشرية ليكون مُدركًا كليةً، حيث أعتقد أنه يجب أن يكون لديهم قليلٌ من التركيز، فحتى نِعَم هذا العالم لن يشتريها الأغنياء... فتلك عقيدة فى رأيى ليست عينية، لكن لو يمكننى القول يمكن إقامة الدليل عليه يقينًا؛ حيث إننى دائمًا مقتنع تمامًا بأننى ليس لدى ازدراء لشىء أكثر من الذهب".

بدأ أدمس الآن حديثًا طويلاً، لكن عادةً ما يقوله يظهر بين عديد من المؤلفين الذين تكلموا عن هذا الموضوع، وسوف أُسقط إدراجه.

أثناء استمراره فى الحديث آوى كلٌّ من جوزيف وفانى للراحة، وترك المضيف أيضا الحجرة. حينما انتهى القس الإنجليزى، استأنف القس الرومانى الحديث بذم ومرارة كبيرة، وفى النهاية أنهى حديثه طالبًا من أدمس تسليفه ثمانية عشر بنسًا؛ ليدفع حسابه، واعدًا إن لم يدفع له (فسوف يرد دينه بذكره فى صلاته دائما).

أجاب الرجل الطيب قائلا إن ثمانية عشر بنسًا ستكون قليلة للغاية لكى يقوم بأية رحلة طويلة؛ حيث إن لديه فى جيبه نصف جنيه، والذى سيتقاسمه معه.

ثم بدأ يفتش جيوبه لكنه لم يجد أية نقود، فقد لعبت المجموعة التى تناول العشاء معها دعابةً أخرى عليه، والتى لم نسردها بعد، أفرغوا جيبه من الكنز الذى أنتجه بتفاخر.

صاح أدمس قائلاً: "يا إلهى، مؤكد أننى قد فقدته، إننى لم أنفقه. سيدى حيث إننى مسيحيى فقد كان معى نصف جنيه كامل فى جيبى هذا الصباح، وليس معى الآن نصف بنى واحد منه. مؤكد أن الشيطان قد سلبه منى!!"

أجاب القس مبتسمًا: "سيدى، أنت لا تحتاج إبراز أية أعذار، فلو أنك لست مستعدًا لإقراضى النقود، فأنا راضٍ".

صاح أدمس قائلاً: "سيدى، لو لدى أكبر مبلغ فى العالم، لو لدى عشرة جنيهات فى المتناول سأمنحها جميعًا لأى مسيحيى فى محنة. إن خسارتى جعلتنى منزعجًا من أجلك أكثر من إنزعاجى لنفسى. أليس هو سوء حظ؟ لأننى لا أملك نقودًا فى جيبى، سيظن بى أننى لست مسيحيًا".

قال الآخر: "إننى سيئ الحظ أكثر منك، فلو أنك كريم كما تقول فالتاج (قطعة الجبن) الذى كنت ستمنحنى إياه سيجعلنى حقا سعيدًا، وينقلنى بسهولة إلى المكان الذى أنا ذاهب إليه، وهو لا يقل عن عشرين ميلاً، والذى سأصل إليه غدًا ليلاً. أؤكد لك أننى لست معتادًا أن أسافر مفلسًا. إننى فقط قد وصلت توًا إلى إنجلترا وقد أُجبرنا بسبب العاصفة على متن سفينتنا أن نُلقى كل ما نملكه من فوق المركب إلى البحر. إننى لا أشك سوى فى أن هذا الشخص سيأخذ كلمتى على أنها تفاهة، إننى أكن له ذلك، لكننى أكره الظهور بالوضاعة أكثر من الاعتراف بعدم وجود شلن لهؤلاء الأشخاص، وعديد آخرون أيضا يعرفون قليلاً من الاختلاف بين الشحاذ واللص".

على الرغم من أنه اعتقد أن عليه أن يتعامل مع المضيف هذا المساء بطريقة أفضل من الصباح المقبل، فقد عزم على أن يبدأ رحلته على الفور، على الرغم من الظلام، ووفقًا لذلك بمجرد أن رَجِع المضيف شرح له الموقف، وعلى ذلك أجاب المضيف قائلاً وهو يحك رأسه: "لماذا؟ إننى لا أعرف يا سيدى أنه كذلك وأنه لا يملك نقودًا، على أن أثق وأعتقد، على الرغم من أننى دائمًا يكون

لدى إلى حدٍّ ما نقود جاهزة إن استطعت، لكنك تبدو رجلاً أمينًا جدا فأنا لا أخاف من إعطائك النقود لى، لو كان هذا أكثر من عشرين مرة".

لم يرد القس، لكنه تركه هو وأدمس بأسرع ما استطاع، دون ارتباط، وربما رحل وبه شىء من عدم الثقة فى إخلاص أدمس.

بمجرد أن ذهب سقط المضيف هازًّا رأسه، وقال لو أنه شك فى أن الرفيق ليس لديه نقود لما أعطاه قطرة واحدة من الشراب، قائلاً إنه يائس حتى من رؤية وجهه ثانيةً، حيث يبدو أنه متشرد لعين.

صاح قائلاً: "لقد اعتقدت من خلال حديثه الكثير عن الأغنياء أن لديه على الأقل مائة جنيه فى جيبه".

وبخه أدمس على شكوكه؛ فقال إنه سيفقد مسيحيته. وبعد ذلك، ودون أن يفكر فى خسارته أو يفكر كيف سيرحل فى الصباح آوى إلى فراش بسيط للغاية مثلما فعل رفقاؤه من قبل، على الرغم من أن الشراب والتعب جعلهم يسترخون مثل أشجار المخمل التى تنحدر أغصانها.

الفصل التاسع

مغامرات دامية ومدهشة يمكن أن
توجد في هذه القصة، أو ربما
في أية قصة أخرى حقيقية.

كان النهار قد أصبح حينما فتح جوزيف أندروس عينيه التي هي أفكار عزيزته فاني، حيث إنه يرقد بولع يفكر في تلك المخلوقة الفاتنة، سمع خبطًا عنيفًا على الباب الذي هو مضطجع عليه، فقفز من فراشه على الفور، وفتح النافذة، فسئِل: ألا يوجد مسافرون في المنزل؟ وعلى الفور بصوتٍ آخر: هل أقام رجلان وفتاة هنا الليلة؟

على الرغم من أنه لم يعرف الأصوات، بدأ يشك في الحقيقة، حيث إنه قد تلقى بعض المعلومات من أحد الخدم في منزل الكابتن عن مكيدته، فأجاب بالنفي.

إن أحد الخدم الذي يعرف المضيف جيدًا ناداه باسمه بمجرد أن فتح نافذة أخرى وسأله نفس السؤال الذي أجاب عليه بالإثبات.

قال الآخر: "ياه، هل وجدناكم؟" وطلب من المضيف أن ينزل ويفتح بابه.

بمجرد أن سَمِعت فاني كل هذا – حيث إنها كانت مستيقظة مثل جوزيف – قفزت من فراشها وارتدت عباءتها ومعطفها، وجرت بأسرع ما يمكن إلى حجرة جوزيف الذي كان مرتديًا ملابسه تقريبًا.

فجعلها تدخل على الفور، وعانقها بأقصى عاطفة مليئة بالحنان، وقال لها أنْ لا تخف حيث إنه سيموت مدافعًا عنها.

قالت: "هل هذا مبرر يمنع خوفى، حينما أفقد شخصًا أعز علىّ من العالم بأكمله؟"

فقبّل جوزيف يديها قائلاً عليه أن يشكر الحادثة التى جعلته يرى الحنان الذى لم تغمره به من قبل.

فجرى وأيقظ شريكه فى الفراش أدمس الذى كان لا يزال مستغرقًا فى النوم على الرغم من نداءات جوزيف العديدة، لكنه بمجرد أن شعر بالخطر الذى يحيطهم قفز من فراشه دون تفكير فى وجود فانى التى سريعًا ما أدارت وجهها عنه وساعدها فى ذلك الظلام، فمنعت أية إهانة لبراءة أقل طهارة، أو تواضع أقل رقة، وأخفت التورد الذى ظهر على وجنتيها.

فسريعًا ما ارتدى أدمس ملابسه ما عدا بنطلونه الذى قد نسيه بسبب السرعة، على الرغم من أنهم زودوه جيدًا بكل ملابسه الأخرى، والآن فُتح باب المنزل ودخل الكابتن والشاعر، والممثل، وثلاثة من الخدم.

قال الكابتن للمضيف إن هناك شخصين فى المنزل قد هربا ومعهما فتاة، وهم يرغبون فى معرفة أية حجرة ترقد فيها.

قادهم المضيف الذى صدق القصة، وفى الحال تقدم الكابتن والشاعر وكلاهما يصطدم بالآخر.

دخل الشاعر الحجرة أولاً حيث كان أكثر رشاقة، وفتش الفراش وكل جزء آخر، لكن دون فائدة فقد طارت العصفورة، حيث إن القارئ الذى نفذ صبره وهو يتألم من أجلها أُحيط علمًا من قبل.

فسألوا أين يرقد الرجل، وقد اقتربوا من الحجرة حينما صاح جوزيف بصوتٍ عالٍ إنه سيطلق النار على أول رجل يُهاجم الباب.

سأل الكابتن ما هى الأسلحة النارية التى لديهم؟ فأجاب المضيف إنه يعتقد أنه ليس لديه شىء، وهو مقتنع بذلك حيث إنه سمع واحدًا يسأل الآخر فى المساء ماذا كانوا سيفعلون إذا لحق بهم الآخرون، حيث إنهم لا يملكون أسلحة، فأجاب الآخر إنهما سيدافعان عن نفسيهما بعصويْهما بقدر ما يستطيعون، والله سينصرهم نصرًا عادلاً.

اقتنع الكابتن بذلك، لكن لم يقتنع الشاعر الذى تراجع إلى الطابق الأول بحكمة قائلاً أن مهمته تسجيل الأعمال العظيمة وليس فعلها.

بمجرد أن أيقن الكابتن أنه ليست هناك أسلحة نارية عرض التحدى ببارود البندقية، وحلف أنه يحب رائحتها، وطلب من الخدم أن يتبعوه، ومشوا بجرأة وحاولوا على الفور اقتحام الباب، وسريعًا ما ساعده الخدم على اجتيازه.

وعندما فتح الباب وجدوا الثلاثة مصطفين، أدمس فى المقدمة وفانى فى المؤخرة. قال الكابتن لأدمس لو رجعوا إلى المنزل ثانيةً سيعاملون بطريقةٍ لطيفة، لكن إن لم يوافقوا سيأمر بأخذ الفتاة معه؛ فهناك سبب قوى يجعله يعتقد أنهم سرقوها من أبويها؛ حيث إن مظهرها وهيئتها التى لا تستطيع إخفاءهما كشفا بدرجةٍ كافية أن أصلها أعلى بكثير منهم.

انفجرت فانى فى البكاء، وأكدت له بوقار أنه مخطئ حيث إنها بائسة مسكينة وليس لها أى أقارب فى العالم، واندفعت راكعة على ركبتيها، وهى تترجاه أن لا يحاول أخذها من أصدقائها؛ حيث إنها مقتنعة أنها ستموت قبل أن يفقدوها، وأكد أدمس هذا بكلماتٍ ليست بعيدة عن الصحة.

أقسم الكابتن أنه ليس لديه وقت للتحدث، وطلب منهم أن يشكروا أنفسهم على ما حدث، وأمر الخدم أن يهاجموا، وفى نفس الوقت يحاولون أن يبعدوا أدمس من أجل الإمساك بفانى، لكن قاطعه القس فتلقى ضربةً من أحدهم التى دون أن يفكر من أين جاءت رجع إلى الكابتن، وأعطاه ضربة بارعة فى جزء من بطنه فى

الجزء الأعلى من البطن وهو الأكثر ألمًا، حيث إنه قد تمايل بضع خطوات للخلف. إن الكابتن لم يكن معتادًا على هذا النوع من اللعب، وفهم بحكمة عاقبة الضربة الثانية، واعتقد أن ضربتين من هذا النوع سيخترقان جسده، بمجرد أن اقترب أدمس منه موجهًا ضربة لرأسه والتى من المحتمل أن تسكت الواعظ للأبد، فى تلك اللحظة رفع جوزيف وعاء به حجارة ضخمة بيدٍ واحدة، لا يستطيع أن يرفعها ستة أفراد معًا، وأفرغها بمحتوياتها فى وجه الكابتن. سقطت الحمولة التى يحملها من يده منبطحة على الأرض بضوضاء كثيرة، وشخشخ نصف البنس فى جيبه، جرى السائل الأحمر الذى تحتوى عليه أوردته، والسائل الأبيض الذى يحتوى عليه الوعاء فى مجرى واحد وسال على وجهه وملابسه. ولم يهرب أدمس تمامًا، سالت بعض المياه فى مجراها، وكان لها شرف أن تسيل على رأسه وبدأت تسيل على التجاعيد أو إلى حدٍّ ما تغضن خديه، حينما خطف أحد الخدم ممسحة من دلو الماء التى قد أدت واجبها بالفعل فى تنظيف المنزل ودفعها فى وجه القس، ولم يستطع أن يغلبه؛ حيث إن القس قد انتزع الممسحة من الرفيق بيدٍ واحدة وباليد الأخرى ألقى الرفيق منبطحًا على الأرض، وضربه على هذا الجزء من الوجه حيث اتحدت الأنوف الطبيعة والصناعية لدى بعض الناس الذين يسعون وراء الملذات.

حتى الآن يبدو أن الحظ يجعل النصر لصالح المسافر طبقًا لعادتها، وبدأت تُبدى تقلب ميولها؛ حيث دخل المضيف الآن المعركة أو إلى حدٍّ ما حجرة المعركة، وطار إلى جوزيف مباشرةً ودفع رأسه كالسهم فى بطنه (حيث إنه كان رفيقًا قويًا، وملاكمًا ذا خبرة بالملاكمة) فجعله إلى حدٍّ ما يترنح، لكن تراجع جوزيف خطوةً واحدة وبيده اليسرى قذفه تحت ذقنه حتى أصيب بدوار.

لاحق الشاب ضربته بيده اليمنى، حينما تلقى من أحد الخدم ضربة بعصا على هيكله حيث سلبته فى الحال من شعوره ووقع مستلقيًا على الأرض.

شَقَّت فانى الهواء بصرخاتها، وأتى أدمس لمساعدة جوزيف، لكن سقط عليه الآن خادمان والمضيف وسريعًا ما قهروه، على الرغم من أنه حارب مثل المجنون

وبدا متسخًا تمامًا بالانطباعات التى تركتها عليه الممسحة، حيث بالتأكيد سيظن دون كيثوت Don Quixote أنه بربرى فاتن.

لكن لنتابع الآن أكثر الأجزاء مأساة؛ حيث نهض الكابتن مرة ثانية، وحينما رأى جوزيف على الأرض وأدمس متحررًا من الخطر؛ أمسك فانى على الفور، وبمساعدة الشاعر والممثل، حيث سمعا أن المعركة قد انتهت؛ فأتيا الآن وهما يسحبانها تصرخ وتمزق شعرها من منظر جوزيف، وبعدم إصغاء تام لكل توسلاتها حملوها بعنف وربطوها على حصان الممثل، وركب الكابتن حصانه وقاد الحصان الذى كانت عليه البائسة التعيسة، ورحلوا دون أى تفكير فى صرخاتها، كما لو كان جزارًا حصل على حَمَل، ففى الحقيقة إنه كان يفكر فقط فى المكافأة التى وعده بها الفارس عند نجاح تلك المغامرة. الخدم الذين أمروا بالتكفل بأدمس وجوزيف حتى لا يتلقى الفارس مقاطعة لمكيدته بفانى المسكنية، وعلى الفور بنصيحة من الشاعر، ربطوا أدمس فى أحد عمدان الفراش، وفعلوا ذلك مع جوزيف على الجانب الآخر، وبمجرد أن غلوهما وتركوهما معًا ظهرًا إلى ظهر، طلبوا من المضيف ألا يحررهما حتى لا يلحقا بهم إلى أن يعطوه أوامر أخرى، ورحلوا تجاه سيدهم، لكن تصادف أنهم اتخذوا طريقًا مخالفًا للطريق الذى اتخذه الكابتن.

الفصل العاشر

حديثٌ بين الشاعر والممثل ليس له فائدة فى هذه القصة، وإنما هو لتسلية القارئ.

قبل أن نكمل أية تفاصيل فى تلك المأساة، سنترك السيد جوزيف والسيد أدمس معًا ونحاكى مخرجى المسرح الحكماء؛ حيث إنهم فى منتصف التمثيل الرزين يُسلونك ببعض القطع الممتازة من الهجاء أو الدعابة التى تتم من خلال الرقص.

وهى قطعةٌ راقصة، ولا يمكن التحدث بها، حيث يُلقيها للجمهور أشخاص قدرة تفكيرهم تبقى فى بعض الأشخاص لتتمدد فى كعوب أقدامهم، ولهم وللأبطال الذين يفكرون بأيديهم، فقد أعطت الطبيعة الرءوس من أجل الانسجام فقط، وهم مستفيدون من الرقص ليظلوا مرتدين قبعاتهم.

خاطب الشاعر الممثل بهذه الطريقة: "كما كنت أقول (حيث إنهما كانا فى هذا الحديث منشغلين طوال الوقت بالهجاء المذكور آنفًا) السبب أنه ليس لديك مسرحيات جديدة تكون مشاهدة وذلك من عدم تشجيعك للمؤلفين. إن الرجال يا سيدى لن يكتبوا، إنهم لن يكتبوا دون ترقب السمعة أو الكسب أو ربما كليهما.

إن المسرحيات مثل الأشجار التى لن تنمو دون غذاء، لكن مثل المشروم (نبات يظهر فجأة ويتكاثر بسرعة) إنهم ينتقلون فورًا كما لو كانوا فى تربة غنية. إن التأملات مثل النباتات المغترسة سيقانها ويمكن أن تُقلَّم لكن ليس بفأس.

إن المدينة مثل الطفل العنـ يعرف ما ليس مرغوبًا، وأحسن ما يُسعده دائمًا سخشخة. إن كُتاب المسرحية الهزلية لهم حقا فرصة للنجاح، لكنهم فقدوا كل ميول السمو. على الرغم من أننى أعتقد أن السبب الوحيد لفسادهم هو سوء الممثلين. لو أن هناك رجلاً يكتب مثل الملاك يا سيدى، فلن يعرف هؤلاء الأشخاص كيف يعطون تعبيرًا وجدانيًا".

قال الممثل: "ليس بهذه السرعة، فممثلو العصر الحديث بنفس كفاءة مؤلفيهم، بل إنهم أقرب من سالفيهم المشاهير، وأنا أتوقع ممثلاً فى توجيه بوث Booth على المسرح مرة ثانية أسرع من شكسبير Shakespeare أو أوتواى Otway ، وأنا فى الحقيقة أستطيع تحويل ملاحظتك ضدك وبصدق، أقول إن السبب هو أنه لا يوجد تشجيع للممثلين لأننا ليس لدينا مسرحيات جديدة".

قال الشاعر: "إننى لم أثبت العكس، لكننى مندهش من أنك أصبحت متحمسًا للغاية، فأنت لا تستطيع تخيل نفسك مهتمًا بذلك النزاع، أتمنى أن يكون لك رأى أحسن من ذوقى بدلاً من التفكير فى أننى قد انحرفت عنك.

لا يا سيدى، لو لدينا ستة ممثلين مثلك كنا نستطيع أن ننافس بيترتونس Bettertons وساندفوردس Sandfords فى العصور السابقة، فبدون مجاملتك أعتقد أنه من المستحيل لأى شخص أن يفوقك فى أغلب أدوارك.

ليس هذا فحسب، إنها حقيقةٌ واضحة، ولقد سمعت الكثير، وكل النقاد العظماء يعبرون عن نفس الرأى، وأنت ستعذرنى لو قلت لك إننى أعتقد أن فى كل مرة رأيتك فيها مؤخرًا تزداد مهارة مثل كرة الثلج. لقد غيرت فكرتى للكمال حيث تفوقت على ما كنت أعتقد أنه لا يُضاهى".

أجاب الممثل: "إنك لم تهتم كثيرًا، بما قلته عن الشعراء الآخرين، فلعنة علىَّ إن لم يكن هناك العديد من الأعمال، فالمَشاهد بأكملها فى عملك التراجيدى الأخير على الأقل على نفس مستوى شكسبير Shakespeare . فيها رهافة الوجدان، وسمو التعبير، حيث سأعترف بأن عديدًا من رجالنا لم يعدلوا تجاهه بطريقة ملائمة.

ولنعترف بالحقيقة إنهم سيئون إلى حدٍّ كبير وأنا أشفق على الكاتب الذى يحضر فشل إفساد أعماله".

قال الشاعر: "إنه كذلك، لكن من النادر أن يحدث ذلك. إن أعمال أغلب مُؤلفى العصر الحديث مثل الطفل المولود ميتًا، لا يمكن قتله، إنه هذا البائس، لا حيلة فيه، مكتوب بنصف موهبة ولا روح له ووضيع، إنها أعمالٌ سيئة، وأنا أُشفق على الممثل الذى يُجبر على حفظها عن ظهر قلب، لأنها ستكون صعبة بنفس صعوبة حفظ كلمات بلغة لا تفهمها.

قال الممثل: "إننى متأكد، لو أن الجمل لا تحمل معنى كبيرًا عند كتابتها، وعند التحدث بها سيكون المعنى أقل. نادرًا ما أجد شخصًا يستطيع أن يؤكد المعنى فى المكان الصحيح ويُكيف تمثيله مع شخصيته. لقد رأيت حبيبًا رقيقًا فى شجار مع سيده، وبطلاً شجاعًا يتودد لعدوه وسيفه فى يده. إننى لا أحب أن أنتقد مهنتى، لكن مهما حدث فأنا لا أتفق مع وجهة نظر الشاعر".

قال الشاعر: "إنه كرم فيك أكثر مما هو عدل، وعلى الرغم من أننى أكره التحدث بطريقة سيئة عن إنتاج أى شخص، فأنا لم أفعله ولن أفعله، لكن لكى أكون عادلاً مع الممثلين، ماذا كان يمكن أن تصنعه بوث Booth أو بيترتون Betterton لتلك الأعمال البشعة مثل ماريا من أحد أعمال فينتون Fenton ، وفيلوتاس Philotas أحد أعمال فرود Frowde أو أيورديس Eurydice أحد أعمال ماليت Mallet ، أو تلك الخطب الوضيعة القذرة، حيث إن شخصًا فى مدينة وابينج، ديلو Dillo أو ليلو Lillo ما كان اسمه يطلق عليها تراجيديا؟

قال الممثل: "حسنًا، وأرجوك ماذا تظن بهؤلاء الأشخاص مثل ديلان Delan، وكوين Quin أو هذا الوجه الذى يبدو كالكلب الصغير، ماكلين، أو السيدة كليف الوقحة القذرة؟ ما الذى سيفعلونه مع شكسبير، وأوتواى Otway، وليس Lees؟ كيف تنطق ألسنتهم تلك السطور المتناغمة؟

"ليس هناك الكثير الذى أترفع عنه
فكل إعجابك بفنك... يبعد عنا ضجة
الملوك والأمراء، فأرواحهم الرقيقة
غيرتها أقدارنا الطيبة التى توجهت إلى طريقٍ آخر
حرة مثل طيور الغابات سنحلق معًا
دون أن نتذكر من هم آباؤنا
نطير إلى الأغصان، والكهوف، والأراضى الخضراء المليئة بالورود
هناك ومن خلال الهمهمة الرقيقة نتبادل أرواحنا
نشرب معًا شرابًا صافيًا من جدول الماء
أو نتذوق الفاكهة الصفراء التى أثمرها الخريف
وحينما ينادينا المساء الذهبى لنعود إلى منازلنا
نطير إلى عششنا اللينة، وننام حتى الصباح.
كيف يكون هذا ازدراء أوتواى Otway ...
من سيطلق على هذا الأحمق الخسيس رجلاً؟"

قال الشاعر: "انتظر، انتظر، انتظر، هل تردد تلك الكلمات الرقيقة فى الفصل الثالث من مسرحيتى التى جسدت فيها شخصية مبهرة؟"

قال الممثل: "إننى مستعد، لكننى قد نسيتها".

صاح الشاعر قائلاً: "آه، إنك لم تكن كفؤاً بدرجة كافية تمامًا فيها حينما مثلتها، أو كنت نلت تصفيقًا لم يحدث قط على خشبة المسرح، إنه تصفيق تضايقت كثيرًا لأنك لم تنله".

قال الممثل: "مؤكد، إذا ما كنت أتذكر فقد استُهجن ذلك أكثر من أية قطعة في المسرحية بأكملها".

قال الشاعر: "آه، إن الاستهجان كان بسبب الغرابة التى عبرت بها عن هذا الجزء".

قال الممثل: "طريقة تعبيرى؟"

قال الشاعر: "أعنى أنك لم تعبر عنه، بمجرد خروجك عبروا هم باستهجانى".

قال الممثل: "هم عبروا عنه بالاستهجان، ثم كنت قد تركت خشبة المسرح، لو أتذكر، علىّ أن أقول هذا لنفسى، فالجمهور بأكمله اعترف أنى أديت دورى جيدًا ولاتلق انتقاد مسرحيتك علىّ".

أجاب الشاعر: "إننى لا أعرف ما تقصده بالانتقاد".

صاح الممثل: "لماذا؟ إنك تعلم أنها قُدمت على المسرح ليلةً واحدة فقط".

قال الشاعر: "كلا، أنت والمدينة بأكملها كنتم أعداء، كل الجزء الخلفى من المسرح أعدائى، أشخاص سيقطعون حنجرتى إن لم يمنعهم الخوف من العقاب. كل حائكى الملابس يا سيدى، كل حائكى الملابس".

قال الممثل: "لماذا سيغضب منك حائكو الملابس؟ أعتقد أنك لا تستعين بالعديد فى حياكة ملابسك".

أجاب الشاعر: "سأقبل دعابتك، لكنك تتذكر الموضوع مثلى. إنك تعرف أنه كان هناك مجموعة فى الجزء الخلفى من المسرح وصالة العرض العليا لن يسمحوا بعرضه ثانيةً، على الرغم من أن الأغلبية التى لا نهاية لها، وكل مقصورات المسرح على الأخص كانوا يرغبون فيه، بل معظم السيدات أقسمن أنهن لن يعدن إلى المسرح إلا إذا مثلت المسرحية مرة أخرى، فى الحقيقة، علىّ أن

أعترف أن سياستهم كانت سببًا فى عدم عرضه مرة ثانية، حيث علِم الأوغاد أنه لو عُرض ليلةً ثانية، سيعرض خمسين مرة، فلو كان هناك قلق فى التراجيديا... لم أكن مغرمًا بأدائى، لكن إن كان يجب علىّ أن أخبرك ما هو أحسن حكم قِيل فيه... ولم يكن هذا تبعًا لأعدائى مطلقًا، ولا لأنه نجح على خشبة المسرح وأيضا وسط القُراء المهذبين، حيث إنك لن تستطيع القول إن به تقديرًا أدَّاه المؤدُّون".

أجاب الممثل: "أعتقد، أن المؤدين قاموا بخطورة التقدير؛ حيث إننا كنا فى محنة كافية؛ حيث قُذفوا بالبرتقال فى كل الفصل السابق وتخيلنا أنه سيكون آخر فصل فى حياتنا".

حاول الشاعر الذى ثار غضبه أن يُجيب - حينما قُطع حديثهم - فانتهت محادثتهم بالصدفة، حيث لو نفد صبر القارئ لمعرفة حديثهم فعليه أن يثب إلى الفصل التالى، وهو نوع مكمّل لهذا، ويحتوى على بعض الأمور التى هى من أحسن وأهم الأمور فى الباب كله، ألا وهى محادثة بين القس إبراهام أدمس والسيد جوزيف أندروس.

الفصل الحادى عشر

نصائح من القس أدمس لصديقه
فى حزنٍ وأسى، والهدف منها تعليم القارئ.

بمجرد أن تنبه جوزيف إلى نفسه وأدرك أنه فقد فتاتة؛ ندب فقدانها بتأوهٍ لا يدركه أى قلب من قلوب بعض الناس، فقلبه له تركيبة معينة لا يشبه حجر القداحة الذى تطل منه النار لا فى صلابته ولا فى الصفات الأخرى، وهى النار التى ستندفع عبر أعينهم، لكنهم لم يسقطوا قطرةً واحدة من الماء بنفس الطريقة.

إنه شاب مسكين له أرق بنية، وعند تلك الكلمات: "آه، عزيزتى فانى، حبيبتى لن أراك ثانية؟" تفيض عيناه بالدموع، وهو شىء لايناسب أى شخص سوى بطل.

بالاختصار، إن تخيل يأسه أوضح من روايته.

بعد تأوهات عديدة بدأ السيد أدمس الجالس إلى ظهر جوزيف يقول بصوتٍ محزن: "إنك لا تتخيل يا صغيرى أننى ألوم تلك الآلام الأولى من أحزانك، فحينما تهاجمنا المحن فجأةً، فإنها تتطلب علمًا لا نهاية له بدلاً من أن تُتقن مقاومتها، لكنها مهمة الرجل المسيحى، أن يستدعى سببًا يساعده بأسرع ما يمكنه، حيث إنها ستُعلِّمه الآن الصبر والخضوع.

لذلك، استرح يا صغيرى إننى أقول استرح. حقا إنك قد فقدت أجمل وأطيب وأرق وأفتن فتاة، وهى التى كان من المتوقع أن تعيش معها فى سعادة وطهارة وبراءة، والتى قد وعدت نفسك من أجلها بالعديد من الأشياء المحببة والمريحة

لسنك. إنك لم تفقدها فقط، لكن لديك سبب لتخاف من الأذى الذى سيصيبها بسبب الشهوة والعنف.

في الحقيقة، يمكنك الآن بسهولة أن تُثير فى نفسك أفكارًا مرعبة يمكن أن تقودك إلى اليأس".

صاح جوزيف قائلاً: "آه، سأُصاب بالجنون. آه، لو أستطيع السيطرة على يدى كى أمزق عينىّ وأنتزع لحمى".

أجاب أدمس: "لو تستطيع استخدامها فى تلك الأغراض، إننى سعيد أنك لا تستطيع، لقد عبرت عن محنتك بأقوى تعبير لدى، لكن من جانبٍ آخر يجب أن تتذكر أنك مسيحى، فلا تحدث لنا حادثة إلا وتكون إرادة إلهية، وعلى الرجل المسيحى أن يخضع لها.

إننا لم نخلق أنفسنا، لكن نفس القوة التى صنعتنا تُسيطر علينا، وإننا تحت تصرفها المطلق، يمكنه أن يفعل بنا ما يسعده وليس لنا أى حق فى الشكوى.

سبب ثانٍ يمنعنا من الشكوى، هو جهلنا بالأحداث المستقبلية، فلا يمكننا تخمين الغرض من حادثةٍ ما، وهو ما يُهددنا فى البداية بشرٌ، وفى النهاية يكون فى مصلحتنا. فى الحقيقة، كلُ ما يمكننى قوله هو أن جهلنا مضاعف (لكننى لن أنشق فى الوقت الحاضر على نحوٍ لائق) حيث كما نعلم ليس لأى غرض يوجه الحدث مطلقًا، لذلك فلا نستطيع أن نثبت من أى سبب نشأ أصلاً.

إنك بشر وبالتالى فإنك مذنب، وربما يكون هذا عقابًا على خطاياك، فى الحقيقة من هذا المنطق يمكن أن يعتبر خيرًا كبيرًا يُرضى غضب السماء ويتجنب هذا الغضب الذى لا يمكن أن يستمر دون تدميرنا.

ثالثًا: إن عجزنا يُخفف عنا ويوضح حماقة وسخافة شكوانا التى إما أن نقاومها أو نتذمر بسببها؛ فرماحها قوية، وليس هناك درع يمكن أن يحمينا منها، وليست هناك سرعة يمكن أن تهرب منها، قوة لا تترك لنا أملاً إلا فى الخضوع والاستسلام".

قال جوزيف: "آه، سيدى، إن هذا كله صحيح جداً، وجميل جداً، ويمكنني سماعك طوال اليوم إن لم يكن قلبى حزيناً كما أنا الآن".

قال أدمس: "أترغب فى أخذ دواء حينما تكون على ما يرام، وترفضه حينما تكون مريضاً؟ إنه ليس مريحاً أن تُبتلى بالحزن وليس لهؤلاء المبهجين أو هؤلاء الذين فى طمأنينة".

رد جوزيف: "آه، إنك لم تقل كلمة واحدة عن راحتى حتى الآن".

صاح أدمس: "لا! إذاً ما الذى أفعله؟ ما الذى يمكنني قوله لإراحتك؟"

قال جوزيف: "أخبرنى، أن فانى ستهرب وترجع إلىّ، إنهم سوف يَحبسون ثانيةً تلك المخلوقة الجميلة برقتها وطهارتها".

قال أدمس: "لماذا، ربما يمكنك، لكننى لا أستطيع أن أعدك بما سيحدث. يمكنك انتظار الحدث باستسلام تام، لو عادت إليك ثانيةً فواجبك أن تكون شاكراً وأيضا إن لم ترجع. جوزيف لو أنك حكيم وتعرف مصلحتك حقا فإنك ستخضع بهدوءٍ وسلام لتدابير العناية الإلهية، حيث إنك تأكدت تماماً أنه مهما كانت المحن التى تحدث للصالحين فهى تحدث لهم من أجل صالحهم.

فليس من مصلحتك فقط، لكن واجبك أن تكف عن حزنك المفرط، فلو انغمرت فيه فلن تستحق أن تكون مسيحيًا". قال تلك الكلمات الأخيرة بنبرةٍ أكثر قسوة من المعتاد، وعلى ذلك طلب منه جوزيف ألا يغضب، قائلاً إنه مخطئ إن اعتقد أنه ينكر واجبه، حيث إنه يعرف هذا منذ زمن طويل.

قال أدمس: "ما قيمة معرفتك بواجبك إن لم تكن تؤديه؟ إن معرفتك تُزيد من ذنوبك. آه جوزيف إننى لم أعتقد أنك عنيد هكذا".

أجاب جوزيف إنه يظن أنه يسيء فهمه: "حيث، أؤكد لك، إنك تفعل لو تتخيل أننى أحاول إحزان نفسى، إننى لا أفعل ذلك".

وبخه أدمس على الألفاظ التى استخدمها، ثم واصل الإسهاب فى حماقة الحزن، قائلاً له إن كل الحكماء والفلاسفة حتى الأوثان كتبوا ضده، مقتبسًا عدة قطع من سينكيا Seneca، والعزاء The consolation ، والتى على الرغم من أنها لم تكن أحد أعمال سيسرو Cicero كانت كما يقول جيدة مثل أى عمل من أعماله، وأنهى كل هذا بالإشارة إلى أن الحزن المُفرط فى هذه الحالة يمكن أن يثير سخط تلك القوة وهى وحدها التى تستطيع أن تُعيد له فاني.

إن هذا السبب أو فى الحقيقة تلك الفكرة التى نشأت عن استعادة حبيبته كان لها تأثير أكثر من كل ما قاله القس من قبل، وهدأت آلامه لحظةً لكن وضعت مخاوفه بدرجةٍ كافية أمام عينيه الخطورة التى كانت فيها تلك المخلوقة المسكينة، عاد حزنه مرة ثانيةً بعنفٍ متكرر، ولم يستطع أدمس تهدئته، على الرغم من أنه يمكن الشك بالنيابة عنه إن كان سقراط نفسه استطاع أن ينشر أى شيء أفضل.

ظلا فى صمتٍ لبعض الوقت، وصدرت منهما تأوهات وتنهدات، فى النهاية انفجر جوزيف قائلاً تلك المناجاة:

"نعم، سأتحمل أحزانى كالرجل

لكننى أيضا سأشعر بها كالرجل

إننى لا أستطيع لكننى أتذكر أشياء مضت

وكانت أشياء عزيزة علىّ".

سأله أدمس ما هذا الكلام الذى ردده، فأجاب إنها بعض السطور التى يقولها عن ظهر قلب من مسرحية.

فأجاب: "لا يوجد شيء سوى الوثنية التى يمكن تعلمها من المسرحيات"، إننى لم أسمع قط عن أية مسرحية ملائمة لمسيحى ليقرأها سوى كاتو Cato، وعى المحبين the conscious lovers وعلىَّ أن أعترف أن الأخيرة بها أشياء مهيبة بدرجةٍ كافية لتكون موعظة".

لكننا سنتركهما الآن قليلاً ونستفسر عن موضوع محادثتهما.

الفصل الثانى عشر

مغامرات كثيرة نأمل أن تُسعد القارئ
وتنال إعجابه.

لم يعوض الحوار الظريف الذى دار بين الشاعر والممثل ولا حديث السيد أدمس المهيب، القارئَ عن القلق الذى يشعر به من أجل فانى المسكينة التى تركها فى حالةٍ باعثة للأسى.

لذلك، سنواصل الآن رواية ما حدث لتلك العذراء الجميلة الطاهرة بعد أن وقعت فى أيدى الكابتن المؤذية.

نقل رجل الحرب جائزته الخلابة خارج الفندق قبل طلوع النهار بقليل، وقام بأقصى سرعة فى استطاعته بالتوجه إلى منزل الكابتن؛ حيث ستكون تلك المخلوقة الرقيقة ضحية لشهوة المغتصب. إنه لم يكن أصم فقط لعويلها وتوسلاتها فى الطريق لكنه بادر إلى إيذائها بكلماتٍ بذيئة لم تعتد عليها من قبل، ولحسن حظها أنها لم تفهم إلا قليلاً منها.

فى النهاية غيَّر تلك النغمة، وحاول أن يلاطفها بإظهار الرفاهية والأبهة التى ستكون من حظها مع رجل لديه الرغبة والسلطة؛ ليعُطيها أقصى ما تتمناه، وقال لها إنه لا يشك إلا فى أنها ستصبح ألطف معه؛ حيث إنه هو الباعث لسعادتها، وتحتقر هذا الشخص البذىء حيث إن غباءها هو الشىء الوحيد الذى يجعلها تغرم به.

أجابت إنها لا تعرف من الذي يقصده، فهي لم تغرم بأي شخص حقير.

قال: "هل أهنتكِ، يا سيدتي، حينما أطلقت عليه ذلك؟ لكن هل هناك أفضل من ذلك يمكن أن يُطلقَ علي واحد في زي الخدم على الرغم من إعجابك به؟"

ردت بأنها لا تفهم ما يقصده وأن هذا الرجل زميلها من الخدم، وهي تعتقد أنه مخلوق أمين مثل أي شخص، لكن بالنسبة لحب الرجال، صاح الكابتن: "أتعهد لك، أننا سنجد وسائل لإقناعك لكي تقعي في الغرام، وأنصحكِ أن تستسلمي للأسلوب اللطيف، حيث سيثْبُتُ لك أنه ليس في سلطتك أية مقاومة مهما كانت أن تحتفظي بعذريتك أكثر من ساعتين. من مصلحتكِ أن توافقي؛ حيث إن الفارس سيكون ألطف معكِ إذا استمتع بكِ برغبتك بدلاً من استخدام القوة".

عند تلك الكلمات بدأت تنادي بصوتٍ عالٍ للمساعدة (حيث كان الآن النهار ظهرًا) لكنها لم تجد أحدًا فرفعت عينيها إلى السماء وتضرعت للمساعدة الإلهية أن تحفظ طهارتها.

قال لها الكابتن إن أصرت علي صياحها سيجد وسيلة لإيقاف فمها. وأدركت الآن البائسة المسكينة أن لا أمل في المساعدة، فاستسلمت لليأس وتنهدت ناطقةً اسم جوزيف! جوزيف! وذرفت عيناها بنهرٍ من الدموع على خديها الجميلين وبللت منديلها الذي غطى صدرها.

ظهر الآن فارس على الطريق، وعلى ذلك هددها الكابتن بعنف إذا اشتكت، على الرغم من ذلك في لحظة اقتراب كليهما توسلت إليه بأقصى جدية أن ينقذ مخلوقة مكروبة في أيدي مغتصب.

توقف الشخص عند تلك الكلمات، لكن أكد له الكابتن أنها زوجته، وهو يأخذها إلى منزلها من عشيقها، وأرضى ذلك الشخص الذي كان عجوزًا (وربما متزوجًا أيضا) وتمنى له رحلة طيبة وانطلق. بمجرد أن مضى؛ آذاها الكابتن بعنف لأنها عصت أوامره وهددها بتكميم فمها حينما أتى أكثر من فارس مسلح بالمسدسات وقد أتوا على الطريق أمامهم مباشرة.

توسلت مرة ثانية كى يساعدوها، وقال لهم الكابتن نفس القصة السابقة. وعلى ذلك قال أحدهما للآخر "إنها عاهرة خلابة، يا جاك: أتمنى لو كنت مكان هذا الرجل أيًّا كان هو".

لكن بدلاً من أن يجيب الآخر صاح قائلاً: "يا إلهى إننى أعرفها". ثم التفت ناحيتها قائلاً: "أكيد ألست فانى جوديل؟"

قالت فانى: "فى الحقيقة، فى الحقيقة أنا، آه، جون، لقد عرفتك الآن، إن السماء أرسلتك إلىَّ لمساعدتى لتخلصنى من هذا الرجل الشرير الذى يحملنى لأجل أغراضه الدنيئة، أرجوكم أنقذونى منه".

نشب على الفور حوار عنيف بين الكابتن وهذين الرجلين، وهما مسلحان بالمسدسات، ووصلت الآن المركبة التى كانوا ينتظرونها. رأى الكابتن أن القوة والخدعة غير مجدية، وحاول أن يهرب لكنه لم ينجح.

أمر الرجل الذى يركب فى المركبة بالتوقف، وبثقة تفحص وقائع المشكلة التى أعلنتها فانى، حيث أكد صدقَها الشخصُ الذى يعرفها، لقد أمر الكابتن الذى كان مطلخًا بالدم بسبب مناوشته فى الفندق أن يُنقل على أنه سجين خلف المركبة، وأخذ فانى بشهامةٍ بالغة داخل المركبة لتقول الحقيقة، إن هذا الرجل (الذى لم يكن سوى السيد بيتر بونس الشهير الذى سبق السيدة بوبى ببضعة أميال فقط حيث بدأ الرحلة مبكرًا فى الصباح) كان شخصًا شهمًا للغاية وكان يحب الفتاة الجميلة أكثر من أى شىء، علاوةً على ماله الخاص أو مال الناس الآخرين.

واصلت المركبة الآن رحلتها إلى الفندق، حيث علِمت فانى أنه فى طريقهم، حيث وصلت فى هذا الوقت الذى يتشاجر فيه الممثل والشاعر تحت السُّلم، ويتحدث كل من أدمس وجوزيف معًا فى الطابق الأعلى، وظهر كل منهما إلى الآخر، بالضبط فى نفس اللحظة حيث رأيناهما معًا فى الفصلين السابقين، توقفت المركبة أمام الباب، وفى لحظة قفزت فانى منها وجرت إلى أعلى حيث كان جوزيف.

آه، تخيل أيها القارئ السعادة التى اشتعلت فى صدر الحبيبين عند هذا اللقاء، ألم يساعدك قلبك فى التعاطف مع هذه الفكرة؟ إننى أشفق عليك فعلاً أكثر مما أشفق على نفسى، فاترك الوغد ذا القلب القاسى يعرف ذلك، فهناك سعادة فى الإحساس الرقيق أكثر مما يكون قادرًا على تذوقها.

عَلِم بيتر من فانى بوجود أدمس؛ فتوقف ليراه ويتلقى ثناءه، وكان بيتر منافقًا، وهو نوعية من الناس لم يستطع أن يفهمها، وهو الشخص الذى يُبدى هذا الاحترام لطيبته، حيث اعتقد الآخر أنها تظهر بسبب ثروته، وكان السيد أدمس من أصدقائه المفضلين فقد أقرضه مرة أربعة جنيهات وثلاثة عشر شلنًا وستة بنسات؛ لكى يمنع دخوله السجن، لم يكن هناك ضمان أكثر من كفالة وحكم حيث من المحتمل أنه لم يستفد من النقود على الرغم من أن النقود لم تدفع (كما كانت) فى الوقت المحدد تمامًا.

ربما ليس من السهل وصف مظهر أدمس؛ فقد نهض بسرعة فلم يرتد البنطلون ولا جواربه ولا رباط جواربه، ولم يتخلص من المنديل الأحمر الذى كان على رأسه، الذى يربط به شعره فى المساء، فقد لفه حول رأسه.

كان مرتديًا رداءه الممزق، ومعطفه وباقى ردائه معلق تحت معطفه، فبدا ذلك كأنه تقليمةٌ صغيرة من الأبيض أو إلى حدٍّ ما كتاب ضارب إلى البياض؛ ويمكننا إضافة عدة ألوان إليه تظهر على وجهه، حيث ساعدت لحية طويلة محترقة فى استعادة السائل الذى فى الوعاء الملىء بالحجارة، وهذا المظهر الأكثر سوادًا الذى تساقط من الممسحة.

هذا الشبح الذى خلصته فانى من أسره لم يكن إلا بيتر، فطلب منه أن يعيد ترتيب مظهره وينظف نفسه ، ولن يقبل منه أى ثناء وهو فى تلك الورطة.

بمجرد أن رأى الشاعر والممثل أن الكابتن قد أُسر؛ بدآ يفكران فى تأمين نفسيهما فكان الهروب هو الوسيلة الوحيدة، لذلك ركب كل منهما حصان الشاعر وانسحبا بأقصى سرعة فى مقدرتهما.

لم يندهش المضيف الذى يعرف السيد بونس وخادم السيدة بوبى جيدًا لهذا التغير فى المشهد، ولم تساعده زوجته فى حالة اضطرابه، حيث نهضت زوجته توًا وسمعت منه رواية ما حدث وهدَّأته بعدة انتقادات رقيقة، وسألته لماذا لم يستشرها؟ وقالت له إنه لن يكف عن الاستمرار فى الحماقة التى تتم عن بلاهته إلى أن يدمرها هى وعائلتها.

حينما علِم جوزيف بوصول الكابتن ورأى أن فانى الآن فى أمان؛ تركها لحظةً وجرى إلى الطابق الأسفل، وذهب مباشرةً إليه وخلع معطفه وتحداه للنزال، لكن رفض الكابتن قائلاً إنه لا يعرف الملاكمة. فأمسك جوزيف عصًا فى يد وأمسك ياقة الكابتن باليد الأخرى وضربه ضربًا مؤلمًا، ثم قال له إنه الآن انتقم لما عانته عزيزته فانى.

بعد أن استمتع السيد بونس ببعض الطعام الذى كان معه فى المركبة، وارتدى السيد أدمس أحسن ثيابه. طلب بونس من الكابتن أن يَجْهز، حيث قال إنه متهم بجناية وإن أى قاضٍ سيودعه السجن، لكن الخدم اكتفوا إلى حدٍّ ما (حيث أُشبعت رغبتهم فى الانتقام) بالضربة التى عاقبه بها جوزيف، وفى الحقيقة لم تكن خفيفة وقد تركه يرحل وهدد بانتقامٍ قاسٍ ضد جوزيف، لكن لم أعلم أنه حاول فيما بعد تنفيذ تهديده.

ظهرت سيدة المنزل أمام السيد بونس، وقالت له بآلاف من الانحناءات إنها تأمل أن يعذر زوجها، حيث إنه رجل تافه جدا، أن يعذره من أجل عائلته، فلو أن ذهابه للسجن سيضره ستكون مستعدة لذلك؛ لأن الله يعلم جيدًا جدا أنه يستحق ذلك، لكنها لديها ثلاثة أطفال مساكين لا يقدرون على الحصول على زادهم، ولو دخل زوجها السجن؛ سيذهبون جميعًا إلى الأبرشية لأنها سيدة مسكينة وضعيفة، وهى مسئولة بصفةٍ مستمرة عن تربية أولادها وليس لديها وقت للعمل من أجلهم.

لذلك تمنت أن سيادته يأخذ ذلك فى اعتباره ويغفر لزوجها هذه المرة لأنها متأكدة أنه لم ينو أن يؤذى رجلاً أو امرأة أو طفلاً، لولا حماقته لكان رجلاً جيدًا إلى حدٍّ ما فى بعض الأشياء، حيث إن لديه ثلاثة أطفال أقل من ثلاث سنوات، وهو تقريبًا مستعد أن يصبح أبًا للمرة الرابعة.

واصلت السيدة الكلام بهذه الطريقة لفترة أطول، ولم يستطع السيد بونس إيقاف لسانها إلا بإخبارها أنه ليس لديه شىء يقوله لها أو لزوجها.

بمجرد أن أكد لها أدمس والباقون أنهم قد غفروا له بكت وانحنت احترامًا وخرجت من الحجرة.

كان السيد بونس يرغب فى أن تُكمل فانى رحلتها فى المركبة، لكنها رفضت مطلقًا قائلةً أنها ستركب خلف جوزيف على حصانه الذى قد أعده أحد خدام السيدة بوبى. لكن وآسفاه!! حينما ظهر الحصان وجدوا أنه لم يكن سوى نفس الفرسة التى تركها السيد أدمس فى الفندق، وهؤلاء الأشخاص الأمناء الذين يعرفونه قد استردوها.

فى الحقيقة. أيًا كان الحصان الذى لديهم جهزوه لجوزيف، وقد أقنعوه أن لا يركب شيئًا ولا حتى يركب أمام محبوبته فانى حتى يستعد القس، فهو سيحرم صديقه من الفرس الخاص به، حيث علِم ذلك لحظة ما رآها، على الرغم من أن أدمس لم يفعل. على الرغم من أنه حينما تذكر الموضوع وقال إنهم أحضروا الحصان معهم، والذى قد تركه خلفه أجاب: "... [يا إلهى] احفظنى! ولذلك قد فعلت".

رغب أدمس أن يركب جوزيف وفانى هذا الحصان، وقال إنه يمكنه بسهولة المشى إلى البيت. قال: "لو مشيت وحدى، سوف أوفر شلنًا، وسيسبق المترجل فرس المسافرين، لكن حيث إننى نويت أخذ الصحبة التى أدخن معها الغليون سأتأخر ساعة".

همس أحد الخدم إلى جوزيف أن يأخذ بكلامه ويترك العجوز يلجأ للمشى لو أحب. أجاب جوزيف على هذا العرض بنظرة غضب ورفضٍ قاطع، حيث كان يمسك فاني بين ذراعيه وأكد أنه يفضل أن يحملها بهذه الطريقة إلى بيتها بدلاً من أن يأخذ حصان السيد أدمس ويتركه يمشي علي قدميه.

ربما أيها القارئ تكون قد رأيت نزاعًا بين رجلين أو سيدتين فُصل فيه سريعًا، على الرغم من أن كليهما أكد أنه لن يأكل تلك اللقمة الجميلة، وأصرّ كل منهما على قبول الآخر، لكن فى الحقيقة كان كل منهما يرغب فى ابتلاعها. مع ذلك فلا أتوقع أن يصل هذا النزاع إلى نهاية سريعة؛ حيث إن كلا الطرفين كان فى منتهى الحدة، ومن المحتمل جدا أنهما سيظلان فى ساحة الفندق إلى هذا اليوم لو لم يضع بيتر بونس حدًّا لهذا؛ حيث وجد أنه لم يعد لديه أمل فى إشباع شهوته القديمة مع فانى، وكان يجد من يشعره بعظمته؛ فقال للقس إنه سينقله إلى بيته فى مركبته.

قبل أدمس هذه الخدمة بعديد من الانحناءات والشكر على الرغم من أنه قال بعد ذلك إنه ركب المركبة حتى لا يهين السيد أكثر من رغبته في ركوبها، حيث إنه فضل فى نفسه المشى عن عجلة المركبة.

إن كل الأمور الآن تم الفصل فيها، تحركت بعد ذلك المركبة التى ركب فيها أدمس وبونس واقترض جوزيف سرجًا إضافيًّا من المضيف؛ جلست عِليه فانى وأمسكت فى الحزام الذى ارتداه حبيبها لهذا الغرض، حينما أصبحت الفرس الذكية جاهزة فى الحال، حيث إن حمولة اثنين على فرس واحدة أكثر مما تحتمل، فاكتشف صعوبةً كبيرة فى حمولتها المضاعفة، وبدأ يفكر فى الحمولة الزائدة، حيث بدأت ساقاها الأماميتان تضطربان بعكس الحركة الطبيعية؛ لذلك لم تستطع أن تتقدم خطوة للأمام.

ولم يستطيع جوزيف بكل براعته فى ركوب الخيل أن يحثها علـى التقـدم، لكن دون أى احترام للطرف الجميل للفتاة الجميلـة التـى كانـت علـى ظهرهـا استخدمت هذا التهيج ولم يأت أحد من الرجال لمساعدتها. وقد سـقطت - بتعبيـر بسيط - إلى الوراء على الأرض، وتمت معالجة تلك المضايقة على الفور بتبـديل الخيول، ثم جلست فانى مرة ثانية على وسادة (أو سرج) على فـرس ذات سـجية طيبة وإلى حدٍّ ما مُطعمة جيدًا، حينما وجد حصان القس أنه لم تعد هنـاك أشـياء غريبة يزدرى منها؛ وافق على المشى، وتقدم الموكب بأكمله لـ ردهة بوبى حيث وصلوا فى بضع ساعات دون حدوث أى شيء ملحوظ على الطريـق، إلا حـوارًا لافتًا بين القس ومشرف الخدم، حيث سنستخدم لغة مدافع قديم عن موضـوعٍ مـا، نموذجًا لكل كُتاب السير الذاتية، تنتظر القارئ فى الفصل التالى.

الفصل الثالث عشر

حوارٌ شيق بين السيد إبراهام أدمس
والسيد بيتر بونس يستحق القراءة أكثر من
عمل كتبه كولى سيبر وعديد من الآخرين.

وما إن بدأت المركبة سيرها حتى قال السيد أدمس: "إنه يوم جميل للغاية ، آه، وبلد جميل جدا أيضا". أجاب بونس: "أنا أوافقك على ذلك".

رد أدمس قائلاً: "إن لم أكن سافرت منذ وقتٍ قريب فوق المنحدرات التى أرى أنها تفوق هذه المناظر والمناظر الأخرى التى فى الكون جمالاً".

أجاب بونس: "لا قيمة للمناظر، فدان واحد هنا يساوى عشرة هناك، ومن جانبى أنا لا أجد أية بهجة فى منظر لأية أرض إلا أرضى".

قال أدمس: "سيدى، يمكنك أن تغمر نفسك بمناظر جميلة وعديدة من هذا النوع".

أجاب الآخر: "أشكر الله أن لدىَّ القليل، أرضى به ولا أحسد أى إنسان، فلدىَّ قليل يا سيد أدمس وأفعل بها أحسن ما أستطيع".

أجاب أدمس: أغنياء دون صدقة لا يستحقون شيئًا، فإن النعمة من حق الذى يتصدق على الآخرين".

قال بيتر: "أنت وأنا، لدينا مفهوم مختلف عن الصدقة. إننى أعترف أنى لا أحب الاستخدام العامى لهذه الكلمة، ولا أعتقد أنها تناسبنا نحن الرجال. إنها صفة

تحط من الشأن، تناسب رجل دين، على الرغم من أننى لم أجد دليلاً على أن العديد من القساوسة يتحلون بها".

قال أدمس: "سيدى، إننى أعرّف الصدقة بأنها ميول نبيلة للتخفيف عن المكروب".

أجاب بيتر: "هناك بعض الصحة فى هذا التعريف، ويعجبنى جدا، وهو كما تقول ميل لا ينطوى على التصرف بقدر الميل إليه، لكن وآسفاه يا سيد أدمس، من الذى تعنيه بالمكروب؟ صدقنى، إن كرب البشر فى الأغلب وَهْمٌ وسيكون حماقة إلى حدٍّ ما أكثر من أنه طيبة للتخفيف عنهم".

أجاب أدمس: "أكيد يا سيدى، الجوع والعطش والبرد والعرى والكُرب الأخرى التى يقع فيها المسكين لا يمكن أن نقول عنها إنها مصائب وهمية".

قال بيتر: "كيف يشتكى أى إنسان من الجوع فى بلدٍ تُجمع فيها خضراوات ممتازة فى كل حقل تقريبًا؟ أو يشتكى من العطش وكل نهر وكل جدول يُنتِج تلك المشروبات اللذيذة؟ أو يشتكى من البرد والعرى؟ فهى مصائب قدمتها الرفاهية والعادة.

فالإنسان بالطبيعة يحتاج ملابس أقل من حصان أو أى حيوان آخر، وهناك أمم بأكملها تعيش دونها لكن ربما تكون أنت الذى لا تعرف العالم...

رد أدمس: "أستبيحك عذرًا يا سيدى، لقد قرأت عن الذين يمارسون رياضة الجمانزيم".

قال بيتر: "إنه بلاء Jehosaphats، إن أعظم غلطة فى دستورنا هى أنه نص على إعانة الفقير إلا تلك التى تنص على مساعدة آخرين ليس لديهم ضيعة، لا يُساهم إلى حدٍّ ما فى مساعدة الفقير مثل مساهمته لضريبة الأرض، وأؤكد أنى فى النهاية سأعود إلى الأبرشية".

ابتسم أدمس ابتسامة معارضة، فواصل بيتر قائلاً: "أظن يا سيد أدمس أنك واحد من هؤلاء الذين يتخيلون أننى أكنز المال؛ فيعتقد كثير من الناس أنه ليست جيوبى فقط بل كل ملابسى مليئة بالحوالات المصرفية، لكن أؤكد لك أنك مخطئ تمامًا. إننى لست الرجل الذى يقيمه العالم بقيمته الحقيقية؛ فكل ما أملكه بالكاد يمكننى من تنظيم أمورى المادية؛ إن هذا كل ما أستطيع. لقد أذيت نفسى بالشراء، حيث كنت مفرطًا فى صرف أموالى. فى الحقيقة، إنى أخشى أن وارثى سيجد أن أمورى فى موقف أسوأ، مما كانت معروفة به. آه!! سيكون لديه سبب ليتمنى أن يزيد حبى للمال أكثر من أى شىء. أرجوك يا جارى الطيب أين سأجد عددًا من أغنياء العالم يكونون كرماء للغاية ليمنوا على؟ أين أستطيع الحصول على هذا الكنز دون سرقته؟

قال أدمس: "حقا، فقد كنت دائمًا مع رأيك، فلقد اندهشت مثلك بأية ثقة استطاعوا أن ينقلوا مثل هذه الأشياء عنك، والتى تبدو لى على أنها مجرد أمور مستحيلة؟ لأنك تعرف يا سيدى، وقد سمعت دائمًا ما تقوله أنك جمعت ثروتك من عملك الخاص، وهل نصدق أنك فى وقت قصير قد جمعت تلك الكومة من الثروة كما يعتقد الناس؟ هل ورثت عقارًا مثل السيد توماس بوبى الذى توارثته أجيال عديدة؟ ربما لديهم وجهة نظر على تأكيداتهم".

قال بيتر بسخرية ماكرة: "لماذا، كم يقولون أننى أساوى؟"

أجاب أدمس: "سيدى، لقد سمعت بعضنًا يؤكدون أنك لا تملك سوى عشرين ألف جنيه".

عبس بيتر عند ذلك. قال أدمس: "سيدى، إنك تسألنى عن رأى الآخرين فقط؛ فمن ناحيتى أنا أنكره دائمًا، ولم أعتقد قط أنك من الممكن أن تملك نصف هذا المبلغ".

قال وهو يصافحه بيده: "على الرغم من ذلك يا سيد أدمس، إننى لم أبعها جميعًا، فأنا أستحق ضعف هذا المبلغ، وبالنسبة لما تعتقده أو ما يعتقدونه فإننى لا أهتم ولو للحظة. إننى لست فقيرًا لأنك تعتقد أننى كذلك، ولا لأنك تحاول أن تستخف بى فى البلدة. إننى أعرف جيدًا حقد البشر، لكننى أشكر السماء أننى فوقهم جميعًا.

إنها حقيقة، إن ثروتى من كسبى الخاص، وليس لدى عقار مثل السيد توماس بوبى، والذى ينتقل بالإرث فى عائلتى بين أجيال عديدة، لكننى أعرف ورثة لتلك العقارات أُجبروا أن يُسافروا حول البلدة مثل بعض الناس برداءٍ ممزق، وسيكونون سعداء لقبول منصب راعى الأبرشية الحقير. نعم يا سيدى كأشخاص باليين مثلك، حيث لا يوجد رجل له شخصية مثل شخصيتى سيعانى من الركوب فى مركبة معه".

قال أدمس: "سيدى، إننى أُقدّر اندفاع مركبتك، ولو كنت أعلم أنك ستتوى إهانتى لفضلت المشى إلى نهاية العالم على قدمى قبل أن أقبل مكانًا فيها. على الرغم من ذلك يا سيدي، أننى سأخلصك من تلك المضايفة". وحينما قال ذلك فتح باب المركبة دون أن يكلم سائق المركبة وقفز فى الطريق العام ونسى أن يأخذ قبعته معه، التى ألقاها السيد بونس وراءه بعنف.

توقف كل من جوزيف وفانى ليحملاه معهما باقى الطريق الذى لم يكن أكثر من ميل.

الباب الرابع

الفصل الأول

وصول السيدة بوبى وباقى المجموعة

إلى قاعة بوبى.

لحقت المركبة ذات الجياد الستة التى تركب فيها السيدة بوبى والمسافرون الآخرون حيث دخلوا الأبرشية. بمجرد أن رأت جوزيف توهج خداها احمرارًا وأصبحا بعد ذلك شاحبين تمامًا. وبسبب المفاجأة أوقفت مركبتها تقريبًا، لكنها استجمعت قواها فى الوقت المناسب لتمنعها من الوقوف.

دخلت الأبرشية وسط رنين الأجراس وهتافات المساكين الذين كانوا مبتهجين لأن سيدتهم قد رجعت بعد غياب طويل فى وقت سحبت فيه كل أموالها التى أخذتها من الإيجار إلى لندن دون إنفاق شلن بينهم، وأدى ذلك إلى زيادة فقرهم، فمثلاً فى لندن يفتقدون البلاط واتفاقهم كذلك أن غياب شخص ذى ثروة هائلة محسوس بشدة فى بلدة صغيرة، حيث إن سكانها يجدون لدى تلك العائلة زادًا وخدمة دائمة، وبذبائح منضدتها يجد العاجز والمسن والطفل المسكين طعامًا وفيرًا، وبكرم نادرًا ما يكون له تأثير على جيوب المتبرعين.

لكن لو خلقت منفعتهم بهجة على كل وجه، فإلى أى مدى ستكون فاعلية الشعور الذى يكنونه للقس أدمس وتحدث أثرًا ملائمًا على كل من شاهدوا رجوعه؟

لقد احتشدوا حوله كالأطفال المطيعة حول أب متسامح، تنافسوا معًا إظهارًا للاحترام والحب.

أما القس فمن جانبه سلم على كل واحد باليد، واستفسر بشدة عن صحة كل من كان غائبًا، واستفسر عن أولادهم وأقاربهم، وأبدى رضاه، ولم يكن هناك شيء يجعله سعيدًا سوى الطيبة بدوافعها التي يمكنه إظهارها.

ولم يحتجْ جوزيف وفاني ترحيبًا حارًّا من كل من رآهما. بالاختصار، ليس هناك ثلاثة أشخاص يمكن استقبالهم بطريقة لطيفة، إلا إذا كانوا حقا يستحقون الحب عمومًا.

أخذ أدمس رفقاءه المسافرين إلى بيته؛ حيث أصر على تناول أي شيء من الطعام الذي أعدته زوجته التي قد وجدها هي وأولاده في صحة ومرح، ثم نتركهم يستمتعون بسعادة تامة على مائدة طعام بسيطة؛ لنشاهد مشاهد أكثر روعة لكنها أقل سعادة. إن قراءنا الأكثر ذكاء سيرتابون بلا شك لهذا الظهور الثاني للسيدة بوبي على الساحة، فلم ينته كل هذا بفصل جوزيف من العمل لكي أكون أمينًا معهم إنهم على الصواب، فقد انغرس السهم أعمق مما تخيلت، ولم يكن الجرح هينًا حتى يلتئم. فسريعًا ما هَدأ غضبها بانصراف الباعث، لكن كان له تأثير مختلف على حبها حيث رحل بشخصه، لكن ظلت صورته كامنة في عقلها.

كان نومها قلقًا متقطعًا، وكانت الأحلام البشعة المشوشة تصيبها في الليلة الأولى. وفي الصباح، رسم لها الخيال مشهدًا ممتعًا، لكن ليخدعها لا ليُبهجها، فقبل أن تصل للسعادة المرجوة تلاشت الصورة وتركتها للشقاء غير منعمة بالخيال.

نهضت من نومها وكان خيالها مشتعلاً بالوهم، حينما حملقت عيناها مصادفةً تجاه المكان الذي كان يقف فيه جوزيف الحقيقي بالأمس، تلك الواقعة الصغيرة أثارت التفكير فيه وجعلته حيًّا في خيالها.

كل نظرة، كل كلمة، كل إيماءة استرجعها ذهنها بسرعة بمفاتن لا يُهدئها عدم مبالاته. ليس هذا فحسب، فقد نسبت هذا إلى شبابه وحماقته وانبهاره وديانته، نسبته إلى كل شيء يؤدي دائمًا للازدراء، أي عدم الحاجة لعاطفة الجنس، أو ما أوقظ كرهها أنه لا يحبها شخصيًّا.

وأخذها التفكير إلى حدٍّ بعيد وأوصلها إلى أنها يجب ألا ترى هـذا الـشاب الجميل، بل أوحى إليها أنها هى نفسها قد صرفته لخطأ ألا وهو انبهاره واحترامـه الشديد لها، ويجب أن تعتبره ميزةً، بالإضافة إلى أنه كان من الممكن التخلص منه بسهولة. ثم لامت رعونة وتهور غضبها، فثورتها كانت منصبة عليهـا، وظهـر جوزيف طاهرًا فى عينيها.

فى النهاية، أصبحت عاطفتها عنيفة للغاية وأجبرتها على البحث عن طريقة تريح بها نفسها. وفكرت الآن فى استدعائه، لكن منعها كبرياؤها من ذلـك، حيـث دفع الكبرياء أرق عواطف من نفسها ومثل لها وضاعته التى كانت مغرمـة بهـا. سريعًا ما بدأ هذا الاعتقاد يطغى على جماله، وتلاه الاحتقـار ثـم الازدراء الـذى أظهر على الفور كراهيتها للمخلوق الذى تسبب فى كل هذا القلق.

بمجرد أن تلك العداوات لجوزيف سيطرت على عقلها غرست فـى ذهنهـا آلاف الأشياء ضده، إنه من يكن لها كرهًا لأنها لا يمكن أن تتحمل مثل هذه الفكرة لحظة حدوثها. أتى الانتقام الآن لمساعدتها وفكرت فى حاله دون عمل، وبأقـصى سعادة قلبت فى ذهنها عدة أنواع من الشقاء ، وقد أوحى لها خيالها أن هذا مصيره، وبابتسامة تنم عن الغضب والمرح والاحتقار تخيلته مهلهلاً كما تراءى لها.

أتت السيدة سيلبسلوب حيث استدعتها سيدتها التى تعتقد أنها الآن قد قهـرت تلك العاطفة. وسألت وهى ترتدى ملابسها إن كان هذا الشخص قـد طُـرد طبقًـا لأوامرها. أجابت سيلبسلوب أنها أخبرت سيدتها ذلك (كما قـد فعلـت بالفعـل) . أجابت السيدة: "وكيف تصرف؟"

قالت سيلبسلوب: "حقيقةً، يا سيدتى، بطريقةٍ أثرت فى كل شخص رآه. لـم يتلق الصبى المسكين سوى أجر بسيط؛ فقد كان يعطـى والديـه نـصف أجـره باستمرار، وحينما خلع زى الخدم الخاص بسيادتك، ولم يستطع شـراء معطـف، ربما ظل عاريًا لو لم يعطه أحد الخدم واحدًا، وبينما كان واقفًـا مرتـديًا قميـصه

(فلنقل الحقيقة إنه شخصية مثيرة للحب) وعندما قيل له إنك لن تعطيه مكانة تنهد وقال إنه لم يفعل شيئًا يقصد به الإهانة، فمن جانبه عليه أن يحافظ على سمعته الطيبة حيثما ذهب، ودعا الله أن يبارك لكِ لأنكِ أحسن السيدات على الرغم من أن أعداءه قد تآمروا ضده عندك.

لقد تمنيت لو لم تطرديه، حيث إننى أعتقد أنه ليس لديك خادم أكثر إخلاصًا منه فى المنزل.

أجابت السيدة: "كيف وقد نصحتِنى بطرده؟"

قالت سيلبسلوب: "أنا يا سيدتى!!؟ "إننى متأكدة أنكِ ستكونين عادلة فى القول بأننى قد فعلت كل ما أقوى عليه لمنع ذلك، لكننى رأيت أن سيادتك غاضبة، وأنه ليس شأننا نحن كبار الخدم التدخل فى تلك المسائل".

صاحت السيدة: "ألست أنت أيتها المتهورة المؤذية التى جعلتنى غاضبة؟ أليس لغوك هو الذى جعلنى أصدق فكرة خاطئة عن الشاب المسكين لكى أتحول ضده؟ ربما سيشكركِ على كل ما حدث، وبذلك فقدت خادمًا كفؤًا وهو شخص ربما أكثر منكِ جدارة فى عمله. يا للمسكين!! لقد فُتنت بوفائه لأبويه. لماذا لم تخبرينى بذلك، وتركتنى أطرد مخلوقًا طيبًا دون خطاب توصية؟ لقد فهمت الآن سبب تضرفك، وأيضا سبب شكواك أنكِ تشعرين بغيرة من كل الفتيات".

قالت سيلبسلوب: "أنا أغار!؟ " أؤكد لكِ أننى أنظر لنفسى على أننى أعلى منه مقامًا، فآمل أن لا أكون لقمة سائغة لخادم".

أدت تلك الكلمات إلى أن تصبح السيدة فى حالة انفعال وغضب شديد وطلبت من سيلبسلوب أن تنصرف، فرحلت وهى تهز أنفها وتصرخ قائلة: "ياله من شيء مضحك!! أعتقد أن هناك أشخاصًا أكثر غيرة منى". لم تتأثر سيدتها بسماع الكلمات، على الرغم من أنها فى الحقيقة تأثرت وفهمتها أيضا.

نشأ الآن صراع ثان مثل السابق، فمن الممكن أن يعتبر تكرارًا إذا روى بتفاصيله مرة أخرى. فمن الممكن أن نكتفى بالقول إن السيدة بوبى قد وجدت سببًا جيدًا لتشك إن كانت قد تغلبت على عاطفتها تمامًا؛ حيث إنها داهنت نفسها. ولكى تحققها بالفعل اتخذت قرارًا ليس به شيء من الحكمة، وهو أن تذهب على الفور إلى البلدة.

رأى القارئ منذ فترة طويلة وصول السيدة سيلبسلوب، والتى على الرغم من وقاحتها لم تتخل سيدتها عنها، ومؤخرًا وصل السيد بونس ومزيد من الخدم، وأخيرًا الليدى نفسها.

فى الصباح التالى لوصولها، وهو يوم الأحد، ذهبت للكنيسة، وهى مفاجأة كبيرة للجميع، حيث تعجبوا لرؤيتها، لأنها سيدة غير مداومة على الذهاب للكنيسة، فكان حضورها صبيحة وصولها من رحلتها مفاجأة.

كان جوزيف هناك أيضا، وسمع تعليقًا أنها قد ركزت عينيها عليه أكثر من تركيزها على القس، لكن اعتقد أنها مجرد إشاعة خبيثة، فحينما انتهت الصلوات وقف السيد أدمس وقال بصوتٍ عالٍ: "أعلن زواج جوزيف أندروس وفرانسيس جودويل، وكلاهما من تلك الأبرشية... " إلى آخره.

هل كان لهذا تأثير على السيدة بوبى أو لا؟ لأنها كانت فى مقعدها حيث لا يستطيع الجميع رؤيتها، لذا لا يمكن المعرفة، لكن بالتحديد فى حوالى ربع ساعة وقفت ووجهت عينيها إلى هذا الجزء الذى تجلس فيه النساء، وأصرت على النظر فى هذا الطريق خلال باقى الخُطبة ممعنة النظر بتلك الطريقة وبملامح غاضبة للغاية، حيث خشيت أغلب السيدات أن تهينهن.

لحظة رجوعها البيت أرسلت لسيلبسلوب كى تأتى إلى حجرتها، وقالت لها إنها متعجبة من الذى فعله جوزيف الأحمق فى تلك الأبرشية. على ذلك روت لها سيلبسلوب مقابلتها لأدمس معه على الطريق وأيضا مصادفة فانى. عند رواية ذلك كانت السيدة تُغير ملامحها أحيانًا، وعندما استمعت لكل شيء، طلبت من السيد أدمس الحضور، وتصرفت معه كما سيرى القارئ فى الفصل التالى.

الفصل الثانى

حوار بين السيد إبراهام أدمس

والليدى بوبى.

لم يبعد السيد أدمس حيث كان يشرب نخب السيدة فى الدور السفلى فى كأسٍ من شرابها.

بمجرد أن ذهب إليها بدأت الكلام بالأسلوب التالى: "إننى أتعجب يا سيدى أن بعد كل تلك المجاملات التى تلقيتها من هذه العائلة (التى علِمها القارئ بدقة فى هذا النطاق من تلك القصة) أنك تظهر احترامًا لشخص فُصل من العمل لسوء تصرفه، فمن غير المناسب لرجل فى مكانتك يتجول فى أنحاء البلدة مع شخص عاطل وامرأة عاهرة. فى الحقيقة، بالنسبة للفتاة لا أعرف عنها أى سوء.

أخبرتنى سيلبسلوب أنها قد نشأت فى بيتى فيما مضى، وكانت تتصرف كما يجب حتى التقت بهذا الشخص الذى أفسدها. ربما تصبح على ما يرام إذا تركها وحدها. لذلك، فأنت تفعل شيئًا بشعًا محاولاً تهيئة زواج بين الاثنين فسيكون تدميرًا لهما".

قال أدمس: "مدام، لو سيادتكِ رغبت فى الاستماع إلىَّ فأنا أعترض، لأنى لم أسمع أى سوء عن السيد جوزيف أندروس، ولو سمعت كنت صححته؛ فأنا لم ولن أشجع خطايا هؤلاء الذين تحت منصبى راعى الأبرشية.

وبالنسبة للفتاة فأؤكد لكِ أن رأيى فيها جيد مثل سيادتك أو أى شخص آخر. فهى ألطف الفتيات، وأكثرهن أمانة وكفاءة، فهى مخلوقة صغيرة، بالنسبة لجمالها، فأنا حقا لا أمدحها من هذا المنطلق على الرغم من أن كل الرجال يرون أنها أجمل وأرق، وأبسط امرأة فى الأبرشية".

قالت: "إنك وقح للغاية أن تتحدث معى بذلك الهراء المثير للاشمئزاز، فمن غير المناسب لرجل دين أن يزعج نفسه بالسيدات الجميلات، وأنت بلا شك حاكم مرهف للجمال. رجل عاش كل حياته فى هذه الأبرشية، هذا حكم نادر للجمال. سخافة!! أن يكون الجمال حقيقةً هو فتاة ريفية.

سأصاب بغثيان إذا سمعت كلمة جمال تُذكر ثانيةً. آمل أن الفتاة ستملأ الأبرشية بالجميلات. لكن سيدى لدينا بالفعل كثير من المساكين، لا أريد أن يزداد المتشردون هنا".

قال أدمس: "مدام، إنكِ مستاءة منى دون أى سبب. هذان الزوجان كانا راغبين فى إكمال الزواج منذ وقت طويل، وقد نصحتهما بالعدول عنه، ربما أغامر بالقول، إننى كنت السبب الوحيد فى تأجيله".

قالت: "حسنًا، وما فعلته هو غاية الأمانة والحكمة أيضا، على الرغم من أنها الأكثر جمالاً فى الأبرشية".

استمر قائلاً: "والآن يا مدام، كل ما أفعله هو تأدية مهمتى تجاه السيد جوزيف".

صاحت السيدة: "أرجوك لا تذكر مثل هؤلاء الأشخاص لى".

قال القس: "لقد أعلن الزواج أمامى بعد موافقة فانى".

أجابت السيدة: "نعم، أعتقد أن العاهرة جريئة لهذه الدرجة، إن سيلبسلوب قالت لى كيف تلعب بعقول الشبان، أعتقد أن هذه إحدى صفات جمالها، فلو أعلنوا الزواج أتمنى أن لا تعلنه لهم دون موافقتى".

قال أدمس: "مدام، لو أعلن أى شخص سببًا مقنعًا ضد هذا الزواج، فأنا مستعد لإنهائه".

قالت: "سأقول لك سببًا؛ إنه متشرد ويجب ألا يقيم هنا وينجب مجموعة من المتشردين فى الأبرشية، ولن يعوض ذلك شيءٌ إلا أنهم سيتميزون بالجمال".

أجاب أدمس: "مدام، مع احترامى الشديد لسيادتكِ لقد قال لى محـــامٍ يُــدعى سكوت إن أى شخص يخدم لمدة عام يحصل على حق الإقامة فى الأبرشـــية فـــى المكان الذى يخدم فيه".

أجابت السيدة: "سكوت المحامى أحمق ومغرور، لن أدع سكوت المحـــامى يتدخل معى. سأكرر لك ثانيةً لن أدع عوائق أخرى تقف أمامنا أكثر؛ فأنا لا أريدك أن تستمر فى هذه الإجراءات".

أدمس: " مدام، سوف أطيع سيادتك فى كل شىء قانونى، لكن من المؤكد أن كون الطرفين من الفقراء ليس سببًا يمنع زواجهما. حاشا لله أن يكون مثـــل هـــذا القانون، فالفقراء يشاركون فى هذه الدنيا بنسبة قليلة، سيكون من الوحشية بالفعـــل أن نحرمهم من المزايا العادية والمتعة الطاهرة التـــى تمنحهـــا الطبيعـــة للخلـــق الحيوانى".

صاحت السيدة: "حيث إنك لاتتمتع بفهـــم أفـــضل، ولا تعطينـــى الاحتـــرام المطلوب لامرأة فى مكانتى وتجرح أذنى بمثل هذا الكلام، لن أقول إلا كلمة واحدة قصيرة، إنها أوامرى لك أن لا تُعلن هذا الزواج، ولو جرؤت علـــى ذلـــك ســـوف أوصى سيدك الطبيب ليطردك من خدمته. وسأطرد عائلتك يا سيدى، وبعـــد ذلـــك سوف تشحذ أنت وأجمل حسناء فى الأبرشية".

أجاب أدمس: "مدام، أنا لا أعرف ما الذى تقصدينه بتلك المصطلحات (السيد والخدمة) إننى فى خدمة سيد لن يطردنى لأننى أؤدى واجبـــى، ولـــو أن الطبيـــب (حيث إننى فى الحقيقة لم أكن قادرًا على أن أُزود بترخيص عمل) يفكر بطريقـــة مناسبة فى طردى من منصبى، آمل أن يمنحنى الله سيدًا آخر، فعلـــى الأقـــل أنـــا وأيضا عائلتى لدينا أيد وبلا شك سوف تنجح محاولاتنا فى الحصول على عيـــشنا بأمانة معهم، وحيث إن ضميرى صافٍ لن أخاف مما سيفعله البشر معى".

قالت السيدة: "إننى أدين تواضعى، إننى أحط من قدرى وأتحدث معك كثيرًا، سأتخذ إجراءات أخرى حيث إننى أرى أنك متحالف معهما. لكن كلما أسرعت بتركى كلما كان الأفضل، وسوف أعطى أوامر بعدم فتح أبوابى لك. لن أدع أشخاصًا يتجولون فى أنحاء البلدة مع جميلات تتم استضافتهم هنا".

قال أدمس: "سيدتى، لن أدخل بيوت أشخاص رغمًا عنهم، لكننى متأكد أنكِ لو استفسرت عن هذا الموضوع أكثر سوف تُوافقين عليه، ولن تلومى استمرارى فيه، ولذلك سأغادر بتواضع" وقد فعل ذلك بعديد من الانحناءات أو على الأقل محاولاً القيام بعديد من الانحناءات.

الفصل الثالث

ما الذى حدث بين الليدى
والمحامى سكوت.

بعد الظهر بعثت السيدة للسيد سكوت حيث هاجمته بعنف، لأنه يتطفل على خدمها، وقد أنكر ذلك، وبصدق أثبت مصادفةً وربما بعدل أن الخدمة لمدة عام تمنح حق الإقامة، وإلى حدٍّ بعيد اعترف أنه قد أبلغ القس بذلك فيما مضى، واعتقد أن هذا قانون.

قالت السيدة: "لقد قررت، ألا أدع أى أحد من خدمى الذين طردتهم يقيمون هنا؛ ولذلك فلو أن هذا قانونك سوف أبعث لمحامٍ آخر".

قال سكوت إنها لو بعثت لمائة محامٍ فلن يغير أحد منهم أو جميعهم القانون. إن أقصى سلطة للمحامى هى أن يمنع القانون أن يأخذ مجراه، ويمكنه هو نفسه أن يفعل لسيادتها مثل ما سيفعله أى محامٍ آخر.

قال: "وأنا أعتقد، لأن سيادتك يا سيدتى لست مطلعة على تلك الأمور؛ فقد اختلط عليكِ الأمر، فكل ما قمت بإثباته هو أن الرجل الذى خدم سنة من حقه الإقامة.

ويوجد الآن اختلاف مادى بين الاستيطان فى القانون والاستيطان فى الحقيقة، وحيث إننى أثبت عمومًا أنه قد استوطن، والقانون أفضل من الحقيقة، فيجب أن يُفهم استيطانى فى القانون وليس فى الحقيقة.

وافترضى يا مدام أننا سلمنا بأنه أقام بالقانون، فما الفائدة التى ستعود عليه؟ وكيف يصبح هذا واقعًا؟ إنه ليس مقيما فى الواقع، وإن لم يكن مقيمًا فى الحقيقة فهو ليس من السكان، وإن لم يكن من السكان فهو ليس من تلك الأبرشية، إذن فدون شك يجب ألا يُعلن زواجه هنا، حيث إن السيد أدمس أخبرنى أن سعادة سيادتك والسبب الذى يعتبر قويًّا لمنع تحمل عبء الفقراء - ونحن بالفعل لدينا العديد - أعتقد أنه علينا أن نتخذ موقفًا إما بإعدام أو بنقل نصفهم. إذا استطعنا أن نثبت بالدليل أنه ليس مقيما فى الحقيقة فتلك مسألة أخرى. إن ما قلته للسيد أدمس كان بافتراض أنه كان مقيمًا بالفعل، وفى الحقيقة إن كانت تلك هى القضية علىّ أن أشك...".

قالت السيدة: لا تزعجنى بالحقائق والاحتمالات؛ فإننى لا أفهم بربرتك هذه، إنك وقح وتُحمّل نفسك كثيرًا فى التظاهر بالإدارة والإرشاد فى تلك الأبرشية، وعليك التعلم أفضل من ذلك، أؤكد لك. لكن بالنسبة للعاهرة فقد قررت ألا تقيم هنا، لن أدع مثل هذه الجميلة تنجب أطفالاً نتحمل مسئوليتهم".

أجاب سكوت: " جميلات، حقا!! إننى مسرور لمرح سيادتك".

قالت السيدة: "إن السيد أدمس قد وصفها لى هكذا، أرجوك يا سكوت من أى نوع من الأناقة هى؟"

- "أقبح مخلوقة قد رأيتها تقريبًا، عاهرة وقذرة وفقيرة، إن سيادتك لم ترَىْ تلك البائسة".

- "حسنًا، لكن عزيزى سيد سكوت، دعها تكن ما ترغبه، تلك السيدات القبيحات سوف ينجبن أطفالاً، كما تعلم، لذلك فعلينا منع الزواج".

أجاب سكوت: " هذا صحيح، سيدتى، فالزواج المتوقع المتفق مع القانون سأجعله موافقا للحقيقة المرادة، فعندما يصبح الإنسان متزوجًا يصبح فى الحقيقة مقيما، ثم لا يمكن نقله. سوف أقابل السيد أدمس وسوف أقنعه دون شك. فإن

اعتراضه الوحيد هو، بلا شك، أنه سوف يخسر أتعابه. لكن بما أنه يمكن تسهيل هذا الأمر، فإننى واثق من عدم وجود أية معارضة أخرى. لا، لا، إنه مستحيل، لكن سيادتكِ لا يمكن أن تلوميه على عدم رغبته فى التنازل عن أتعابه، على كل إنسان أن يكون لديه تقييم مناسب لأتعابه. أما بالنسبة للقضية التى نحن بصددها، فلو رضيت أن تولينى أمرها، فسوف أعدك بالنجاح. إن قوانين تلك الأرض ليست بذيئة للغاية لكى تسمح لشخص وضيع أن ينعم بواحدة من ثروة سيادتك لدينا كارت واحد موثوق سيحمله أمام القاضى فروليك الذى حينما يسمع اسم سيادتك سوف يُجرمه دون أية استجوابات بعيدة المدى. وبالنسبة للمرأة الفاسقة القذرة ليس لدينا شىء نفعله معها، فلو تخلصنا من الشاب فإن الفتاة القبيحة سوف ...".

أجابت السيدة: "اتخذ الإجراءات التى تُرضيك أيها السيد الطيب سكوت، لكننى أتمنى أن تستطيع أن تخلص الأبرشية منهما، وحيث أخبرتنى سيلبسلوب بقصص تلك العاهرة فأنا أشمئز من أفكارها، وعلى الرغم من أنك تقول إنها فاسقة قبيحة فإنك تعلم يا عزيزى السيد سكوت أن هؤلاء المخلوقات الوقحات اللاتى يطاردن الرجال؛ سوف يجدن دائمًا بعض الوقحين مثلهن؛ لذلك لكى نمنع ازدياد المتشردين علينا أن نتخلص منها".

قال سكوت: "إن سيادتك حقا على الصواب، لكننى خائف؛ فالقانون يعجز إلى حد ما عن إعطائنا سلطة منع ذلك، على الرغم من أن القضاء سيُمدده بقدر ما يمكن لإلزام سيادتك".

والحقيقة أنها نعمة عظيمة للبلدة؛ حيث إنه قيَّد الاستعمال؛ فقد انتزع من أيدينا عديدًا من الفقراء الذين لم يوقفهم القانون.

إننى أعرف بعض القضاة كثيرًا ما يُجرِّمون رجلاً للسجن؛ حيث إن سيده سوف يشنقه عند القبض عليه، لكن سيكون هذا جيدًا لرجل يرى سيادته قاضينا، يُجرِّم شخصًا للسجن، سيجد سعادة بالغة فى ذلك، فلا خيار له، فهو إما أن يموت

جوعا أويقتله المرض فى خلال شهر واحد. هنا وصل زائر وضع حدًّا للمحادثـــة، وتعهد السيد سكوت بتولى القضية وبَشَّرَ بنجاحها، ثم رحل.

إن سكوت هذا كان أحد الفقراء الذين ليس لـــديهم أيـــة درايـــة أو معرفـــة بالقانون، وهو يدافع أمامهم عن قانون البرلمان ويتصرف مثل محامى البلدة؛ ولذلك أُطلق عليه لقب محامٍ.

إنهم أوبئة المجتمع، وفضيحة المهنة؛ حيث إنهم حقا لا ينتمون إليها حيـــث يضمر لمثل هذا النوع من الأوغاد ضعف الإرادة التى يحملها الأشخاص الضعفاء تجاهه.

وهى لم تتنازل من قبل بالتحدث مع هذا الشخص، فقد كَنَّت عاطفةً خاصـــة لجوزيف، والغيرة والازدراء من فانى الطاهرة تجعل السيدة بوبى تخوض محادثة مألوفة، والتى أكدت بغير قصد عديدًا من اللمحات التى قد أخبرته بهـــا مـــن قبـــل السيدة سيلبسلوب، حيث انتهز فرصة لتأكيد تلك الافتراءات القاسية عن فانى التـــى من الممكن ألا يكون القارئ قادرًا على الاستفسار عنها إن لم نفكـــر تمامًـــا فـــى إعطائه تلك المعلومات.

الفصل الرابع

فصلٌ مقتضب لكنه مليءٌ جدا بأمور،

منها وصول السيد بوبى وزوجته.

أمضت السيدة بوبى كل هذه الليلة واليوم التالى فى قلقٍ بالغ، كان عقلها متحيرًا، وتقلبت نفسها بعواطف مضطربة ومتعارضة. لقد أحبت وكرهت وأشفقت واحتقرت وأعجبت وازدرت نفس الشخص بنوبات بين الحين والآخر.

وفى يوم الثلاثاء الذى صادف أنه إجازة ذهبت إلى الكنيسة؛ حيث قد فوجئت بأن السيد أدمس يعلن الزواج ثانيةً بصوتٍ مسموع كما سبق.

كان من حظها حيث لم تكن هناك موعظة؛ فانتهزت الفرصة على الفور للرجوع للمنزل؛ لكى تنفس عن غضبها الذى لم تستطع إخفاءه عن الحشد ولو خمس دقائق، فى الحقيقة لم يكن الحشد كثيرًا، فالتجمع لم يتكون إلا من أدمس، وكاتبه وزوجته والسيدة وأحد خدمها.

عند رجوعها قابلت سيلبسلوب التى بادرت بمخاطبتها بتلك الكلمات: "أوه، ما الذى تظنيه؟ فإن سكوت المحامى، بلا شك، قدم كلا من فانى وجوزيف للعدالة. انفجرت كل الأبرشية فى البكاء، وقالوا من المؤكد أنهما سوف يُشنقان، ولا يعرف أحد لماذا".

قالت السيدة: "أعتقد أنهما يستحقان ذلك. لماذا تذكرين هذين التعسين لى؟"

قالت سيلبسلوب: "آه، عزيزتى، أليس من المحزن أن هذا الفتى الوقح سيموت موتةً قاسية؟ آمل أن يتخذ القاضى حكمًا يرحم شبابه".

وبالنسبة لفاني فلا أعتقد أن ما سيحدث لها يهم كثيرًا، ولو فعل جوزيف المسكين أى شيء فيمكننى المغامرة بالحلف أنها قد دفعته لذلك، قليل من الرجال وقفوا تحت طائلة العقاب بسبب المخلوقات القذرات اللاتى هن فضيحة لجنسنا".

لم تكن السيدة سعيدة بتلك الأخبار، بعد لحظة تأمل، فعلى الرغم من أن سيلبسلوب تمنت إبعاد فانى؛ فإنها لم ترغب فى انتقال جوزيف خاصةً بعيدًا عنها. لقد تحيرت كيف تتصرف أوما الذى تقوله فى هذا الموقف، حينما أتت مركبة بستة جياد إلى الساحة وأعلمها خادم بوصول ابن أخيها بوبى وسيدته.

وقد طلبت منهما الذهاب إلى قاعة الاستقبال، حيث أصلحت حالها على الفور وهدَّأت ملامحها بقدر ما استطاعت، وقد فرحت قليلاً أن الزفاف قد تعرقل بتلك الطرق، وسوف تنتهز فرصة لتنفيذ أى قرار تتخذه حيث إنها رأت أن لديها أداة ممتازة وهى سكوت.

خشيت السيدة بوبى أن يكون خادمها قد أخطأ حينما ذكر زوجة السيد بوبى حيث إنها لم تسمع عن زواجه، لكن كم كانت مفاجأة لها حينما دخلت الحجرة؛ حيث قدم لها ابن أخيها زوجته قائلاً "مدام، تلك هى باميلا الخلابة، إننى مقتنع أنكِ قد سمعتِ عنها كثيرًا".

استقبلتها السيدة بلطف أكثر مما توقع، وفى الحقيقة بأقصى لطف؛ حيث إنها كانت فى غاية الأدب، ولم يكن بها أية رذيلة متعارضة مع تربيتها العالية. وقد أمضوا قليلاً من الوقت فى حديث مألوف، حتى أتى خادم وهمس للسيد بوبى الذى قال على الفور للسيدتين إن عليه تركهما قليلاً من أجل مسألة مهمة، وحيث إن حديثهما أثناء غيابه سوف يُسلى القارئ سنتركهما لحظةً لنصغى إلى السيد بوبى.

الفصل الخامس

مهنة العدالة،
وأحداثٌ غريبة لأداء الشهادة،
وأمورٌ أخرى من الضرورى أن يتبعها
كل القضاة وكاتبيهم.

بمجرد أن نزل الفارس الصغير وزوجته من مركبتهما، بدأ الخادم في السؤال عن صحة السيد جوزيف، حيث قالوا إن سيدتهم لم تسمع كلمة عنه، لمفاجأتها الكبرى، منذ أن ترك عائلة السيدة بوبى.

على هذا علِموا على الفور بما حدث مؤخرًا، وهو ما نقلوه سريعًا إلى سيدهم الذى اتخذ قرارًا فوريًّا بالذهاب بنفسه ومحاولة استرجاع أخى باميلا حتى قبل أن تعرف هى أنها فقدته.

القاضى الذى قام بمحاكمة المجرمين كان يعيش بالقرب من منزل السيدة، وكان من حسن الحظ أنه يعرف السيدة بوبى، لأن ضيعته كانت فى نفس المنطقة. بعد ذلك أمر بوضع خيوله وذهب إلى المكان الذى تمت فيه المحاكمة ووصل بينما القاضى يوشك على الانتهاء من مهمته.

أُخذ إلى قاعة حيث علِم أن سيادته سيقابله بعد بُرهة، فلديه رجلٌ وامرأة ليسلمهما أولاً للسجن. اقتنع الآن أنه ليس لديه دقيقة ليضيعها، وأصرَّ على أن يقدمه الخدم مباشرةً للحجرة التى يؤدى فيها القاضى عمله، كما قال. حين ذهب إليه وبعد تبادل التحية بين الفارس وسيادته، سأل الأول الأخير: ما الجريمة التى اقترفها هذان الشابان؟

أجاب القاضى: "ليست جريمة كبيرة، فقد أمرت بحبسهما لمدة شهر فقط".

كرر الفارس: "لكن ما هى جريمتهما؟"

قال سكوت: "لصوصية، لا تُسعد سيادتكم".

قال القاضى: "آه، شيء إجرامى لصوصى. أعتقد أن علىَّ أن آمرهم بقليلٍ من التأديب أيضا، وبقليل من التجرد والجلد".

(فانى المسكنية التى كانت تشعر أن وجود جوزيف يدعمها بأفكار صعبة، ارتعدت عند سماع هذا، لكن حقا دون سبب، لم يكن هناك أحد سوى الشيطان نفسه لينفذ تلك العقوبة عليها).

قال الفارس: "ما زلت لا أعلم ما هى الجريمة؟ أعنى الحقيقة".

أجاب القاضى إن الجريمة فى هذه الأوراق حيث أدلى بالشهادة فى غياب كاتبه، وهو لديه وثيقة رسمية، والتى قد دبرنا منها بصعوبةٍ بالغة نسخة أصلية وهذا نص حرفى لها:

"قام كل من المحامى جيمس سكوت، وتوماس تروتر بتأدية الشهادة أمام أحد قضاة المنطقة التابعين له فى مقاطعة زيومر".

تلك الأقوال المذكورة آنفًا، وتوماس تروتر المذكور سالفًا، إنه فى أكتوبر الحالى يوم الراحة الأسبوعية، ما بين الساعة الثانية والرابعة بعد الظهر، يمشى جوزيف أندروس وفرانسيس جودويل فى حقلٍ يخص سكوت المحامى، وخارج الممر المؤدى للحقل المذكور آنفًا، قطع السيد جوزيف أندروس، مستخدمًا سكينًا، غصنًا به نوع من أنواع الفاكهة تُقدر قيمته بثلاثة أنصاف بنس كما يعتقد أو نحو ذلك، ويقول إن فرانسيس جودويل المذكورة، كانت هى أيضا تمشى على الحشائش خارج الممر المذكور آنفًا فى الحقل المذكور آنفًا، وتحمل فى يدها الغصن الملىء بالفاكهة المذكورة آنفًا، ولذلك فهى تعتبر شريكة ومحرضة لجوزيف المذكور فى تلك المسألة.

ويقول جميس سكوت المذكور آنفًا إنه يعتقد بلا ريب أن الغصن المذكور آنفًا هو غصنه الخاص به".

قال الفارس: "يا آلهى، هل تضع شخصين فى السجن بسبب غصن؟"

قال المحامى: "نعم، وبرفقٍ بالغ أيضا فلو أطلقنا عليه شجرة صغيرة فسوف يُشنق الاثنان".

قال القاضى وهو يأخذ الفارس جانبًا: "أنا لم أكن قاسيًا فى هذا الموقف، لكن طَلبت السيدة بوبى أن أطردهما خارج الأبرشية، لذلك سوف يصدر المحامى سكوت الإجراءات القانونية ليدعهما يرحلان بعيدًا لو أرادا، لكن يبدو أنهما ينويان على الزواج، والسيدة بوبى ليس لديها أية وسيلة لمنع ميلاد طفل منهما فى أبرشيتها، حيث إنهما استقرا هناك قانونيًّا".

قال الفارس: "حسنًا، سأضع فى اعتبارى إرضاء عمتى، وأعدك أيضا أن جوزيف لن يكون له طفل هنا فى أبرشيتها، وأعدك أنه بدلاً من السجن سوف أتسلمهما على مسئوليتى."

أجاب القاضى قائلاً: "آه، إن كنت ترغب هذا حقا"، ودون ضجة، انتقل جوزيف وفانى إلى السيد بوبى الذى يعرفه جوزيف جيدًا، لكن لك أن تُخمن إلى أى حد هو قريب له. حرق القاضى أمره القضائى بالسجن، وذهب الشرطى لأجل مهمته، لم يشكُ المحامى من رغبة القاضى، وأبدى المسجونان بقلبٍ مبتهج شكرًا جزيلاً لسيادة السيد بوبى الذى لم ينوِ أن تتوقف التزاماتهم تجاهه، فأمر خادمه ليحضر حقيبة بها ملابس من السيدة بوبى من أجل هذا الغرض، طلب من القاضى أن يدع جوزيف معه فى الحجرة، وأمر خادمًا أن يُحضر زيهُ والملابس الكتانية والضروريات الأخرى، وترك جوزيف ليرتدى الملابس الذى لم يعرف بعد السبب وراء كل هذا الذوق، وسبب قبوله هذا المعروف بهذا الاحترام. وبينما كان جوزيف يرتدى ملابسه ذهب الفارس إلى القاضى الذى وجده يتحدث مع فانى

وخلال الاستجواب سحبت قبعتها على عينيها التى تغمرها الدموع؛ وبهذا أخفتها من سيادته، ربما كان ما فسرته هو أن وصول السيد بوبى غير ضرورى على الأقل لأجلها. بمجرد أن رأى القاضى ملامحها وعينيها المتألقتين تلمع خلالهما الدموع، لعن نفسه سرًّا على أنه قد فكر قط فى سَجْنها، وهو مستعد أن يرسل زوجته إلى هناك لتكون فانى مكانها. وحيث إنه يدرك تقريبًا نفس المطالب والخطط الحالية لإنجازها، استخدم المنيوويتِ بينما كان الفارس غائبًا مع جوزيف مؤكدًا لها كم هو آسف لأنه يعاملها بقسوةٍ بالغة قبل أن يعلم قيمتها، وقال لها بما أن السيدة بوبى غير موافقة على أن تستقر فى أبرشيتها، فهو يرحب بها فى أبرشيته، حيث وعدها بحمايته لها، مضيفًا أنه سوف يضم جوزيف ويضمها إلى عائلته إن أرادت هى ذلك، وهو عهد أكده بَعصرٍ وضغط يده. شكرته من قلبها وقالت إنها سوف تخبر جوزيف بهذا العرض الذى من المؤكد أنه سوف يقبله. وهو سعيد، فالسيدة بوبى غاضبة منهما على الرغم من أنها لم تعلم أنها فعلت شيئًا لإهانتها لكنها نسبته إلى سيليبسلوب وهى دائمًا عدوة له.

رجع الفارس الآن ومنع استمرار هذا الحديث، ولم يعد القاضى يتظاهر بالاحترام لضيفه، لكن فى الحقيقة كان يراه منافسًا له (فهو لم يعرف شيئًا عن زواجه) أمر فانى بالذهاب إلى المطبخ، حيث ذهبت بكل سرور، ولم يعارضه الفارس الذى رفض إثارة شرح الموضوع بأكمله.

لن يكون ضروريًّا، لو كنتُ قادرًا وأنا فى الحقيقة لست قادرًا، أن أقص الحديث الذى دار بين هذين الرجلين، وكان كليةً عن موضوع سباق الفرس. ارتدى جوزيف أبسط رداء وجده، وهو معطف أزرق وبنطلون له حافة مذهبة وصُدرة حمراء لها نفس الحافة المذهبة، وتلك البدلة التى كانت كبيرة جدا على الفارس كانت مضبوطة جدا عليه، حيث كان يبدو أنيقًا للغاية فلم يشك أحد فى أنها مناسبة لمنزلته وشكله، ولن يشك حينما يظهر اللورد ... أو السيد ... أو الأستاذ... يرتدى ملابس مزكرشة، أن صانع الملابس ارتدى تلك الملابس بالمنزل على ظهره، والتى كان عليه هو أن يحملها تحت ذراعه.

ترك الفارس القاضى الآن، مستدعيًا فانى وجعلها هى وجوزيف يركبان معه فى المركبة، رغمًا عنهما، وأمر بالذهاب إلى منزل الليدى بوبى. وما إن تحركت المركبة مسافة قليلة حتى سأل الفارس جوزيف إن كان يعرف هذا الرجل الذى يعبر الحقل، وأضاف قائلاً: "فأنا لم أر قط شخصًا يمشى بتلك الخطوات الواسعة". أجاب جوزيف فى لهفة: "آه، سيدى، إنه القس أدمس!! " قالت فانى "آه حقا إنه هو، ياله من مسكين، إنه يفعل ما بوسعه من أجلنا.إنه أكثر شخص يستحق أن يُطلق عليه أحسنُ مخلوق على وجه الأرض". قال جوزيف: "آه، بارك الله له، فلا يوجد مثله فى الكون كله." صاحت فانى قائلة: "أليس هو أفضل مخلوق لا يخطئ؟" قال الفارس: " إذن فقد قررت أن أجعل أفضل مخلوق يركب فى مركبتى". لذلك أمر بإيقاف المركبة، بينما هتف جوزيف للقس أثناء طلبه هذا، وحيث يعرف القس صوته جيدًا أسرع بكل ما فى عزمه وأتى إليهم. طلب منه السيد الذى لم يستطع أن يحجم الضحك بسبب مظهره، أن يصعد للمركبة، ورفض ذلك شاكرًا وقال إنه يمكنه المشى جانبها، وتعهد أنه سوف يواصل جانبها، لكنه فى النهاية اقتنع بعد إلحاح. أخبر الفارس جوزيف الآن بزواجه، لكن يمكنه أن يوفر على نفسه هذا العمل، حيث إن خادمه أدّى هذا العمل سابقًا، بينما كان جوزيف يرتدى ملابسه. استمر فى التعبير عن السعادة البالغة التى ينعم بها مع أخته والمعزّة التى يَكنُّها لكل من ينسب إليها. أبدى جوزيف كثيرًا من الاحترام وأبدى شكرًا كثيرًا أيضا، وانفجر القس أدمس، الذى أدرك الآن رداء جوزيف الجديد، فى دموع الفرح وبدأ يفرك يديه ويطقطق أصابعه كما لو كان قد جُنّ.

وصلوا الآن إلى منزل السيدة بوبى، وبعد أن طلب منهم الفارس أن ينتظروا بُرهةً فى الساحة، ذهب إلى عمته، واستدعاها أن تأتى وتترك زوجته وأخبرها بوصول جوزيف قائلاً: "سيدتى بما أنى قد تزوجت امرأة عفيفة وفاضلة، فقد قررت أن أعترف بأقاربها وأبدى لهم أقصى احترام لائق، أعتقد أننى ملزم إلى مالا نهاية بذلك تجاه أقاربى الذين سوف يفعلون نفس الشىء. حقيقةً إن أخاها كان

خادمك لكنه أصبح الآن أخى، وهناك شيء واحد يُسعدنى، وهو ألا تعطينى شخصيتُه، ولا سلوكه، ولا مظهره أىَّ سبب يجعلنى أخجل من أن أجعله كذلك. باختصار، هو الآن بالطابق الأسفل يرتدى ثيابًا مثل الرجل ذى المنزلة الاجتماعية، وأعتقد أننى سوف أراه كذلك فيما بعد، وأنتِ سوف تجاملييننى بما هو وراء قدرتى، إن سمحت له أن ينضم إلى عائلتنا فسوف يُسعد هذا زوجتى كثيرًا على الرغم من أنها لن تذكر هذا الأمر".

كان هذا ضربة حظ وراء آمال أو توقعات الليدى بوبى، فأجابت فى لهفة: "يا ابن أخى، إنك تعرف كم من السهل أن أقتنع بفعل أى شيء يرغبه جوزيف أندروس ... أُف، أقصد ما تطلبه منه، وبما أنه الآن قريبك فلا أستطيع أن أرفض استضافته فى هذا الوضع". قال لها الفارس إنه يعلم التزامه تجاهها لموافقتها على هذا الأمر. مشى ثلاث خطوات، ورجع قائلاً لها إن لديه أكثر من معروف يعتقد أنها سوف تمنحه له بسهولة كما منحته السابق. "هناك فتاة ... " قالت: "يا ابن أخى، لا تدع طيبتى تجعلك تطلب، كما هى العادة، أن تفرض علىَّ رأيك، ولا أن تفكر، لأننى قد تنازلت ووافقت أن أدع أخا زوجتك يأتى لمائدتى، أننى سوف أخضع لصحبة كل خدمى، وكل النساء القذرات فى البلدة". أجاب الفارس قائلاً: "سيدتى، أعتقد أنكِ لم ترَىْ تلك الفتاة. أنا لم أر مثل تلك الحلاوة والبراءة التى امتزجت بمثل هذا الجمال، وفوق ذلك إنها رقيقة للغاية". أجابت السيدة بانفعال:"شرفًا لن أسمح لها، ولن يقنعنى العالم بأكمله، إننى أكره حتى مجرد الطلب الذى يُعتبر إهانة لى، و..."

قاطعها الفارس الذى يعرف أنها عنيدة، طالبًا منها أن تسامحه، ووعدها أنه لن يذكر ذلك ثانية. ثم رجع إلى جوزيف، ورجعت هى إلى باميلا. أخذ جوزيف جانبًا وقال له إنه سوف يأخذه إلى أخته، لكنه لم يستطع إقناع الليدى بوبى لتقبل فانى بعد. طلب جوزيف رؤية أخته وحدها، ثم بعد ذلك يكون مع فانى، لكن على الرغم من أن الفارس يعلم الفرحة التى ستكون فيها حينما تكون بصحبة أخيها، لم

يسمح بذلك قائلاً لجوزيف لن يكون هناك شيء أثناء هذا الغياب القصير لفانى، حيث إنه متأكد أنها فى أمان، وأضاف أنه تمني أن لا يهجر بسهولة أختًا لم يرها منذ فترة طويلة؛ حيث إنها تحبه بشدة. استجاب جوزيف على الفور، لأنه حقا ليس هناك أخ يحب أخته أكثر منه، ويُزكى فانى التى ابتهجت، لأنها لم تذهب إلى الليدى بوبى، ولاهتمام السيد أدمس صاحب الفارس إلى الطابق العلوى، بينما ذهبت فانى مع القس إلى منزله حيث وجدت هناك استقبالاً لطيفًا.

الفصل السادس

ليس مطلوبًا منك أن تقرأ منه
أكثر مما تحب.

لم يخل اللقاء بين جوزيف وباميلا من دموع الفرح، وكان عناقهما مليئًا بالحب والحنان، ومع ذلك فقد بجلهما ابن الأخ بسرورٍ أكثر من الخالة، وقد زادت رؤيتهما من شعورها بالتوهج، كما ساعدت إضافة الثوب الذى لم يكن حقا يعوزه على إبراز الألوان الحية حيث أعطته الطبيعة الصحة والقوة والجمال والشباب.

بعد الظهر سلاَّهم جوزيف حسب طلبهم، برواية مغامرته، ولم تستطع السيدة بوبى أن تُخفى عدم رضائها عن الأجزاء التى تخص فانى، خاصةً حينما أطلق السيد بوبى تلك الإطراءات المبهجة لجمالها.

قالت وهى توجه كلامها إلى زوجة ابن أخيها أنها مندهشةً من ابن أخيها؛ الذى تظاهر أنه تزوج من أجل الحب يفكر فى أن هذا موضوع ملائم لتسلية زوجته، مضيفةً أنها من جانبها يجب أن تشعر بالغيرة على زوجٍ يتحدث بحرارةٍ بالغة لمدح امرأة أخرى.

أجابت باميلا، فى الحقيقة إن لديها بعض الحق، لكنه مثال على استعداد السيد بوبى أن يرى جمالاً فى النساء أكثر من الجمال الذى يتصنعنه. عند تلك الكلمات ركزت السيدتان عينيهما على مرآتين، وأجابت السيدة بوبى قائلةً إن الرجال عمومًا لديهم حكم ردىء على الجمال. وبعد، بينما كانتا تفكران فقط فى وجوههما تبادلتا المجاملات على جمال كل منهما. حينما اقتربت ساعة الراحة التى

أجلتها سيدة المنزل بطريقةٍ مهذبة بقدر ما استطاعت، وقالت لجوزيف (الذى سنطلق عليه فى المستقبل السيد جوزيف، فقد نال لقبًا حَسنًا بهذه الكنية مثل عديد من الآخرين، أعنى تلك الكنية المحققة بملابس مناسبة) إنها كانت قد طلبت أن يُجَهَّز له فراشٌ. وقد رفض هذا المعروف بما فى وسعه، لأن قلبه كان مشتاقًا لمحبوبته فانى، لكنها أصرت على أن يَقبلها مُدَّعيةً أن الأبرشية ليس لديها سكن مناسب لهذا الشخص حيث إنه الآن يُقدر نفسه. واتحد معها كل من الفارس وسيدته، فاضطر السيد جوزيف فى النهاية أن يتخلى عن عزمه على زيارة فانى هذا المساء، والتى من جانبها نفد صبرها وقد انتظرته حتى منتصف الليل، برضا عائلة السيد أدمس الذين جلسوا ساعتين احترامًا لها، أوت إلى فراشها لكن ليس من أجل النوم فتفكيرها فى حبها أبقاها مستيقظة، وملأها عدم رجوعه طبقًا لوعده، بالقلق، ولم تستطع تحديد أى سبب آخر إلا أنها لا أهمية لها عنده.

نهض السيد جوزيف مبكرًا فى الصباح وزارها وكان مبتهجًا. بمجرد أن سمعت صوته فى قاعة القس قفزت من فراشها، وارتدت ملابسها فى بضع دقائق وذهبت إليه. أمضيا ساعتين معًا فى سعادةٍ لا يمكن وصفها وبعد ذلك حددا يوم الاثنين، بإذن من السيد أدمس، لزواجهما.

رجع السيد جوزيف وفقًا لوعده من أجل الإفطار فى منزل السيدة بوبى وسوف نقص على القارئ الآن السلوك الذى تصرفت به فى المساء.

بمجرد أن أوت إلى حجرتها سألت خادمتها ما الذى تظنه بهذا المخلوق الرائع ابن أختها الذى تزوج.

قالت سيلبسلوب ولم تع بدرجةٍ كافية ما الإجابة التى ترد بها: "سيدتى" قالت السيدة: "إننى أسألك، ما الذى تظنينه بالمرأة زرية الملبس، ابنة أخى، ماذا تعتقدين أننى أطلق عليها ذلك؟"

أجابت السيدة: "لكنه فى الحقيقة، لو لديه آلاف الصفات الحميدة، ستجعل المرأة التى تتبع القواعد والسلوك وضيعة حتى لو شك فيها أحد أنها تفكر فيه، نعم، يجب أن أحتقر نفسى على هذا التفكير".

قالت سيلبسلوب: "مؤكد سيدتى".

أجابت السيدة: "ولماذا مؤكد؟ ألا يستحق حبًّا أكثر بدلاً من الفلاحة الريفية القذرة، على الرغم من أنها من عائلة قديمة مثل الطوفان، أو فاسقة عاطلة لا قيمة لها، أو عشيقة لأحد أفراد الطبقات العليا؟ ومع ذلك علينا أن ندين أنفسنا لهؤلاء، لكى نتجنب لوم العالم لنتجنب احتقار الآخرين، علينا أن نتحالف مع هؤلاء الذين نحتقرهم، علينا أن نفضل الأصل واللقب والثروة عن الفضيلة الحقيقية. إنه طغيان العُرف، طغيان علينا أن نُذعن به، لأننا شعب ذو منزلة اجتماعية وعبيد للعُرف".

قالت سيلبسلوب التى عرفت جيدًا الآن أى طرف تتخذه: "ياله من شىء مضحك، لو أننى امرأة لها ثروة ومنزلة سيادتكِ لن أكون عبدة لأى شخص".

قالت السيدة: "أنا؟ إننى أتحدث، لو فتاة تتبع القواعد والسلوك ولم تــر شيئًا من العالم سيصادف أن تحب هذا الشخص. أنا حقا، أتمنى أن لا تتخيلى ..."

صاحت سيلبسلوب: " لا يا سيدتى، دون شك".

صاحت السيدة: "لا!! لا! لماذا؟ إن طريقتك أن تكونى دائمًا جاهزةً للإجابة قبل أن تسمعى أحدًا فى تلهف. علىَّ أن أسمع إلى حدٍّ ما، إنه رفيق خلاب. أنا حقا لا ياسيلبسلوب إن كل أفكارى عن الرجال قد انتهت بالنسبة لى. لقد فقدت زوجًا والذى ... لكن لو علىَّ أن أفكر سوف أجن. إن راحة مستقبلى تتوقف على النسيان. سيلبسلوب دعينى أسمع بعضًا من هرائك؛ لأغير أفكارى فى طريق آخر ما الذى تظنينه بالسيد أندروس؟" قالت سيلبسلوب: "لماذا أظن؟ إنه أجمل وأحسن رجل رأيته، ولو كنت امرأة من أعلى درجة، سيكون على ما يــرام لــبعض مــ

الناس. يمكن لسيادتكِ التحدث عن العُرف لو أسعدك ذلك، لكننى واثقة أنه لا يوجد وجه مقارنة بين السيد أندروس وأغلب شباب الطبقة الاجتماعية الذين يأتون منزل سيادتكِ فى لندن ... صغير تافه يتألق. سأتزوج قريبًا قسنا العجوز أدمس، لا تخبرينى ما سيقوله الناس بينما أنا سعيدة بين ذراعى من أُحب. يشكو بعض الناس من آخرين، لأن هؤلاء الآخرين يملكون ما يرغب فيه هؤلاء الذين يقومون بالشكوى.

أجابت السيدة: "وهكذا ، لو أنكِ امرأة ذات منزلة اجتماعية فستتزوجين حقًا السيد أندروس؟"

أجابت سيلبسلوب: "نعم، أؤكد لسيادتك، لو يمتلكنى".

صاحت السيدة: "حمقاء مغفلة، لو يمتلك امرأة ذات منزلة اجتماعية عليا!؟ هل هذا سؤال؟"

قالت سيلبسلوب: "لا، حقيقةً يا سيدتى، أعتقد أن الموضوع سينتهى عندما تكون فانى خارج الطريق، وأنا واثقة لو أننى فى مكان سيادتكِ وأحببت السيد جوزيف أندروس، فلن تمكث فى الأبرشية لحظة. إننى متأكدة أن المحامى سكوت سوف يُرسلها مع جماعة لو أمرتِ سيادتك".

أثار هذا الكلام الأخير الذى قالته سيلبسلوب عاصفة فى عقل سيدتها، لقد خافت أن يكون سكوت خانها، أو أنها إلى حدٍّ ما قد خانت نفسها. بعد قليل من الصمت، وتغيير متتال فى لون بشرتها، أولاً شاحب ثم أحمر، وتحدثت هكذا: "إننى مندهشة من الحرية التى تعطيها للسانك، هل تلمحين بأننى قد حرضت سكوت على تلك الفاسقة بسبب هذا الشاب؟"

قالت سيلبسلوب وهى خائفة من ذكائها: "لا، يا سيدتى، إننى أقتل مثل هذه الفكرة!! "

الفصل السابع

أفكار فلسفية،
والنوع الذى لا تجده فى أية رواية فرنسية رومانسية،
ونصيحة السيد بوبى المهمة لجوزيف،
ومقابلة فانى لشاب جذاب.

العُرف - يا قارئى الطيب - له سيطرة شاسعة على العقل البشرى، فمن النادر أن يكون هناك شىء شديد الغرابة أو القوة بحيث لا يمكن تقبله. قصة البخيل الذى اعتاد غش الآخرين، بدأ فى النهاية يغش نفسه، وانتشل بسعادة وانتصار جنيهًا من جيبه الخاص لينقله إلى ماله المسروق، ليست هذه قصة مستحيلة أو غير محتملة.

الطريقة نفسها تحدث لممارسى الغش الذين من كثرة مخادعتهم لمعارفهم كسبوا فى النهاية القدرة على مخادعة أنفسهم، ونالوا هذا الرأى المطلق (وإن كان خاطئًا) عن قدراتهم الخاصة وتفوقهم، وفضائلهم التى حاولوا - ربما لسنين - أن يخدعوا بها جيرانهم. الآن، أيها القارئ، لأطبق تلك الملاحظة على موضوعى الحالى. عليك أن تعرف أن العاطفة التى يطلق عليها العالم بصفة عامة الحبّ، تتطلب ممارسة معظم قدرات الأنثى أو الجنس الناعم؛ لذلك سيكتشفن بين الحين والآخر ميلهن بعض الشىء للخداع، والذى لن تغضب بسببه من المخلوقات الجميلات، ففى سن السابعة أو سن مبكر عن ذلك، تعلمت الفتاة من أمها أن الرجل فصيلة وحشية جدا من الحيوانات، فإن تركته يقترب منها فمن المؤكد أنه سيأكلها ويطحنها قطعًا؛ لدرجة أن تصرف النظر عن تقبيلها له ولهوها معه برغبتها، عليها

ألا تسمح له أن يقبلها أو يلهو معها، وفى النهاية يجب ألا يكون لـديها أى شـعور تجاهه، ولو اضطرت لذلك فكل أصدقائها من السيدات سيعتبرنها خائنـة، وسـوف يُشرنَ عليها، ويطردنها من مجتمعهن. تلك الانطباعات التى تلقينها للمرة الأولـى غرستها فى أذهانهن بعمقٍ معلماتُهن وأصدقاؤهن، لذلك عند بلوغهن سن العاشـرة يكون هذا الفزع والمقت من وحشية الاسم المذكور آنفًا، فكلما رأينه يفـررن منـه مثل الأرنب الساذج الذى يفر من كلب الصيد. ومن ثم عنـد الرابعـة عـشرة أو الخامسة عشرة فإنهن يضمرن كراهية كبيرة للرجل، إنهن يقررن ويعتزمن كثيـرًا أنهن لن يكن لهن معه أية صِلة، ويضمرن آمالاً محببة لهن لقضاء حياتهن بعيـدًا عن مناله، وإمكانية حصولهن على مثالٍ واضح للغاية فى عمتهن الطيبة البتـول. لكن حينما يَصِلن إلى تلك النقطة، وقد وصلن الآن للمرحلة الحرجة الثانيـة مـن سنهن، وحينما تصبح معرفتهن أكثر نضوجًا، سيرين ما هو أبعد، ولأنهن كل يـوم تقريبًا يقابلن رجلاً سيتركن الصعوبة الكبرى فى الابتعاد عنه، وحينمـا يلاحظنـه ينظر إليهن كثيرًا وأحيانًا بشوقٍ بالغ وجدية أيضا (فنـادرًا مـا يلاحظهـن ذلـك المتوحش حتى تلك المرحلة من العمر) ثم يفكرن بعد ذلك فى الخطر الذى يمثلنـه، كما يدركن أنهن لا يستطعن بسهولة أن يبتعدن عنه، فالأكثر حكمة أن يفكرن فـى إعداد أنفسهن بوسائل أخرى لأمانهن. إنهن يحاولن بكل الطرق التى يبتكرنها؛ حتى يجعلن أنفسهن لطيفات فى عينيه، فربما ليس لديه نية لإيـذائهن، فعمومًـا إنهـن ينجحن نجاحًا كبيرًا، حتى إن عينيه من كثرة الشوق، سريعًا ما تقلل فكرتهن عـن عنفه، وستهدأ إلى حدٍّ ما مخاوفهن فيغامرن بالتفاوض معه، وحينما يـدركن أنـه مختلف تمامًا عن ما وصف به، فكل لطفٍ ورقةٍ وطيبةٍ وحنان وحـب، تتلاشـى مفاهيمها المخيفة فى لحظة، والآن (فإنه شىء عادى للعقل البشرى أن يثـب مـن نهايةٍ إلى عكسها بسهولةٍ وإلى حدٍّ ما فجأة، مثل الطير الذى يثب من غصن لآخر) على الفور يلى الحبَّ خوفٌ، لكن كما يحدث لأشخاص قد تعلمـوا الخـوف فـى طفولتهم من أشخاص غير محددين يطلق عليهم أشباح، فهم يحتفظون بمخاوفهم من تلك الكائنات، بعد أن اقتنعوا بعدم وجود مثل تلك الأشياء، لذلك فعلى الرغم من أن

قال السيد بوبى: "أنا وأختك، قد أُجبرنا إلى حدٍّ كبير من أجلك للمقارنة، لكن سيدى إنها لا تستحق أن تقارن بجمال باميلا، وليس لديها نصف مزاياها. وعلاوةً على ذلك يا سيدى بما أنك ألقيت زواجى فى وجهى بلطفٍ، فعلىَّ أن أعلمك الاختلاف الكبير بيننا، إن ثروتى جعلتنى قادرًا على القيام بما يرضينى، ومن داخلى حماقة أن أتجاهل ذلك كما تفعل أنت. قال جوزيف: "إن ثروتى تُمكننى أنا أيضا من إسعاد نفسى، حيث إن كل سعادتى مرتكزة فى فانى، مادامت لدىَّ الصحة سأكون قادرًا على مساندتها بجهدى فى هذه المنزلة التى ولدت لها وهى سعيدة بها".

قالت باميلا: "أخى، إن السيد بوبى ينصحك كصديق، وبلا شك سيكون أبى وأمى لهما نفس الرأى، وسيكون لديهما سبب قاطع ليغضبا منك، لتدمير ما فعلته طيبته والإطاحة بعائلتنا ثانية بعد أن رفعها. سيصبح من الأفضل لك يا أخى أن تصلى من أجل مساعدة الإله تجاه تلك العاطفة بدلاً من أن تطلق لها العنان".

– "مؤكد يا أختى أنكِ لستِ جادة، فإننى متأكد أنها على الأقل مماثلة لكِ".

أجابت باميلا: "إنها كانت مماثلةً لى، لكننى لم أعد باميلا أندروس، إننى الآن زوجة هذا الرجل، وأنا أيضا أعلى منها. أتمنى أن لا أتصرف بغرورٍ غير لائق، لكن فى نفس الوقت سأحاول دائمًا معرفة نفسى ولا أسأل مساعدة الإله من أجل هذا الغرض".

دُعوا الآن لتناول الإفطار؛ لذلك أنهوا حديثهم مؤقتًا ولفترة قصيرة دون إرضاء أى من الأطراف.

تتمشى فانى الآن فى طريقٍ ملىء بالأشجار بالقرب من المنزل؛ حيث وعدها جوزيف أنه سينتهز أول فرصة لمقابلتها. إنها لا تملك نقودًا، فمنذ رجوعها أعالها كليةً إحسان القس أدمس. أتى رجل إليها معه كثير من الخدم، وسألها إن كان هذا منزل الليدى بوبى الذى أمامه؟ فى الحقيقة إنه يعرفه جيدًا؛ لكنه طرح

السؤال ليس لأى سبب آخر سوى أن يجعلها يكتشف ويستكشف إن كان وجهها مساويًا لرقة تكوينها. بمجرد أن رآه أذهل وأوقف حصانه، وأقسم أنها أجمل مخلوقة رآها. ثم ترجل على الفور من على حصانه وسلمه لخادمه، وأقسم نصف دستة أيمان أنه سوف يُقبلها، واستسلمت لذلك فى البداية، وتوسلت ألا يكون وقحًا لكنه لم يرض الترحيب بلطفٍ ولا بأوقح هجوم صنعه على شفتيها، لكنه حضنها بين ذراعيه وحاول أن يُقبل صدرها وقاومت بكل قوتها، وحيث إن بطلتنا لم تكن من نسل هرقل فقد منعت الأمر ببعضٍ من الصعوبة.

وسريعًا ما نفد صبر الرجل فى الصراع، هجرها وركب حصانه ونادى أحد خادميه وأمره أن ينتظر معها، ويلبى لها أية عروض حتى لو بإقناعها أن ترجع للمنزل معه فى المساء، ويؤكد لها أنه سوف يحافظ عليها. ثم رحل مع خادميه الآخرين، ووصل إلى منزل السيدة التى كان على القرابة بصيده منها وأتى لزيارتها.

إن الشخص موضع الثقة الذى يعمل فى منصبٍ طال تعوده عليه، حاول بما أُوتى من أخلاق ومهارة ممكن تخيلها أن يتم المهمة التى كلف بها، فقد أصمت أذنيها تمامًا لكن دون نتيجة. فقد كانت صماء تمامًا لعروضه ورفضتها بأقصى ازدراء. فى النهاية، بدأ القواد الذى ربما يكون أكثر حماسة من سيده ، يتوسل لحسابه الخاص، وأخبرها أنه على الرغم من أنه كان خادمًا؛ فقد كان رجلاً لديه بعض من الثروة التى سوف يجعلها سيدةً عليها ... وهذا دون أية إهانة لعفتها، لأنه سيتزوجها.

أجابت إن كان سيده نفسه أو أعظم سيد فى العالم سيتزوجها سوف ترفضه.

فى النهاية، حيث ملَّ الإقناع، وفى تلهفٍ بالمفاتن التى قد أشعلت مشاعر متأججة فى صدر فيلسوف قديم أو كاهن ذى آراء عصرية، ثبت حصانه على الأرض، وهاجمها بقوةٍ أكثر من التى فعلها الرجل. لم تستطع فانى المسكينة

الفصل الثامن

الحديث الذى كان بين السيد أدمس وزوجته،
وبين جوزيف وفانى،
وبعض تصرفات من السيد أدمس، والتى
يعتبرها بعض القراء وضيعة جدا، وسخيفة وغير
سوية.

بمجرد ان أنهى القس وزوجته نقاشاً طويلاً أتى المحبان إلى باب منزلهما، وفى الحقيقة كان هذان الزوجان هما موضوع النقاش، فكانت السيدة أدمس إحدى الحصيفات اللاتى لا يفعلن شيئًا يؤذى عائلتهن، أو ربما إحدى الأمهات الطيبات اللاتى قد وسعن إدراكهن لخدمة أولادهن. لقد طال أملها لرؤية ابنتها الكبرى تَخلف السيدة سيلبسلوب، وأن تجعل ابنها الثانى محصل ضرائب عن طريق نفوذ السيدة بوبى. تلك كانت توقعات، وهى لم تستطع تحمل التفكير فى هجرها، لذلك كانت قلقة للغاية لرؤية زوجها مصممًا على معارضة نوايا السيدة فى أمر فانى. أخبرته أنه ينبغى لكل رجل أن يعطى الاهتمام الأول لأسرته؛ حيث إن لديه زوجة وستة أولاد، فالنفقة والقيام بأعبائهم ستكون مهمة كافية له دون التدخل فى شئون الناس الآخرين، وهو دائمًا يحث على الخضوع لمن هم أعلى مقامًا، وسوف يكون صعبًا عليه إعطاء مثال لسلوك مناف لسلوكه، فإن كانت السيدة بوبى تفعل خطأ فعليها أن تدحضه بنفسها، والخطيئة ليست مسئوليتهم، فكانت فانى خادمة، وتربت وسط عائلة السيدة، وبالتالى عرفت الكثير عنها أكثر مما عرفه الآخرون، من المحتمل جدا، أنها أحسنت سلوكها. لماذا أصبحت السيدة عدوتها بهذه المرارة

البالغة؟ فربما يميل بدرجةٍ كبيرة ليحسن التفكير فيها، لأنها جميلــة، لكــن النـــساء الجميلات لسن غالبًا أحسن مما يجب أن يكن، فقد خلق الله السيدات القبيحات مثلما خلق السيدات الجميلات، ولو كان للمرأة فضيلة فهى لا تفيد فى شىء سواء كانــت جميلة أو لا. على كل فأى الأسباب قررتها، عليه أن يلزم السيدة، ويوقف الإعلان المرتقب للزواج. لكن كل هذه المناقشات الممتازة لم يكن لها تأثير على القس الذى أصر على تأدية واجبه دون التفكير فى العاقبة التى ستعود على مصلحته الدنيوية. لقد حاول أن يُجيبها بقدر ما استطاع، على ذلك أنهت إجابتها توًّا (حيث إن لـــديها دائمًا الكلمة الأخيرة فى كل مكان إلا الكنيسة) عندما دخل جوزيف وفانى مطبخهما كان القس وزوجته يجلسان لتناول الفطار، وهو بعض من لحم الخنزير والكرنــب. كان فى ضيافة السيدة أدمس شىء من البرود، سوف يُلاحظه الأشــخاص الــذين لديهم دقة ملاحظة، لكنها غابت عن ضيوفها الحاضرين فى الحقيقة، فقــد غطـــى عليها إلى حد كبير وُدُّ أدمس الذى بمجرد أن سَمِع أن فانى لم تأكل ولم تشرب هذا الصباح قدم لها قطعة من لحم الخنزير، كان على وشك أن يقضمها، وهى القطعـــة الوحيدة المتبقية من زاده، ثم جرى إلى الصنبور برشاقة وأحضر كوبًا صغيرًا من البيرة التى يطلق عليها شراب الجعة، وكانت أحسن ما عنده فى منزله.

قال جوزيف مخاطبًا القس بشأن الحديث الذى دار بينه وبين الــسيد بـــوبى وأخته فيما يخص فانى، ثم أعلمه بالمخاطر التى واجهها حينما كان ينقذها، ونقل له بعضًا من المخاوف بشأنها. وأنهى قائلاً إنه لن يمر بلحظةٍ دون قلق حتى تُــصبح فانى له مطلقًا. وتوسل بأن عليه أن يكابد من أجل الحصول على إجـــازة رســـمية للزواج، وبأنه من السهل عليه أن يحصل على المال.

أجاب القس قائلاً إنه قد أعطى رأيه فيما يخص إجازة الزواج، وخلال أيـــام قليلة جدا سيجعلها غير ضرورية.

قال: "جوزيف، أتمنى أن لا يكون هذا الاستعجال قد نشأ من نفـــاد صـــبرك أكثر من أن يكون قد نشأ من خوفك، لكن بما أنه قد نبع بالتأكيد من أحـــد هـــذين

قال جوزيف: "أكيد، في مكان أفضل ستتقابلان ثانيةً ولن تفترقا أبدًا".

أعتقد أن القس لم يسمع تلك الكلمات، لأنه لم يهتم بها، وبدأ الرثاء وتساقطت الدموع على صدره. في النهاية صاح قائلاً: "أين صغيري؟"

وبينما كان منفجرًا في الرثاء، كانت مفاجأة عظيمة ومبهجة أتمنى أن يشاركها القارئ مشاركة وجدانية؛ حيث رأى ابنه وكان في الحقيقة مبتلاً، لكنه حيٌّ وجرى تجاهه. كان الشخص الذي قد نقل خبر نكبته متسرعًا للغاية، أعتقد أن الناس أحيانًا تروي أخبارًا سيئة من مصدر ليس جيدًا، فحينما رآه يسقط في النهر بدلاً من أن يذهب لمساعدته مباشرةً جرى لإخبار والده بقدرٍ ، قرر أنه حتميٌّ، لكن أنقذ الطفلَ نفسُ البائع المتجول المسكين الذي قد أنقذ أباه من قبل من محنةٍ أصغر. الآن فاق مرحُ القس حزنه فعانق ابنه وقبله آلاف المرات، ولف الحجرة وهو يرقص كالمتهيج، لكن بمجرد أن اكتشف وجه صديقه القديم البائع المتجول وسمع العهد القوي الذي كنّه له، ماذا كانت أحاسيسه؟، إنها لم تكن ذلك الشعور الودود في عناقات كليهما للآخر، ولم تكن تلك التي يستقبل بها الرجل العظيم طاقات الغادرين الوقحاء لأغراضه المؤذية، ولا تلك التي بها يتمنى أخ صغير تافه مرحَه السابق بابن، أو رجل يهنئ خصمه لحصوله على ربة بيت ومرتبة مرموقة، أو مقام رفيع. لا أيها القارئ لقد شعر بغليان، تدفق قلب عطوف وخصب وأمين تجاه الشخص الذي منحه التزاما حقيقيًّا، لو أنك تستطيع أن تتخيل، فله فكرة موجودة لن أحاول عبثًا مساعدتك فيها.

عندما انتهت تلك النوبات أخذ القسُّ جوزيف جانبًا، وتحدث قائلاً: "لا يا جوزيف، لا تفتح الباب لعواطفك إن كنت تريد السعادة".

لم يعد جوزيف ولا حتى جوب Job نفسه يستطيع الصبر، فقاطع القسَّ قائلاً إن إعطاء النصيحة أسهل من أخذها، ولا يدرك أنه يستطيع التغلب على نفسه حينما أدرك أنه قد فَقَد ابنه أو حينما رجع.

أجاب أدمس رافعًا صوته: "ولد؟ ليس من المناسب للرعوس اليافعة لتعطى نصيحة للشعر الرمادى. إنك جاهل بحنان المشاعر الأبوية، فحينما تصبح أبًا ستكون قادرًا فقط على معرفة ما يستطيع الأب أن يشعر به. ليس هناك إنسان مجبر على المستحيلات، وفقدان الطفل هو واحد من تلك المحن الكبيرة، حيث يمكن أن تجعل أحزاننا مفرطة".

صاح جوزيف قائلاً: "حسنًا سيدى، لو أننى أحب سيدة مثل حبك لابنك فمن المؤكد أن فقدانى لها ستجعل أحزانى مساوية لفقدانك لابنك".

أجاب أدمس: "نعم، لكن هذا الحب حماقة وخطأ ويجب التغلب عليه، إن هذا الحب يستمتع به كثير من الجنس البشرى".

قال جوزيف: "مؤكد، سيدى، ليست خطيئة أن أحب زوجتى ولا حتى أن أشغف بها لدرجة الجنون!"

قال أدمس: "حقا، لكن، إن كل رجل عليه أن يحب زوجته بلا شك ... نحن ملزمون بذلك ... لكن علينا أن نحبها بلطفٍ وشغف".

قال جوزيف: "إننى خائف، سأصبح متهمًا بالخطيئة على الرغم من كل محاولاتى. فأنا متأكد، أننى سأحب دون أى لين".

صاح أدمس: "إنك تتحدث بحماقةٍ وسخافة".

قالت السيدة أدمس التى سمعت الجزء الأخير من محادثتهما: "حقا، إنك أنت نفسك تتحدث بحماقةٍ أكثر، أتمنى يا عزيزى أن لا تُلقى عظة عن أى شىء من تلك المبادئ مثل الأزواج الذين يمكنهم حب زوجاتهم جيدًا. لو علمت أن لديك تلك الموعظة فى المنزل لأحرقتها، وأُعلن إن لم أقتنع أنك أحببتنى بقدر ما استطعت فيمكننى الرد على نفسى، لكنت كرهت واحتقرت نفسى. ياله من شىء مضحك! يا لها من عقيدة رائعة حقا! زوجة لها الحق فى الإصرار على حب زوجها لها بقدر

السيدة رأتها فى تلك الورطة، وأن منزلها ليس مرتبًا، لكن لو كانت تعلم بتشريف سيادتها لوجدتها فى حالةٍ أفضل. لم يُبد القس أية اعتذارات على الرغم من أنه كان مرتديًا نصف رداء الكهنة وملابس تحتية وقلنسوة النوم. ورحب بهم بشدة فى كوخه المتواضع واستدار إلى السيد ديدابر قائلاً، Non mea renidet in domo lacunar. بمعنى: لا يوجد سقف منقوش بالعاج أو الذهب يتلألأ فى بيتى أجاب العاشق قائلاً إنه لا يفهم الويلزية فحملق القس بعينيه ولم يعط أى رد.

كان السيد ديدابر أو الوجيه ديدابر شابًا ذا منزلة اجتماعية، وطوله حوالى أربعة أقدام وخمسة إنشات. إنه لا يغطى رأسه سوى شعره الخاص، قلته جعلته فى حاجة إلى باروكة. ووجهه نحيف وشاحب، وشكل جسده وساقيه لا بأس بهما، وكتفاه دقيقان وليس بهما رَبْلَة، ومشيته ربما تكون أكثر دقة إذا أطلقنا عليها وثبة. وعقليته مناسبة جدا لشخصيته، سنتناولها أولاً سلبيًا. إنه لم يكن جاهلاً تمامًا حيث إنه يستطيع أن يتحدث بعض الفرنسية، ويغنى أغنيتين أو ثلاثًا بالإيطالية، لقد عاش فى العالم طويلا فأصبح غير خجول، وكثيرًا ما يكون فخورًا فى القصر، يبدو أنه لا يميل لحب اكتساب المال واختزانه؛ فهو مسرف فى نفقاته وليس به كل ملامح الإسراف فهو لا يُفرط فى شلن، ولا يكره النساء لأنه دائمًا يلاحقهن إلا أنه لا يخضع للشهوة، وسط هؤلاء الذين يعرفونه على أحسن وجه، شخصيته هادئة للغاية فى مباهجة. لا يشرب الخمر وليس مدمنًا للعاطفة لكنْ كلمة أو كلمتان من عدوٍّ تهدئه على الفور.

لكى نعطيه الآن دفعة أو دفعتين على الجانب الإيجابى: على الرغم من أنه وُلد ولديه ثروة شاسعة فقد اختار تعويضًا قذرًا وحقيرًا لمكان أقل منزلة، ليعتمد كليةً على إرادة شخص يطلقون عليه شخصًا عظيمًا، والذى عامله بأقصى ازدراء وانتزع منه خضوعًا تامًا لسيطرته، التى خضع لها تمامًا على حساب ضميره وكرامته وبلده حيث لديه فيها نصيب كبير جدا. ولنضف اللمسات الأخيرة على شخصيته، فهو راضٍ تمامًا بشخصيته ومواهبه، وهو مستعد أن يسخر ويضحك

على أية نقيصة فى شخصٍ آخر. ذلك هو الشخص الصغير أو إلى حدٍّ ما شىء صغير، والذى وثب وراء السيدة بوبى داخل مطبخ السيد أدمس.

انسحب القس وصحبته من جانب المدفأة التى كانوا جالسين بجوارها ليفسحوا مكانًا للسيدة وصُحبتها. وبدلاً من رد انحناءات السيد أدمس أو كياسته البالغة استدارت السيدة أدمس إلى الليدى بوبى قائلةً : Quelle bête! Quell animal! (بمعنى: كم أنه أبله! كم أنه حيوان!) وبمجرد أن علِمت بوجود فانى (حيث لم تكن محتاجة تفاصيل وقوفها بالقرب من جوزيف لتؤكد تطابق شخصها) سألت العاشق إن كان يعتقد أنها فتاة جميلة؟

أجاب قائلاً: " سيدتى إنها مثل من قابلتهم من قبل".

ردت السيدة قائلة: "أنا لم أتخيل، أن لديك ذوقًا جيدًا".

صاح العاشق قائلاً: "لأننى لم أُحبكِ قط".

قالت: "سخيف! تعرف أنك دائمًا تسبب لى مقتًا شديدًا".

أجاب العاشق: "أنا لم أذكر مقتًا مع ذلك الوجه، أتوسل إليكِ يا سيدتى العزيزة أن تغسلى وجهكِ قبل أن تقولى مقتًا". ثم ضحك واستدار ليتدلل به مع فانى.

كانت السيدة أدمس طوال هذا الوقت تترجى السيدات أن يجلسن، وهو طلب نالته فى النهاية. ظل الولد الصغير الذى حدثت له الحادثة واقفًا بجوار المدفئة، ووبخته أمه لأنه لم يتصرف بطريقة مهذبة، لكن دافعت عنه السيدة بوبى وقالت للقس وهى تمدح جماله إنه يُشبهه للغاية. وحينما وجدت فى يده كتابًا سألته إن كان يستطيع القراءة.

صاح أدمس قائلاً: "نعم، قليل من اللاتينية يا مدام، فقد تلقى توًّا درسًا من [النحو اللاتينى الذى يعنى التذكير والتأنيث] Quae Genus قالت: "شىء تافه لشخص متسائل، أريد أن أسمعه يقرأ قليلاً من الإنجليزية".

أصبح رجلاً ريفيًا وقاضى صلح المحكمة الفصلية فى المدينة، حيث كان يقطن صديقه القديم فور وصوله. حدثت أمور تورط فيها جندى فاضطر بول لحضور القضايا. الرجولة والزمن وتغير المناخ غيرت ليناردو كثيرًا، فلم يستجمع بول ملامح صديقه القديم سريعًا. لكن كان هذا مختلفًا بالنسبة لليناردو، فقد عرف بول لحظة رؤيته له، ولم يستطع أن يمنع نفسه من ترك مقعده وجرى بسرعة ليعانقه. وقف بول فى البداية مندهشًا قليلاً، لكن بمجرد أن علِم معلومات كافية من صديقه رد المعانقة بولعٍ جعل كثيرًا من الناظرين يضحكون، وأبدى قليل منهم شعورًا عاليًا ومتناغمًا للغاية.

لكى لا نحجب التفاصيل الدقيقة عن القارئ، فقد أصر ليناردو على عودة صديقه معه إلى منزله هذا المساء، ووافق على هذا الطلب، وحصل بول على إذن إجازة لمدة شهر من قائد الوحدة.

لو أتاحت لنا الظروف إعطاء أية إضافة للسعادة التى كان فيها بول أثناء الزيارة، فقد لاقى تلك السعادة البالغة عند وصوله منزل صديقه؛ باكتشاف أن زوجته معرفة قديمة عرفها سابقًا فى مدينته، وهى دائمًا ذات طبع لطيف، وشخصيتها قوية وسط أصدقائها الحميمين، وكل فرد منهم يقول عنها أنها إلى حدٍّ بعيد أحسن نساء العالم.

لكن سيدة فاضلة مثل هذه، كانت لا تزال امرأة فلنقل إنها ملاك وليست ملاكًا".

صاح القس قائلاً: "لابد أنك تخطئ، لأن ما تقرأه هراء".

أجاب الابن: "إن هذا فى الكتاب".

ثم التزم السيد أدمس الصمت بتمكن يبعث الاحترام والثقة، وواصل دِك قائلاً: "على الرغم من أن شخصيتها من هذا النوع الذى ينسب إليه الرجال اسم ملاك فإنها فى داخلها كانت منتبهة إلى أنها أنثى متكاملة، وذلك أعطاها درجة كبيرة من العناد الذى كان ملحوظًا وواضحًا جدا".

مَرّ يوم أو يومان منذ وصول بول قبل أن تظهر تلك الأمثلة، لكن كان مستحيلاً إخفاؤها فترةً أطول. وسريعًا ما فقدت هي وزوجها إدراكهما بوجود صديقهما، وبدأ النزاع أقوى من أى وقتٍ مضى. واستمر النزاع بأقصى حرارة وتلهف، على الرغم من أن الأسباب الأولى التى أثارت النزاع تافهة. ليس هذا فحسب، فعلى الرغم من أنه يبدو شيئًا لا يُصدق أن عاقبة المشكلة فى الخلاف كانت دائمًا سبب عنف الخلاف، وهى كما يلى: لو كنت تحبنى فمن المؤكد أنك لن تتنازع معى على تفاهةٍ مثل هذه. والإجابة واضحة للغاية حيث يتوقف النقاش بينهما على حدٍّ سواء، والجواب عليه دائمًا بإضافةٍ مثل: إننى متأكد أن لدىَّ أكثر من سبب يجعلنى أقول ذلك فأنا على الصواب.

كان بول دائمًا فى كل هذه الخلافات ملتزمًا الصمت التام، واحتفظ بهدوءٍ تام دون إبداء أدنى تحيز لأى طرف. وفى يوم تركت السيدة الحجرة وهى فى غضبٍ شديد لم يستطع لينارد أن يكرر الإشارة إلى خلافه لصديقه. قال: هل هناك ما هو أبشع من تلك المرأة؟ ماذا أفعل معها؟ لقد شغفت بها إلى حد الجنون، وليس لدىَّ داعٍ للشكوى منها غير هذا العناد الذى فى رأسها، فكل ما تُثبته هو أنها سوف تتحصن ضد كل إقناع فى العالم، أرجوك أعطنى نصيحتك.

قال بول: "أولاً، سوف أعطيك رأيى، وهو ببساطةٍ أنك مخطئ، فالمفترض أنها هى المُخطئة، فهل موضوع خلافك مهم؟ ما الذى يهم إن كنت قد تزوجت بمعطفٍ أحمر أو أصفر؟ على هذا يكون خلافك.

افترض لو أنها كانت مخطئة فبما أنك تُحبها كما تقول بولع، وأعتقد أنها تستحق هذا الحب، أليس الإقلاع عن هذا الخلاف، على الرغم من أنك تعلم جيدًا أنك على الصواب، سيكون أكثر حكمة، بدلاً من أن تخضع أنت وهى لأى قلق؟ من ناحيتى، لو كنت متزوجًا سوف أقرر عقد اتفاق مع زوجتى بشأن كل الخلافات (خاصةً التفاهات)، فالطرف المقتنع أنه على الصواب سيتنازل دائمًا عن النصر، وهو ما يعنى أننا مستعدان للكف عن الخلاف".

كلمة قد مضت فى تلك الحادثة السخيفة، خاصةً أنها اقتنعت أنها قد أخطأت. لاحق ذلك خلاف بسيط لكن بأقصى إرادة تامة لكل منهما، وقد انتهت بتأكيد أن بول قد أقنعها تمامًا أنها قد أخطأت، على ذلك ترابطا فى مدح صديقهما.

قضى بول وقته الآن بارتياح شديد، وقد قلَّتْ تلك الخلافات أكثر مما كانت عليه وأيضا أقصر من المعتاد، لكن وَضَع الشيطان أو بعض الحوادث المشئومة، – التى لم يكن للشيطان يد فيها –، حدًّا لسعادته. وهو الآن وأبديًّا المرجع الخاص لكل خلاف، بعد أن اعتقد على نحوٍ كامل أنه قد أسس فيه تعاليم الطاعة، لم يتردد فى أن يؤكد لكل منهما بصورةٍ شخصية أنهما على الصواب فى كل نقاش، حيث إنه اتبع من قبل أسلوبًا مناقضًا.

وفى يومٍ حدثت مشاكسة عنيفة أثناء غيابه واتفق كلا الطرفين أن يرجعا إلى حكمه، وأقر الزوج مؤكدًا أن الحكم سيكون لصالحه، أجابت الزوجة لابد أنه مخطئ حيث اعتقدت أن صديقه قد اقتنع أنها نادرًا ما تخطئ ... ولو عَلِم الموضوع بأكمله ... أجاب الزوج قائلاً: "عزيزتى، إننى لا أرغب فى التحدث عن الأحداث الماضية، لكننى أعتقد أنكِ لو علمتِ كل شىء أيضا لن تتصورى أن صديقى سيكون كليةً فى صفك".

قالت: "بما أنك تستفزنى فسوف أذكر مثالاً. تتذكر خلافنا على إرسال جاكى إلى المدرسة فى الطقس البارد، وهى نقطة تنازلت عنها لك لمجرد الشفقة، وأنا أعلم أننى على الصواب، وبول نفسه قال لى بعد ذلك إنه أيضا اعتقد ذلك. أجاب الزوج قائلاً: عزيزتى، إننى لن أرتاب فى صحة كلامك، لكننى أؤكد لكِ بكل جلال، حينما عَرضت ذلك عليه كان فى صفى، وقال أنه سوف يتصرف بنفس الطريقة. ثم واصلا الحديث عن عدد لا حصر له من أمثلةٍ أخرى، التى أعطى فيها بول رأيه لكلا الطرفين وهو يقسم سرًّا. فى النهاية وَثِق كلاهما فى الآخر، وهاجما بقسوة عذر بول، واتفقا أنه انتهز الفرصة فى كل خلاف تقريبًا أوقع بينهما. ثم أصبح بعد ذلك كل منهما محبًّا للآخر، وامتلأ كل منهما بالعطف فتنافسا معًا على

انتقاد سلوكهما، وتعاونا على وضع السخط على بول؛ حيث كانت الزوجة خائفة من عواقب دامية، وتوسلت جديًّا لزوجها أن يتركه يرحل اليوم التالى فى هدوء، وهو الوقت الذى تحدد لأجل رحيله ثم يقطع صلته به".

على الرغم من أننا يمكننا أن نعتبر هذا تصرفًا حقيرًا من لينارد، أخذت زوجته وعدًا منه (على الرغم من أن ذلك كان صعبًا) لكى يتبع نصيحتها، لكن أظهر كلاهما برودًا غير عادى لبول فى هذا اليوم، فقد كان سريع التفهم، وأخذ لينارد جانبًا وحثه على الذهاب إلى منزله؛ فقد اكتشف السر فى النهاية. اعترف بول بالحقيقة، لكنه أخبره عن الخطة التى ساعدته فى فعلها. وعلى ذلك أجاب الآخر أنه قد تصرف بطريقةٍ ودودة لكى يُعايشه فى الخطة بأكملها، وبذلك أقنع نفسه بسريته. أجاب بول بشىء من السخط إنه قد أعطاه دليلاً كافيًا كيف كان قادرًا على إخفاء سر على زوجته. رد لينارد ببعض من الدفء أن لديه أكثر من سبب لتوبيخه لأنه سبب معظم المشاجرات التى حدثت بينهما بسبب تصرفه الغريب وربما (إن لم يكشف كل واحد منهما للآخر الموضوع) سبب انفصالهما. ثم قال بول."... لكن حدث الآن شىء ما أوقف قراءة دِك"، وهو ما سوف نتتبعه فى الفصل التالى.

وبَّخت الليدى بوبى جوزيف على إهانته لديدابر، لكنه أجاب أنه يمكن أن يهاجم جيشًا بأكمله لنفس السبب.

قالت السيدة: "أى سبب؟"

أجاب جوزيف: "لقد كان وقحًا مع تلك الفتاة".

قالت السيدة: "ماذا؟ أعتقد أنه كان ينوى تقبيل الفاسقة. وهل يُضرَب الرجل من أجل هذا الغرض؟ عليك أن تعلم يا جوزيف أن ذلك السلوك لا يناسبك".

قال السيد بوبى: "سيدتى، لقد رأيت المشكلة بأكملها، وأنا لست مع أخى فى ذلك، حيث إننى لا أعلم ما الذى يجعله يأخذ على عاتقه أن يكون نصيرًا لتلك الفتاة".

قال أدمس: "إننى أناصره فى ذلك لأنه صبى شجاع، ويليق بأى رجل أن يكون نصيرًا للطهارة، والذى لا يدافع عن امرأة على وشك أن يتزوجها سيكون أحقر جبان".

قال السيد بوبى: "سيدى، إن أخى ليس زوجًا مناسبًا لتلك الفتاة ... " قالت السيدة بوبى: "لا، ولا أنت، وحينما يشجع أدمس تلك الأفعال فهو بذلك يتصرف بنفس طريقتك، إننى مندهشة للغاية مما تورط نفسك فيه. أعتقد أنه من الأفضل أن تجعل عنايتك لأجل زوجتك وأسرتك".

أجابت السيدة أدمس: "فى الحقيقة، يا سيدتى، إن ما تقولينه هو عين الحق". "إنه يتحدث بكثيرٍ من الهراء، فالأبرشية بأكملها هم أولاده. إننى متأكدة أننى لا أفهم ما يعنيه، فسوف يجعل بعض النساء يشككن فى أنه يضل طريقه، لكننى أبرئه من ذلك، فيمكننى قراءة الكتاب المقدس مثله، ولم ألاحظ قط أن القس قد أُجبر على أن يعيل أولاد ناس آخرين، وعلاوةً على ذلك ما هو إلا راعى أبرشية مسكين وليس لديه شىء كما تعلمين".

قالت الليدى بوبى التى لم تقل لها كلمة من قبل: " إن ما تقولينه حسن للغاية، إنك امرأة حساسة جدا، وأؤكد لكِ أن زوجك يتصرف بحماقة ويعارض مصلحته الشخصية، يرى أن ابن أخى يعارض بقوة هذا الشاب (جوزيف)، وفى الحقيقة لا أستطيع لومه، فهذا بأى حال لا يتماشى مع عائلتنا".

بينما أخذ الوجيه العاشق يثب وهو يلف الحجرة، ويهز رأسه من الوجع تارة، ومن الغضب تارة، وكانت باميلا توبخ فانى على ثقتها أن تضمن لنفسها ارتباط أخيها الشاب. أجابت فانى وهى تبكى بدموعٍ سالت حتى بدأت تبل منديلها، حيث لاحظ جوزيف ذلك فأخذ ذراعها ولفه فى ذراعه وحملها، وأقسم أنه سيقطع صلته بأى شخص عدو لها، فهو يحبها أكثر من العالم بأكمله. وذهب وفانى تحت ذراعه الأيسر، ملوحًا بعصاه بيده اليمنى، ولم يفكر السيد بوبى ولا الوجيه العاشق فى معارضته.

مكثت الليدى بوبى وصحبتها فترة قصيرة جدا بعد ذلك، حيث دعاهم جرس السيدة الآن للنهوض حيث إنه وقت العشاء.

بدا أدمس الآن غاضبًا للغاية، فبدأت زوجته التى أدركت هذا تقوم ببعض من الملاطفة الزوجية. قالت له أن لديه سببًا يجعله قلقًا، لأجله ربما دمر عائلته تقريبًا بخدعة ... لكن ربما كان حزينًا بسبب فقدانه اثنين من أولاده، وهما جوزيف وفانى. قالت ابنته الكبرى: "فى الحقيقة يا والدى، إنه صعب للغاية إحضار أغراب هنا ليأكلوا طعام أولادك من أفواههم. لقد آويتهما منذ أن أتيا المنزل، وأنا لا أرى أن هناك شيئًا يجعلك تأويهما فترة أطول، هل أنت مُلزم بإعطائهما طعامًا لو لم تكن جميلة؟ لكننى لا أرى أنها أجمل من أخريات. لو كان الناس يحتفظون بجمالهم، فأعتقد أنه نادرًا ما سيصير حالها أحسن من جيرانها. بالنسبة للسيد جوزيف فليس لدىَّ شىء أقوله، فهو شاب له مبادئ أمينة، وسوف يُعطى بعضًا من الوقت من أجل ما يملكه. لكن بالنسبة للفتاة ... لماذا لا ترجع إلى المكان الذى هربت منه؟ إننى لن أعطى تلك المتشردة القذرة نصف بنى، على الرغم من أن لدىَّ كثيرًا من النقود، وعلى الرغم من أنها تموت جوعًا".

صاح دِك الصغير قائلاً: "لكننى فى الحقيقة أنا وأبى سوف نعطيها نقودًا بدلاً من أن تموت فانى المسكينة جوعًا، سوف أعطيها كل هذا الخبز والجبن"... (عارضًا ما يمسكه فى يده). ابتسم أدمس للولد وقال له إنه مسرور أن يرى أنه مسيحيى صالح، ولو كان معه فى جيبه نصف بنى لكان أعطاه له، قائلاً له إن واجبه أن ينظر إلى كل جيرانه على أنهم إخوته وأن يحبهم وفقًا لذلك.

قال: "نعم يا والدى، أنا أحبها أكثر من أخواتى، لأنها أجمل من أية واحدة منهن".

قالت الأخت وهى تعطيه لكمة على أُذنيه: "هل هى وقحة للغاية؟" ربما قد استاء الأب أن يعود جوزيف وفانى والبائع المتجول معًا فى تلك اللحظة.

طلب أدمس من زوجته أن تُعد بعض الطعام لتناول العشاء، فأجابت إنها فى الحقيقة لن تستطيع لأن لديها شيئًا آخر لابد من فعله. وبخها أدمس لأنها تخالف أوامره وقال عدة نصوص من الكتاب المقدس؛ ليثبت أن الزوج أعلى من الزوجة وهى عليها الطاعة. أجابت الزوجة إنه هراء أن ينقل نصوصًا من الكتاب المقدس خارج الكنيسة، فمن الملائم جدا أن تقول تلك الأشياء على المنبر، لكنه انتهاك لحرمة المقدسات أن تتحدث بها فى حديث عام.

قال جوزيف للسيد أدمس إنه لم يأت ليسبب له أو للسيدة أدمس مشكلة، لكن لمساعدة صُحبتهم للجورج (حانة فى الأبرشية)، حيث أوصى على قطعة من لحم الخنزير المملح وخضراوات من أجل العشاء. وبالفعل قبلت السيدة أدمس – وهى سيدة طيبة جداء، إلا أنها صارمة جدا فى الاقتصاد – تلك الدعوة، وحذا القس حذوها وذهبوا جميعًا معًا، ولم يتركوا دِك الذى أعطاه جوزيف شلنًا حينما سَمِع عن نيته المتسامحة من أجل فانى.

الفصل الثانى عشر

يرى القارئ الطيب شيئًا
لن يسعده كثيرًا.

أصبح البائع المتجول فضوليًا للغاية منذ سماعه بأن المنزل الكبير فى تلك الأبرشية يخص الليدى بوبى، ومنذ أن علِم أنها أرملة السير توماس، وأن السير توماس قد اشترى فانى وعمرها حوالى ثلاثة أعوام أو أربعة من سيدة متجولة. وهكذا بعد أن انتهت الوجبة الشهية قال لفانى إنه يعتقد أنه يستطيع تعريفها بأبويها. تابعت المجموعة بأكملها الحديث، وعلى الأخص هذا العرض، وهو عرض البائع المتجول. ثم واصل الحديث بينما كانوا جميعًا يُبْدون اهتمامًا شديدًا: "على الرغم من أننى الآن راضٍ بتلك الطريقة المتواضعة فى الحصول على الرزق، فقد كنت فيما مضى رجلاً ذا منزلة اجتماعية، حيث أطلق علىَّ ذلك كل من هم فى مكانتى. باختصار، إننى كنت قارع طبول فى كتيبة أيرلندية، وبينما كنت فى تلك المنزلة المشرفة، فقد خدمت ضابطًا فى كتيبتنا فى إنجلترا فترة التجنيد. وفى مسيرتنا من مدينة برستول حتى مدينة فرووم (فمنذ تضاءلت تجارة الصوف، جَهَّزت المدنُ المشهورة بالقماش، الجيشَ بعدد كبير من المتطوعين) صادفنا سيدة على الطريق يبدو عمرها حوالى ثلاثين عامًا أو نحو ذلك، وهى ليست بالغة الجمال، وإن كان كافيًا لجندى، وبمجرد أن ذهبنا إليها أسرعت فى خطاها وبدأت الحديث مع سيداتنا (فكل رجال من المجموعة وهم ضابط ورجلان وطبلة، كان معهم نساؤهم إلا أنا) وواصلت السير معنا، وتقدمت لها فى الحال، وأدركت أنها ستكون من نصيبى، فتوددت إليها أثناء مسيرتنا وسريعًا نلت مُرادى. وعقدنا صفقةً خلال ميل وعشنا معًا كرجل وزوجته حتى يوم مماتها".

قاطعه أدمس قائلاً: "أعتقد أنك تزوجت بترخيص رسمي، فأنا لا أعرف كيف استطعت أن تجد وسيلة للحصول على إعلان الزواج، بينما كنت تتنقل من مكان لآخر". قال البائع المتجول: "لا يا سيدي، لقد حصلنا على ترخيص رسمى لنذهب للفراش معًا دون أى إعلان للزواج".

قال القس: "آه! آه!!، استلزام إجازة رسمية ممكن أن يكون مسموحًا بدرجة كافية، لكن من المؤكد، من المؤكد أن الآخر هو الطريقة الأكثر انتظامًا والأكثر رغبة". وواصل البائع المتجول قائلاً: "رجعت معى إلى كتيبتنا وتنقلت معنا من حى إلى حى، حتى فى النهاية، بينما كنا فى مدينة جالوى أُصيبت بحمى وتوفيت. وعندما كانت على فراش الموت نادتنى إليها وبكت بمرارة، وقالت إنها لا تستطيع أن تترك هذا العالم إلا بعد أن تكشف لى عن سر، وهو الخطيئة التى تُثقل قلبها. قالت إنها قد سافرت فيما مضى فى صحبة غجر كانوا يسرقون الأطفال خلسة، ومن جانبها كانت المرة الوحيدة التى ارتكبت فيها الجريمة التى قالت عنها إنها ندمت عليها أكثر من باقى خطاياها، فربما كانت قد سببت موت الأبوين. وأضافت أنه تقريبًا من المستحيل أن أصف جمال المخلوق الصغير الذى كان عمره حوالى سنة ونصف، حينما قمت بخطفها. فقد احتفظنا بها (حيث كانت بنتًا) فوق السنتين فى صحبتنا حينما بعتها مقابل ثلاثة جنيهات للسير توماس بوبى فى مدينة سومرست. وهل هذا الاسم موجود إلى الآن فى تلك البلدة؟"

قال أدمس: "نعم، هناك عديد من عائلات بوبى وهم فرسان، لكننى أعتقد أنه ليس هناك فارس حى حتى الآن، علاوةً على ذلك إنها إجابات دقيقة جدا فى كل نقطة، ليس هناك مكان للشك لكنك نسيت أن تخبرنا عن الأبوين اللذين سُرق منهما الطفل".

أجاب البائع المتجول: "كان اسمهما أندروس، ويعيشان على بعد حوالى ثلاثين ميلاً من الفارس، وقالت لى علىَّ أن أتأكد من إيجادها مهما تكن الظروف، فلديهما ابنة اسمها غريب جدا، اسمها باملا أو باميلا، فينطقه البعض بهذه الطريقة والبعض ينطقه بالطريقة الأخرى".

سقطت فانى الآن مغميًّا عليها حيث تغير لون وجهها عند ذكر الاسم، وأصبح جوزيف شاحب الوجه، وبدأ دِك المسكين يصرخ بتألمٍ، وسقط القس على ركبتيه وهتف بصلوات الشكر أنهم قد اكتشفوا ذلك قبل ارتكاب الخطيئة المروعة، وهى الزواج المحرم، وأصيب البائع المتجول بالذهول ولم يكن قادرًا على تفسير كل هذا الارتباك، السبب الذى كشفته فى الحال ابنة القس وهى الوحيدة التى لم تكن مهتمة (حيث كانت الأم تدلك صدغ فانى وتُعطيها أقصى اهتمام) وفى الحقيقة، كانت الابنة المخلوقة الوحيدة التى لم تشفق على فانى، على الرغم من أننا أنفسنا نشفق عليها، سوف نتركها قليلاً ونذهب فى زيارة قصيرة لليدى بوبى.

الفصل الثالث عشر

ترجع القصة إلى الليدى بوبى،
مع بيان الأسباب التى أدت إلى
الصراع الرهيب فى مقاومتها بين الحب والكبرياء،
وما يحدث حاليًا.

جلست الليدى مع ضيوفها لتناول العشاء، لكنها لم تأكل شيئًا. بمجرد أن غيرت ملابسها همست لباميلا أنها شعرت ببعضٍ من التعب، وطلبت منها أن تقوم بواجب الضيافة لزوجها والوجيه ديدابر، ثم ذهبت إلى حجرتها، وأرسلت لسيلبسلوب وألقت بنفسها على الفراش تعانى من آلام الحب والغضب واليأس، ولم تستطع أن تُخفى تلك المشاعر الملتهبة أطول من ذلك دون أن تنفطر حزنًا. اقتربت سليبسلوب من فراشها الآن وسألتها عن حال سيادتها لكن بدلاً من أن تكشف عن اعتلالها كما نوت بدأت تقول مدحًا طويلاً عن جمال وأخلاق جوزيف أندروس، وخَتَمَتْهُ فى النهاية بالتعبير عن قلقها من أن تضيع كل هذه الصفات الحسنة على شخصية وضيعة مثل فانى. سيلبسلوب التى كانت تعرف جيدًا كيف تهدئ من غضب سيدتها، فقالت مكررة بمبالغة كما أمكن، كل ما قالته سيدتها، وأنهت متمنيةً لو كان جوزيف رجلاً ذا منزلة اجتماعية، وأن ترى سيدتها بين ذراعى هذا الرجل.

ثم نهضت السيدة من فراشها ودارت فى الحجرة مرة أو مرتين، وصاحت بتنهدٍ عميق: "مؤكد أنه سيجعل أية امرأة سعيدة".

قالت: " إن سيادتك، ستكونين أسعد امرأة فى العالم معه. ما الذى سيقوله الناس؟ هل أخاف من تناول الحلوى حتى لا يقول الناس إنى مولعةٌ بأكل الحلوى؟ لو فكرت فى الزواج من رجل لن يمنعنى العالم بأكمله. إن سيادتك ليس لديك أبوان ليحافظا عليك من الفساد، علاوةً على ذلك فهو فرد فى عائلة سيادتك الآن، وهو رجل ذو منزلة اجتماعية مثل أى رجل فى البلدة، ولماذا لا تتبع المرأة إرادتها مثل الرجل؟ لماذا لا تتزوجين الأخ مثلما تزوج ابن أخيكِ الأخت؟ إننى متأكدة أنها لو كانت جريمة لها توابع لما اقتنعت سيادتك بها".

أجابت السيدة: "لكن عزيزتى سيلبسلوب، لو استطعت إقناع نفسى بارتكاب تلك القضية ففانى الملعونة تقف فى طريقى حيث إن الغبى ... آه!، كم أكرهه وأحتقره".

صاحت سيلبسلوب قائلة: "إنها فتاة قبيحة ووقحة، اتركيها لى، أعتقد أن سيادتك قد سمعتِ عن تجربة جوزيف مع أحد خدم السيد ديدابر بشأنها، وقد أمرهم سيده باختطافها بالقوة هذا المساء. وسوف أحرص على ألا تنقصهم المساعدة. لقد كنت أتحدث مع هذا الرجل الذى كان فى الطابق الأسفل حينما أرسلت إلىّ".

قالت السيدة: "اذهبى الآن، فأنا أتوقع أن السيد ديدابر سيذهب قريبًا. افعلى كل ما فى استطاعتك، فقد قررت أن تلك الفاسقة لن تستمر مع عائلتنا، وسوف أحاول الرجوع إلى الضيوف، لكن أعلمينى برحيلها". ذهبت سيلبسلوب وبدأت سيدتها تستجمع سلوكها بالطريقة التالية:

" ماذا أفعل؟ كيف أترك تلك العاطفة تزحف إلىّ دون إدراك!؟ كم يوم مضى منذ أن خضعت لسؤال نفسى السؤال نفسه: أتزوج خادمًا!؟ يا له من خَبل! هل سأتحمل نظرات معارفى بعد ذلك؟ لكن يمكننى الهروب منهم، الهروب مع شخص أعتقد أنه سيُعطينى سعادةً أكثر من التى سيُعطيها لى العالم! أهرب ... لكى تطاردنى الجميلات دائمًا، حيث إن خيالى المشتعل قد سأم النظر شوقًا لإرضاء كل

شهوة وكل رغبة بأقصى درجات أمانيهن. ها... وهل سأشغف هكذا على خـادم؟! إننى أحتقر وأكره عاطفتى ... بل ولماذا؟ أليس هو كريمًا ولـطيفًا وحـنونًا؟ ... حنون مع من؟ مع أدنأ حقيرة، مخلوقة أقل منى. ألم يفعل ذلك؟ ... نعم، فقد فضلها هى. لعنة على جماله، وعلى قلبه الوضيع الذى يمكن أن ينحط بحقارة لتلك الفاسقة الحقيرة، ويكون أصم ناكرًا لكل ما أقدمه له من احترام. وهل سأستطيع بعد ذلـك أن أحب هذا الوحش؟ لا، سأمزق صورته من صدرى، سـأدوس عليـه وأقاومـه ازدراءً، فسوف أملك تلك المفاتن الهزيلة التى أكره الآن أن أتلف بها نظرى، فلـن أترك تلك المرأة الوقحة تشاغب فى المفاتن التى أدينها. على الـرغم مـن أننـى أكرهه، وعلى الرغم من أننى سأدوس عليه بقدمى، هل ستفتر همتـه لهـم، لـيس هناك شخص آخر سوف يتذوق السعادة التى احتقرها.

لماذا أقول سعادة؟ إنها ستكون بالنسبة لى تعاسة. فسوف أُضحى بـسمعتى ومكانتى فى الحياة، وأنغمر فى شهوة دنيئة ووضيعة. كم أكره التفكير! كم ستكون السعادة النابعة من التفكير فى الفضيلة والتعقل رائعة أكثر من اللذة الماسخة النابعة من الرذيلة والحماقة! إلى أين أترك تلك العاطفة المجنونة غير اللائقة بى تلاحقنى بمجرد إهمال استجماع مساعدة العقل لمعاونتى؟ العقـل الموجـود أمـامى الآن، ورغباتى فى ألوانهم المناسبة، ساعدتنى فى طردها على الفور. نعم فأنا أشـكر الله وأشكر كبريائى حيث إننى قد تغلبت تمامًا الآن على تلك العاطفة التافهة، وإن لـم يكن فى طريقها حاجز فسوف يحتقر كبريائى أية لذة تكون نتيجة لدناءة، وخسة..."

رجعت سيلسلوب فى تلك اللحظة فى سرعة وهى شديدة الانفعال وصـاحت قائلةً بأقصى تلهف: "آه، سيدتى لدى أخبار غريبة. أتى توم الخادم توًا من الجورج، فعلى ما يبدو أن جوزيف وبقيتهم فى حالة هستيرية، وقال: هناك رجل غريب قـد اكتشف أن فانى وجوزيف أخ وأخت".

صاحت السيدة قائلةً فى دهشة: "كيف يا سيلبسلوب؟!"

قالت سيليسلوب: "لم يكن لديَّ وقت يا سيدتي لكي أستفسر عن التفاصيل، لكن ما قاله توم حقيقي بالتأكيد".

تلك القصة غير المتوقعة قد محت تمامًا كل الأفكار الرائعة، التي صنعتها قبل ذلك بحكمةٍ بالغة أسمى قوة للعقل. باختصار، حينما يبدأ اليأس – الذي ساهم في إظهار قرارات الكُره الذي قد رأيناه – يتراجع، ترددت السيدة لحظة ثم نسيت كل فحوى مناجاتها لنفسها، طردت خادمتها وهي تأمرها بإحضار توم لها في قاعة استقبال البيت حيث ستسرع الآن لتخبر باميلا بالأخبار. قالت باميلا إنها لن تصدقه؛ حيث إنها لم تسمع قط أن أمها قد فقدت أي طفل أو أن لديها أحدًا غيرها وغير جوزيف.

انفجرت السيدة في ثورةٍ شديدة معها، وتحدثت بغرورٍ منكرة الأقارب الذين كانوا منذ عهد قريب في منزلة الخدم لها. لم تجب باميلا لكن رد زوجها بالنيابة عنها ووبخ عمته بقسوة على تصرفها مع زوجته، قال لها لو لم نكن في المساء لما مكثت لحظة في منزلها، فهو مقتنع لو أن تلك الفتاة استطاعت أن تبرهن أنها أختها لضمها لعائلته بالفعل وفعل هو أيضا نفس الشيء. ثم طلب إحضار الفتى والفتاة فأمرت السيدة بوبي بذلك على الفور، وهي تفكر بلباقة في الاعتذار لباميلا على ما قالته وقبلت ذلك بالفعل وسُوِّيَ كل شيء.

حضر البائع المتجول الآن، وحضر كل من فاني وجوزيف الذي لم يهجرها، وجاء القس أيضا، ليس فقط بسبب حب الاستطلاع الذي كان يتمتع بمقدار لا بأس به فيه، لكن أيضا لواجبه، كما كان يعتقد، ليتبعهما حيث واصل الطريق كله لمواساتهما حيث انفطر قلباهما الآن. لكن يجب أن يصليا صلاة شكر وأن يبتهجا على نجاتهما بمثل هذه المعجزة. حينما وصلوا قاعة بوبي ودَعتهم على الفور إلى قاعة الاستقبال، كرر البائع المتجول نفس القصة التي حكاها من قبل وأصرَّ على أن كل تفاصيلها حقيقية، لذلك فكل من سَمِع اقتنع تمامًا بالحقيقة ما عدا باميلا التي تخيلت أنها لم تسمع من والديها ذكر تلك الحادثة، فمن المؤكد أنها زائفة، وعدا

الليدى بوبى التى شكّت فى زيف القصة لرغبتها المتوهجة أن تكون تلـك القـصة حقيقية، وتمنى جوزيف جديًا - الذى خشى صحتها - أن تكون زائفة.

طلب منهم السيد بوبى جميعًا الآن، أن يؤجلوا فضولهم وتصديقهم المطلق أو عدم تصديقهم حتى الصباح التالى، حيث ترقب أن السيد أندروس وزوجته سـوف يوصلانه هو وباميلا إلى المنزل فى مركبته، ثم يتأكدان دون شك من معرفة صدق أو زيف تلك القصة، حيث قال إن فيها أحداثًا كثيرة قوية تثبت صدقها، لذلك فهو لم يدرك أن البائع المتجول لديه أية مصلحة فى اختراعها أو فى محاولة فرض هـذا الزيف عليهم.

استضافتهم السيدة بوبى جميعًا حيث تعودت على تلك الـصُّحبة وهـم ابـن أخيها وزوجته وأخوها وأختها، والوجيه العاشق والقس، حيث استضافتهم بـسعادة بالغة على مائدتها. وبالنسبة للبائع المتجول طلبت من خدمها أن يرحبوا بـه بقـدر المستطاع. كانت الصحبة فى قاعة الاستقبال مليئة بالمرح والسعادة ما عدا المحبين خائبَىْ الأمل؛ حيث جلسا صامتين ومتجهمى الوجه، وألحَّ السيد بوبى على جوزيف أن يعتذر للسيد ديدابر وقَبِل ذلك. مضى الوقت بين الوجيه العاشق والقس بعديدٍ من النكات، خاصةً على ملابس كل واحد منهما، وتسلت الصحبة بذلك كثيرًا. وبَّخـت باميلا أخاها جوزيف على القلق الذى أبداه حينما اكتشف أن له أختًا جديدة. قالـت إن كان قد أحبَّ فانى حبًّا خالصًا فليس هناك سبب ليندب أنها قريبته.

على ذلك بدأ أدمس يتحدث عن الحب الأفلاطونى، وانتقـل انتقـالاً سـريعًا للسعادة فى العالم الآخر، وأنهى مؤكدًا بقوة أنه ليس هناك شىء مثل الـسعادة فـى ذلك. وضحكت باميلا وضحك زوجها على ذلك. واقتـرح الزوجـان الـسعيدان أن ينسحبا (حيث لم يُبد أحد أقل رغبة فى الخلود للراحة) فذهبوا جميعًا إلى عديـد مـن الأسرَّة التى أُعدت لهم فى نفس المنزل، ولم يمنع أدمس نفسه من الذهاب إلى منزله حيث كان ليلاً عاصفًا. فى الحقيقة ألحت فانى أنَّ عليها الذهاب لمنزل القـس، لكـن ألّح عليها جوزيف بقوة ونصحها أن تمكث بالمنزل، وفى النهاية وافقت على ذلك.

الفصل الرابع عشر

ليلة مليئة بالمغامرات الغريبة التي
ينجو منها السيد أدمس بمعجزة، ويرجع هذا
إلى طيبته ويقظته.

بعد افتراقهم جميعًا بحوالى ساعة (فهى الآن بعد الثالثة صباحًا) شغل الوجيه ديدابر الذى لم تسمح له عاطفته لفانى أن يغلق عينيه، شغل تفكيره فى إيجاد وسيلة لإرضاء رغباته، وفى النهاية وجد طريقة تمنى تنفيذها أمر خادمه أن يخبره بمكان فاني، وبعد أن تلقى منه معلومات عن ذلك ارتدى بنطلونه وعباءته ومشى بهدوء تجاه الشرفة المؤدية إلى شقتها، وحينما أتى الباب كما تخيله فتحه بأقصى هدوء ممكن ودخل الحجرة. وتسربت إلى أنفه رائحة لم يتوقعها فى الحجرة وهى رائحة لا تناسب مخلوقة جميلة ورفيعة، ومن المحتمل أن لا يكون لها تأثير جيد على عاشق أقل شوقا منه.

على الرغم من أنه استجمع خطاه بصعوبة خارج الفراش حيث لم يكن هناك ضوء، وهَمَس بصوت جوزيف وهو يفتح الستائر (حيث كان مقلدًا بارعًا) "فانى، ملاكى لقد أتيت لأخبرك أننى قد كشفت عن زيف القصة التى سمعناها الليلة الماضية. لم أعد أخًا لكِ، لكننى حبيبك ولن أؤجل الاستمتاع بكِ بعد ذلك. فلديكِ ثقة كافية فى إخلاصى، ولا تشكى فى أننى لن أتزوجكِ، وإذا لم تكونى تحبيننى فسوف تحرميننى الاستمتاع بمفاتنك". كان يقول ذلك وهو يتجرد من الملابس التى كان يرتديها، وتسلل إلى الفراش وعانق ملاكه، كما أقنعها، ببهجة كبيرة. وإن كان قد اندهش لأنه لم يتلق إجابة فقد كان سعيدًا لأنه وجد أن معانقته تُرد بنفس التحمس.

ولم يستمر طويلاً فى هذا الارتباك حيث اكتشف هو وعشيقته خطأهم، ففى الحقيقة لم تكن سوى البارعة سيلبسلوب التى قد عانقها، لكن على الرغم من أنها عرفت على الفور الشخص الذى حسبته جوزيف، فقد تحير ليخمن من كانت تحل محل فانى، فلم ير ولم يأخذ إشارة من تلك السيدة، ولم يساعده الضوء فى إحرازه. بمجرد أن أدرك العاشق ديدابر خطأه حاول الهروب من الفراش بأقصى سرعة، لكن منعته سيلبسلوب المتيقظة من ذلك. فتلك المرأة الحصيفة التى خاب أملها فى تلك العروض اللذيذة، حيث وعدها خيالها بإسعادها، عقدت العزم أن تُضحى على الفور بعفتها. فى الحقيقة، لقد أرادت أن تجعل بعض الجروح تلتئم، حيث أعطاها تصرفها السابق سمعة، وحيث إن ذهنها كان حاضرًا فقد رأت أن العاشق التعيس قد أُلقى من حسن الحظ فى طريقها لكى تُعيد رأى سيدتها فى عفتها غير المتخيلة.

فى تلك اللحظة، حينما حاول أن يقفز من الفراش أمسكت قميصه بسرعة، فى نفس الوقت الذى كان يتأوه قائلاً: "آه، يالكِ من وغدة! فقد هاجمتِ عفتى، وأعتقد أنكِ دمرتِنى فى نومى، سوف أغتصبك وسوف أحكم عليكِ بأقصى عقوبة".

حاول العاشق أن يحرر نفسه منها، لكنها سريعًا ما أمسكت به، وحينما حاول المقاومة صاحت قائلةً: "قاتل! قاتل! لص! مدمر!" وعند تلك الكلمات قفز القس أدمس – الذى كان مسترخيًا، وهو مستيقظ فى الحجرة المجاورة يفكر فى اكتشاف البائع المتجول – من فراشه دون أن يرتدى سترة من الملابس وأسرع إلى الحجرة التى تأتى منها الصرخات. فذهب مباشرةً إلى الفراش فى الظلام حيث يرقد جسد العاشق المقبوض عليه (حيث مزقت سيلبسلوب قميصه تقريبًا) ووجد جسده ناعمًا للغاية، وسَمِعه يتوسل لسيلبسلوب فى صوتٍ منخفض أن تتركه، فلم يشك إلا فى أن الفتاة فى محاولة اغتصاب، فانقض فى الحال على الفراش ورقد ممسكًا بذقن سيلبسلوب فوجد لحية خشنة فأكد ذلك اعتقاده، وبذلك أنقذ العاشق الذى هرب الآن ثم استدار تجاه سيلبسلوب، فتلقى تلك الصفعة على خده فتوهج غضبًا، وحاول أن يرد تلك الصفعة بعنفٍ بالغ، حيث تلقت سيلبسلوب المسكينة ضربة بقبضة يده

التى مرت بها فى الظلام وسقطت على الوسادة، ومن المحتمل أن تكون قد تغلبت بذلك على الشبح ... سقط أدمس – الذى لم تصب ضربته – مباشرةً على سيلبسلوب التى حاولت صده بقدر ما استطاعت، وكانت يده تلاحق يدها وهو يحاول صدها، لكن من حسن الحظ ساعدتها ظلمة الليل ... فصرخت قائلةً إنها امرأة، لكن أجاب أدمس قائلاً إنها شيطان، ولو كانت كذلك فسوف يتصارع معه. وحينما أثارت غضبه وضربته مرة ثانية على خده ردها بضربةٍ فى أحشائها فصرخت بصوتٍ عالٍ يُسمع كلٌ من فى المنزل. ثم أمسكها أدمس من شعرها (فسقط رداؤها المزدوج أثناء الشجار) وخبط رأسها فى الوسادة، وطلب كلاهما معًا إنارة الضوء. انزعجت الليدى بوبى فى بادئ الأمر حيث استيقظت هى وضيوفها، وبما أنها سيدة جريئة، ارتدت ثياب نومها، ومعطفها، وخُفها وأخذت شمعة مضيئة دائمًا فى حجرتها، ثم ذهبت فى جرأةٍ إلى حجرة سيلبسلوب، حيث دخلت لحظة اكتشاف أدمس بما يشبه الجبلين اللذين تحملهما سيلبسلوب أنه قد تورط مع امرأة. وأنهى قائلاً لها إنها ساحرة قبيحة، وقال إنه تخيل أن ثديها يرضع حشدًا من الشياطين. وحينما رأت سيلبسلوب السيدة بوبى داخل الحجرة صاحت قائلةً بصوت مسموع: "النجدة! وإلا سوف أُغتصب". وحينما رأى أدمس الضوء استدار بسرعة ورأى السيدة (ورأته هى أيضا) بمجرد أن أتت بجانب الفراش، ولم يمنعها حياؤها من الاقتراب أكثر حينما رأت أدمس عاريًا. ثم بدأت تسبُّه بأنه أوقح رجل، ووبخته خاصةً على وقاحته لأنه اختار منزلها لارتكاب هذا الفسق واختار خادمتها الخاصة لتكون أداة لشهواته البهيمية.

اكتشف أدمس ملامح رفيقه فى الفراش، وأدرك الآن أنه عار، وذهل أكثر من الليدى بوبى، ولف نفسه فى الحال بالأغطية الموضوعة على الفراش التى حاولت بلا جدوى سيلبسلوب العفيفة أن تطرده منها، ثم ارتدى ملابسه، وأكد براءته وقدم اعتذاراته للسيدة سيلبسلوب على ضربه لها، وأقسم أنه حسبها ساحرة. وحينما نظرت السيدة بوبى على الأرض لاحظت شيئًا يتلألأ، وحينما أخذته وجدت أنهما زِرّان من الماس لكُمٍّ. ثم رأت ذلك الكم نفسه وهو كم قميص به شريط مكشكش.

قالت: "ما معنى هذا؟" قالت سيلبسلوب: "آه، سيدتي! ، أنا لا أعرف ما الذى حدث، لقد كنت مرعوبة، ربما كان بالحجرة عشرات الرجال".

قالت السيدة: "ومن هو صاحب تلك الأزرة وهذا القميص؟"

قال القس: "مؤكد أنهما يخصان الرجل الذى حسبته امرأة، حينما جئت الحجرة، لذلك تعاقبت الأخطاء إحداها وراء الأخرى، فلو كنت أعلم أنه رجل لأمسكته، هل هو هرقل آخر؟ ففى الحقيقة هو يشبه هيلاس Hellos". ثم حكى السبب الذى جعله ينهض من الفراش، وحكى الباقى إلى أن جاءت السيدة الحجرة، وسيلبسلوب والشاب الذى كان معها حيث كانت رءوسهما فقط المرئية فى نواحى معاكسة على الفراش، فلم تستطع أن تحجم عن الضحك، ولم تصرّ سيلبسلوب على اتهام القس بأن لديه أية دوافع للاغتصاب. لذلك طلبت منه السيدة أن يرجع إلى فراشه بمجرد رحيلها، وطلبت من سيلبسلوب أن تنهض وتحضر إلى حجرتها الخاصة، ورجعت السيدة إلى هناك.

حينما ذهبت إلى حجرتها اعتذر أدمس مرة ثانية، وقدم العديد من التوسلات للسيدة سيلبسلوب التى قبلت بتحشم اعتذاره. ليس هذا فحسب، وإنما بدأت تتصرف معه بلطف، ثم ترك الفراش فى الحال وشق طريقه ليذهب إلى فراشه، لكن لسوء الحظ بدلاً من أن يتجه ناحية اليمين؛ اتجه ناحية الشمال وذهب إلى الحجرة التى ترقد بها فانى التى (كما يتذكر القارئ) لم تغفل عيناها الليلة الماضية؛ حيث انزعجت بما حدث لها فى اليوم الذى كان تفكيرها كله فى حبيبها جوزيف، فهى الآن نائمة نومًا عميقًا، حتى إن كل الضوضاء التى حدثت فى الحجرة المجاورة لم تيقظها. تلمس أدمس طريقه خارج الفراش وغير ملابسه برفق، وهى عادة عودته عليها السيدة أدمس ثم تسلل إلى الفراش، وركن جسده على أحد أعمدة الفراش الذى خصصته له دائمًا السيدة الطيبة.

مثل القط أو الكلب الذى ينام فى حضن حورية جميلة يتألم لها عشرة الآف من المحبين، ترقد الفتاة الفاتنة فى هدوء ، وتجهل مشهد البهجة حيث يضطجعون متأملين الهجوم الذى سوف يحدث لفأر أو المفاجأة بطبقٍ به خبز وزبد، يرقد أدمس بجوار فانى جاهلاً الجنة التى بالقرب منه، ولا يمكن للحلاوة التى تنبثق من أنفاسها أن تفوق رائحة التبغ الموجودة فى أنف القس. وهى الآن نائمة ولم تتجاوز الرجل الطيب، وحينما جاء جوزيف، الذى أعطاها موعدًا سرًّا؛ ليأتى إليها فى منتصف اليوم، دق على باب الحجرة برفق وحينما كرر مرتين صاح أدمس قائلاً: "تعال، من أنت؟"

اعتقد جوزيف أنه أخطأ فى الحجرة، على الرغم من أنها أعطته أدق توجيهات، وعلى الرغم من أنه يعرف صوت صديقه، ففتح الباب ورأى بعض الملابس النسائية على الكرسى. استيقظت فانى فى تلك اللحظة وفردت يدها على لحية أدمس، وصاحت: "آه يا إلهى! أين أنا؟" قال أدمس: "يا إلهى أين أنا؟". ثم صرخت فانى، وقفز أدمس من على الفراش، ووقف جوزيف كما يطلق عليه الكاتب التراجيدى مثل التمثال الذى عليه علامات الدهشة. صاح أدمس قائلاً: "كيف جاءت حجرتى؟" صاح جوزيف قائلاً فى دهشة: "كيف أتيت أنت حجرتها؟"

أجاب أدمس إنه لا يعرف شيئًا عن الموضوع سوى أنها عذراء، وحيث إننى مسيحيى فأنا لم أعرف إن كانت رجلاً أم امرأة. فهو متشكك ولا يؤمن بالشعوذة، ومؤكد أنهم كما لو كانوا يعيشون الآن فى أيام سول saul، فقد سُحرت ملابسه أيضا واختفت وأصبحت فانى مكانهم. وهو لا يزال مُصرًّا على أنه فى حجرته. لكن فانى أنكرت ذلك بشدة وقالت إن محاولته إقناع جوزيف بهذا الهراء أقنعها بمكايده المؤذية. قال جوزيف فى غضبٍ شديد: "كيف؟! هل صدرت منه أية وقاحة تجاهك؟". قالت: "إننى لا أستطيع اتهامه بشىء سوى أنه تسلل بخسة إلى جانبى فى الفراش، وتلك وقاحة كافية لا يفعلها أى رجل إلا إن كانت نواياه مؤذية".

لم يهتز رأى جوزيف النبيل فى أدمس بسهولة، وحينما سمع من فانى أنها لم يلحق بها أى ضرر؛ جعله ذلك أكثر هدوءًا، إلا أنه لا يزال مندهشًا، وحيث إنه يعرف المنزل وأن حجرات السيدات في هذا الجانب بجوار حجرة السيدة سيلبسلوب، والرجال على الجانب الآخر، اقتنع أنه في حجرة فانى، وأكّد لأدمس تلك الحقيقة، وتوسل إليه أن يروى كيف أتى إلى هنا. بدأ أدمس الذى ارتدى قميصه والذى لم يوجه إهانة لفانى ، يروى كل ما حدث. وعندما انتهى قال له جوزيف إنه من الواضح أنه اختلط عليه الأمر بالاتجاه يمينًا بدلاً من الاتجاه شمالاً.

صاح أدمس يهلل بعلامات التعجب، وهو يقول: "هذا صحيح، لقد أشرت إلى الصواب". ثم ذهب إلى الحجرة وهو يفرك يديه، وتوسل لفانى أن تغفر له، مؤكدًا لها أنه لم يعرف إن كانت رجلاً أم امرأة. صدقت تلك المخلوقة الطاهرة كل ما قاله، وقالت له إنها لم تعد غاضبة، وطلبت من جوزيف أن يوصله إلى حجرته، حيث يمكنه أن يمكث هناك إلى أن ترتدى هى ملابسها. وبالتالى رحل جوزيف وأدمس واقتنع فيما بعد بالخطأ الذى ارتكبه، وبينما كان يرتدى ملابسه أكد أنه آمن بالسحر والشعوذة ولا يدرى كيف ينكرها المسيحى.

الفصل الخامس عشر

وصول جافر وجامر أندروس،
وشخص آخر لم يُتوقع وصوله،
وحل مثالي للصعوبات التي أثارها
البائع المتجول.

بمجرد أن ارتدت فاني ملابسها رجع جوزيف إليها وتحدثا معًا لفترةٍ طويلة، وانتهى الحديث باتفاقهما على أنهما إن كانا حقا أخًا وأختا فقد تعاهدا على أن يعيشا في عُزوبةٍ أبدية وأن يعيشا معًا للأبد في صداقةٍ مثالية.

كانت الصُّحبة تتمتع بمرحٍ بالغ أثناء تناول الإفطار، وكان جوزيف وفاني في بهجةٍ أكثر من الليلة الماضية. أخرجت السيدة بوبي الزِّرَّ الماسيَّ الذي امتلكه الوجيه العاشق بالفعل وادعى أنه معرض للمشي أثناء نومه. في الحقيقة، لم يخجل على الإطلاق من علاقته الغرامية، وحاول أن يقول ما ليس بالحقيقة فيما حدث بينه وبين الجميلة سيليبسلوب.

وأخيرًا، انتهوا من تناول الشاي في الوقت الذي علموا فيه بوصول السيد أندروس الكبير وزوجته. وتعرفوا عليهما على الفور واستقبلتهما الليدي بوبي بلطف بالغ وأصبح قلبها وقلب جوزيف وفاني يخفق بشدة. ربما شعروا بقلقٍ في تلك الفترة الفاصلة لا يقل عن قلق أُديبوس Oedipus نفسه وقت تحديد مصيره.

وبدأ السيد بوبي الحديث عن الموضوع بإخبار الرجل الكبير أن لديه ابنًا آخر في الصُّحبة وقال له آخذًا بيد فاني، وتلك هي ابنته التي خطفتها عصابة

جيبسيس وهى فى طفولتها. أكد السيد أندروس بعد قليل من الاندهاش أنهِ لم يكــن لديه ابنة خطفها الغجر، ولم يكن لديه أى أولاد سوى جوزيف وبــاميلا. وأراحــت تلك الكلمات المحبين، لكن كان لها تأثير مختلف علـــى الليـــدى بـــوبى، فـــأمرت باستدعاء البائع المتجول الذى حكى قصته من قبل. فـــى النهايـــة جـــرت الـــسيدة أندروس إلى فانى وعانقتها وهى تصيح قائلة: "إنها، إنها ابنتى!" اندهـــشوا جميعًـــا لهذا التعارض بين الرجل وزوجته، وهرب الدم من وجه المحبين فاستدارت السيدة العجوز إلى زوجها الذى اندهش أكثر من الباقين، وحينما استردت حيويتها قالت ما يلى: "يمكنك أن تتذكر يا عزيزى عندما ذهبت إلى جيبرلاتـــار Gibraltar وأنـــت رقيب تركتنى حاملاً، ومكثت بالخارج ما يزيد على ثلاث ســـنوات. فـــى غيابـــك وضعت من غير ريب تلك الابنة، والسبب الذى يجعلنى أتذكر أننى أرضعتها إلـــى أن خُطفت منى. وفى ظهر يوم عندما أصبح عمر الطفلة سنة أو سنة ونـــصف أو ما إلى ذلك أتت إلىَّ سيدتان من عصابات الغجر، وعرضتا علـــىَّ أن تقـــرآ لـــى حظى، واحدة منهما كان لديها طفل فى حضنها، فعرضت لهما يدى، وتمنيـــت أن أعرف إن كنتَ سترجع البيت ثانية، وأنا أتذكر ذلك كما لو كان بالأمس، وبشرتانى بصدق أنك سترجع. تركت البنت فى الفراش؛ وذهبت لأصـــب لهـــم كوبًـــا مـــن الشراب، وهو أحسن ما عندى، وعندما رجعت بالقدر (إننى متأكدة أننى لم أغـــب فترة طويلة) رحلت السيدتان. وكنت خائفة إن كانتا قد سرقتا شيئًا، فبحثت وبحثـــت لكن دون نتيجة، ويعلم الله أن ما لدى قليل بالنسبة لهما لتسرقاه. فى النهاية، عندما سمعت الطفلة تصرخ فى الفراش ذهبت لكى آخذها ... لكـــن يـــا للمفاجـــأة، لقـــد اندهشت حينما وجدت بدلاً من ابنتى التى وضعتها فى الفراش – والتى كانت طفلة جميلة ومليئة بالحيوية، كما لو كنت تراها فى يومٍ من أيام الصيف – ولدًا مـــسكينًا وضعيفًا وعلى ما يبدو أنه لن يعيش أكثر مـــن ســـاعة. فجريـــت للخـــارج وراء السيدتين، وأنا أشد شعرى وأصرخ مثل أية مجنونة، لكننى لم أسمع كلمة منهما منذ ذلك اليوم إلى يومنا هذا. وعندما رجعت رفع الطفل المسكين (وهو جوزيف، وقـــد أصبح قويًا كما هو واقف الآن) عينيه لى ليرثى آلامى، ولم أجد أى شىء مؤذٍ فى

قلبي يمكنني فعله. وعندما جاءتني جارة لي في ذلك الوقت، وسمعت بما حدث نصحتني بأن أعتني بهذا الطفل المسكين، وربما يُعيد الله ابنتي يومًا ما. وعلى ذلك أخذت الطفل وأرضعته ليتأكد الناس جميعًا أنني أمه التي ولدته. وفي الحقيقة، لقد أحببت الولد في وقت قصير حبًا جمًا كما لو كان ابني ... في الحقيقة، أصبحت الأيام صعبة وأنا لديّ طفلان، وليس لديّ شيء سوى عملي الذي كان قليلاً إلى حدٍّ ما ليعولهما، فأُجبرت على طلب مساعدة الإبرشية، لكن بدلاً من مساعدتي نقلوني بترخيص من المحكمة خمسة عشر ميلاً في المكان الذي أعيش فيه الآن، حيث استوطنت فيه قبل أن تأتي. جوزيف (وهو الاسم الذي أطلقته عليه ... والله وحده يعلم إن كان قد أُطلق عليه اسم التنصير أم لا، ويعلم بأي اسم).

جوزيف كان يبلغ من العمر خمسة أعوام حينما رجعت، فأعتقد أنه أكبر من ابنتنا بسنتين أو ثلاث (فأعتقد أنها هي أيضا كذلك) وحينما رأيته أنت قلت إنه ولد ذو بنية قوية حتى دون أن تهتم بعمره، وأنا أيضا، وعندما رأيت أنك لم تشك في أي شيء في الموضوع فكرت في أن أحتفظ به لنفسي، خشية أن لا تُحبه. وكل هذا صحيح تمامًا، وسوف أقسم عليه قبل أي حُكم في المملكة.

سمع البائع المتجول الذي استدعته السيدة بوبي، بأقصى انتباه قصة جامر أندروس وحينما انتهت سألها إن كان الولد الزائف لديه علامة على صدره؟ فأجابت نعم، لديه فراولة جميلة كما لو أنها مزروعة في بستان. أقر جوزيف بذلك وفك أزرة ملابسه وسط الصحبة وبين لهم. قال جافر أندروس وهو شخص مرح وبعيد النظر وهو لا يرغب أن يكون لديه أطفال أكثر: "حسنًا، أعتقد أنك أثبت بوضوحٍ تام أن هذا الولد ليس ابننا، لكن هل أنت متأكد أن تلك الفتاة ابنتنا؟"

أحضر القس البائع المتجول وطلب منه أن يُعيد القصة التي حكاها له اليوم السابق في الحانة التي قد أذعن بها، وحكى ما رآه القارئ والسيد أدمس. ثم تأكد من رواية زوجته لكل الظروف المتبادلة ومن الفراولة التي على صدر جوزيف. عند تكرار كلمة "فراولة" قال أدمس الذي رآها دون أي انفعال: "يا إلهي! هناك

شيء ما يدور برأسي". لكن قبل أن يبوح بأى شيء طلب منه خادم الحضور. عندما ذهب أكد البائع المتجول لجوزيف أن أبويه كانا شخصين أعلى منزلة من هؤلاء الذين يحسبهم أبويه؛ حيث إن عصابة الغجر خطفوه من منزل رجل ذى منزلة اجتماعية، واحتفظوا به عامًا بأكمله، وحينما وجدوا أنه بين الحياة والموت استبدلوه بطفل آخر فى صحة أفضل، بالطريقة التى قُصت من قبل. قال بالنسبة لاسم أبيه فإما أن تكون زوجته لا تعرفه أو تكون نسيته، لكنها أخبرته أنه يعيش على بعد حوالى أربعين ميلاً من المكان الذى حدث فيه الاستبدال، وتعهد بأن لا يخفى أية آلام، محاولاً أن يبحث معه عن المكان.

لكن قرر الحظ الذى من النادر أن يكون جيدًا أو رديئًا، أو يجعل الناس سعداء أو تعساء بفتور، أن يدخر له هذا العمل. ربما يسعد القارئ ليتذكر أن السيد ويلسون قرر القيام برحلة إلى الغرب، وفيها سوف يمر على أبرشية السيد أدمس، وقد وعد بزيارته. وقد وصل الآن إلى باب الليدى بوبى من أجل هذا الغرض، وقد توجه أبعد من منزل القس، وبعث الخادم الذى رأيناه سابقًا يطلب من السيد أدمس الحضور. بمجرد أن ذكر اكتشاف سرقة طفل، ونطق بكلمة "فراولة" طلب السيد ويلسون بتلهف ونظراتٍ هائجة أن يجعله يدخل الحجرة، حيث دخل دون أدنى اهتمام لأى أحد سوى جوزيف وعانقه، ووجهه شاحب ويرتعد وطلب أن يرى العلامة الموجودة على صدره، وتبعه القس وهو يثب مرحًا ويفرك يديه وهو يقول: Hic est quem quaeris, inventus est بمعنى: لقد وجدت ما تبحث عنه). ونفذ جوزيف طلب السيد ويلسون الذى بمجرد أن رأى العلامة أصبح فى أقصى بهجة وعانق جوزيف بنشوةٍ لا تُوصف، وقال بدموع الفرح: "لقد وجدت ابنى، إنه بين ذراعىَّ!" لم يتذوق جوزيف بعد نفس بهجة أبيه (إلا أنه فى الحقيقة قد تذوقها) فقد رد له معانقته بدفء، لكن بمجرد أن أدرك من رواية أبيه توافق كل حدث: الشخص والوقت والمكان ألقى بنفسه عند قدميه وعانق ركبتيه بدموعٍ وطلب رحمته التى منحها له بكثيرٍ من الحنان، وتلقاها بذلك الاحترام الذى امتزج بوهنٍ

من كلا الطرفين أثر على كل الحاضرين ... لم يكن هناك أحد فى ألم وتهيج سوى الليدى بوبى التى تركت الحجرة، ولاحظها بعض أفراد الصحبة الذين فسروا ذلـــك بأنه شىء غير لطيف بالمرة.

الفصل السادس عشر

بما أنه الفصل الأخير، تنتهى
هذه القصة الحقيقية
بنهايةٍ سعيدة.

وفعلت فانى ما فعله حبيبها جوزيف بما يمليه الواجب الذى عبرت به تجـاه أبويها، والفرحة التى أظهرتها؛ لأنها قد عثرت عليهما. قبلتها جامر أندروس وقالت إنها فى غاية السعادة لأنها رأتها. لكن من جانبها هى لم تحب أى أحد أكثـر مـن حبها لجوزيف. لم يُبد جافر أندروس أى انفعال ملحوظ، فقد سعد بها وقبلها، لكنـه اشتكى بمرارةٍ قائلاً إنه يريد غليونه لأنه لم يُدخن هذا الصباح.

وقد نسب السيد بوبى الذى لم يعرف شيئًا عن حب عمته لجوزيف، رحيلهـا المفاجئ إلى غرورها وتَرفعها عن العائلة التى تزوج منها، لذلك طلـب الـذهاب بأقصى سرعة، وبعد أن هنأ السيد ويلسون وجوزيف حيًّا فانى وناداها بأنها أُختـه، وعرفها أيضا على باميلا التى تصرفت بلياقةٍ بالغة.

وقد أرسل الآن رسالة إلي عمته التى ردت بأنها تتمنى له رحلة طيبة، لكنها كانت منزعجة ولا تستطيع رؤية أى أحد. لذلك استعد للرحيل، وحينما دعا الـسيد ويلسون وباميلا وجوزيف لمنزله، أصرا كلاهما على استجابته حتـى وافـق فـى النهاية، وحيث إنه حصل أولاً على رسالة من السيد بوبى ليخبـر زوجتـه بتلـك الأخبار، عَلِم أنها سوف تسعدها جدا، فلم يستطع تأجيـل لحظـة إخبارهـا بتلـك الأخبار.

اصطفت المجموعة بهذه الطريقة: ركب العجوزان مع بنتيهما فى المركبة، وتبعهم السيد ويلسون وجوزيف والقس أدمس، والبائع المتجول على ظهر حصان. وفي طريقهم أخبر جوزيف أباه بنيته الزواج من فانى، وعلى الرغم من أنه أبدى قليلاً من الاعتراض فى البداية، فإنه وافق قائلاً لو أنها مخلوقة طيبة كما تبدو، ووصفها واعتقد أن مساوئ حظها وميلادها ربما تُعوض، وعلى الرغم من أنه أصر على الزواج فقد أجله إلى أن يرى أمه، ووعى جوزيف كلامه بطريقة إيجابية وأطاعه باحترامٍ بالغ، وكان القس أدمس فى سعادةٍ بالغة؛ حيث انتهز بذلك فرصة لتأدية مراسم الكنيسة ليزوج أبناء أبرشيته دون إجازة رسمية.

مَجَّد السيد أدمس تلك المناسبة (ومرت تلك المراسم كما لو كانت لحظة) وقفز مصادفةً على حصانه وأنِفت الفرس النبيلة ذلك ... حيث كانت فى قمة النشاط، وقد اعتادت أن يركبها ركاب أكثر من هذا الرجل؛ حيث يركبها الآن مباعدًا ما بين رجليه، ولفروسيتها ربما كان لديها بعض من الاحتقار ....، جرت على الفور فى أقصى سرعة وصنعت العديد من الألعاب المُهرجة التى جعلت القس يسقط من على ظهرها، وحينما لاحظ جوزيف ذلك أتى لإسعافه.

هذا الموقف جعل الخادمين فى غاية المرح، إلا أنه أخاف فانى المسكينة قليلاً؛ حيث رأته وهو يمر بالمركبة، ظهر أحدهما فى حالة مرح والآخر فى حالة رعب لكن أنهى القس ذلك وأعلن أنه لم يُصب بأى أذى.

حررت الفرس نفسها من راكبها غير الكفء لركوب الخيل؛ حيث اعتقدت الفرس ذلك. وواصلت طريقها لكن أوقفها رجل وخادموه كانوا مسافرين على الطريق المعاكس، وهم الآن على مقربة من المركبة. وعندما وصلوا سَلم أحد الخادمين أدمس فرسه، وحيا الرجل أدمس الذى حينما رفع بصره تذكر على الفور أنه قاضى صلحٍ، حيث وقف هو وفانى أمامه للقضاء. حياه القس فى الحال بصدرٍ رحب، وأبلغه القاضى أنه قد وجد الشخص الذى حاول سبَّه هو والفتاة من يومٍ قريب، وقد سلَّمهُ لسجن سيلسبيرى حيث اتُّهم بعديد من السرقات.

تبادل القس والقاضى العديد من التحيات، وواصل القاضى رحلته، أما القس فرفض بازدراء عرض جوزيف لتبادل الخيول، وقال إنه يقدر على ركوبها مثل أى فارس فى المملكة. وركب الفرس ثانية، وواصلت الصُّحبة الآن السير ووصلوا فى سعادة لنهاية الرحلة، ونجا السيد أدمس من سقوط ثان لحسن حظه وليس لأنه راكب جيد.

وصلت الصحبة لمنزل السيد بوبى الذى استقبلهم جميعًا بلطفٍ واستضافهم بطريقةٍ باهرة، وبعد العادة الإنجليزية القديمة وهى الكرم التى لا تزال بعض العائلات تحتفظ بها فى بعض المناطق النائية فى إنجلترا، قضوا جميعًا هذا اليوم فى أقصى رضى، فربما كان من المستحيل أن تجد مجموعة من الأشخاص فى سعادة وتماسك وإخلاص. واستطاع كل من جوزيف وفانى أن يجدا وسائل ليكونا على انفراد أكثر من ساعتين، إلا أنها كانت أقصر وأجمل ساعتين يمكن تخيلها.

فى الصباح اقترح السيد ويلسون على ابنه أن يذهبا معًا فى زيارة لأمه، ولميوله المطيعة والرغبة والاشتياق لرؤيتها أثارت اهتمامه فاضطر أن يترك فانى. لكن أراحته طيبة السيد بوبى الذى اقترح أن يُرسِل مركبته ذات الجياد الستة للسيدة ويلسون، ورحبت باميلا جديًا بذلك، ووافق السيد ويلسون فى النهاية بعد أن توسل له جوزيف والسيد بوبى، وترك المركبة تذهب فارغة إلى زوجته.

وفى مساء يوم السبت رجعت المركبة وبها السيدة ويلسون، حيث انضمت إلى هذا الحشد السعيد. ويستطيع القارئ أن يتخيل أفضل وأسرع مما يمكننى وصفه، العناقات العديدة ودموع الفرح التى تَلت وصولها. إنه لشىء كافٍ أن نقول أنها اقتنعت بسهولة أن تحذو حذو زوجها فى الموافقة على الزواج.

وفى يوم الأحد أدّى السيد أدمس مراسم الزواج فى كنيسة أبرشية القاضى، راعى الأبرشية الذى أدَّى المهمة بلطفٍ شديد، وذهب عشرين ميلاً لأبرشية الليدى بوبى لتأدية المراسم، والتزم بوضوح أن لا يُسقط إعلان الزواج حيث إنه الثالث والأخير.

فى النهاية جاء اليوم السعيد الذى سوف يجعل جوزيف ينال كل أمانيه. فقد نهض وارتدى ثيابًا نظيفة وبسيطة، وهى إحدى ثياب السيد بوبى التى كانت مقاسه بالضبط، فقد رفض كل الملابس. وأيضا فانى التى فعلت مثله؛ حيث أقنعتها باميلا بألا ترتدى سوى ملابس قطنية رقيقة. فى الحقيقة الثياب التى قدمتها باميلا لها من أجمل الثياب وعلى حافة صدره ستان. وأعطتها أيضا زوجين من الجوارب القطنية الجميلة، وقد قبلت كل هذا وارتدت أحد أغطيتها الملفوف حول أذنيها وفوقه قبعة قشية بها خطوط حريرية ملونة باللون الأحمر ومربوط بها شريط باللون الأحمر. خرجت من حجرتها بتلك الثياب، ووجهها متورد وهى تستنشق العَبَق الجميل وأخذها جوزيف، الذى كانت عيناه تتلألأ توهجًا إلى الكنيسة، وكانت العائلة بأكملها حاضرة، حيث أدّى السيد أدمس مراسم الزواج، ولم يكن هناك شيء ملحوظ مثل تواضع فانى الصادق والرائع، إلا أن تقوى المسيحية الصادقة للسيد أدمس جعلته يوبخ السيد بوبى وباميلا علانيةً على ضحكاتهما فى مكانٍ مقدس وفى مناسبة جليلة. وقد أدّى القس المراسم كما لو كانت لأعلى أمير على الأرض، إلا أنه يُبدى الخضوع التام والاحترام لمرءوسيه فى أمورٍ أخرى، فلو حدث أقل شيء للذّين فسوف يفقد احترام كل الأشخاص. كان هذا مبدأه وهو أنه خادم لذوى مرتبة أعلى، ولا يستطيع أن يتخلى عن أقل شيء لأعلى حاكم على الأرض، ولا أن يهجر مهمته، لكرامته أو لدعواه. فى الحقيقة كان يؤكد دائمًا أن السيد أدمس فى الكنيسة يرتدى رداءه الكهنوتى، والسيد أدمس دون تلك الزينة فى أى مكان آخر كأنما هناك شخصان مختلفان تمامًا.

عندما انتهت مراسم الكنيسة أخذ جوزيف عروسه الجميلة إلى منزل السيد بوبى (حيث المسافة إلى هناك قصيرة، فهم لم يُفكروا بطريقةٍ لائقة فى استخدام مركبة) وتَبِعتهما باقى الصُّحبة أيضا مشيًا على الأقدام، وتم الآن تجهيز وليمة رائعة أبدى لها السيد أدمس شهية مدهشة، وقد أدهشت أيضا كل الحاضرين. فى الحقيقة، الأشخاص الوحيدون الذين لم يظهروا أى نقص فى تلك المناسبة كانوا هم

الذين أقيم الحفل من أجلهم. وقد أشبعا خيالهما بوليمةٍ رائعة حيث بشرهما بها اقتراب الليل، والاهتمام بها مَلأ عقليهما، على الرغم من أن هذا كان بأحاسيس مختلفة، فكان هذا كل ما تمناه أحدهما، بينما خففت الأخرى أمانيها بمخاوف.

فى النهاية، بعد أن مر اليوم بأقصى مرح وضُبِط بأتم لياقة، وقد زُود القس أدمس بالشراب والحلوى، مما جعله فى مرحٍ أكثر من عادته، وجاءت أسعد لحظة حينما جلست فانى مع أمها وأم زوجها وأختها.

وبعد ذلك خلعت ملابسها، ولم يكن لديها مجوهرات لتضعها فى علبة المجوهرات، ولا أشرطة جميلة لتفكها بأجمل انضباط. ويبدو أن خلع ملابسها كان مناسبًا لها، فلم تفقد زينتها؛ حيث كان جمالها هبة من الطبيعة، فلم يكن هناك ما يمكن أن تتجرد منه. كيف يمكننى أيها القارئ أن أعطيك فكرة ملائمة عن تلك الفتاة الجميلة!! فأوج الزهور يُظهر بشرتها ورائحتها تظهر جمالها، لكن لكى تُدركها كليةً تخيل الشباب والصحة والتفتح والنظافة والبراءة فى فراش الزفاف، تخيل كل هذه الأشياء بأقصى كمال، وبذلك يمكنك أن تضع صورة فانى الجميلة أمام عينيك.

بمجرد أن سَمِع جوزيف أنها فى الفراش طار إليها فى أقصى لهفةٍ وشوق. وفى دقيقة أصبح بين ذراعيها, حيث سنترك هذين الزوجين الجميلين لكى يستمتعا بالمكافأة الخاصة باستقرارهما، مكافأة عظيمة وجميلة؛ فأنا أعى أن جوزيف لم يحسد أنبل دوق، ولا فانى لم تحسد أجمل دوقة هذه الليلة.

فى اليوم الثالث، رجع السيد ويلسون وزوجته وابنهما وابنتهما البيت، حيث يعيشون الآن معًا فى نعمةٍ من النادر أن تُضاهى. أعطى السيد بوبى فانى كرمًا لم يُسبق، ثروة تُقدر بألفى جنيه فأنفقها فى عقارٍ صغير فى نفس الأبرشية مع والده حيث يسكن فيه الآن (جهزه أبوه له) وتُشرف فانى بإدارةٍ بارعة على مزرعة الألبان الخاصة به، إلا أنها غير قادرة الآن على الانطلاق كثيرًا حيث أخبرنى السيد ويلسون فى خطابه الأخير أن طفلها المنتظر يجعلها كبيرةً للغاية.

أهدى السيد بوبى السيد أدمس مائة وثلاثين جنيها سنويًا. وقد رفضها فى البداية وقرر أن لا يترك أبناء أبرشيته حيث عاش معهم فترة طويلة، لكن بما أنه استجمع قواه؛ عليه أن يحتفظ بمنصب راعى الأبرشية فى هذا الحىّ حيث قُلد هذا المنصب منذ عهدٍ قريب.

وإلى جانب الهدايا العديدة الجميلة التى تلقاها البائع المتجول من كلٍّ من السيد ويلسون والسيد بوبى فقد أعطى محصل الضرائب بالفائدة الأخيرة دينًا قد تحرر منه بذلك الإنصاف حيث كان محبوبًا للغاية فى جواره.

أما الليدى بوبى فقد رجعت إلى لندن بعد بضعة أيام؛ حيث تعرفت بشاب وهو فى سلاح الفرسان وقضيا معًا حفلات كل ليلة فى لعب الورق، وسريعًا ما مُحى جوزيف من ذاكرتها.

وظل جوزيف ينعم بفانى التى يشغف بها بأقصى حنان وبادلته هى كذلك. وسعادة هذين الزوجين ينبوع دائم من البهجة لأبويهما الحنونين، وما قد لوحظ بوضوح أنه قد أعلن أنه سوف يُقلدهما فى اعتزالهما، ولن يقنعه بائعو الكتب ولا مؤلفوها بالظهور فى حياة باذخة.

الختام

هدف فيلدينج من الرواية،
وتلقائية قصة جوزيف أندروس.

تعتبر قصة جوزيف أندروس الرواية الأولى لفيلدنج، ويمكننا القول إن أحداثها تتطور بحيوية. فبدلاً من وجود حبكة روائية تراكمية تعتمد على التشويق، تعتمد بنية هذه القصة على ذبذبات صغيرة لعاطفة تجتمع فى شكل مناسب؛ لتتحول إلى موجات هائلة من التغييرات فى الأحداث. مثال جيد على ذلك مناجاة الليدى بوبى لنفسها فى نهاية القصة تقريبًا (الباب الرابع - الفصل الثالث عشر) حيث إنها تعزم على التضحية بسمعتها وتتزوج خادمًا، وهو جوزيف أندروس. وبعد تفكير، أصبح الخزى غير محتمل: إنها سوف تنقذ سمعتها وتظل عازبة. عند هذا الحد أخبرتها خادمتها سيلبسلوب أن جوزيف لن يتزوج محبوبته فانى؛ لأن تلك الفتاة الجميلة أصبحت أخته التى فقدها منذ زمن. على الفور ناقضت سيدتها نفسها، وأعلنت أنها سوف تتزوج الخادم رغم كل شيء. تمثل تلك التغيرات بالنسبة للقارئ العصرى صراعًا داخليًا، تود الليدى بوبى أن تنعم بزوجٍ خادم وهى أيضا تريد أن تنعم بهيبة مكانتها، وحيث إن كلا الحافزين متعارضان تصل حالتها إلى حد الهستريا. هذه الجزئية من حالتها النفسية كانت أيضا حاضرة لفيلدنج وقُرائه، لكن العامل الأخلاقى الذى يمكن أن نعتبره ثانويًّا، يبدو أن له مغزى أوليًّا بالنسبة لهم. إنه عنصر خلع القناع: تريد أرملة البارون أن تؤمن بأنها أعلى شأنًا من العواطف البذيئة وأن رغباتها محترمة وعقلانية. لكن "فى الحقيقة" تسيطر عليها نفس الدوافع "الدنيئة" التى تقود كل المخلوقات البشرية، وهؤلاء الذين قد أدركوا عدم قدرتها على اتخاذ قرار عقلانى.

بالتالى، يكون خلع القناع داخليًا؛ فما يفعله فيلدنج هو أنه يضع قصتين جنبًا إلى جنب، ويترك واحدة تعلق على الأخرى، حالة مبدئية على سبيل المثال سيدة متحشمة فى مركبة تغضب، لأنه طُلب منها شراب قوى المذاق. بعد بضعة جمل، أحد قاطعى الطريق يسطو على المركبة ويخطف دورقًا فضيًا من السيدة المحتشمة ويشرب الشراب الذى بداخله، ويقول إنه شراب البراندى (الباب الأول – الفصل الثانى عشر). فى تلك التحولات، سخرية فيلدنج واضحة للغاية دون قصد. نموذج لأسلوبه الخفى: طريقة الليدى بوبى فى مخاطبة محاميها السيد سكوت، حيث إنها تتحول من انتقاده إلى الشعور بالعرفان بالجميل؛ تقول فى غضب: "إننى لا أفهم كلامك". تحط من شأنه بتكرار الضمير: "إنك وقح وتُحمّل نفسك الكثير...، عليك التعلم أفضل من ذلك، أؤكد لك". فى رده الحصيف، يستعجب سكوت من وصف سيادتها لفانى بأنها جميلة، حيث قال المحامى: "جميلات حقا!! إننى سعيد لمرح سيادتك". ثم تلقى فجأة هذا القول: "أرجوك يا سيد سكوت قل لى هل تمنح نوعًا من الأناقة؟" ثم يحكم على فانى بأنها: "عاهرة قذرة ومسكينة". ويكتمل الانقلاب حينما تقول هى: "حسنًا، لكن عزيزى سيد سكوت دعها تكن ما تكون، هؤلاء السيدات القبيحات سوف ينجبن أطفالاً". (الباب الرابع – الفصل الثالث) بعد هذه القصة يتوسع فيلدنج بهدوء فى التعليق ضمنيا أن الليدى بوبى "كانت لطيفة جدا فلم يكن لديها أية رذيلة تتنافى مع التربية السليمة".

حتى التأثيرات الكوميدية المبالغ فيها، مثل إفساد سيلبسلوب للغة، تنزلق برقة إن أراد فيلدنج، فمثلاً حينما وبخت أرملة البارون لأنها لم تُقدر حيرة سيادتها: "إنك مخلوق وضيع... عشب ضار ينمو فى حديقة عامة للخلق". لم تكن أذن سيلبسلوب تُحسن الاستماع لتستطيع التمييز بين "حديقة كوفينت"، و"الحديقة العامة" وهى ترفض بجزم أية صلة بينها وبين أحد مراكز لندن للفسوق: "ليس لدى ما يمكن فعله للحديقة العامة أكثر مما يفعله الناس".

تلك السخرية، وخلع الأقنعة، والصراعات، والتحولات تمثل أساس شكل الكتاب. إنها قصة بها عديد من الأشخاص يبدأون رحلتهم، لكن القليل منهم يصلون إلى المكان المقصود، وهؤلاء الذين يصلون إلى المكان الأبعد ليس لديهم مكان آخر ليذهبوا إليه. فى البداية، كان جوزيف أندروس خادمًا فى عائلة البارون السير توماس بوبى. جوزيف يحب فانى جودويل، وهى طفلة لقيطة غير متعلمة نشأت خادمة فى نفس الأسرة، تحت إرشاد راعى الأبرشية إبراهام أدمس، أصبحت شخصية الصبى والفتاة أكثر عفة وطهارة عن طبيعتهما الجيدة الأساسية. لكن سريعًا ما تحولت المسيرة المستقيمة لحبهما، حيث إن سيلبسلوب الخادمة لليدى تسببت فى طرد فانى باتهامها ظلمًا بأمور لا أخلاقية حيث طمعت سيلبسلوب فى جوزيف لنفسها وهى تغار من فانى. باختصار بعد هذا الحدث ترك كل من البارونيت وسيدته وخادمتها وخادمها بلدتهم وتحركوا جميعًا شرقًا تجاه لندن لفترة قصيرة. فجأة يتوفى السيد توماس وتلعب أرملته مع جوزيف دور زوجة بوتيفار. حينما يرفض الخادم تلميحاتها بعروض الزواج، تأمر كبير خادميها بيتر بونس أن يطرده خارج المنزل.

وفى الفصل الحادى عشر من الباب الأول يبدأ التحرك الجغرافى المعاكس لرحلة لندن الأصلية. بدلاً من البقاء فى العاصمة يبدأ جوزيف الرجوع إلى الأبرشية فى الغرب. بعد أن قطع مسافة لا بأس بها سطا عليه لصوص؛ فكان عليه أن يلجأ إلى فندق ليتعافى فيه. فى الوقت نفسه، يبدأ حدثان ثانويان، حيث بدأ القس أدمس هو أيضا رحلته إلى لندن آملاً أن يبيع بعض مجلدات من مواعظه، وفانى التى علمت بحادثة جوزيف ذهبت للبحث عنه. وقد تحولت كلتا الرحلتين، أولاً: يتقابل أدمس مع جوزيف فى الفندق وهناك يكتشف أنه نسى أن يحضر معه المجلدات التسعة لمواعظه؛ لذلك يرافق الخادم فى طريقه تجاه الغرب. ثم بعد ذلك حينما يفارق جوزيف يقابل فانى التى يخلصها من اللص المغتصب. وطبيعيًّا تتجه إلى المنزل مع القس بعد أن شرح لها ما حدث لحبيبها، ثم يتقابلون جميعًا مع جوزيف فى فندق آخر.

فى هذا الوقت، وجدت الليدى بوبى أن لندن أصبحت لا تُحتمل؛ فعقدت العزم على أن ترجع لتستقر ثانية فى منزلها فى الريف. ولكى تُجهز المنزل أرسلت السيدة سيلبسلوب ثم بيتر بونس أولاً. تلحق الخادمة بأدمس وجوزيف قبل أن ترافقهما فانى، وبقيت مع جوزيف فى المركبة بينما ضل أدمس طريقه مشيًا على الأقدام. حينما اجتمع شمل القس بفانى التى قد اجتمع شملها من جديد بجوزيف، اجتمع شمله هو أيضا بالسيدة سيلبسلوب. وسريعًا ما انفض شمل الأشخاص الأربعة حينما رفضت السيدة سيلبسلوب أن تسافر مع الفتاة. وهم فى طريقهم داخل المركبة المؤجرة تترك هى الأشخاص الثلاثة لتُكمل باقى الطريق مشيًا على الأقدام.

حينما لا يتقدم فيلدنج بارتدادات للوراء، يواصل بصفة عامة بمقاطعات متتالية. فعلى وجه العموم يقاطع مشهدًا بالمشهد الذى سبقه بدلاً من تطور أحداثه؛ فتقريبًا يرجع كل تحول فى الأحداث إلى بعض المقابلات غير المتوقعة بين الشخصيات.

المقابلات غير المتوقعة تعتبر بداية صيغة متتالية، والتى طبيعيًا أن تتوقف قبل اكتمالها فى السياق المناسب، تتبع المقابلة خطوة ثانية وهى المحادثة. وأخيرًا، يؤدى ذلك إلى خلاف، وتكون المرحلة الرابعة نقاشًا شفهيًّا حادًّا! لو كان استمرار السياق متاحًا، تكون اللوحة النهائية هى شجار بطولى ساخر ومثمر، وصاخب لكنه لا يسبب ضررًا دائمًا.

هكذا، بعد أن تقابل كل من جوزيف وسيلبسلوب مصادفةً مع فانى والقس، تجد سيلبسلوب نفسها تنشغل بمحادثة أدمس. لسوء الحظ يختار الحديث عن فانى، سيلبسلوب تُدين عنفه غير الكهنى فى مقاومة مغتصب الفتاة، وحيث إن أدمس غير نادم؛ فهى تشير قائلةً: "إن نقص الشعور بالخزى ليست صفة رجل الدين". هكذا نتحرك من المرحلة الثالثة للسياق إلى المرحلة الرابعة، وسريعًا ما نأتى إلى النهاية (سيلبسلوب تنعت أدمس بأنه وسيط بين الحبيبين، ومن ثم يمشى بخطوات واسعة

مرتين أو ثلاثًا عبر الحجرة) إلا أن هناك مقاطعة؛ حيث يأتى سائق المركبة ليخبر سيلبسلوب أنه سوف يغادر المكان.

فى الفصل التالى، يقوم أدمس بزيارة مفاجأة لرجل دين جار له. وبعد حديث أساسه سوء فهم، حيث فاجأ أدمس مُضيفه؛ حينما طلب قرضًا من المال. الشجار الذى يتبع ذلك تصل حدوده إلى أنه يُصبح حوارًا غير قانونىّ، ثم يأخذ القس الثانى وضع ملاكم. لكن ينقطع السياق مرة ثانية بإحدى سخريات فيلدنج الخالية تمامًا من التعبير: "حينما رأت زوجته أنه يمسك قبضة يده بإحكام تدخلت متوسلةً له ألا يتشاجر معه، لكن يثبت له أنه حقا مسيحيى، يتبع قانون (أدمس) ".

بعد نوبات عديدة من المغامرات التى ينجون منها بصعوبة، يلاحق بيتر بونس كلا من أدمس وجوزيف أكثر من مرة؛ حيث يُنقذهم من الكثير من المواقف المحرجة، فيُجلس أدمس فى مركبته بينما يواصل كل من فانى وجوزيف طريقهما على حصان واحد. لكن طبقًا لأسلوب فيلدنج، سريعًا ما يتشاجر القس مع مشرف الخدم وينزل أدمس من المركبة ليُكمل رحلته مع الشاب والفتاة.

بمجرد أن دخلوا أبرشيتهم، تمر بهم للمرة الأخيرة الليدى بوبى فى مركبتها. وهنا تكون بداية الفصل الرابع والأخير للقصة، حيث ينتهى التحول الجغرافى، فكل الشخصيات الرئيسية فى مكانها لأجل سلسلة من الحكايات التى تسبب لهم ورطات متفرقة.

تحاول الليدى بوبى إجبار أدمس على رفض زواج جوزيف وفانى، وحيث إن القس يرفض أن يحقق طلبها، يحاول محاميها أن يخطط لسجن الحبيبين عن طريق الشكوى القضائية. لكن تلك المحاولة أيضا تُحبط؛ حينما يصل ابن أخيها الذى تزوج منذ عهد قريب، حيث تكتشف أن زوجته هى باميلا أخت جوزيف. وسريعًا ما يحررهما السيد بوبى وتتجدد ترتيبات زواجهما، وتجد الليدى بوبى أن آلام غيرتها تتضاعف من جديد. لتحويل حقد الليدى بوبى على غريمتها يستخدم

فيلدنج صيغته وهى لقاء المتشاجرين فى تنوع يخص به فانى، حينما يقترب رجال أغراب من الفتاة، فتأثيرها أن تُثير أولاً محاولة إغراء من خلال الإقناع، ثـم بعـد ذلك تُهاجم هجومًا تامًا. إن مهمة فانى الرئيسية فى تلك الرواية هى أنها إلى حدٍّ ما تُغتصب. يعانى جوزيف من نفس الاضطهاد من سيدته، ومن سيلبسلوب، ومـن الخادمة التى كانت فى الفندق، لكنه بارع بدرجة كافية فـى إنهـاء المسألة دون اتصال جسدى. على الرغم من أن فانى بها طهارة أكثر من أنها سريعة الخـاطر، فهى تحتاج إنقاذًا مستمرًا. هذا يتضح فى رحلتها من الشرق إلـى الغـرب، فبعـد المعركة الليلية الحامية ... مع رفيقها المسافر الغادر الـذى طرحهـا أرضًـا ... يكتشف أدمس أن الفتاة التى قد أنقذها هى فانى.

وفى الفندق، خطف فانى تابعو الفارس الذى قد استضاف مجموعتها. ويبرز بيتر بونس فى مركبته؛ فهو المقاطعة المناسبة لهذا السياق من الأحداث، وتحـتفظ فانى بعذريتها. ولأجل خاطر السيدة بوبى، حكم القاضى على فانى بالسجن ولـم يدعها تفلت منه دون أن يدبر مكيدة للاستمتاع بجسدها.

تتكرر هذه الفكرة، فى نهاية القصة، فى أوج محنة الليدى بوبى. حينما يصل رجل شديد التأنق من سكان المدينة، إلى منزل سيادتها، يرى فانى وحدها ويحـاول أن يفوز بها. على الرغم من أنه يفشل يأمر خادمـه بالقيـام بمحـاولات وقحـة، وتتحول تلك الوقاحات إلى محاولة اغتصاب فى الوقت الذى يتحدث فيـه الخـادم، إلى أن يأتى جوزيف فى الوقت المناسب وينقض على هـذا الوغـد لينقـذ الفتـاة الجميلة.

ورغم ذلك، تُقرر الليدى بوبى تشجيع خطط الرجل، آملـةً أن تُفـرق بـين الحبيبين. وتساعدها الأحداث فى تحقيق رغباتها، إلى أن تجد أنها تـستقبل علـى العشاء ليس فقط ابن أخيها، وزوجته والرجل المتأنق ديداپر؛ لكنها أيـضا تـستقبل أدمس وجوزيف وفانى. وبفضل الليل العاصف اضطروا جميعًـا أن يَبيتـوا فـى المنزل الكبير. وما يلى ذلك الفصل قبل الأخير من الباب، وهو الفصل الذى تُحـل

بعده عقدة الرواية. فى هذا الفصل، كما أوضح مارك سبيلكا، يقرر فيلدنج منطقيًا الأدوار المختلفة للشخصيات، وفى نفس الوقت، يُلخص دوافعه الروائية. ففى المساء تحدث سلسلة كاملة من التحولات وخلع الأقنعة، وتتابع اللقاءات مصادفةً لأجل الشجار، وتمر فاني بآخر محاولة اغتصاب.

وفى وقت النوم، يحاول ديدابر أن يتسلل إلى فرْاش فانى، لكن، حيث إنه يخطئ فى الحجرة، يجد نفسه يثب فوق سيلبسلوب. إن هذا الخطأ الذى يحدث فى الثالثة صباحًا له قصة أقدم من سيرفانتس Cervantes، وماريفو Marivaux، حيث اقتبسها فيلدنج منهما، والتلميحات إلى قصة ريتشاردسون باميلا Pamela أعطتها مذاقًا لاذعًا، فهى تُنبئ بالكوميديا التى فى توم جونس Tom Jones فى الفصلين التاسع والعاشر. إن المشهد له صدى عبر القرون: ففى قصة جوزمان فى ألفَراشِي Guzman de Alfarache (فى الجزء الأول، الباب الثانى، فى الفصلين الثامن والتاسع) نرى أن Guzman، الجزء الثانى، الباب الثالث، الفصل الأول، حيث كان يعتقد أنها سيدة) يمسك دون كيبوت Don Quixote بصديقة نزيل الفندق؛ كان يظن أنها أميرة (الجزء الأول، الفصل السادس عشر) تُدعى فارسامون Pharsamon فى منتصف الليل، فى حجرة والدة سيدته، بينما تخطئ مارجريت خطأ فاضحًا بين ذراعى خادمه غير الراغب فى ذلك (شخصية فارسامون فى قصة ماريفو Marivaux، الجزء السادس) والسيد. B يرتدى ملابس فتاة وينام مع باميلا فى فراشها (المجلد الثانى، طبعة Everyman، الجزء الأول، ٨٧ – ١٧٨).

تحسينًا لقصة ماريفو Marivaux ، فإن فيلدنج لا يكرر فقط اللعبة مع زوجين مختلفين لكنه يربط الروايتين من خلال رباط عَرَضى وتناقض أخلاقى.

وبعد قفزة مرح تشمل سيلبسلوب وديدابر وأدمس، والليدى بوبى (كشاهد)، يصحح ضوء المصباح الخطأ الذى حدث بين الشخصيات، ويأوى الجميع مرة ثانية إلى الفراش. إلا أن أدمس يُخطئ ويتجه إلى جانب فانى. وحينما يأتى جوزيف ليحيى محبوبته فى الصباح، يتضح الخطأ وتصل القصة الساخرة إلى حل ثانى عقدة فيها.

إن اللغة التى يتحدث بها القس المُهان ليوضح من خلالها براعته لها صدى للغته فهو يقول "حيث إننى مسيحيى، فأنا لم أعلم إن كان امرأة أم رجلاً". فى قصة شاميلا Shamela ... القصة الساخرة التى كتبها ليسخر فيها من قصة باميلا Pamela ... تلك هى كلمات الأبله الذى خدعته البطلة الباغية فى محاولة اغتصابها: "بحق السماء، أنا لم أعرف إن كنتِ رجلاً أم امرأة إلا بثدييكِ المنتفخين".

بالطبع إن هذا يُشير إلى كلام البطل ريتشاردسون Richardson حينما استطاعت باميلا التغلب على هجومه: "إننى لا أعرف، أعلن أن (وراء هذا الثدى الجميل) أنوثتك". لكن ماله صلة بالموضوع أكثر من تلك الإشارات هو ارتباط كلام أدمس، فى نهاية القصة بدفاع جوزيف عن نفسه فى بداية القصة.

قالت الأرملة وهى تضع يديها بإهمال على يده: "فكر يا صغيرى، فأنت شاب جميل، وعليك أن تتصرف بأسلوب أفضل، حتى تستطيع أن تحسن حالك". قال جوزيف: "سيدتى، أؤكد لسيادتك إننى لا أعرف إن كان أى خادم فى المنزل رجلاً أو امرأة".

يتقابل جوزيف وأدمس خلال القصة خالعين قناع الغش الذى يرتديه السيد. B، وشاميلا Shamela، والليدى بوبى.

لحل مكيدة الحب، يستخدم فيلدنج الأداة القديمة، وهى إخفاء نسب الأبوين، من خلال ما هو محتمل أن يكون محاكاة تهكمية لهذا العُرف فى الأدب الذى يُعاصره. على الرغم من أن هناك كوميديا متعمدة فى المشهد الذى يتم فيه التعرف على أصل الشخصيات، وقد وجد عديد من القُراء أن تكوينها ضعيف، وقد تعجبوا من أن فيلدنج قد اختارها. وقد أطلق فرويد على هذه الفكرة عند استخدامها فى الأدب الخيالى "الفكرة الرومانسية عن العائلة"، وقد نسبها إلى عدم رضا الطفل بوالديه [أوراق مجموعة ٥، ٧٦ – ٧٥ (١٩٥٠)]. يبدو أن لهذا الدافع قيمة خاصة،

لفيلدنج، ليس فقط لأنه قد جسده بالفعل فى نهاية قصصه الساخرة السابقة مباهج المدينة (١٧٢٩) The pleasures of the town لكنها أيضا لكى تسيطر على أطول قصة له وهى توم جونز Tom Jones. وبالمثل قصته الكوميديا المعبد الجميل The Temple Beau (١٧٣٠) حيث يهاجم حق الأخ الأكبر فى استرداد ميراثه من أخيه الأصغر الغادر.

نجد فى طفولة فيلدنج – بالإضافة إلى أسس نقد أبوية – أسبابًا قوية لصياغة هذا النقد فى قصة رومانسية عن العائلة، حيث إن كثيرًا من مشاكله ترجع إلى مشاكل فى عرقه النسبى. تزوج أبوه وأمه قبل مولد هنرى بعام، من الواضح أنه كان زواجًا سريعًا، حيث إن والدى العروس رفضا إعطاء موافقتهما. على الرغم من أن الزوج إدميند فيلدنج كان ينتمى إلى عائلة أرستقراطية وابن قسيس ملكى، فإن وظيفته فى الجيش لم تكن قد أصبحت مربحة بعد. زوجته سارة جولد هى ابنة قاضٍ ناجح حاصل على لقب فارس، لديه ضيعة جميلة فى مدينة سومرسيت ... وهى المكان الذى تحدث فيه المشاهد الريفية لقصة جوزيف أندروس، وهو المكان الذى ولد فيه هنرى بالفعل. بعد مولد هنرى ولد ستة أولاد فى تسع سنوات، لكن الأصغر فقط كان ثانى ولد. وقد فضل الكولونيل فيلدنج لندن على الحياة البيتية، وقد ترك عائلته فترات طويلة مكث فى المدينة، ولعب القمار بطريقةٍ جنونية وتعرض لنصب المحتالين.

حينما كان فيلدنج فى الحادية عشرة من عمره، توفيت سارة (جولد) فيلدنج وسلم فيلدنج صغاره لأخت حماته ورجع إلى لندن. وبعد وفاة زوجته الأولى بعام تزوج ثانية (لكنها لم تكن الأخيرة) ... وهى أرملة كاثوليكية، قيل إنها إيطالية لديها "مطعم رخيص". تبعًا لما قاله الأقارب الغاضبون وجد الأطفال أن زوجة أبيهم بغيضة منذ أن رافقتهم فى ١٧١٩. وحينما أصبح عمر هنرى اثنى عشر عامًا أرهقه العناد، وسريعًا ما افترقوا جميعًا، هنرى إلى إيتون، وذهبت البنات إلى مدرسة أخرى، وذهب الابن الأصغر إلى جدته السيدة جولد.

وحينما أصبح عمر هنر أربعة عشر عامًا أقامت السيدة جولد دعوى حضانة الأطفال وإدارة الملكية. وساندت هنرى، حيث هدد الكولونيل بطرده من إيتون، وهرب الولد ليمكث مع جدته. وحينما أصبح عمره خمسة عشر عامًا كسبت الدعوى وأصبح بعد ذلك فى رعايتها. إلا أنه كان زائرًا دائمًا لمنزل أبيه فى لندن، وكان للكولونيل (الذى توفى قبل أن يباشر الولد كتابة قصة جوزيف أندروس) شأن حقيقى فى وظيفته.

وفكرة هنرى عن إيتون اتضحت فى مناقشة المدارس العامة فى الباب الثالث من قصة جوزيف أندروس (الفصل الخامس). وما قرره من أحكام على والده كان من خلال الاستخدام اللانهائى للمجتمع الريفى فى أعماله؛ لكى يُبرز عيوب مباهج المدينة. إن فيلدنج ليس كاتبًا بدائيًا بسيطًا، والقرويون فى قصصه ليسوا أبرياء ولا خيرين. ومع ذلك فهو يسأل ضمنيًا: ما المباهج العميقة بمدينة لندن مما يجعلها أفضل للإقامة بدلاً من سومرسيت؟ يبدو من المحتمل أن اضطراب علاقاته خلال مراحل بلوغه قد شجعته ليفكر فى الانتماء لعائلة خيالية. ربما يكون موت الأب كما قال هنرى فى بداية كتابة القصة قد أيقظ تلك الأفكار. وكما نرى، التشابه بين حياة والد جوزيف "الحقيقى" ووالد إيدمند فيلدنج سوف تساند تلك النظرية.

حتى إنه من الممكن أن طفولة فيلدنج ربما تفسر استخدامه غير السار لسِفَاح القُرْبَى كأداة للتشويق الكوميدى. فمن خلال خمس أخوات، وثلاث أمهات، ومجرد جزء من أب، يعرض لضغوط سِفاح القُربى من نوعٍ غير عادى وموضوعات قد تؤذى كثيرًا من القُراء دون مبرر، إلا أنها إلى حدٍّ بعيد كوميدية بالنسبة له. فبهذه الطريقة يعطى جوزيف أندروس المغامرات اللانهائية.

فى الفصل الثانى عشر من الباب الرابع يضع حديثًا فرديًا (مونولوجًا) للبائع المتجول الذى كان يرافق المسافرين فى طريقهم، فقد جاء لزيارة أدمس. ويقول البائع المتجول إن فانى لقيطة وقد خُطفت من والد جوزيف ووالدته. وقد أزيل هذا

العائق الذى عرقل الزواج فى نهاية الفصل الخامس عشر؛ حينما وصل السيد أندروس وزوجته، واكتشف جوزيف أنه ليس ابنهما. وهنا يظهر أيضا أبوه الحقيقى، وهو "السيد ويلسون" شخصية ناجحة ... حيث أبدى للمسافرين كرمًا كبيرًا أثناء رحلتهم إلى الغرب لزيارة القس. ويروى الفصل الأخير زواج جوزيف وفانى وارتباطهما بالرباط المقدس.

إن استخدام فيلدنج للبائع المتجول والسيد ويلسون يمثل بعض الاعتراضات التقليدية لتكوين قصة جوزيف أندروس. ترتبط الأولى بالطريقة التى تم بها تقديم السيد ويلسون من البداية. فقد أوى أدمس وجوزيف وفانى إلى منزل السيد ويلسون، وهنا من خلال أطول فصل فى القصة كلها (الباب الثالث - الفصل الثالث) يروى السيد ويلسون لهم قصة حياته بتفصيلٍ ممل، فهو مثل فيلدنج قضى معظم حياته فى الاستمتاع بمدينة لندن، لكنه لم يكن مثل فيلدنج، حيث إنه فى النهاية عرف عبث طريقته فى الحياة فتراجع إلى ضيعته فى الريف مع زوجته وأولاده، لكن لسوء الحظ، خطفت عصابة الغجر ابنه الأكبر. ومن الانتقادات الشائعة التى وُجهت لهذه القصة، أن بها ارتباطًا ضعيفًا بحبكة رواية فيلدنج الرئيسية، كما أنها أيضا تحتوى على سرد الكثير من التفاصيل. وتلك الانتقادات ليست صحيحة، حيث يتعلم القارئ الحصيف من "الحبكة الروائية" التى تُسرد بانقلابات، من خلال تحولات وتقطع الأحداث، واستطرادات ألا يتوقع ارتباطًا متقطعًا. وبالمثل، فإن التفاصيل الكثيرة أو الدقيقة مثلها مثل باقى الرواية. إن عيب الرواية الحقيقى هو قصة ويلسون؛ حيث إن بها تكرارًا مملاً، ونفس الأخطاء موجودة فى القصص الأخرى التى بالرواية مثل قصة لينورا (الباب الثانى - الفصل الرابع والسادس) وقصة لينورا وبول (الباب الرابع - الفصل العاشر).

وعلى الرغم من أن تلك القصص المتداخلة لا تستحق القراءة، لم يكن فيلدنج يتصرف بدون مهارة حينما قام بروايتها. وهو لم يقم فقط بسرد كثير من القصص التى هى أصلها من لغات أخرى، إلا أنه أيضا بنى كلا القصتين المملتين على

تشابه سلبى ... فلنستخدم تعبير ر.س كارن R.S.Crane ... لوظائف الشخصيات الرئيسية. تعتبر لينورا، وهى ابنة رجل غني وذى منزلة اجتماعية، من سكان المدن، وتخضع للعادات التى تُغرى أية فتاة مدينية مدلّلة، لكنها فى النهاية تُدمر نفسها برذائلها. تظهر قيمة بساطة فانى وفقرها وجهلها كدرع واقٍ من تلك الإغراءات، فتلك الأشياء تبرز بساطتها. وقصة ويلسون وضعت بأسلوب فيه تناسق فى بداية الباب الثالث لتوازى قصة لينورا التى وضعت فى بداية الباب الثانى، وتعرض حياته لسلسلة من المخاطر التى لا يصادفها جوزيف التقىُّ، الريفى البسيط فى قصة الإخوة كرامازوف The Brothers Karamazov، يوضح أليوشا Alyosha أن الأب زوسيما Zossima واجه فى شبابه نفس المخاطر، إلاّ أن هدفها ليس مقابلاً تمامًا لقصتنا.

وقد عارض كثير من القراء استخدام فيلدنج للبائع المتجول، هذه الشخصية التى تتخذ مكانها فى النهاية بصدفة فِجَّة؛ أزعجت حتى الذين استطاعوا تقبل تصميم الكاتب لطبيعة القصة التى تنقسم إلى عدة أجزاء، إلا أن شخصية البائع المتجول استُخدمت فى الحقيقة بعدة أساليب فنية. لو كان حل اللغز قصة درامية ساخرة مثل قصة أوديب Oedipus فيُمثل البائع المتجول تناسقًا بارعًا للغاية لشخصية الرسول فى مسرحية سوفوكليس Sophocles. إضافة لذلك، فالإشارات المتتابعة له مثال على مهارة فيلدنج فيما يطلق عليه جورج شيربرن "الدمج المرتب". فجزؤه الأول له مغزى متعلق بالعناية الإلهية. نفدت النقود من المسافرين الثلاثة فلم يستطيعوا تسديد فاتورة الحانة. وبعد إحباط الوسائل الأخرى عرض البائع المتجول الذى صادف أن كان هناك وسمع المحادثة، أن يُقرض القس أدمس النقود المطلوبة (الباب الثانى – الفصل الخامس عشر). وقبل رحيلهم سألوه "عن المكان الذى يمكن أن يجدوه فيه من أجل رد النقود." وفى منزل ويلسون، أثار كلام أدمس عن طيبة البائع المتجول مُضيفَه لكى يضع قطعة ذهب ضمن المؤن التى أخذها المسافرون الثلاثة أثناء رحيلهم (ظهر هذا فى الباب الثالث – الفصل

الخامس). وحينما أتى إلى بلدة أدمس رأى البائع المتجول صبيًا يغرق فى النهـر. وقد أنقذ هذا الطفل الذى يصادف أنه ابن أدمس (الباب الرابع – الفصل الثامن) ثـم يتقابل ثانيةً مع الأب. هكذا أعادنا فيلدنج لكلٍّ من ظهور البائع المتجول مرة ثانيـة ودوره الإعجازى. من المعروف جيدًا أن استخدام فيلدنج الكثيـر للـصُّدف هـى طريقته المتداولة ليُعلمنا الثقة بالعناية الإلهية. فحينما يطمئن القسُّ فانى بأن "العناية الإلهية قد أرسلته لإنقاذها"، فهو بذلك يعظ بالمبادئ الأساسية لعقيدة فيلدنج (البـاب الثانى – الفصل التاسع). وبتلك العقيدة يُرسخ فيلدنج مبادئ الـصدقة الجاريـة ... والأعمال الخيِّرة، والطيبة ... فالعقيدة المسيحية لا تطلـب إيمانًـا سـلبيًّا. وهـى لتوضيح هذا الرأى المتعلق بالدين والأخلاق، حيث يقارن أدمـس، بكونـه القـس المثالى لكنيسة إنجلترا، بباقى رجال الدين فى القصة، فأصحاب المذهب الربـانى، والمذهب الإنجيلى المادى، والمذهب المنهجى هم جميعًا ينـدرجون تحـت إدانتـه (الباب الأول – الفصل السابع عشر، والباب الثانى – الفصل الرابع عشر). وفـى الوقت نفسه، هو قادر على أن يجعل تلك المبادئ الحميدة تحـدث خـارج كنيـسة إنجلترا، ويقدم دليلاً على ذلك وهو الكاثوليكى. وقد حلّل الإشـارات النقديـة فـى أعمال فيلدنج، رالف رادر Ralph Rader (مقالة لم تُنشر، جامعة إنـديانا، ١٩٥٧، M.C.Battestin، الأساسيات الأدبية لفن فيلدنج.)

مع ذلك من الخطر أن نثق فى عرض فيلدنج للعقائد الدينية المتعصبة. وهو يُرجع للكنيسة العليا الجشع والترف، وهى حياة جحـدها مُـديرو الكنيـسة العليـا أنفسهم. فهو ينسب لمؤيدى المذهب المنهجى إصـرارًا علـى قيمـة النعمـة دون الأعمال الخيِّرة التى لم يعظ بها ويسلى Wesley ولا وايت فيلد White field. إن تكوين القصة المعقد والمثير للجدل له وظيفة أخرى أيضا، فمن خلال قراءة القصة نجد أن خيوطًا مثل طيبة البائع المتجول هى جزء من تصميم المؤلف، ونكتسب ثقةً من سيطرته للقصة، تريحنا من القلق الذى نشب من تعرض أصـدقائنا المتكـرر للخطر. لسوء الحظ، فُقدت تلك الثقة بسبب عدة أخطاء غير مقصودة مـن خـلال

تناول فيلدنج للحبكة الروائية، لكن هناك أمثلة عديدة جميلة لأشياء ظاهرة ليس لها صلة بالموضوع أصبحت وثيقة الصلة بالموضوع، أو ألغاز ظاهرة انحلت فجأة، حيث بقيت روح الفكاهة راسخة دون قلق.

ولكى يُزيد روح الفكاهة فإن فيلدنج لا يستخدم مقالات استطرادية فقط تُقدم الأبواب الثلاث الأولى من القصة، لكنه يقدم أيضا فقرات عديدة من القصة يعلق عليها بنفسه من خلال القصة، ليُذكرنا بوجوده بتلك التدخلات المباشرة، وأيضا بالعقد والحلول المركبة فى الحبكة الروائية؛ فهو يمدنا بالأمان الأبوى، فمهما اقترب الشقاء من أصدقائنا فلن نكون قلقين؛ حيث يستطيع المؤلف السيطرة عليه.

بالإضافة إلى ذلك، فإن تدخلات فيلدنج لها مغزى متعلق ببنية القصة؛ حيث أهمله بوجه عام. بالطبع إنها قد سبق أن ظهرت بكثرة فى روايات سيرفانتس Cervantes، وماريفو Marivaux وهم من نماذجه. لكن فى عديد من مسرحياته استخدم فيلدنج نموذج "الإعادة" الذى كان له التأثير نفسه. وهناك مثالان هما الباسكين The Pasquin السجل التاريخى historical Register المتوقع أن يكون خلف خشبة المسرح مشهدًا؛ حيث توجد بروفة لمسرحية جديدة. فبينما تقوم بعض الشخصيات بتمثيل مسرحية داخل مسرحية بينما يناقش باقى شخصيات المسرحية قيمتها كمسرحية درامية وارتباطها بالسياسة والأخلاق. فيمكن للشخصيات "التى تظهر فى الإطار الخارجى للمسرحية" القيام بدقة بأداء مزيج من النقد الأدبى، وفكرة عامة يُلقيها الراوى فى صورة قطع استطرادية لقصة جوزيف أندروس. وإذا انتقلنا من المسرح إلى الرواية فنجد أن فيلدنج يعطينا فرصة لمضاعفة وجهات النظر التى سوف يبدو من خلالها أن المعالجة الدرامية تتسبب فى كبت الأفكار.

إن تفحص تلك المسرحيات السابقة يمكن أيضا أن يوسع السلسلة التى تربط بطريقةٍ تقليدية عبقرية فيلدنج بمركبة ريتشاردسون. فإذا عاملنا قصة جوزيف أندروس (أو حتى شاميلا Shamela) على أنها تابعة لقصة باميلا Pamela فستكون نقطة بداية غير مستقرة للنقد الأدبى. إن فكرة تعرض الإنسان لاغتصاب

امرأة قد تحققت منذ وقت طويل فى قصة فيلدنج سياسى القهوة (١٧٣٠) The Coffee – House politician . يوجد أيضا عديد مما يشبه محاولات الاغتصاب، فمثلاً فى المشهد الذى يحاول فيه القاضى إغراء امرأة تَمثُل أمامه للمحاكمة، ومشهد آخر يخاطب فيه رجل متمدين (مثل ديدابر)، امرأة أمينة كما لو كانت عاهرة. لكى نُرسخ مكيدة الحب بين الخادمين نتناول براعة فيلدنج فى قصة أوبريت حي فقراء المؤلفين (١٧٣١) Grub-Street Opera حيث يكبح، خضوع الشاب المتهتك لعفة ابنة المستأجر المتواضعة، زواج بوبى لباميلا ومشاعر عمة بوبى لجوزيف. فى قصة رجل عجوز علم الحكمة (١٧٣٤) An Old Man Taught Wisdom ، تتزوج ابنة فارس غنى من خادم. إن مجموعة مسرحيات فيلدنج بها قساوسة (بصرف النظر عن أدمس) مثل هؤلاء الموجودين بقصة جوزيف أندروس، وتقدم إحدى المسرحيات دون كيشوت Don Quixote (النموذج الذى اتبع فى تقليد شخصية) فى ظروف وأماكن إنجليزية.

وبالطبع، لكى نحلل كل معالم القصة فى أعمال الكاتب السابقة؛ سيكون ذلك تضليلاً مثل الهواجس العادية فى قصة باميلا. التوقعات ليست معانى، وعند دراستها نجد أنه لا يوجد بديل لفحص القصة نفسها. إلا أن تلك الطريقة ربما تُبرز نقصًا آخر فى النموذج الروائى، وتوضح حقائق معينة ربما يخطئ المؤلف فى تقديرها.

إن أخطاء فيلدنج ليست فقط هى التى تُفسِد روح الفكاهة، وإنما أيضا الأحداث القليلة التى بها عنف وقسوة تتطور بحيث نفتقد روح الدعابة. وفى قصة الفارس الذى يستضيف أدمس فى منزله لغرض مخادعته، نجد أن القصة الهزلية تُحبط نية الفارس فى أن يكون قاسيًا، أما الكوميديا المتسمة بالخشونة المفرطة ليست بسبب غضب أو حادثة غير متوقعة، والتأجيل المؤلم يظل فترةً طويلة أيضا. ولأجل هذا الإفراط يمكننا أن نعذر فيلدنج حينما نتذكر نماذجه. إن رابليس Rabelais يُعرِّض البسطاء دائمًا لأقصى درجات التعذيب، وربما يكون سيرفانتس Cervants غير رحيم بـ دون كيشوت Don Quixote.

مع ذلك، فإن شخصيات ضحاياهم، تُصوَّر بطريقةٍ أحادية الجانب؛ بحيث إنهم لا يمثلون جذبًا لإيجاد الشخصية التى نجدها شخصية متطابقة، والتى تثيرها شخصية رجل مثل أدمس، إن تركيبة دون كيشوت Don Quixote أعمق من تركيبة القس، لكنه غير قابل للائتلاف مثل سلسلة من رسومات الكاريكاتير الهزلية.

ربما يكون فيلدنج قد فشل فى تقدير درجة الأسى؛ حيث كان يُظهره للعيان، لأن فى المسرحيات الهزلية أنواعًا عديدة من الأعمال المسرحية متوفرة؛ لكى تُظهر سطحية القسوة الموجودة فى إيماءات الكوميديا المتسمة بالخشونة المفرطة، من الواضح أن الضحية لم تصب بأذى وتُبدى سخطًا أكثر من البؤس، إن المهاجم بدائىٌ ومغاير لكل ما هو طبيعى ومتوقع، ويعتبر رمزًا وليس شخصًا "حقيقيًّا".

إضافةً إلى هذا، توجد فى قصة فيلدنج تحولات أخرى يمكن أن تكون عرضًا مسرحيًّا، لكن بها تلميحًا بسيطًا على أنها حكاية. إحداها ترتيب أدمس وفانى وجوزيف، حينما اجتمعوا ليمروا على الليدى بوبى (وهى فى مركبتها ذات الجياد الستة) بمجرد دخولهم الأبرشية. الرمزية لها طابع مسرحى أكثر من الطابع الروائى؛ حيث ذكر فيلدنج ذلك بكلماتٍ ملائمة ولم يتتبعه، والنتيجة تافهة. وبالطبع، على المسرح سيكون انسجام هذا الانطباع له مغزى. بالمثل، عديد من إيماءات الكوميديا المتسمة بالخشونة المفرطة سيكون لها تأثير فى المسرح أكثر صرامة من تأثيرها كقصة خيالية. أحيانًا، فى المشاهد التى مجدت المجالس العظيمة فيها تلاكم بين الشخصيات يبدو أن إحداها-تقريبًا لقراءة التعليمات المسرحية.

لكن أغلب إنجاز فيلدنج الأكثر جمالاً فى هذه القصة، هو بطل الرواية إبراهام أدمس، فهى قضية نثرية خيالية. وكعادة السالفين له، أدمس شخص متصلب، فعلى الغرباء أن يدخلوا فى خياله الأدبى الخالى من الشكل التقليدى، فهو نادرًا ما يخرج منها أو يقبل عالمهم. ولأجل التجانس، استخدم "دعابة ساخرة" من هذا النوع (حيث عارض الهجاء المرفوض للأحداث)، فعلى المؤلف أن يحقق على

الأقل عملين بطوليين، عليه أن يربط معًا بتناغم فى الشخص نفسه الفضائل السامية، والأخطاء الصغيرة التى تعامل معها بألفة على أنها متنافرة؛ وبهذا يخلق بؤرةً ممكنة لتلك الدعابة. وعليه أيضا أن يعرض شخصيات أخرى ... يكون القارئ من خلالها مستعدًّا لتعريف نفسه ... تلقائيًا وبطريقةٍ مستمرة، ويقبل ويجتاز خيال الشخص المرح الذى ليس لديه وعى لذاته. بالطبع، هذا هو المبدأ الذى تعلمه فيلدنج من سيرفانتس. فى عرض أدمس للمعرفة الواسعة دون سمو، والنزعة للخير دون تدبر، والشجاعة السامية، والعبث التافه، فالقس يُبدى مزيجًا لا يُقاوم من التعارض الأخلاقى. فأبسط الشخصيات التى تقبلته قبولاً تامًّا (جوزيف وفانى والبائع المتجول وويلسون) والشخصيات المتنافرة التى ترفضه وتخزى منه تغرى القارئ لكى يقيس نفسه بأدمس ولا يقيس نفسه وفقا للمنطق العام.

لن يكون عدلاً أن نجعل أساس قيمة القصة فى مكانة أدمس الأخلاقية، إلا أنها تكمُن فى قدرة فيلدنج على تحريك الشخصيات الأخرى داخل وخارج حياة القس، وذلك لكى تُقدم كوميديا رمزية عميقة المدى لا تبعدنا عن بطل الكوميديا. ربما يقوم فيلدنج بفعل ذلك دون أن يفكر فى أسس تناسق القصة واحتمالية صدقها، أو وجهة نظر يعتبرها النقاد أساسية لتكوين القصة، إلا أنه يُبرز قصور تلك الأسس بدلاً من عيوب قصته.

فالنقاد الكبار مثل هنرى جيمس قد ألقوا مواعظ عن المبادئ الأدبية. فمثلاً، يرتكب الروائى خطأ حينما يتحدث بشخصيته مباشرة كمؤلف، ويتجاهل حُجة أن القصة تحكى نفسها، أو يعترف "بأن الأحداث التى يرويها لم تحدث حقيقةً وأنه يمكنه تحويل القصة فى الاتجاه الذى يرى القارئ أنه أفضل". جيمس (متعمدًا استخدام الدعاية) يطلق عنان هذا الشك إلى حدٍّ بعيد، ليقول "إن خيانة مثل هذا المنصب المقدس بالنسبة لى جريمة بشعة". مع ذلك ... فإن بروست فى رائعةٍ أدبية مشهورة – والذى اتحدت معتقداته مع نفس معتقدات جيمس والمعارضين لفيلدنج – لديه فى قصصه مثل ما يلى:

فى كتابى هذا، لا توجد حقيقة واحدة ليست خيالية، ولا شخص حقيقى تستر وراء اسم زائف، فكل شيء من اختراعى؛ ليفى بمتطلبات قصتى. علىّ أن أقول مادحًا بلدى، إنه على أية حال، أقارب فرنسوا Frencoise المليونيرات أحياء حقا، ومقتنعون أن تواضعهم لن يلحق به إهانة؛ لأنهم لن يقرأوا هذا الكتاب، فهو يمنحنى بهجةً طفولية وإحساسًا عميقًا أن أسجل هنا أسماءهم الحقيقية لاريفير Lariviere (ذكرى الأشياء الماضية، المنزل العشوائى، المجلد الثانى، II، ٩٧٦).

إنها لوقاحةٌ أن ندافع عن بروست Proust أو أن نتهم جيمس James؛ فنوعية الكوميديا التى يتبعانها تعتبر دون شك كوميديا شائعة أكثر من كوميديا فليدنج، وجيمس نفسه قد لاحظ ذلك، سائلا "باختصار، إن بيت القصة الخيالية ليس لديه نافذة واحدة بل لديه مليون نافذة". (مقدمة لوجه سيده). إنه لمن الضرورى أن نعترف أن عمل الثلاثة مفهوم جيدًا، فهو مثل الحِكم وليس وثيقة زائفة. ولأن شكل ذاكرتنا للحياة مشوش؛ فهو يعجبنا كنوع من التجريد الرمزى لمسرحياتهم الدرامية المعقدة. ولكى نجعلها متناسقة ... سواء فى التبصر الأخلاقى المتناغم، أو فى وجهة النظر ... يبدو لى أن المقياس لقيمتها الأدبية يُبسِّط الأمور، مثلما نعتقد أن جويتو Giotto أكثر تقيُّدًا من إنجرس Ingres. إن المنظور الخطى والرسم الخدّاع trompe-l'oeil أساليب للرسم لكنها ليست الهدف من الرسم. الأخلاق طريقة أساسية لإظهار القوة البشرية فى التراجيديا، لكنها ليست قيمة التراجيديا. لو حولنا القيمة الأدبية لبعض طرق نمط من الروائين، سوف ندمر التبصر المطلق، والأدب وحده هو الذى يمدنا به.

تعليق على النص

نُشرت جوزيف أندروس أولاً على نحوٍ متسلسل عام ١٧٤٢، ثم في شــكل كتاب آخر العام نفسه. وكتبها فيلدنج تدريجيًّا، لكن لم يكن بها تغيرات غير منطقية كليةً في مماته عام ١٧٥٤، وكل هذه التغيرات كانت في أول طبعة جُمعت لأعماله عام ١٧٦٢.

النص الحالي قاعدته طبعة ١٧٦٢. وعند تصحيح الأخطاء وعــدم تناســق السياق الموجود بها، نجد أن طبعة ١٧٤٢ التي قُورنت بها كلمة كلمة قــد اعتُمــد عليها. وقد تم تعديل الأخطاء الهجائية وفقًا للإنجليزية المعاصــرة، وتــم تحــديث علامات الترقيم بقدر ما أتيح ذلك لتركيب فيلدنج النحوي.

* * * * *

المؤلف فى سطور

هنرى فيلدنج

ولد هنرى فيلدنج بالقرب من مدينة جلاستون بيرى Glastonbury، سومرسيت Somerset ، فى عام ١٧٠٧ وباشر تعليمه رجلُ دين، وقد ذهب فيما بعد إلى مدينة إتون Eton، حيث أثبت هناك كفاءته خاصة فى اللغات. وأول قصة كوميدية له هى الحب فى مسرحيات عديدة Love in Several Masques ، والتى قد انتجت فى مدينة دريرى لان Drury Lane فى عام ١٧٢٨، وفى نفس العام دخل جامعة ليدن Leydem، وفى أثناء الأعوام الثمانية التالية كتب عدة مسرحيات ناجحة، ومن بينها توم ثومب Tom Thumb (١٧٣١ – ١٧٣٠) وهى قصة ساخرة. وقد انتهت وظيفته كاتبًا مسرحيا فى عام ١٧٣٧ بقانون حرية العمل الذى قيد عديدًا من المسارح، وفى نفس العام دخل المعهد المتوسط Middle Temple لدراسة القانون. وبدأ فى كتابة الروايات، وأصدر قصة جوزيف أندروس عام ١٧٤٢. وفى عام ١٧٤٨ عُين قاضى مصالحة فى منطقة ميدلكس Middlesex، ومنطقة وستمنستر Westminister. وهدف قصة توم تونس Tom Tones (١٧٤٩) بتنوع شخصياتها، أن تدحض المؤلفات العاطفية لفيلدنج. وقصته التالية أميليا Amelia (١٧٥١) تناولت مادة كانت دائمًا تلفت انتباه قاضٍ مثله. وبسبب ظروفه الصحية السيئة؛ استقال من منصبه فى السنة التالية، وسافر بحرًا إلى ليسبون Lisbon عام ١٧٥٤ باحثًا عن جو أكثر ملاءمة، وقد وُصف عدم ارتياحه فى هذه الرحلة بالتفصيل فى عملٍ نشر بعد وفاته، وهو مذكرات رحلة ليسبون Journal of a Voyage To Lisbon (١٧٥٥)، وقد توفى بعد شهرين من وصوله إلى هناك، ودُفن فى مدافن الإنجليز عام ١٨٣٠ حيث أُنشئ نصب تذكارى لأجله.

المترجمة فى سطور

إيناس إبراهيم

تخرجت فى قسم اللغة الإنجليزية وآدابها والترجمة الفورية، كلية الدراسات الإنسانية جامعة الأزهر عام ٢٠٠٠.

تدربت فى جريدة الأهرام على التحرير الصحفى والترجمة قبل التخرج بعام.

اشتغلت محررة ومترجمة فى إحدى المجلات التى لها موقع على الإنترنت. تترجم فى مكاتب الترجمة، وتدربت فى إحدى الشركات السياحية على كيفية العمل فى أوجه الأنشطة السياحية.

المراجعة فى سطور

سلوى حامد محمود مبروك

تخرجت فى قسم اللغة الانجليزية وآدابها والترجمة الفورية كلية الدراسات الإنسانية جامعة الأزهر، وعينت معيدة بالقسم عام ١٩٨٩ ، وحصلت على الدكتوراه عام ١٩٩٩. حيث عينت مدرسة.

لها عدد من الأبحاث المنشورة "أشعار نعومى شيهاب نـاى: تخطى الحدود ٢٠٠٣ والبحث عن الهوية : الكتابة عبر الحدود فى أشعار بعض الشعراء الأمريكيين العرب المعاصرين ٢٠٠٣. والمزج بين الحضارات فى مختارات من أشعار دريك والكوت ٢٠٠٥ وتآكل اللغة فى مجموعة أشعار جورى جرهام ٢٠٠٦".

الإشراف اللغوى : محمد عيسوى

الإشـــراف الفنـــى: حســـن كامل

تعتبر قصة جوزيف أندروس (أوديسة) وملحمة طاهرة بين الباحثين عن منزلة رفيعة، وهى قصة صاخبة عن خادم وسيم إلى حد كبير لكنه مبتلى بالفقر، وهو تحت رحمة عالم من اللصوص، وأرملة من النبلاء، وصاحب الفندق الفظ فى معاملته وكان القس أدمس هو المرافق لجوزيف. وتظهر شجارات من خلال متاهات ساخرة؛ حيث يختلط عليه الأمر حينما يخطئ فى معرفة الهُوية، لكن فى النهاية يُحل هذا الخطأ.

وتعتبر هذه القصة الحجر الأساسى لشكل القصة الخيالية، ومرآة تعكس ملامح القرن الثامن عشر، وملامح الحياة الريفية، وهى أيضًا مبالغة عن التكلف الأخلاقى والتفاهات.

لوحة الغلاف للفنان/ كلود مونيه